مؤسسة تاريخ دمشق
Damascus History Foundation

تاريخ دمشق

مجلة نصف سنوية - تخصصية محكمة
تصدر عن مؤسسة تاريخ دمشق

Dimashq, a biannual peer-reviewed journal
for studies on the history of Damascus

العدد 4 - نيسان - 2023

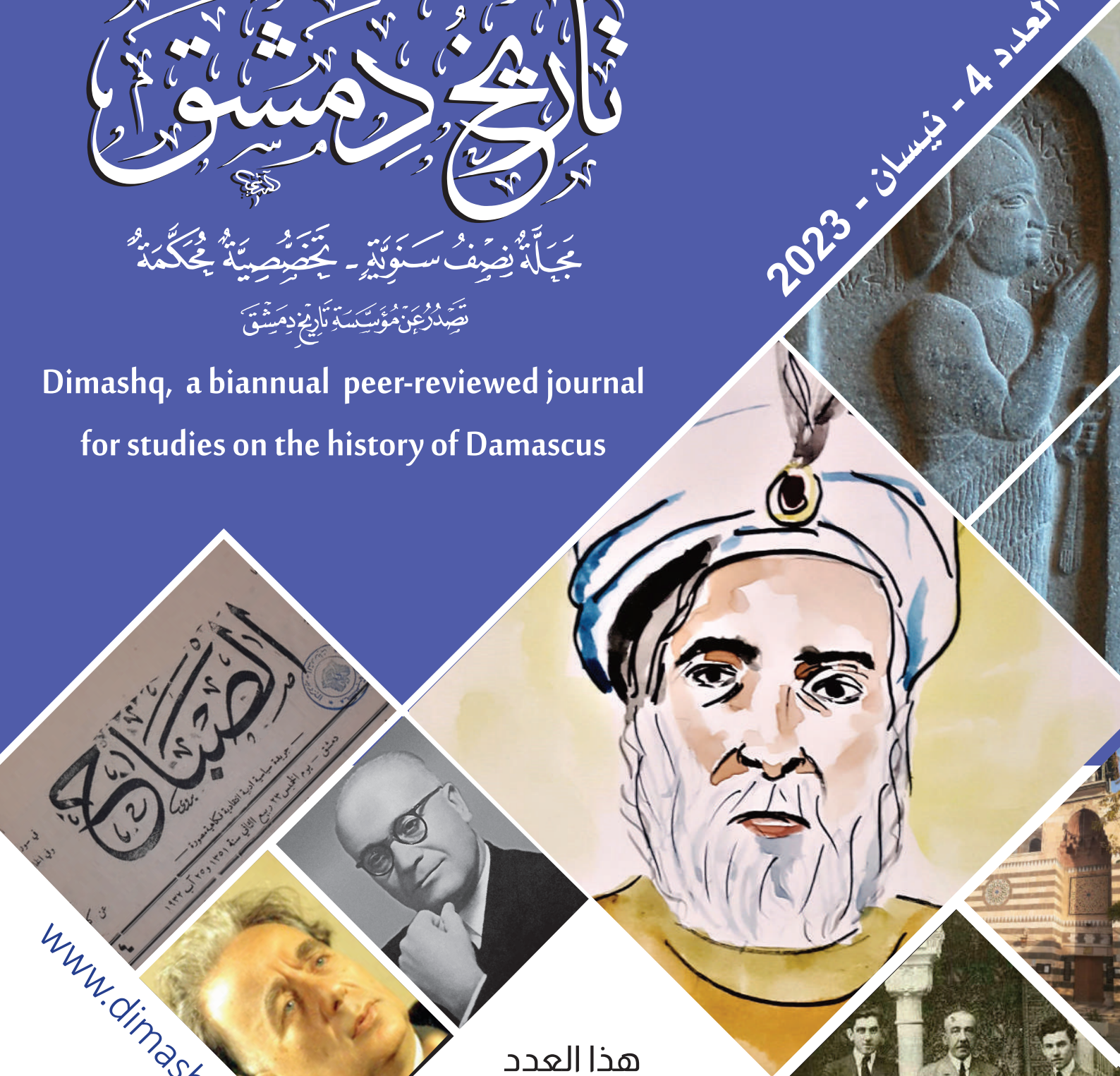

www.dimashq.cc

هذا العدد
برعاية
بنك
البشرق ش.م.س.

أغراض المجلة وأهدافها

- العناية بتاريخ مدينة دمشق الذي يمتد على أكثر من عشرة آلاف عام، والتَّأريخ له.
- استدراك التقصير في الدراسات المعاصرة، وتوجيه الأنظار إلى الأحداث المهمة.
- استقصاء وجه مدينة دمشق تاريخيّاً واجتماعيّاً واقتصاديّاً وسياسيّاً وعمرانيّاً وعلميّاً وفنيّاً ووثائقيّاً.
- إبراز صورة دمشق في كلِّ العصور التّاريخيّة: القديمة والعربيّة الإسلاميّة والحديثة والمعاصرة.
- تفسير الأحداث التاريخية واستقصاؤها، وبيان آثارها، على أسس علميّة منهجيّة.
- توجيه الباحثين المعاصرين إلى الموضوعات التاريخية التي تستحقّ الدراسة، وتعزيز الانضباط العلمي والمنهجي والأصالة والجدِّيّة في كتابة البحوث، ومناقشة الظواهر التاريخية.
- إيجاد مصدر علمي ثقافي يتَّصف بالمصداقيّة، ويكون مُتاحاً أمام المهتمين بحضارة دمشق وتاريخها.
- الإفادة من خبرات الباحثين والمختصين وأساتذة الجامعات في تعميق الثقافة التاريخية، وإظهار جوانبها، وتطوير المعارف التاريخية ومناهج دراستها.
- إتاحة المجال أمام طلاّب الدِّراسات العليّا في الماجستير والدكتوراه للمشاركة بأبحاثهم ودراساتهم في المجلة.
- التعاون مع هيئات علميّة داخليّة وخارجيّة تتَّصف بالأكاديميّة والموثوقيّة والمصداقيّة.

إدارة التحرير:

• **الإشراف العام:**

د. سامي مروان مبيض

• **المدير ورئيس التَّحرير:**

أ.د. عمار محمد النهار

• **أمين التحرير:**

د. محمود الحسن

• **إدارة الموقع الالكتروني:**

مشروع سراج لخدمات الويب

• **هيئة التَّحرير والإشراف والاستشارة:**

د. أحمد إيبش

أ. إياد خالد الطباع

أ.د. مأمون عبد الكريم

أ.د. محمد رضوان الداية

د. نزار أباظة

• **الإخراج الفني:**

أ. لارا عبد الكريم توما

• **الموقع الالكتروني: www.dimashq.cc**

- تُرسل البحوث والمراسلات باسم رئيس التحرير عبر البُرُد الإلكترونية:

publishing@dimashq.cc
dimashq@damascus-foundation.org
ammaralnahar@gmail.com

- يمكن متابعة تفاصيل قواعد التوثيق على موقع مجلة تاريخ دمشق أو موقع مؤسسة تاريخ دمشق:

www.dimashq.cc
www.damascus-foundation.org

لا تعبّر آراء الكُتَّاب بالضرورة عن اتجاهات تتبناها «مؤسسة تاريخ دمشق»

هذا العدد برعاية

بنك الشرق ش.م.س.

مؤسسة تاريخ دمشق

Damascus History Foundation

مؤسسة تاريخ دمشق هي مؤسسة وطنية غير حكومية وغير ربحية، تُعنى بتاريخ مدينة دمشق، من خلال إطلاق مشاريع وبرامج بغاية الحفاظ على وثائق مدينة دمشق وجمعها وتصنيفها، إضافة إلى البحث عن حقيقة تراث المدينة وتاريخها وأنماط العيش فيها وإعادة تصويب ما شابها من أخطاء، وحفظها من الضياع والاندثار.

أشهرت المؤسسة بقرار وزيرة الشؤون الاجتماعية والعمل رقم ١٠٤١ تاريخ ١٨ نيسان ٢٠١٧.

أهداف المؤسسة

توثيق تاريخ مدينة دمشق وما يتعلق بها عبر العصور من خلال جمع صور وقصص وأوراق ووثائق تتعلق بتاريخ المدينة.

إقامة المعارض والمتاحف والفعاليات التوثيقية التي تعنى بتاريخ مدينة دمشق، وذلك من خلال مختلف الوسائل المتاحة سوآءا كانت مادية أو الكترونية.

إطلاق برامج وجوائز سنوية تشجيعية للمؤرخين الشباب والأكاديميين، للبحث في تاريخ مدينة دمشق.

إقامة البرامج التدريبية في مجال التوثيق والأرشفة والبحث العلمي والتاريخي.

إقامة الندوات والمحاضرات والفعاليات والأنشطة المختلفة التي تعنى بتاريخ مدينة دمشق عبر العصور.

إطلاق بوابة إلكترونية تعنى بتاريخ مدينة دمشق بلغات عديدة إضافة للعربية، يتم من خلالها نشر أبحاث ومقالات تاريخية عن مدينة دمشق، ونشر صور و مواد سمعية وبصرية وأفلام وثائقية تعنى بتاريخ مدينة دمشق.

إبرام الاتفاقيات ومذكرات التعاون مع مؤسسات سورية محلية أخرى والتعاون معها ومع المؤسسات الأكاديمية المحلية المرموقة، بما يعزز تبادل الخبرات مع هذه المؤسسات وبما يسهم في استمرار تطوير عمل المؤسسة.

بناء مكتبة متكاملة تشكل أرشيفا لتاريخ مدينة دمشق تضم نسخا من كل ما نشر عن تاريخ المدينة من كتب ومجلات ودوريات وصحف ووثائق قديمة وعملات وطوابع قديمة، لتوضع في خدمة الباحثين والمجتمع.

التواصل مع المؤسسات التي تعمل في نفس المجال في الدول العربية والعالم، وابرام الاتفاقيات و مذكرات التعاون لتبادل الخبرات بما يسهم في استمرار تطور عمل المؤسسة وخبراتها البحثية.

مؤازرة المؤسسات الرسمية المعنية والمبادرات الهادفة إلى توثيق تاريخ سورية عموما أو مبادرات مماثلة لمؤسسة تاريخ دمشق تخص مدن سورية أخرى

The Damascus History Foundation is a non-governmental non-profit Syrian organization dedicated to the history of Damascus. The DHF carries out a broad spectrum of programmes aimed at collecting, classifying and preserving historical documents pertaining to the city of Damascus. In addition, DHF seeks to design and implement inclusive research projects on the history of Damascus with the aim of preserving the city's heritage and its authentic way of life.

The DHF was founded per decision #1041 of the Syrian Minister of Social Affairs and Labor on 17 April 2017.

Damascus History Foundations aims to...

Document the history of Damascus through the collection of relevant photographs, manuscripts, private papers and official documents.

Launch exhibitions, galleries and documentary initiatives on the history of Damascus through using any available sources.

Design and launch promotional programmes and awards for young historians and academics interested in working on the history of Damascus.

Design and implement training programmes in the fields of documentation, archiving and historical research methods.

Organise seminars, lectures and other activities centred on the different aspects of the history of Damascus.

Launch an electronic platform dedicated to the history of Damascus in order to facilitate the publication of photographs, audio-visual material, academic articles and other relevant material on the history of Damascus.

Cooperate with other local Syrian organisations and academic institutions, in order to exchange knowledge and experience, to the benefit of all parties.

Build an inclusive library dedicated to the history of Damascus, with the aim of collecting all published works on the topic, in addition to magazines, periodicals, news papers, official documents and stamps. DHF will make these material available to researchers and students, and to the general public.

Cooperate with organisation working on similar topics across the world in order to share knowledge and experience.

Support relevant government insinuations and initiatives aimed at documenting the history of Syria and Damascus.

الفهرس

حزائيل الدِّمشقي ملك آرام (843 - 803 ق.م)

أ.د جباغ قابلو

10

دمشق في كتابات المؤرِّخين: ديودور الصقلي وفلافيوس أريانوس وكوينتوس روفوس

د. عبدو أحمد، د. ضحى الأحمد

36

فريد الزَّمان ابن الشَّاطر الدِّمشقي (ت 777هـ = 1375م) (الجزء الأول)

أ.د عمار محمد النهار

56

حيّ الميدان الدمشقيّ

محمد راعي البلها

88

Content

دِمَشْقِيَّاتُ شَوْقي وشامِيَّاتهُ (القسم الثاني)

أ.د محمد رضوان الداية

112

الصَّدى الوجداني في شعر أنور العطَّار (1913- 1972)

الدكتورة ناجية سليمان إبراهيم سليمان

154

المُعَلَّقاتُ الشَّامِيَّةُ السَّبْعُ سَعيد عَقل - فَيروز - الرَّحابنة

الدكتور شَوقي المَعرِّي

174

دمشق منارةٌ علميَّةٌ تتألَّقُ في رحابِ مكتبةِ الأسدِ الوطنيَّة (الجزء الأول)

إياد فايز مرشد

206

الزِّلزال والزَّلازل التي ضربت مدينة دمشق عبر التَّاريخ

أ.د غزوان سلوم

238

الاستهلال

ها نحن ذا وصلنا إلى العدد الرَّابع من مجلَّة تاريخ دمشق المحكَّمة، ونضعه بين أيديكم، هادفين تحقيق الفائدة، والوصول إلى مزيد من الأبحاث الَّتي تُوثِّق تاريخ مدينة دمشق بمختلف اتِّجاهاته.

وممَّا يُثلِج الفؤاد، ويُرضي الضَّمير، وصول اقتراحات كثيرة إلى المجلَّة، تدلُّ على متابعة واهتمام وغَيرة من القرَّاء والباحثين، وهي اقتراحات كانت محلَّ تقديرنا، ودرسناها بكلِّ مسؤوليَّة واهتمام، ولعلِّي ألخِّص هنا أهمها:

_ إصدار عدد خاصٍّ عن أبواب مدينة دمشق التَّاريخيِّة وسورها.

_ دراسة أعلام دمشقيِّين، كان لهم الأثر المهم في مختلف مجالات التَّميُّز والإبداع في العصور المختلفة، بما فيها العصر الحديث والمعاصر.

_ دراسة المؤلَّفات البارزة التي تخصَّصت بالتَّأريخ لمدينة دمشق، والوقوف على تفاصيلها ومناهجها ومؤلِّفيها.

_ التَّوجُّه نحو دراسة أوابد عمرانيَّة دمشقيَّة، ضمن أبحاث توثيقيَّة منهجيَّة، وخاصَّة تلك التي نالها الإهمال وتكاد تندثر.

_ العمل على دراسة العديد من مقابر هذه المدينة وشواهدها، خاصَّة التي لم تُدرس، والتي تعود إلى عصور دمشقية غابرة، وفيها من الأسماء ما هو جدير بالدراسة والتَّوقُّف عنده، لا سيَّما أنَّ عدداً منها لم تصله يد البحث أو الدِّراسة الميدانيَّة، مثل مقبرة الشَّيخ خالد النَّقشبندي في حيِّ ركن الدِّين بالصَّالحيَّة.

وغير ذلك من الاقتراحات المهمَّة والغنيَّة بالرُّوح العلميَّة، التي تجعلنا نفتح المجال أمام الباحثين لاختيار مثل هذه المواضيع والكتابة فيها، بل سننتهج أن نذهب نحن إلى الباحثين المتخصِّصين، ونستكتبهم في مثل هذه المواضيع.

ودمشق تستحقُّ منَّا جميعاً ألَّا نبخل بأيِّ جهد في سبيل كتابة تاريخها وتوثيقه، فهي مدينة الحبِّ والجمال، فها هم الرَّحَّالة الغربيُّون يتغنَّون بأهل دمشق وصفاتهم البديعة وذكائهم، ومنهم الكاتب الفرنسي فرمانيل، الذي زار دمشق مطلع القرن الحادي عشر الهجري = السَّابع عشر الميلادي، والرَّحَّالة ريتشارد بوكوك الذي أتاها مطلع القرن الثَّاني عشر الهجري = الثَّامن عشر الميلادي، والرَّحَّالة براون الذي قدمها أواخر القرن الثَّاني عشر الهجري = الثَّامن عشر الميلادي، والبارون لودوفيس دوفو الذي زار دمشق أواخر القرن الثَّالث عشر الهجري = التَّاسع عشر الميلادي، والقس الإنكليزي أ. سومر في القرن نفسه.

ولا أجمل من وصف الشَّاعر الفرنسي الشَّهير لاماراتين Alphonse de Lamartine. (ت ١٢٨٦هـ = ١٨٦٩م) لدمشق، الَّتي زارها ووصف رحلته إليها، وممَّا قاله: «بلغتُ دمشق فإذا بي أرى منظرًا مدهشًا لا حدود له، مدينة محاطة بحصونها الرُّخاميَّة ما بين أخضر وأسود، وعلى جانبيها أبراج مربَّعة لا يُحصى عددها، وقد اعتلى مفرقها تاج من شرفات قصورها، وغابة مختلفة الأشكال من مآذنها، وهي مخطَّطة بخطوط برَّاقة من سبعة أنهارها، وشبكة ألماسيَّة من جداول مياهها، منبسطة أمامي على مدِّ البصر، في سهل فسيح البساتين ورياحين الزَّهر، وقد بسطت ذراعيها العظيمتين من هُنا وهُنا، ولاقتها الغوطة من كلِّ جانب على مسافة عشرة فراسخ، وهكذا تجلَّت أمامي صحراء من الجنائن والقصور، وجداول المياه بحيث تتلاشى أشعة النَّظر من جنبات هذا المنظر، فلا تقع على ما هو أجمل منه ...».(انظر نزهة الأنام في محاسن الشَّام لأبي التُّقى البدري، طبعة دار ابن كثير، ص٦٦، ٦٧).

فكلُّنا أمل أن ينال هذا العددُ القبولَ، بما فيه من أبحاث تناولت مختلف عصور دمشق، وننتظر وبكل رحابة صدر أيَّ ملاحظات نُؤمِن أنَّها ستُغني مسيرةَ هذا المجلة.

المدير ورئيس التَّحرير

حزائيل الدِّمشقي ملك آرام (٨٤٣ – ٨٠٣ ق.م)

أ.د جباغ قابلو[1]

(1) أستاذ التاريخ واللغات القديمة في قسم التاريخ في جامعة دمشق سابقًا، زميل منحة غيردا هينكل في ألمانيا حاليًا.

ملخَّص البحث

الغاية من هذا البحث تسليط الضوء على شخصية أدت دوراً محورياً في تاريخ سورية في النصف الثاني من القرن التاسع قبل الميلاد، ورغم التعرض له ولأعماله بشكل موسع في الدراسات الغربية، التي تتعلق بتاريخ سورية في هذه الفترة، فإنه ومع الأسف، لم يُذكر إلا بشكل عرضي في الدراسات العربية والسورية خاصة، وذلك في أثناء الحديث عن مملكة آرام دمشق.

وسنركز في هذا البحث على شخصية حزائيل، ودوره في تاريخ سورية، منذ توليه عرش دمشق نحو العام ٨٤٣ ق.م وحتى وفاته قرابة العام ٨٠٣ ق.م، وذلك بتسليط الضوء على علاقاته مع القوى التي كانت تؤدي دوراً في التاريخ السوري في ذلك العصر، سواء أكانت من القوى الكبرى كالآشوريين، أو القوى المحلية، وهي مجموعة الدويلات التي كانت منتشرة في المنطقة السورية الفلسطينية منذ مطلع الألف الأول ق.م.

_ تمهيد:

من المعلوم أن المنطقة السورية، خلال تاريخها الطويل، كانت تحكمها مجموعة من دويلات المدن التي يتسع نطاق سيطرتها في بعض الأحيان ليشمل مناطق واسعة من سورية، أو يضيق نطاق السيطرة هذه ليشمل المدينة التي تقوم عليها هذه الدويلة، وما يُحيط بها من مناطق ريفية.

فمن أشهر الدويلات في الألف الثالث ق.م إبلا (تل مرديخ حالياً في محافظة إدلب)، التي شكلت ما يمكن أن نسميه إمبراطورية تجارية أكثر منها قوة عسكرية.

ولدينا من الألف الثاني ق.م يمحاض، ومركزها حلب، التي سيطرت على مناطق واسعة من الشمال السوري، مع ميناء آلالاخ (تل العطشانة) على شاطئ البحر المتوسط، وكانت قوة اقتصادية وعسكرية في آن واحد، إلى جانبها لدينا ماري (تل الحريري) في منطقة الفرات الأوسط، التي سيطرت على التجارة عبر هذا النهر بين بلاد الرافدين وساحل البحر المتوسط.

ولدينا أيضًا قطنة (تل المشرفة في حمص)، التي شكَّلت محطة تجارية هامة على الطريق الواصل بين مناطق الفرات الأوسط وساحل البحر المتوسط، وبين الطريق الممتد من الشمال السوري إلى جنوبه.

ولدينا أوجاريت (رأس شمرة) على ساحل البحر المتوسط، التي مثَّلت مركزًا تجاريًا هامًّا لنقل بضائع سورية وبلاد الرافدين إلى مصر وعالم بحر إيجة وبالعكس. وفي فلسطين لدينا مثلاً حاصور (تل القدح بالقرب من صفد)، ومجدو (تل المتسلم في سهل مرج ابن عامر شمالي فلسطين).

وإذا ما انتقلنا إلى الألف الأول ق.م نلاحظ سيطرة الدويلات الآرامية على مناطق واسعة من سورية الداخلية (بيت عديني، بيت آجوشي، حماة، دمشق، وغيرها)، مع ازدهار لمدن شاطئ البحر المتوسط (أرواد، جبيل، صور، صيدا، وغزة وغيرها)، إضافة إلى الدويلات التي أسَّستها شعوب البحر في فلسطين (غزة وعقرون وعسقلان وأسدود وجت)، إلى جانب مملكتي إسرائيل،

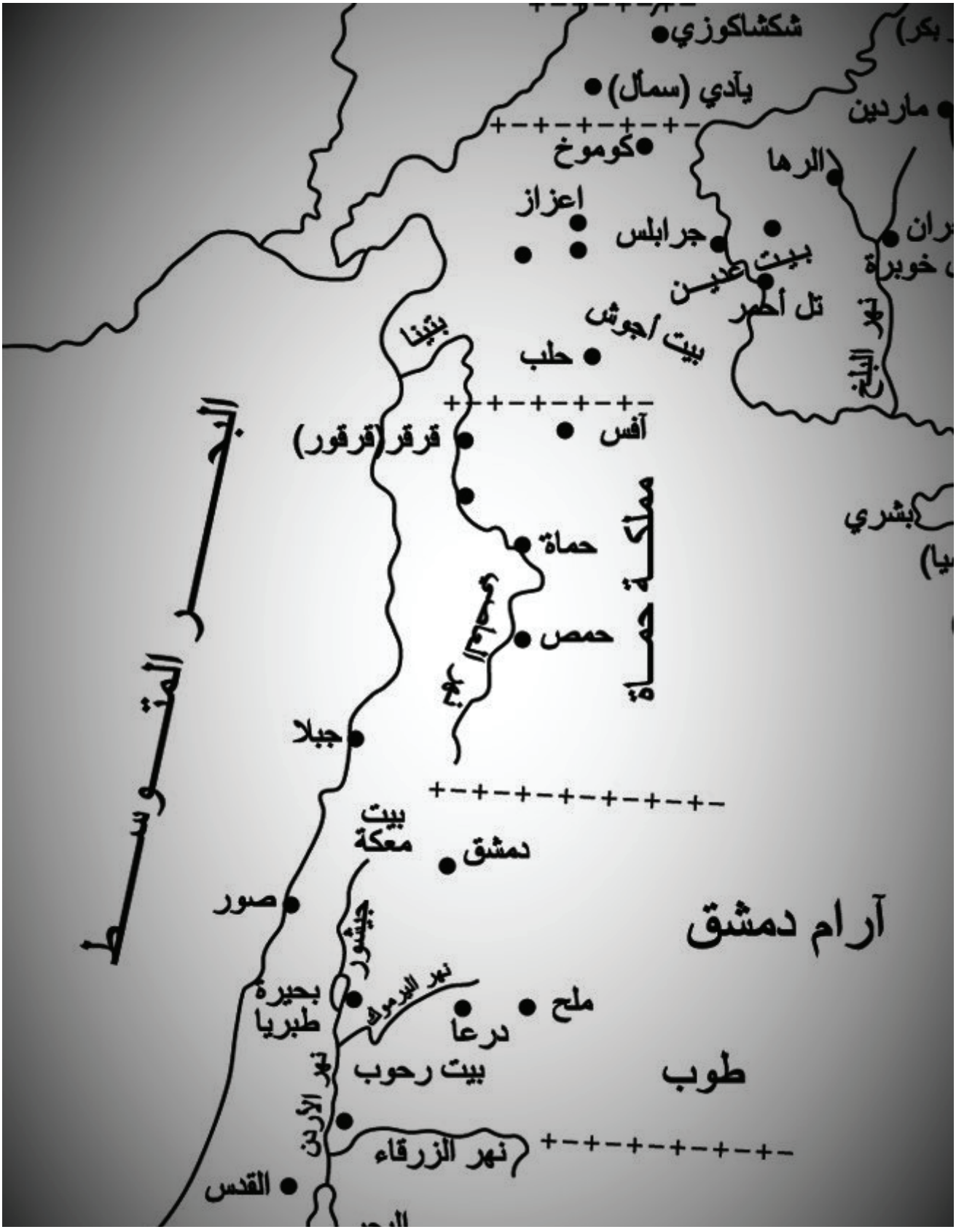

خارطة آرام دمشق

التي ترد في النصوص الآشورية تحت مسمى بيت عمري، نسبة إلى عمري مؤسس السلالة الحاكمة ويهوذا.

هذه بعض أهم الدول التي ظهرت في المنطقة السورية الفلسطينية ما بين الألف الثالث والألف الأول ق.م، وقد ارتبطت هذه الدويلات فيما بينها بعلاقات تختلف حسب الظروف ما بين علاقات سلمية إلى علاقات عدائية تصل إلى حد شن الحروب بعضها على بعض. وبنفس الوقت فإن هذه الدويلات كانت ترتبط بعلاقات مع القوى الكبرى المحيطة بسورية، التي كان لها دور فاعل في الأحداث التي تجري على أراضيها، مع محاولتها إخضاع الدويلات السورية لسيطرتها وجعلها تابعة لها[٢].

أولاً _ صعود آرام دمشق:

قبل الحديث عن صعود آرام دمشق، لا بد من الإشارة إلى أن منطقة المشرق العربي القديم شهدت قرب نهاية الألف الثاني ومطلع الألف الأول ق.م تغيرات على الصعيد السياسي العسكري. وقد ارتبطت هذه التغيرات بعوامل عديدة، يفسرها الدارسون تفسيرات مختلفة.

ويكمن جوهر هذه التغيُّرات بانكفاء أو زوال القوى الدولية الكبرى التي كانت تتنافس فيما بينها لفرض سيطرتها على سورية، أو على أن تكون حصة نفوذها وسيطرتها هي الأكبر فيها، وتمثلت هذه القوى في النصف الثاني من الألف الثاني ق.م بالإمبراطورية المصرية، التي كانت تفرض سيطرتها وهيمنتها على القسم الجنوبي من سورية (فلسطين وشرقي الأردن وجزء من ساحل البحر المتوسط)، والإمبراطورية الحثية وعاصمتها حاتوشا (بوغاز كوي الحالية ١٧٠ كم شرق أنقرة)، التي كانت تفرض سيطرتها على شمالي سورية ووسطها.

ومن المعلوم أن هذه الإمبراطورية انهارت نحو العام ١١٩٠ ق.م نتيجة هجوم ما يُعرف باسم «شعوب البحر»، الذين دمروا إلى جانب الإمبراطورية الحثية عدداً من المراكز الحضرية المهمة على شاطئ البحر المتوسط الشرقي، ولعل أوجاريت كانت من أهم هذه المراكز الحضارية التي تعرَّضت للتدمير.

ولم تكتف هذه الشعوب بذلك بل هاجمت مصر عن طريقين أحدهما بري وهو عبر فلسطين، والآخر كان هجومًا بحريًا استهدف الشواطئ المصرية المطلة على البحر المتوسط، ومن الطبيعي أن تنشغل مصر بتحصين حدودها والدفاع عن نفسها في وجه هذه الهجمات، وخاصة في عهد ملكها رعمسيس الثالث (١١٩٨ – ١١٦٥ ق.م).

وأما عن الأسباب التي كانت وراء هذه الهجمات ونتائجها الكارثية على المنطقة، فالدراسات الحديثة تُعيد ذلك إلى أسباب مناخية تمثَّلت في حدوث جفاف كبير ضرب منطقة البلقان وحوض بحر إيجة، فانطلقت هذه الشعوب وركَّزت هجماتها على المناطق المجاورة، كما وصلت آثار هذا الجفاف إلى الأناضول وسورية ومصر، حيث أُصيبت بالضعف نتيجة الانهيار الاقتصادي الذي حدث في أعقاب هذا الجفاف، ولم تتمكن القوى الموجودة هنا من التصدي لهجوم تلك الشعوب،

(2) حول الوضع السياسي في سورية بين الألفين الثالث والثاني ق.م يمكن مراجعة كتاب: تاريخ سورية السياسي 3000 – 300 ق.م: هورست كلينغل.

فكانت النتيجةُ التدميرَ النهائيَّ لبعضها، وانشغال البعض الآخر بالتصدي لها كما أشرنا أعلاه[٣].

وتجدر الإشارة هنا، إلى أن الدولة الآشورية الوسطى، وخاصة في أيام حكم ملكها تيغلات بلاصر الأول (١١١٥ – ١٠٧٤ ق.م)، تدخَّلت في الشأن السوري بشكل فعال، وقام هذا الملك، كما يذكر في أكثرٍ من كتابة له، بعبور نهر الفرت ثمانيًا وعشرين مرة مستهدفًا مناطق واسعة من سورية وصولاً إلى البحر المتوسط غربًا، ولكن هذه الدولة عانت أيضًا مشاكل كثيرة بعد وفاة ملكها هذا، وانكفأت ضمن حدودها التاريخية، وغابت عن المسرح السوري لمدة تزيد على القرن.

إذن شهدت الساحة السورية نهاية الألف الثاني ومطلع الألف الأول ق.م فراغًا سياسيًّا كبيرًا، لم يملأه إلا القبائل الآرامية التي تمكنت من الاستقرار في مناطق واسعة من سورية، وخاصة الداخلية منها، وأسَّست مجموعة من دويلات المدن أو الإمارات زاد عددها على العشرين ما بين صغيرة وكبيرة، ولعل أهم هذه الدويلات التي عاشت واستمرت أكثر من غيرها، وكان لها دور مهمٌ في الحياة السياسية في سورية في مطلع الألف الأول ق.م، كانت بيت آجوشي، وعاصمتها أرفاد (تل رفعت في منطقة حلب)، وحماة، ودمشق[٤].

وإن كنا نفتقر إلى المعلومات حول المدة التي تم فيها تأسيس الإمارة الآرامية في دمشق، إلا أننا نستطيع القول، بالاستناد إلى بعض روايات العهد القديم، التي يشوبها الاضطراب وعدم الدقة، أن ذلك كان في حدود القرن الحادي عشر ق.م. وفي المقابل نجد في المصادر الآشورية أن دمشق في النصف الأول من القرن التاسع ق.م كانت قد تحولت إلى قوة كبرى في المنطقة السورية – الفلسطينية، وأنها كانت متزعمة لمجموعة الدول التي كانت في هذه المنطقة، وتتجلى هذه الزعامة في تصدُّرها لقائمة المتحالفين الذين تصدَّوا لتوغُّل الملك الآشوري شلمناصر الثالث (٨٥٩ – ٨٢٤ ق.م) في سورية، وخاضوا ضدَّه معركة قرقر الشهيرة في عام حكمه السادس (٨٥٤ ق.م).

وحسب كل الكتابات التي وضعها شلمناصر الثالث تخليدًا لهذه المعركة، فإن اسم دمشق وملكها برهدد كان يأتي في مقدمة أسماء الحكام السوريين الذين شاركوا في هذه المعركة وتمكنوا من وقف تقدم قوات الملك الآشوري. وإضافة إلى ذلك، فإن دمشق، وحسب كتابات هذا الملك، أسهمت بأكبر عدد من الجنود المشاة والفرسان من جانب قوات التحالف، مما يُفسِّر سبب تزعُّمها لهذا الحلف[٥].

ثانيًا _ دراسة مصادر فترة حكم حزائيل ملك آرام دمشق (نحو ٨٤٣ – ٨٠٣ ق.م):

حزائيل اسم آرامي يتألف من الفعل (ح ز ا) بمعنى: نظر، رأى، والاسم (إل) بمعنى: إله، وبالتالي يُصبح معنى الاسم «الذي نظر إليه الإله إيل»، أو يمكن أن يكون «هو الذي رأى الإله إيل»، وكلا التركيبين شائع في الأسماء السامية بلغاتها ولهجاتها المختلفة.

(3) حول غزوات شعوب البحر أسبابها ونتائجها، انظر: غزوات شعوب البحر: نزار مصطفى كحيلة.
(4) حول الانتشار الآرامي في سورية انظر: تاريخ الوطن العربي القديم: جباغ قابلو.
(5) حول ظهور آرام دمشق وأهم ملوكها وعلاقتها مع القوى المحيطة بها، انظر بحثنا: دمشق الآرامية، التشكل والاسم والمعنى والتاريخ: جباغ قابلو، مجلة تاريخ دمشق، العدد الأول، 2021، ص11 – 41.

وعند دراسة فترة حكم حزائيل ملك آرام دمشق، وأحد أهم ملوك المنطقة السورية الرافدية في النصف الثاني من القرن التاسع ق.م، لا بد من التعريف أولاً بالمصادر التي نعتمد عليها في هذه الدراسة.

وفي الحقيقة، ورغم أهمية شخصية حزائيل والدور المحوري الذي أداه في تاريخ سورية في النصف الثاني من القرن التاسع ق.م، إلا أن المصادر عنه قليلة، ويجب على الباحث استنباط كل ما يستطيعه منها من معلومات دون المبالغة أو تأويل النصوص فوق ما تحتمل. وأما هذه المصادر فتتوزع ما بين المصادر الآشورية، والعهد القديم وخاصة سفر الملوك الثاني، وبعض النصوص الآرامية التي عُثر عليها منقوشة على بعض مواد مختلفة (عاج وبرونز) في مناطق مختلفة، بالإضافة إلى نقش تل القاضي الآرامي، الذي نسبه الباحثون إلى حزائيل ملك آرام.

ونعرض الآن لهذه المصادر، ونبين أهميتها كلاً على حده:

فالمصادر الآشورية تأتي على رأس هذه المصادر من حيث المصداقية، وتعود النصوص الآشورية التي تأتي على ذكر حزائيل إلى عهد الملك الآشوري شلمناصر الثالث (٨٥٩ – ٨٢٤ ق.م). ومن المعلوم أن هذا الملك الآشوري قام بالعديد من الحملات العسكرية غرب الفرات، كانت الغاية منها فرض السيطرة الآشورية على المنطقة السورية وصولاً إلى البحر المتوسط. وقد واجه شلمناصر الثالث في مسعاه هذا مقاومةً عنيفة من الإمارات والممالك السورية المختلفة، وكانت آرام دمشق تتزعم دائمًا هذه المقاومة.

وقد ذكر شلمناصر الثالث في كتاباته المختلفة التي تتحدث عن حملاته هذه ملكين من ملوك دمشق، كان أولهما حدد عزر، ملك آرام دمشق في النصف الأول من القرن التاسع ق.م، وكان على رأس الإمارات والممالك السورية التي واجهت شلمناصر الثالث في معركة قرقر الشهيرة إلى الشمال من حماة في العام ٨٥٣ ق.م. وأما الملك الثاني الذي ذكره شلمناصر الثالث فكان حزائيل، الذي استمر في مقاومة الآشوريين وتعطيل خططهم في سورية. وكما أشرنا أعلاه فإن للمصادر الآشورية، رغم ما تحويه أحيانًا من مبالغات في الأرقام، مصداقية كبيرة، فهي تعكس نشاطات وأعمال الجيوش الآشورية في المناطق التي تقصدها، ونستطيع من خلالها الحصول على معلومات متنوعة (اقتصادية وعسكرية)[٦].

وأما العهد القديم، فرغم التحفظات الكثيرة التي تحيط برواياته، فهذه الروايات كما نعلم دُوِّنت بالاستناد إلى روايات شفوية بعد وقوع الأحداث التي تصفها بنحو أربعة – خمسة قرون على الأقل، أي بعد ١٢ –١٥ جيلاً دون كتابة، وإضافة إلى ذلك فإن هذه الروايات خضعت لتغييرات كثيرة نتيجة عوامل إيدولوجية كثيرة، وأهمها الصراع الذي نشب بين القبائل العبرية التي دخلت فلسطين واحتلت أجزاء منها من ناحية والقوى الفلسطينية المحلية وتلك المحيطة بفلسطين وخاصة آرام دمشق من ناحية أخرى. ومع ذلك فإننا لا نجد ما يمنع من الاستعانة بهذه الروايات بعد تمحيصها، وخاصة أثناء كتابة تاريخ حزائيل، فهذه الروايات تقدم صورة واضحة وجلية عن مدى قوة هذا الملك الآرامي وتمكنه من إخضاع الكيانين السياسيين اللذين

(6) حول المصادر الآشورية المتعلقة بشلمناصر الثالث وآرام دمشق عامة وحزائيل خاصة انظر:
Assyrian rulers of the Early First Millennium BC II) 858 – 745): A. Kirk Grayson، 1991

أسَّستهما القبائل العبرية في فلسطين (إسرائيل ويهوذا).

وأما المصادر الآرامية التي تأتي على ذكر حزائيل أو تنسب إليه فهي بضعة نقوش، وُجدت في أماكن مختلفة (أرسلان طاش حداتو القديمة، نمرود كلخو القديمة، جزيرة ساموس اليونان)، بالإضافة إلى النقش الذي كُشف عنه في العام ١٩٩٣ في موقع تل القاضي على سفوح جبل الشيخ (حرمون) في فلسطين المحتلة، ونُسب في البداية إلى الملك الآرامي الدمشقي برهدد (الأول)، ولكن الدراسات الحديثة أرجعته إلى ملكنا حزائيل، ونظرًا لأهمية هذا النقش فسوف نتوقف هنا لنلقي نظرة عليه وعلى الإشكاليات التي يطرحها.

يقع تل القاضي الذي عُثر على هذا النقش فيه على المنحدر الجنوبي لجبل الشيخ، في منطقة تربط جبال الجولان السوري ومزارع شبعا اللبنانية وسهل الحولة الفلسطيني، وعُثر أثناء عمليات التنقيب التي كانت تجري في الموقع من قبل بعثة تابعة لدولة الاحتلال الإسرائيلي على ثلاث كسر تُمثِّل أجزاء من مسلة مصنوعة من الحجر البازلتي، الكسرة الأكبر عُثر عليها في موسم التنقيب ١٩٩٣، في حين عُثر على الكسرتين الأصغر في الموسم التالي[٧].

ويعتقد بعض الباحثين أنَّ هذه الكسرات الثلاث لا تنتمي إلى نقش واحد، وإنما هما نقشان مختلفان، فالأحرف في الكسرتين الأكبر لا يُشبه بعضها بعضًا مما يدل حسب رأي هؤلاء على أنهما يمثلان نقشين مختلفين، يعودان إلى فترتين زمنيتين مختلفتين، في حين يرى البعض الآخر خلاف ذلك، حيث يرون في الكسر الثلاث أجزاء من مسلة واحدة نُقش عليها النص الآرامي[٨].

ومن الأمور التي أثارت النقاش في أوساط

قطعة عاجية عثر عليها في قصر حزائيل

(7) بيت داود حقيقة أم خيال: زيدان كفافي، مجلة أدوماتو، العدد 25، صفر 1433ه – يناير 2012. ص.96.
(8) بيت داود حقيقة أم خيال: زيدان كفافي، ص 96.

الباحثين في هذا النقش أنه وبحسب أنصار المدرسة التوراتية فإن هذا النقش يَذكر لأول مرة ومن خارج العهد القديم اسم «بيت داود»، ولكن هذا الاسم، في حال كانت القراءة صحيحة، يحمل تفسيراً آخر وهو أن الكلمتين هنا متصلتين، وبالتالي لا تدلان على اسم علم مثلما يرد في النقوش، مثلاً «بيت آجوشي أو بيت بخياني»، وإنما على الغالب المقصود هنا اسم مكان مثلما نقول بيت لحم (بيت الطعام أو بيت الخبز)، ورغم جدية هذا الطرح فإنه تم تجاهله لأسباب لا تخفى على أحد[٩].

وكما أشرنا أعلاه فإن النص اختُلف في البداية في نسبته إلى أي من ملوك دمشق بين برحدد الأول (النصف الأول من القرن التاسع ق.م)، أو برحدد بن حزائيل (نهاية القرن التاسع والربع الأول من القرن الثامن ق.م). ولكن الرأي الغالب الآن أن هذا النص يتحدث عن انتصار الملك حزائيل على دولتين هما إسرائيل ويهوذا.

تعطينا هذه النقوش على قلتها ومحتواها الفقير فكرة عن أعمال حزائيل العسكرية والمناطق التي كانت خاضعة لسيطرته وهي بلا شك تعد مصدراً أساسيًّا في دراسة شخصية حزائيل. وسنعود إلى محتوى هذه النقوش في مكانها أثناء هذه الدراسة.

ثالثًا _ تولِّي حزائيل عرشَ دمشق الآرامي:

يرتبط تولِّي حزائيل العرش في دمشق بمشاكل عدة، أولها تاريخ صعوده على العرش، وثانيها علاقته بالملك السابق له، بمعنى آخر هل هو وريث شرعي أم مغتصب للعرش الآرامي الدمشقي، وثالثها الطريقة التي تولى فيها العرش.

إن مصادرنا عن تولي حزائيل العرش في دمشق نستقيها من مصدرين أساسيين، هما العهد القديم وتحديداً سفر الملوك الثاني، الذي يذكر رواية مطولة عن هذا الموضوع، والمصدر الثاني هو نصوص شلمناصر الثالث الملك الآشوري، التي تشير بصورة عرضية إلى مسألة تغيُّر السلطة الحاكمة في دمشق، فمن يحكم في دمشق لا يهمُّها كثيراً، بقدر ما يهمُّها سياسة هذا الحاكم تجاه الآشوريين وسياستهم في سورية. ومن خلال هذين المصدرين سنحاول الإجابة عن التساؤلات المتعلقة بتولي حزائيل السلطة في دمشق.

فعن بداية حكمه، لا نستطيع الجزم بتاريخ محدد لهذه البداية، ولكننا نستطيع وضعها في فترة تلي العام ٨٤٥ ق.م، وقبل العام ٨٤١ ق.م، وذلك بالاستناد إلى تواريخ حملات شلمناصر الثالث إلى سورية، ففي حملة العام ٨٤٥ ق.م كان الملك برحدد الثاني هو الذي واجه تقدم قوات شلمناصر الثالث غربي الفرات، وكان معه في هذه المواجهة بعض قوى الحلف السوري الذي واجه نفس الملك الآشوري في معركة قرقر شمالي حماة الحالية نحو العام ٨٥٥ ق.م. وأما حملة العام ٨٤١ ق.م فكانت المرة الأولى التي يواجه فيها شلمناصر الثالث مملكة آرام دمشق وملكها الجديد حزائيل، وبذلك تكون بداية فترة حكم حزائيل بين هذين التاريخين، والأرجح أنها كانت نحو العام ٨٤٣ ق.م.

(9) بيت داود حقيقة أم خيال: زيدان كفافي، ص97.

بردية من القرن الخامس قبل الميلاد مكتوبة باللغة الآرامية تحكي قصة المستشار الحكيم (أحيقار)، المتحف المصري في برلين

والمسألة الثانية التي تطرحها مسألة تولي حزائيل السلطة في دمشق هي مدى شرعية توليه السلطة، وترتبط هذه المسألة بمسألة أخرى، هي طبيعة علاقته بالملك السابق.

وفي الحقيقة فإن مصدرنا الأساسي عن هذه المسألة هو العهد القديم، الذي بنى معظم الباحثين رأيَهم فيما يتعلق بهاتين المسألتين على روايته. وترد مسألة تولي حزائيل السلطة في دمشق في موضعين من هذا الكتاب: سفر الملوك الأول ١٩ : ١٥ – ١٧، وسفر الملوك الثاني ٨: ٧ – ١٥.

ففي سفر الملوك الأول نقرأ أن الرب أمر النبي إيليا بالذهاب إلى دمشق، وأن يمسح حزائيل ملكًا عليها، «فقال له الرب: ارجع في طريقك إلى دمشق، فإذا وصلت امسح حزائيل ملكا عليها ...». وهنا كما نلاحظ لا توجد أي إشارة إلى الطريقة التي وصلت فيها السلطة إلى حزائيل، ومصير الملك السابق له، ويبدو أن كاتب هذا النص يريد أن يجعل من أنبياء بني إسرائيل مانحين للسلطة، والملك ليس على بني إسرائيل وحدهم، وإنما حتى على الملوك الآخرين، بحيث يبدو وكأن آراميي دمشق كانوا خاضعين لأنبياء بني إسرائيل، وفي هذا بعد كبير عن الحقيقة.

وأما الرواية التي ترد في سفر الملوك الثاني عن تولي حزائيل السلطة في دمشق فتحمل في طياتها تفاصيل مختلفة عما يرد في سفر الملوك الأول، وسياق رواية سفر الملوك الثاني تتصل بزيارة إليشع إلى دمشق، وكان ملكها بنهدد (كما يُذكر اسمه هنا) مريضًا، وكان الملك قد سمع عن معجزات يقوم بها إليشع فيما يتعلق بشفاء المرضى وإحياء الأموات، فطلب من حزائيل الإسراع إليه وسؤاله عن إمكانية شفائه.

نقرأ في سفر الملوك الثاني ٨: ٧ – ١٥ : فقال الملك لحزائيل: « ... خذ هدية واذهب لاستقبال رجل الله، قل أن يسأل الرب هل أُشفى من مرضي هذا . فذهب حزائيل لاستقباله، ومعه أربعون جملاً تحمل أجود ما في دمشق، فجاء ووقف أمامه وقال: ابنك بنهدد، ملك آرام، أرسلني كي أسألك إن كان سيُشفى من مرضه. فأجابه إليشع: الرب أراني أنه يموت، ولكن اذهب وقل له أنه سيُشفى. وثبَّت رجل الله نظرَه وحدَّق إلى حزائيل حتى ارتبك، ثم بكى. فسأله حزائيل: لماذا تبكي يا سيدي؟ فأجاب: لأني علمت بما ستفعله ببني إسرائيل من الشر. فأنت ستحرق حصونهم بالنار، وتقتل فتيانهم بالسيف، وتسحق أطفالهم، وتشقُّ الحوامل من نسائهم. فقال حزائيل: ما أنا سوى رجل مطيع يا سيدي، فكيف أفعل هذا الأمر العظيم؟ فقال إليشع: الرب أراني إياك ملكًا على آرام. فانصرف حزائيل من عند إليشع ودخل على سيده الذي سأله: ماذا قال لك إليشع؟ فأجابه: قال لي إنك تُشفى. لكنه في اليوم التالي أخذ غطاءً وغمسه بالماء، وضغط به على وجه سيده فاختنق، وملك هو مكانه».

وكما قلنا فقد بنى المؤرخون المعاصرون على هذه الرواية أموراً تتعلق بتولي حزائيل السلطة في دمشق، لعل أهمها أنه كان موظفًا مقربًا من بنهدد (برهدد الثاني) ملك آرام دمشق، دون أي إشارة إلى قرابة تجمعه معه، وأنه مغتصب للسلطة قتل سيده مستغلاً مرضه ليتولى السلطة مكانه. وما نلاحظه هنا وكما لاحظنا أيضًا في سفر الملوك الأول، وإن كان هنا بطريقة مختلفة نسبيًّا، حيث لا يجد هنا أمرًا إلهيًّا لإليشع ليمسح حزائيل ملكًا على آرام، وإنما مجرد رؤية من الرب بأنه هو من سيكون الملك. ولكن كلتا الروايتين تحاولان التأكيد على دور لأنبياء بني إسرائيل في موضوع من يتولى العرش الآرامي الدمشقي، دون أن يكون لهذه الرواية أي سند تاريخي حقيقي. والأمر اللافت في هذه الرواية هو الكيفية التي توصَّل فيها كاتب العهد القديم أن حزائيل قد قتل سيده «بنهدد» عن طريق خنقه بوسادة مبللة بالماء؟ وكما يقول يونغر راولسون وبشيء من السخرية من هذه الرواية: «باستثناء تشريح الجثة الذي تم إجراؤه بمهارة من قبل فريق الطب الشرعي الآرامي، فإن اغتيالاً مثل الموصوف في الملوك الثاني الإصحاح الثامن سيكون غير قابل للكشف. لا يمكن سوى للشائعات أن تربط حزائيل بمثل هذا القتل عن طريق الخنق، لذا مهما كانت المكائد الطموحة التي ينسبها المرء إلى حزائيل، سيكون هناك مجال للشك، خاصة إذا كان من المعروف أن حدد عزر (بنهدد في العهد القديم) كان مريضًا[١٠]».

وإذا ما انتقلنا إلى الروايات الآشورية حول تبدُّل السلطة في دمشق، فإننا نلاحظ أن النصوص الآشورية التي تتحدَّث عن حملات شلمناصر الثالث غربي الفرات، التي تولت دمشق قيادة القوات التي قاومت هذا التقدم، لا تُعير مسألة تبدل السلطة في دمشق أهمية تُذكر، ويبدو أن هذا لم يكن أمرًا مهمًّا بالنسبة لها، فهي تهتمُّ بسياسة من يتولى السلطة في دمشق وموقفه من الآشوريين أكثر من اهتمامها بشخصه.

ولذلك نلاحظ أنه في كتابة واحدة من الكتابات المتعلقة بحملة العام الثامن عشر من حكم شلمناصر الثالث (٨٤١ ق.م) تذكر موضوع تبدُّل السلطة في دمشق: «حدد عزر انتهى إلى الأبد، حزائيل ابن لا أحد امتلك عرشه». وهذه النص أيضًا من النصوص التي يبني الباحثون

(10) A Political History of the Aramaeans: K. Lawson Yonger Jr. P 605.

رأيهم عليها في موضوع عدم شرعية حكم حزائيل. فالنصوص الآشورية عادة عندما تستخدم مصطلح «ابن لا أحد» فهذا يعني أن الحاكم المعنيَّ ليس ابن الحاكم السابق، أو لا ينتمي إلى الأسرة الحاكمة على الأقل، وأنه مغتصب للعرش. ولكن في المقابل فإن هذا النص لا يشير إلى مقتل برحدد ملك دمشق فهو يقتصر على القول بأنه «انتهى إلى الأبد» على خلاف النص التوراتي الذي يذكر صراحة أن حزائيل قد قتله خنقًا.

وبغض النظر عن مسألة هل قتل حزائيل سلفَه أم لا، فإن البعض من الباحثين يُشكِّكون في شرعيته في الوصول إلى السلطة ويجادلون في ذلك، بأن حزائيل لم يُشر إلى ذلك صراحة، أي أنه ابن الملك السابق، في نقش النصر الذي نصبه في تل القاضي مثلما فعل ذلك مثلاً بركب ملك شمأل عندما قال «وأنا بركب بن فنموا بفضل إخلاصٍ أبي وإخلاصي أجلسني سيدي ركب إيل وسيدي تجلت فليسر على عرش أبي»[11]، ولكنه عوضًا عن ذلك نراه يفعل كما فعل زكور في نقشه الذي عُثر عليه في أفس، عندما نسب توليه العرشٍ إلى إرادة الإله بعل شمين، وفيه: « ... فأنقذني بعل شمين، وقام معي، وجعلني بعل شمين ملكًا علىٍ حزرك»[12]. وحزائيل في هذا النقش يدين بتوليه السلطة إلى الإله حدد «لكن هدد جعلني ملكًا»[13].

ولكن من الباحثين، ومنهم الفرنسية «ديون»، وانطلاقًا من نقش تل القاضي الآرامي، تجزم بأن حزائيل ليس فقط حاكمًا شرعيًّا، وإنما هو ابن لملك دمشق السابق برحدد الثاني، ففي السطر الثالث من النقش يرد ـ حسب قراءتها له ـ أنَّه في الفترة بين وفاة الأب (برهدد) واعتلاء الابن (حزائيل) يذكر النص «اختراقًا غامضًا لإسرائيل في (بيت أبي)»[14].

ونختتم هذا الجانب من موضوعنا بالقول بأننا لا نستطيع الجزم بصحة رواية سفر الملوك الثاني حول الكيفية التي تولى فيها حزائيل السلطة في دمشق، وربما كانت الغاية من هذه الرواية الطعن بشرعيته بسبب الهزائم التي ألحقها ببيت عُمري (إسرائيل) ويهوذا، وانتزاع مساحات كبيرة من الأراضي منهما وضمها إلى دمشق، وهذا الأمر سنُشير إليه فيما بعد، ونعتقد أن مسألة قيام حزائيل بقتل الملك السابق برهدد الثاني (بنهدد في سفر الملوك الثاني) مسألة لا نستطيع الأخذ بها أو القبول بها، وتبقى أمامنا المسألة الأخرى، وهي مسألة انتماء حزائيل إلى الأسرة الحاكمة من عدمه.

فنصوص العهد القديم لا تؤكد ولا تنفي صلة حزائيل بسلفه برهدد الثاني، ففي حين يكتفي سفر الملوك الأول بذكر أن الرب طلب من إيليا التوجُّه إلى دمشق ومسح حزائيل ملكًا عليها دون ذكر أي توضيح للوضع الذي كان عليه في دمشق، فإن سفر الملوك الثاني يذكر، كما أشرنا أعلاه، مرض ملك دمشق برحدد الثاني، وأن إليشع تنبأ لحزائيل بأنه سيكون ملكًا على آرام، وأنه سيضطهد بني إسرائيل، ومن ثم يتحدث عن قتل حزائيل لسلفه وتوليه السلطة، وهنا النص لا يشير إلى صلة نسب تربط بين حزائيل وسلفه، ويكتفي بذكر أنه «خادمه»، ولا نستطيع من خلال استخدام هذا المصطلح نفي أن تكون هناك صلة نسب أو قرابة بين حزائيل وبرحدد الثاني.

(11) اللغة الآرامية القديمة: فاروق اسماعيل، ص 307
(12) اللغة الآرامية القديمة: فاروق اسماعيل، ص 211.
(13) A Political History of the Aramaeans; K. Lawson Yonger Jr. P 604.
(14) Les Arameens A L` Age du Fer: Dion. P 193.

وأما النص الآشوري، وهو من المصادر المهمة كما قلنا لكل ما يتعلق بتاريخ دمشق الآرامي، فهو لا يشير إلا بصورة عرضية إلى تبدُّل السلطة في دمشق. وهناك نص وحيد من بين كل النصوص الآشورية المتعلقة بالعلاقة بين حزائيل والآشوريين يصفه بأنه «ابن لا أحد». ومع أن هذا المصطلح يُفسر بأن من تولى العرش لم يكن صاحب الحق بتولي السلطة، إلا أنه لا يُشير إلى أنه لا ينتمي إلى الأسرة الحاكمة أو لا تربطه قرابة بسلفه. ومن جهة أخرى فإن هذا المصطلح يُشير في «النصوص الآشورية والبابلية إلى شخص ينتمي والده إلى الفرع الرئيسي للعائلة المالكة، وهو يُعبر عن حكم قِيمي ذي دلالات سلبية أي مغتصب»[١٥].

ومن خلال ما أوردناه أعلاه نرى أن حزائيل لم يكن بعيدًا عن الأسرة المالكة في دمشق، وأنه بحكم قربه من ملكها السابق برهدد، فلا بد من أن يكون موضوع ثقته وعلى صلة قرابة ونسب به، ولما توفي برهدد، وكان مريضًا، حسب نص سفر الملوك الثاني، فإنه تولى زمام الأمور في دمشق مكانه. ومع أننا لم نحظ بمعلومات كافية عن وجود وريث شرعي لبرهدد من عدمه، فإننا لا نستطيع إلا التسليم بأن تولي حزائيل للسلطة في دمشق كان بطريقة شرعية حتى وإن لم يكن هو الوريث الشرعي لبرحدد الثاني.

ثالثًا _ علاقات حزائيل الخارجية:

في ظل عدم توفر معلومات، ولو بالحد الأدنى، عن أعمال حزائيل على الصعيد الداخلي، فإننا سنتوقف هنا عند أعماله على الصعيد الخارجي، التي تتعلق بعلاقته بالقوى المحيطة القريبة منه (الدول التي كانت موجودة في المنطقة الفلسطينية تحديدًا)، أو القوى البعيدة (الدولة الآشورية). ولما كنتُ قد عالجت جوانب من هذا الموضوع في مقالي المنشور في العدد الأول من هذه المجلة (مجلة تاريخ دمشق المحكمة)، فإنني سأركز هنا على جوانب لم نتوقف عندها في مقالنا السابق، وخاصة فيما يتعلق بأسباب ودوافع الحملات العسكرية للملك حزائيل.

إن المعلومات الأساسية حول نشاطات حزائيل العسكرية في مناطق شرقي الأردن وفلسطين نستقيها من بعض روايات العهد القديم ومن تفسير نتائج أعمال التنقيب الأثري التي جرت في مواقع مختلفة من هذه المناطق، وأما عن علاقته مع الآشوريين فهي مستقاة من النصوص الآشورية المتعلقة بحملات شلمناصر الثالث غرب الفرات. وسنحاول أن نتابع أعمال حزائيل حسب التسلسل الزمني لهذه الأعمال.

إن الحرب الأولى التي خاضها حزائيل كانت مع بيت عُمري، وقد مرت هذه الحرب بمراحل متعددة تختلف في تاريخها وطبيعتها، وهي تشكل بمجملها المسار الذي اتخذته عملية التوسع الإقليمي لدمشق في عهد حزائيل:

المرحلة الأولى: تمثلت بالصراعات المبكرة في جلعاد (منطقة عجلون) مع إسرائيل خلال الأيام الأخيرة لسلالة بيت عُمري.

المرحلة الثانية: ضم المناطق الشمالية من فلسطين بعد تراجع اهتمام الآشوريين بالمنطقة

(15) A Political History of the Aramaeans; K. Lawson Yonger Jr. P 598.

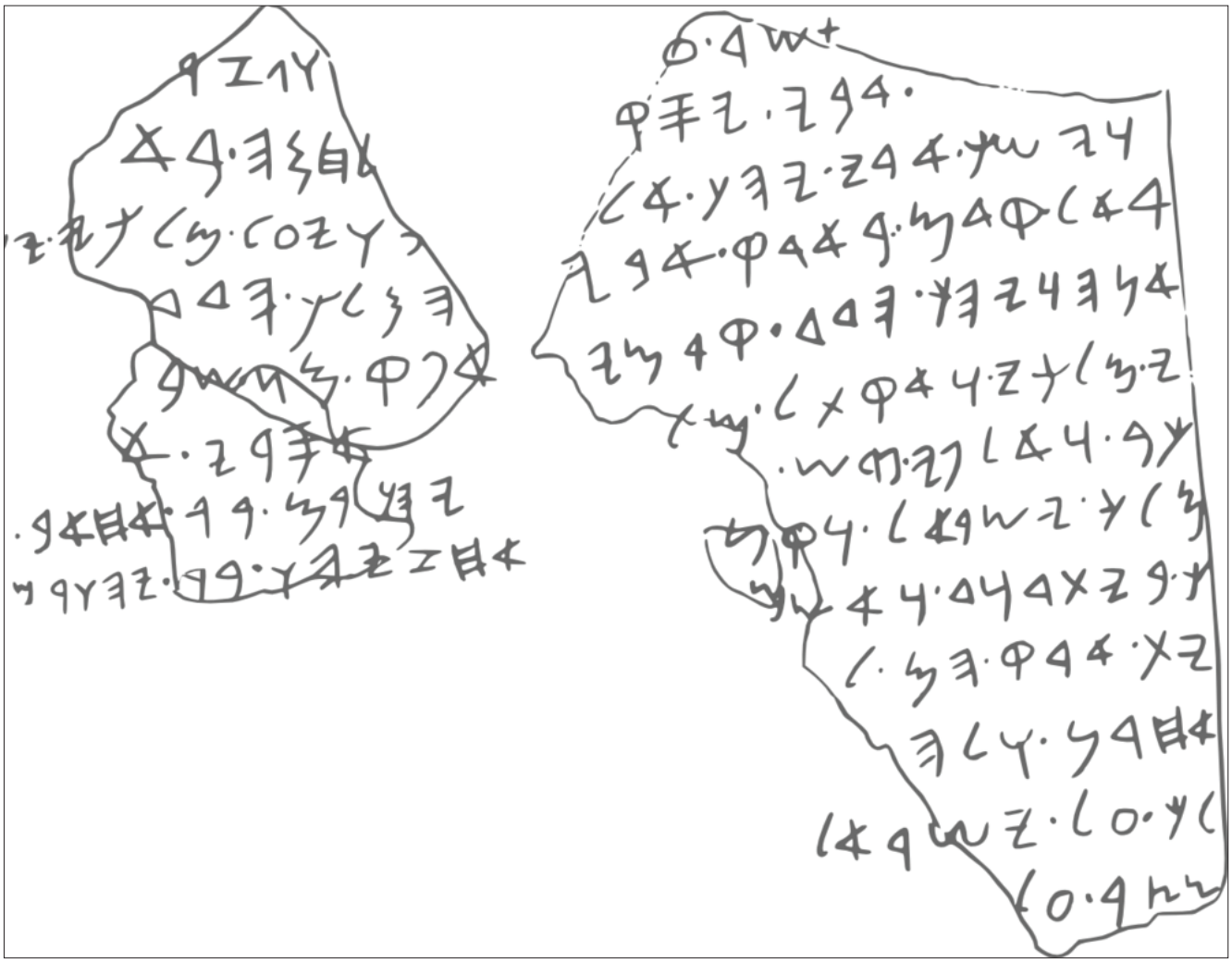

كتابات نقش تل القاضي

بعد حملة العام ٨٣٨ ق.م.

المرحلة الثالثة: حملة أو حملات بعيدة إلى مناطق وسط وجنوبي فلسطين تمت قرب نهاية القرن التاسع ق.م أو أواخر أيام حزائيل[١٦]. وسنعود إلى هذه المراحل بشيء من التفصيل فيما يلي.

بداية نقول إنه ومن خلال نقش تل القاضي يتبيَّن لنا أنه في الفترة بين وفاة برهدد الثاني وتسلم حزائيل السلطة استغلت السلطة الحاكمة في بيت عُمري الوضع لاقتطاع مساحات من الأراضي التي كانت خاضعة لآرام دمشق، ولكن مع صعود حزائيل إلى السلطة بادر إلى مهاجمة بيت عمري، ولم يكتف حزائيل باستعادة الأراضي التي كانت آرام دمشق قد خسرتها سابقًا نتيجة الأوضاع التي كانت تمر بها، وإنما وسَّع من نطاق المناطق التي كانت خاضعة لسيطرته المباشرة، وتلك الخاضعة لمنطقة نفوذه غير المباشرة. نقرأ في نقش تل القاضي: « ... واضطجع

(16) The Damascene Subjugation of the Southern Levant as a Gradual Process (ca. 842 – 800 BCE). In: Search for Aram and Israel. Politics، Culture، and Identity. Edited by Manfred Oeming ...، Tübingen 2016. P 58- 59.

أبي (مات). ذهب إلى آبائه. لكن حدد جعلني ملكًا. ومشى حدد قبلي (أمامي)، ورحلت مع سبعة ملوك، وقتلت اثنين من الملوك الأقوياء الذين أوقفوا آلاف المركبات والفلاسان. وقتلت يورام بن [آخاب] ملك إسرائيل. وقتلت أنا آخازياهو بن يورام»[١٧].

إذن الحرب الأولى لحزائيل كانت ضد بيت عُمري ويهوذا. وهنا يُطرح السؤال عن سبب هذه الحرب، مع أن آرام دمشق في عهد ملكها برهدد الثاني، وإسرائيل في عهد ملكها آخاب، وحسب النصوص الآشورية المتعلقة بمعركة قرقر، كانتا متحالفتَين، وواجهتا التوسع الآشوري سوية؟ ويبدو أن حلفاء برحدد الثاني، أو حدد إيدري كما تسميه النقوش الآشورية، شعروا بأنهم لم يعودوا ملزمين بالوفاء بالعهود التي قطعوها لآرام دمشق بعد وفاته، وفضلوا الانسحاب من المواجهة مع الآشوريين، إما لعدم ثقتهم بحزائيل، أو لعدم رغبتهم بتحمل عبء الإتاوة التي ربما كانت تفرضها دمشق عليهم. ولكن خليفة آخاب ذهب إلى أبعد من مجرد فرط عقد التحالف مع دمشق، فبادرها بالعداء بأن استغل موت برهدد الثاني ليحتل مساحات واسعة من أراضيها. ولكن ردة فعل حزائيل كانت ربما غير متوقعة، حيث بادر بالهجوم واستعادة ما كانت دمشق قد خسرته من أراضيها، واستولى على مساحات واسعة من الأراضي التي كانت تُسيطر عليها بيت عُمري، وذلك بشهادة نصوص سفر الملوك الثاني ١٠ : ٣٢ (وفي تلك الأيام بدأ الرب يقتطع من أرض إسرائيل، فاحتل حزائيل ملك آرام جميع المناطق شرقي الأردن إلى مدينة عروعير ونهر أرنوك (وادي الموجب في الأردن) جنوبًا، ومنها جميع أراضي جلعاد وباشان التي يسكنها بنو جاد ورؤوبين ومنسي). من خلال هذا النص، والذي لا نجد مبررًا للتشكيك فيه، نرى أن حزائيل قد ضم في هذه المرحلة من الحرب معظم مناطق شرقي الأردن لسيطرته وجعلها جزءًا من مملكته.

ولدينا نص آخر في سفر الملوك الثاني يشير إلى حروب حزائيل مع إسرائيل ويهوذا «وخرج أخزيا مع يورام بن آخاب لقتال حزائيل ملك آرام في راموت جلعاد، فجرح الآراميون يورام فرجع للعلاج في يزرعئيل (سهل مرج ابن عامر)، ونزل أخزيا الملك إلى هناك ليعوده في مرضه (ملوك ثاني ٨: ٢٨ – ٢٩)». وربما يؤكد هذا النص التوراتي ما ورد في نقش تل القاضي من أن حزائيل قد قتل يورام بن آخاب ملك إسرائيل، وإن كان النص التوراتي يذكر أنه مات متأثرًا بجروحه في المعركة التي خاضها الطرفان في راموت جلعاد (في منطقة عجلون في الأردن حاليًا). إذا ومن خلال نصوص العهد القديم ومن خلال نقش تل القاضي يتبين لنا أن يورام بن آخاب هو من بدأ الحرب وكانت ردة الفعل قوية من حزائيل[١٨].

ولكن هناك مشكلة في تأريخ هذه الحرب، هل وقعت قبل حملة العام الثامن عشر لشلمناصر الثالث على سورية، التي واجهه فيها حزائيل منفردًا بعد أن تخلى عنه حلفاؤه، أم بعد هذه الحملة؟ فمن المعلوم أن حملة العام الثامن عشر وقعت في العام ٨٤١ ق.م، وفيما يتعلق بالقسم الخاص منها بحزائيل يمكن تقسيمها إلى قسمين أو مرحلتين، الأولى عندما تحصَّن حزائيل في عاصمته دمشق عند سفوح جبال سنير (ربما جبل الشيخ أو جبال الزبداني)، حيث واجه هنا جيوش شلمناصر الثالث، والمرحلة الثانية من هذه الحملة كانت عندما انسحب حزائيل إلى

(17) A Political History of the Aramaeans; K. Lawson Yonger Jr. p 597

(18) The Damascene Subjugation of the Southern Levant as a Gradual Process (ca. 842 – 800 BCE (p. 60.

عاصمته وتحصن فيها، ولكن شلمناصر الثالث الذي أدرك على ما يبدو صعوبة استيلائه على دمشق غادرها واتجه نحو حوران مدمرًا عددًا كبيرًا من المدن والقرى[١٩]. ونحن نرى أن حملة حزائيل ضد بيت عمري قد جرت قبل هذه الحملة، فمع أن حزائيل لم يتكبد خسائر كبيرة في جيشه بعد حملة شلمناصر الثالث هذه، إلا أنه ولا شك تعرض لخسائر على الصعيدين البشري والاقتصادي نتيجة التدمير الكبير الذي ألحقه شلمناصر الثالث بقرى ومدن حوران، وهي لا شك كانت بمثابة خزان بشري لجيوش حزائيل، وفي نفس الوقت تشكل قاعدة قوية لاقتصاده وخاصة من الناحية الزراعية.

وبنتيجة حروب حزائيل مع بيت عُمري فإنه حولها إلى تابع له، وجعل جيشها، الذي كان في معركة قرقر مع الآشوريين من الجيوش الكبيرة، في حالة يُرثى لها، يقتصر على عشر مركبات وخمسين حصانًا وعشرة آلاف من الجنود المشاة، وبذلك لم يُعد بإمكانها أن تشكل أي تهديد لحزائيل[٢٠].

والمواجهة التالية بين حزائيل والآشوريين وقعت في العام الحادي والعشرين من حكم هذا الأخير، أي نحو العام ٨٣٨ ق.م. وشغلت أخبار هذه الحملة حيزًا من حوليات شلمناصر الثالث من ناحية، ومن اهتمامات الباحثين بتاريخ آرام دمشق من ناحية أخرى، لما تضمنته من ذكر لأسماء مدن ومقاطعات تابعة لها. ونورد فيما يلي نصًا يتضمن بعضًا من أخبار هذه الحملة: « ... في عامي حكمي الحادي والعشرين خرجت من...، مدن حزائيل الدمشقي فتحتها بالأنفاق والكباش وأبراج الحصار... دمرت المدن وحرقتها بالأرض دانابو وملاخو»[٢١].

ومثلما ذكرنا فإن النصوص حول هذه الحملة مهمة، لأنها تذكر لأول مرة، وعلى خلاف النقوش الآشورية السابقة التي تتعلق بالحملات ضد آرام دمشق، أسماء مدن تتبع لمملكة دمشق الآرامية، وهي دانابو وملاخو.

وقد ناقشنا في بحثنا عن دمشق الآرامية الآراء المطروحة حول موقع هاتين المدينتين باستفاضة، ولكن لا بأس من القول هنا وبإيجاز أن هناك خلاف كبير فيما يتعلق بموقع دانابو بين من يجعلها في صيدنايا الحالية أو دنيبة في منطقة إزرع والشيخ مسكين في حوران، وأما ملاخو فهناك العديد من المواقع بالقرب من دمشق أو حوران أو جبل العرب من الممكن أن تكون هي المقصودة[٢٢].

إن عدم تمكن شلمناصر الثالث من الاستيلاء على دمشق جعل حزائيل يتمكن من الاحتفاظ بقاعدة ملكه الأساسية، واتخاذها نقطة انطلاق في عملياته العسكرية، التي تمثل المرحلة الثانية من المراحل الثلاث التي كنا قد أشرنا إليها آنفًا[٢٣].

بعد حملة العام الحادي والعشرين من حكمه أو حملة العام ٨٣٨ – ٨٣٧ ق.م، توقف شلمناصر الثالث عن القيام بحملات أخرى نحو المنطقة السورية، نتيجة عوامل عدة من بينها ربما

(19) دمشق الآرامية، ص 33.

(20) Ancient Damascus: A Historical Study of the Syrian City – State from Earliest Times Until Its Fall to the Assyrians in 732 B.C.E.: Wayne Pitard. 1987. P 151.

(21) Assyrian rulers of the Early First Millennium BC II) 858 – 745 (P 62.

(22) انظر بحثنا: دمشق الآرامية ص 25 – 26.

(23) A Political History of the Aramaeans; K. Lawson Yonger Jr. p 620.

هرم الملك شلمناصر الثالث، ولكن السبب الأهم وراء ذلك كان ولا شك التمرد الذي نشب في الدولة الآشورية بسبب تغيير شلمناصر الثالث ولي عهده، ونقله هذه الولاية من ابنه الاكبر إلى ابن آخر تولى العرش من بعده باسم شمشي أدد الخامس (٨٢٥ – ٨١١ ق.م). وقد عم التمرد مناطق واسعة من الإمبراطورية الآشورية ولم يبق سوى مناطق قليلة في آشور التاريخية خاضعة لشلمناصر الثالث، واضطر شلمناصر الثالث وولي عهده الجديد لبذل جهود ضخمة لإخماد هذا التمرد وتمهيد الأوضاع لاعتلاء ولي عهده العرش من بعده، وهذا الأمر شغله عن القيام بأي حملات نحو سورية. ومما لا شك فيه أن حزائيل قد استغل هذه الفرصة السانحة أمامه ليواصل خططه التوسعية في المنطق الفلسطينية.

كانت الحملة التالية الكبرى لحزائيل هي تلك التي وقعت بين العامين ٨٣٥ – ٨٣٢ ق.م، وكان من نتيجتها الاستيلاء على مدينة جت عاصمة مملكة جت أو جات، وكانت من الممالك التي أسستها شعوب البحر في المنطقة الفلسطينية (موقع تل الصافي الحالي في منطقة الخليل في فلسطين المحتلة) وتدميرها. وفي وقت حملة حزائيل عليها كانت (جت) أقوى دولة في الجنوب الفلسطيني مع مساحة وصلت إلى أكثر من خمسين هكتاراً، وسكان يزيدون على العشرة آلاف نسمة[٢٤]، وفرضت هيمنتها على كل دول المدن الفلسطينية وصولاً إلى شمالي النقب.

وربما كان صعودها في هذه المرحلة مرتبطًا بسياسة الأسرة الثانية والعشرين المصرية، وخاصة حكم الملك شيشنق الأول (٩٤٣ – ٩٢٣ ق.م). وعندما توجه حزائيل للاستيلاء عليها كانت إسرائيل قد خضعت بالفعل له، ولم يكن هناك من قوة سياسية كبيرة في فلسطين سوى جت، فأراد القضاء عليها لتكون له السيادة على المنطقة كلها[٢٥].

وعن استيلاء حزائيل على هذه المدينة لدينا خبر غير محدد التاريخ في سفر الملوك الثاني ١٨ : ١٢ «وفي ذلك الوقت هاجم حزائيل ملك آرام مدينة جت واستولى عليها، ثم توجه لأورشليم لمحاربتها». وإلى جانب هذا النص لدينا نتائج أعمال التنقيب الأثري التي قامت بها في الموقع بعثات تابعة للاحتلال الإسرائيلي. وقد كشفت هذه التنقيبات عن خندق حصار، نسبه المنقبون إلى حزائيل. كان الخندق بعمق ستة أمتار وعرض ستة أمتار، ويحيط بالمدينة بطول يمتد إلى نحو ٢كم من ثلاث جهات، وحسب رؤية المنقبين كانت الغاية من حفر هذا الخندق منع المحاصَرين من الهروب، ومما لا شك فيه فإن وجود الخندق منع أي مساعدة خارجية قد تتلقاها المدينة المحاصرة أيضًا. وقد تم تأريخ هذا الخندق بالاستناد إلى الفخاريات التي وُجدت في الموقع وإلى وجود تشابه بين الأسلوب الذي اتُّبع في حصار تل الصافي وحصار حزرك الوارد في نقش زكور ملك حماة ولعش[٢٦].

ومن المعلوم أن برهدد الثالث بن حزائيل كان هو من قاد مجموعة من الإمارات السورية في حصار حزرك. وقد ورد في النقش الذي أمر بوضعه زكور ملك حماة ولعش بعد فشل الحصار وانفضاضه عنه ما يلي: «فوحد برهدد بن حزائيل ملك آرام ستة عشر ملكا ...، ورفعوا سوراً

(24) State Formation in the Southern Levant – The Case of the Arameans and the Role of Hazael s Expansions. In Research on Israel and Aram. Leipzig. 2016. P 354.
(25) Hazael in the South ; Gunnar Lehman. In ; Research on Israel and Aram. Leipzig. 2016. P 279 – 280.
(26) A Political History of the Aramaeans; K. Lawson Yonger Jr. P 625.

مسلة جنائزية من البازلت تحمل نقشاً آرامياً (القرن السابع ق.م) كشفت في تل آفس في سورية

(أعلى) من سور حزرك، وحفروا خندقًا (أعمق) من خندقها»[٢٧].

وقد حاول بعض الباحثين ربط الدمار الذي يُشاهد في تل الصافي بالآشوريين، ولكن أسلوب الحصار عن طريق حفر الخنادق لا نجد له مثيلاً في الأساليب العسكرية الآشورية.

لقد كان لاستيلاء حزائيل على جات صدى كبير في المنطقة الفلسطينية، وأعطاه الحافز نحو متابعة السير نحو القدس بغرض الاستيلاء عليها وضمها إلى ممتلكاته، ولكن حاكمها ملك يهوذا دفع له إتاوة تمثلت في كل ما كان في خزائنه وخزائن معابده من ثروات ليُبعد حزائيل عنها، وهذا ما نقرؤه في تتمة ما أوردناه أعلاه مما ورد في سفر الملوك الثاني بشأن استيلاء حزائيل على مدينة جات: «وفي ذلك الوقت هاجم حزائيل ملك آرام مدينة جت واستولى عليها. ثم توجه إلى إورشليم لمحاربتها. فأخذ يوآش ملك يهوذا جميع ما كرسه يوشافاط ويورام وأخزيا آباؤه ملوك يهوذا تقدمة للرب، وما كرسه هو أيضًا، وكل الذهب الموجود في خزائن هيكل الرب وقصر الملك وأرسلها إلى حزائيل ملك آرام، فانصرف عن أورشليم» (ملوك ثاني ١٢ : ١٨ – ١٩).

ولعلنا نتساءل هنا لماذا لم يستول حزائيل على أورشليم بعد أن كان أمر الاستيلاء عليها مفروغًا منه؟ وهنا نستطيع أن نُخمِّن أن حزائيل قد حقَّق بدون حرب ما كان سيحققه فيما لو استولى على المدينة. بمعنى أنه حصل على إتاوة ضخمة من ملك يهوذا تمثلت كما مر معنا بكل ثروات بلاده، ومن ناحية أخرى فإن هذه المملكة أصبحت تحت وصاية حزائيل من الآن فصاعدًا، وتحول ملكُها إلى تابع له، وربما الاستيلاء على المدينة كان سيكلفه خسائر مادية وبشرية هو في غنى عنهما، كما أن الاستلاء عليها ربما أخذ منه وقتًا طويلاً، ولذلك قَبل بعرض ملكها وانصرف عنها. ولنا سوابق على هذه الحال مثلاً مع الآشوريين الذين كانوا َفي كثير من حملاتهم يكتفون بأخذ الإتاوة من الإمارات والممالك التي يمرون عليها وبتأدية يمين الولاء من حكامها ومن ثم ينصرفون عنها.

وتجدر الإشارة هنا إلى أن من المؤرخين من يربط آثار الدمار في مواقع فلسطينية أخرى غير تل الصافي (جات القديمة) أيضًا بحملات لحزائيل في المنطقة الفلسطينية. فمثلاً يرى ليبينسكي أن تدمير الطبقة التاسعة في أشدود الساحلية، وكذلك بيت شمش غربي القدس، قد كان نتيجة لهذه الحملات[٢٨].

بعد حملات حزائيل في المنطقة الفلسطينية واستيلائه على مناطق واسعة منها وصلت ربما حتى النقب، ولم يحكمها كلها بصورة مباشرة، قام حزائيل بإعادة تنظيم للمنطقة بأسرها، وخاصة أراضي مملكة جت المدمرة، التي وزع أراضيها على جيرانها السابقين، من بينهم يهوذا ومدن فلسطينية من مثل عقرون (تل مكنة حاليًا غربي القدس)، وأشدود وعسقلان وغزة التي كانت تخضع لسيطرته[٢٩].

وإذا أردنا أن نعرف السبب وراء حملات حزائيل في المنطقة الفلسطينية، فعلينا أن نعود إلى

(27) اللغة الآرامية القديمة، فاروق إسماعيل، ص211.

(28) The Aramaeans ، Their Ancient History، Culture، Religion: Edward Lipinski، Leuven – Paris، 2000. P 387 – 388.

(29) Hazael in the South ; Gunnar Lehman. P 288.

الدافع الاقتصادي الكامن وراء هذه الحملات، ففيما كان يُعتقد فيما مضى أن حزائيل كان يسعى للوصول إلى ميناء العقبة للوصول إلى تجارة البحر الأحمر، فإن الاتجاه الآن يميل إلى أن السبب وراء هذه الحملات كانت السيطرة على تجارة النحاس، ففي سياق طموحاته الإمبراطورية كان حزائيل في حاجة إلى زيادة الموارد الطبيعية، فالقوة السياسية بحاجة لقوة اقتصادية، وبناء المدن والدولة والجيش يتطلب طاقة كمية كبيرة من الموارد، وهذه الموارد كانت إضافة لذلك باهظة الثمن، ومن خلال السيطرة على تجارة النحاس في النقب، استطاع حزائيل، تحقيق قوة إقليمية والسيطرة على الموارد بنفس الوقت.

وهنا يجب أن نأخذ بعين الاعتبار أن التجارة الإقليمية للموارد الطبيعية كانت ترتبط بالرسوم الجمركية، بمعنى أن من يسيطر على المناطق التي تمر عبرها طرق التجارة يستطيع فرض الرسوم التي يريدها وتحقيق عوائد عالية منها تدعم قوته السياسية، وبالنسبة لحزائيل فإن تدميره لجت كان جزءاً من مشروعه لفرض السيطرة على أماكن استخراج النحاس والطرق التي تمر تجارتُه عبرها، وحتى وصولاً إلى شاطئ البحر المتوسط[٣٠].

الاتجاه الثاني لتوسع حزائيل كان نحو الشمال، وهنا أيضًا لا توجد لدينا معلومات موسعة يمكن الاعتماد عليها مباشرة، وكل ما بحوزتنا هو نقوش قصيرة نحاول من خلالها الوصول إلى المدى الذي وصل إليه حزائيل شمالاً.

كما ذكرنا عند حديثنا عن مصادر الدراسة، فلدينا بضعة نقوش آرامية تُنسب إلى حزائيل، ويُستدَل بها على أن الشمال السوري ومناطق شرقي الفرات كانت خاضعة لسلطة آرام دمشق في عهد حزائيل إن لم يكن في عهد سلفه برهدد الثاني.

في العام ١٩٨٨ كُشف عن لجام فرس من البرونز في جزيرة ساموس في اليونان عليه كتابة آرامية نُسبت إلى حزائيل، ومحتوى الكتابة هو: «الذي أعطى (الإله) هدد لسيدنا حزائيل (وادي) العمق في سنة عبور النهر»[٣١]. وقد أثار هذا النقش جدلاً بين المختصين حول واضع هذا النقش والوادي والنهر المقصودين في هذا النقش.

في البداية افترض البعض أن اسم هدد الوارد في النقش هو اسم علم لحاكم في منطقة العمق، وقد أهدى هذا اللجام، ربما من ضمن مجموعة أخرى من الهدايا، إلى حزائيل عندما وصلت قواته إلى منطقة سهل العمق _ منطقة العمق. ولكن هذا الاحتمال غير وارد، لأن أسماء حكام مملكة باتينا التي كانت تسيطر على سهل العمق خلال القرنين التاسع والثامن ق.م معروفون لنا من خلال مجموعة من الوثائق الآشورية والحثية الجديدة، وهي في معظمها أسماء غير سامية. ومن ناحية أخرى قدَّر آخرون أن الاسم هنا ليس اسمًا لملك من العمق، وإنما هو أحد قادة حزائيل الذي أهدى إليه هذا اللجام بمناسبة الانتصارات والنجاحات التي حقَّقها[٣٢].

ولكن افتراض أن المقصود بهدد هنا اسم علم لم يلق قبولاً في أوساط المختصين إلى حد

---

(30) State Formation in the Southern Levant – The Case of the Arameans and the Role of Hazael s Expansions. P 359 – 361.

(31) اللغة الآرامية القديمة، فاروق إسماعيل، ص29.

(32) A Political History of the Aramaeans; K. Lawson Yonger Jr. P 627.

كبير، فهؤلاء رأوا أنه ومع إمكانية أن يكون هذا الاسم اسمًا لعلم فإنه هنا بدون شك اسم إله العاصفة الآرامي هدد. وأكد الباحث غوتسو «أنه لو كان اسمًا شخصيًا لكان له لقب أو اسم عائلة، حيث لا يتم استخدام الفعل الآرامي (ن. ت. ن) لشخص يُكرس شيئًا ما (يُقدم تقدمة لإنسانٍ آخر أو إله)، ولكن الأحرى أنه يُستخدم مع الآلهة التي تمنح شيئًا ما لإنسانٍ ما[٣٣].

ونحن نميل إلى الأخذ بهذا الرأي؛ أي أن الاسم هنا ليس اسم علم، وإنما اسم الإله هدد، وذلك بناءً أيضًا على شواهد من نصوص آرامية وغير آرامية تتضمن موضوعات مماثلة.

وأما عن المنطقة المقصودة، فقد دار الجدل حول نقطتين في النقش، الأولى تتعلق بالمنطقة المقصودة بالاسم «العمق»، والثانية تتعلق بالمقصود بالفعل «عبر»، والنهر الذي تم عبوره، ففي حين يرى غالبية الباحثين أن المقصود بالوادي هو سهل العمق في شمال غربي سورية، رأى آخرون أنه ربما كان المقصود هو سهل البقاع في لبنان حاليًا، الذي كان يُسمَّى، كما يزعم هؤلاء، في المصادر أيضًا بسهل العمق[٣٤].

وأما عن مسألة العبور، وهي المسألة الثالثة التي يثيرها هذا النقش رغم أنه مؤلف من سطر واحد، فهي المقصود من الفعل «عبر»، وأي نهر عبرت قوات حزائيل؟ فالباحثة ديون ترى أن كلمة النهر عندما ترد في النقوش فعادة ما يكون المقصود فيها نهر الفرات، وعلى ذلك فهي ترى أن قوات حزائيل عبرت نهر الفرات إلى الأراضي التي كانت تشكل جزءًا من أراضي الإمارة الآرامية الشهيرة على الفرات بيت عديني، التي قضى على استقلالها شلمناصر الثالث خلال السنوات الأولى من حكمه[٣٥].

أي أن حزائيل لم يكتف باستغلال المشاكل التي كانت تمر بها المنطقة للتوسع في الجنوب، وإنما تجاوز ذلك ليتوسع في مناطق لا نقول إنها من أراضيها التاريخية، وإنما هي على الأقل تقع على حدودها مباشرة. وفي المقابل لا يوافق كثيرون على ما ذهبت إليه الباحثة ديون، ويرون أن المقصود بالنهر هنا نهر العاصي، والعبور كان لهذا النهر، وخاصة أن «العبور» ذُكر مع منطقة العمق.

ويقول ليبينسكي «إن هذا النهر يمكن أن يكون نهر الفرات، ولكن ذكره مع العمق يوحي بعبور نهر العاصي، كلمة (نارو – نهر) غالبًا ما ترد في النصوص الآشورية دون أي قيد ويمكن أن تشير إلى أي نهر وفقًا للسياقات المختلفة»[٣٦].

ونحن مع هذا الرأي الذي يقول إن المقصود نهر العاصي وسهل العمق، ولكن ما نود الإشارة إليه هنا هو أن الوصول إلى منطقة العمق كانت تفرض على حزائيل اجتياز أراضي مملكة حماة الآرامية، ونحن نعلم أن آرام دمشق وحماة كانتا على رأس التحالف الذي واجه شلمناصر الثالث في معركة قرقر إلى الشمال من حماة، واستمرا في التحالف إلى مطلع أربعينات القرن

(33) A Political History of the Aramaeans; K. Lawson Yonger Jr. P 628 .
(34) Les Arameens A L` Age du Fer: Dion. P 201.
(35) Les Arameens A L` Age du Fer: Dion. P 202 .
(36) The Aramaeans ، Their Ancient History، Culture، Religion: Edward Lipinski، Leuven. 2000. P 389.

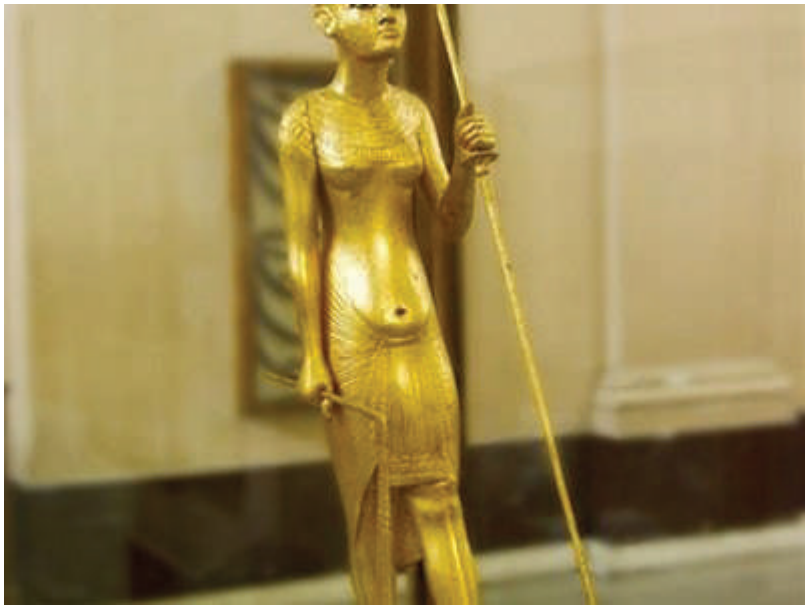

إله آرامي يعود للقرن الثامن للميلاد في متحف آثار حماة

التاسع ق.م. ولكن حماة تخلت عن هذا الحلف وتركت ملوك دمشق يواجهون تقدم الجيوش الآشورية منفردين، فكيف يتمكن الآن حزائيل من اجتياز أراضي حماة للوصول إلى سهل العمق؟ إلا أن يكون هذا الأمر قد تم بموافقة حماة التي ربما استشعرت هي أيضًا انشغال الآشوريين بمشاكلهم الداخلية وعدم اهتمامهم بما يجري في سورية فسمحوا لحزائيل بالمرور عبر أراضيهم.

وهناك احتمال آخر، وإن كنا لا نستطيع أن نكون واثقين منه في ظل انعدام الشواهد النصية، وإن كنا نميل إليه بحكم الواقع السياسي الذي أصبح واقعًا في المنطقة السورية الفلسطينية في هذه الفترة، ونقصد بذلك أن حماة وفي ظل تصاعد قوة آرام دمشق في عهد ملكها حزائيل أصبحت تدور في فلك نفوذ دمشق السياسي، وأنه لم يكن لها القرار بالسماح أو عدم السماح بمرور قوات حزائيل.

والاستنتاج الآخر يتعلق بنتائج هذه الحملة، فهل تحولت مملكة باتينا التي كانت تسيطر على سهل العمق إلى مملكة تابعة لدمشق؟ أم كانت مجرد حملة عسكرية قام بها حزائيل لإظهار قوته أمام الآخرين وجمع الغنائم؟ هذا أمر لا نستطيع الجزم به في ظل انعدام المعطيات حول ذلك.

بعد كل ما ذكرناه أعلاه عن أعمال حزائيل العسكرية، هل نستطيع القول بأنه وصل لتأسيس إمبراطورية آرامية دمشقية؟ هناك من يقول إن مثل هذه الإمبراطورية أسسها حزائيل بالفعل، واستمرت في الوجود بنفس القوة والزخم حتى الفترة الأولى من عهد ابنه برهدد الثالث، الذي نعلم من خلال نقش زكور الذي ذكرناه سابقًا أنه حاول إخضاع حماة عسكريًا لسلطته عندما حاولت الخروج على هذه السلطة، وحشد لهذه الغاية حلفًا مؤلفًا من ستة عشر ملكًا من ملوك شمال ووسط سورية، ولكن ما أدى إلى تراجع أحوال هذه الإمبراطورية هو استعادة آشور لعافيتها وعودة جيوشها للتوغل في الأراضي السورية غرب الفرات وصولاً إلى دمشق، وخاصة في عهد ملكها أدد نيراري الثالث.

ونحن نرى أن حزائيل تمكن بالفعل من إقامة مملكة آرامية واسعة فرضت سيطرتها على أنحاء واسعة من سورية وفلسطين، ولكنها لم تصل مثلاً إلى حجم الإمبراطورية الأكادية أو الآشورية اللتين كان لهما امتداد جغرافي واسع وتمكنتا من العيش لفترات طويلة.

وتبقى معلوماتنا عن السنوات الأخيرة من حكم حزائيل شبه معدومة، لكننا نستطيع القول بأن الهيمنة التي فرضها على المنطقة السورية – الفلسطينية في ظل إضعافه لخصومه واستمرار غياب الآشوريين، نقول إن هذه الهيمنته والسلطة بقيت راسخة، وورَّثها في وقت ما قرب نهاية القرن التاسع ق.م لابنه الذي اعتلى عرش دمشق من بعده وعُرف باسم برهدد الثالث.

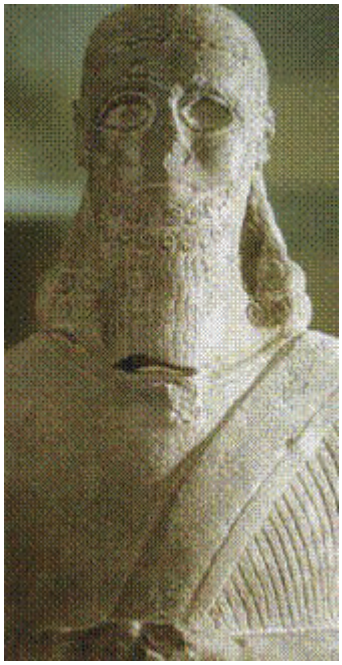

تمثال هد-يسعي الذي أقامه قدام (الإله) هدد

رابعًا _ تأليه حزائيل:

ذهب كثيرٍ من الباحثين إلى أن حزائيل، ونتيجة المكانة والقوة التي بلغهما، قد أُلِّه في دمشق بعد وفاته، وإن كنا لا نعرف مثل هذه العادة عند الآراميين في ممالكهم الأخرى، ربما لأن أحد الملوك الآخرين لم يصل إلى المكانة والقوة التي وصل إليها حزائيل.

ويستند كل من قال بهذا الرأي على رواية وردت عند المؤرخ اليهودي يوسيفوس، تقول «ثم تولى أزيلوس السلطة الملكية بنفسه، لكونه رجل أعمال (كثيرة)، وله نعمة كبيرة لدى السوريين وشعب دمشق، الذين حكمهم أدادوس وأزيلوس من بعده، تم تكريمهم إلى يومنا هذا كآلهة بسبب نفعهم وبنائهم المعابد التي زيَّنوا بها مدينة دمشق، ولديهم مواكب كل يوم لتكريم هؤلاء الملوك ومجدهم»[٣٧]. واسم أزيلوس الوارد هنا هو الصيغة الإغريقية لاسم الملك حزائيل، وأما اسم أدادوس فقد رأى فيه بعض الباحثين اسم الإله هدد الآرامي، ولكن هذا الاحتمال ضعيف، والاحتمال الأكبر هو أنه سلف حزائيل على عرش دمشق برهدد الثاني، الذي ذُكر في العهد القديم باسم بنهدد وفي النصوص الآشورية باسم حدد – إيدري. ويُعتقد أن مصدر رواية يوسيفوس هو المؤرخ نيقولا الدمشقي الذي عاش في القرن الأول ق.م، الذي كان على دراية بالممارسات الدينية التي كانت سائدة في مدينته[٣٨].

(37) Ancient Damascus: A Historical Study of the Syrian City – State from Earliest Times Until Its Fall to the Assyrians in 732 B.C.E.: Wayne Pitard. 1987. P 197.
(38) A Political History of the Aramaeans; K. Lawson Yonger Jr. P 631.

_ الخاتمة:

حاولنا في هذا البحث تسليط الضوء على شخصية نعتقد أنها لم تنل حقَّها من البحث في المؤلفات العربية، ونقصد بذلك حزائيل الملك الآرامي الدمشقي، الذي تولى الحكم في ظروف صعبة كانت تمر بها المملكة بعد فاة الملك السابق، وتعاظم خطر الآشوريين مع استمرار حملاتهم العسكرية في المنطقة السورية، وتخلي حلفاء الأمس عن المشاركة في التصدي لهذه الحملات، بل وانقلاب البعض منهم إلى أعداء حاولوا استغلال مرض الملك برهدد الثاني للاستيلاء على مناطق من مملكة دمشق.

ولكن حزائيل أثبت أنه رجل دولة يستطيع التصدي لكل هذه الصعاب، فلم يكتف برد العدوان واسترجاع ما فقدته دمشق خلال مرض سلفه، وإنما وسع المناطق الخاضعة لسيطرتها، وأضعف من قوة أعدائها القريبين منها (بيت عُمري ويهوذا)، وحوَّلهما إلى قوى تابعة له، وقضى على البعض الآخر بغية تحقيق فوائد اقتصادية (مملكة جت الفلسطينية)، وتصدى لآخر الحملات الآشورية نحو سورية في عهده (٨٣٨ – ٨٣٧ ق.م)، لينطلق بعدها في حملةٍ ناجحة نحو الشمال السوري وصولاً إلى سهل العمق في أقصى الشمال الغربي من سورية.

وشكل بذلك حزائيل مملكة آرامية دمشقية فرضت سيطرتها على معظم المنطقة السورية الفلسطينية.

شاهدة قبر من البازلت عليها الكاهن سي غابور كاهن إله القمر (القرن السابع ق.م) تحمل نقشاً آرامياً كشفت في تل آفس في سورية

مصادر البحث ومراجعه

ـ المراجع العربية:

ـ بيت داود حقيقة أم خيال: زيدان كفافي، مجلة أدوماتو، العدد ٢٥، صفر ١٤٣٣ه – يناير ٢٠١٢م.

ـ تاريخ سورية السياسي ٣٠٠٠ – ٣٠٠ ق.م: هورست كلينغل، ترجمة: سيف الدين دياب، مراجعة وتعليق عيد مرعي، دار المتنبي، الطبعة الأولى، ١٩٩٨ .

ـ تاريخ الوطن العربي القديم: جباغ قابلو، عماد سمير، منشورات جامعة دمشق، ٢٠٠٧ .

ـ دمشق الآرامية، التشكل والاسم والمعنى والتاريخ، مجلة تاريخ دمشق، العدد الأول ٢٠٢١ .

ـ العهد القديم ترجمة بين السطور: الأبوان بولس الفغالي وأنطوان عوكر، الجامعة الأنطونية ٢٠٠٧ .

ـ غزوات شعوب البحر: نزار مصطفى كحيلة، الهيئة العامة السورية للكتاب، دمشق، ٢٠١٧ .

ـ اللغة الآرامية القديمة: فاروق إسماعيل، منشورات جامعة حلب ١٩٩٧ .

_ المراجع الأجنبية:

- Ancient Damascus: A Historical Study of the Syrian City – State from Earliest Times Until Its Fall to the Assyrians in 732 B.C.E.: Wayne Pitard. 1987
- A Political History Of The Aramaeans: K. Lawson Younger Jr، Atlanta، SBL Press. 2016.
- The Aramaeans ، Their Ancient History، Culture، Religion: Edward Lipinski، Leuven – Paris، 2000.
- Les Arameens A L` Age du Fer: Dion، P.E، Paris، 1997.
- Assyrian Rulers of the early First Millennium BC، 1 (1114 – 859): A. Kirk Grayson، University of Toronto Press 1991.
- Assyrian Rulers of the Early First Millennium BC II (858 – 745): A. KIRK Grayson، Toronto، London، University Toronto press، 19967-
- Hazael in the South ; Gunnar Lehman. In ; Research on Israel and Aram. Leipzig. 2016.
- State Formation in the Southern Levant – The Case of the Arameans and the Role of Hazaels Expansions. In Research on Israel and Aram. Leipzig. 2016.
- The Damascene Subjugation of the Southern Levant as a Gradual Process (ca. 842 – 800 BCE). In: Search for Aram and Israel. Politics، Culture، and Identity. Edited by Manfred Oeming …، Tübingen 2016.

دمشق في كتابات المؤرِّخِين: ديودور الصقلي وفلافيوس أريانوس وكوينتوس روفوس

د. عبدو أحمد، د. ضحى الأحمد[1]

(1) د. عبدو: عضو الهيئة التدريسية في جامعة حلب، اختصاص تاريخ العصور الكلاسيكية. د. ضحى: عضو الهيئة التدريسية في جامعة حلب، اختصاص تاريخ الوطن العربي القديم، جزيرة عربية.

ملخَّص البحث

شغلت مدينة دمشق حيِّزًا مهمًّا في التاريخ القديم، بسبب موقعها الاستراتيجي الذي يصل بين بلاد الرافدين والساحل الفينيقي، وبين شمالي شبه الجزيرة العربية ومصر، ونظرًا لأهمية هذا الموقع فقد حظيت باهتمام عدد من المؤرخين الكلاسيكيين (ديودور الصقلي، وفلافيوس أريانوس، وكوينتوس روفوس)، الذين تناولوا دمشق في حقبة واحدة، وهي سيطرة الإسكندر عليها بعد معركة إيسوس سنة ٣٣٣ق.م. فقد أورد المؤرخ ديودور ذكرها في أثناء دخول بارمينيون المدينة بهدف السيطرة عليها، دون ذكر تفاصيل وأرقام دقيقة، وهذا شيء طبيعي لأنه كتب تاريخًا عامًّا عن بلاد اليونان في غربي البحر المتوسط وشرقيه، كما تحدث عنها في أثناء وصفه للحملة التي أرسلها أنتيجونوس المقدوني في سنة ٣١٢ق.م، بقيادة ابنه ديميتريوس للسيطرة على الشرق، وبالفعل سيطر على أجزاء منه، ومن ضمن هذه الأجزاء كانت مدينة دمشق، ثم انتقل للحديث عنها في أثناء سيطرة القائد بومبيوس عليها، وقدوم الوفود اليهودية إليه من أجل إنهاء الخلافات.

في حين تكلم أريانوس على مدينة دمشق، في أثناء سيطرة الإسكندر عليها، حيث اختص كتابُه بحملات الإسكندر المقدوني، فقدَّم أرقامًا دقيقةً، وكشف عن حقائق تاريخية كثيرة، وهذا دليل على اعتماده على مصادر أولية في مؤلفاته.

وأخيرًا تناول المؤرخ روفوس مدينة دمشق في كتابه «تاريخ الإسكندر المقدوني» عند ذكره لرواية سقوطها على يد بارمينيون، أحد ضباط الإسكندر.

ـ مقدمة:

ظهرت دمشق على الساحة السياسية بقوة في سوريا في الألف الأول قبل الميلاد، عندما أسس الآراميون مملكة لهم في دمشق، ودخلوا في حروب طويلة مع اليهود والآشوريين، بهدف حماية مملكتهم ذات الموقع الاستراتيجي المهم، الذي يُؤهِّلها لتكون بوابة السيطرة على فلسطين والجنوب السوري ومصر، خاصةً إذا كان المحتل قادمًا من الشمال أو الشرق.

أدرك الفرس الأخمنيون هذه الأهمية الاستراتيجية التي تمتعت بها مدينة دمشق، لذلك تطلعوا إلى السيطرة عليها، وبالفعل نجحوا في تحقيق ذلك في سنة ٥٣٩ ق.م، وجعلوا منها ولاية أو مرزبانة فارسية حتى معركة أيسوس سنة ٣٣٣ ق.م، ففي هذه السنة سقطت مدينة دمشق بيد بارمينيون Parmenion، قائد الإسكندر المقدوني، فنهب خيراتها وأرسلها إلى مليكه.

أولاً- دمشق قبيل وصول الإسكندر المقدوني أو كتابات المؤرخين الكلاسيكيين:

عُرفت منطقة دمشق (الشكل رقم ١) باسم أبوم Apum، في النصوص المصرية المسماة بنصوص اللعنة، والتي تعود إلى عهد المملكة الوسطى (١٩٩١-١٧٧٧ق.م)، وكُشف عنها في منطقة سقارة Saqqarah ، وتردَّدت الإشارة إليها في رسائل تل العمارنة المسمارية في القرن الرابع عشر ق.م باسم أوبّو Opu (بتشديد الباء)، وسُمِّيت في النصوص الحثية (القرن الثالث عشر ق.م) ببلاد أبينا Apenia، وكانت تُشكل الحد الجنوبي لمناطق نفوذ الحثيين Hittites في

سورية.

في حين ظهرت مملكة دمشق أو آرام دمشق، في أواخر القرن العاشر ق.م، كمركز تتبع له المناطق المحيطة به.

كما ورد في المدونات المسمارية الآشورية الحديثة (القرن التاسع ق.م) تحت اسم وصفي «مات شا إمريش» mat sa-imerisu، ويعني حرفيًا بلاد حميره، أي: البلاد الشهيرة بحميرها.

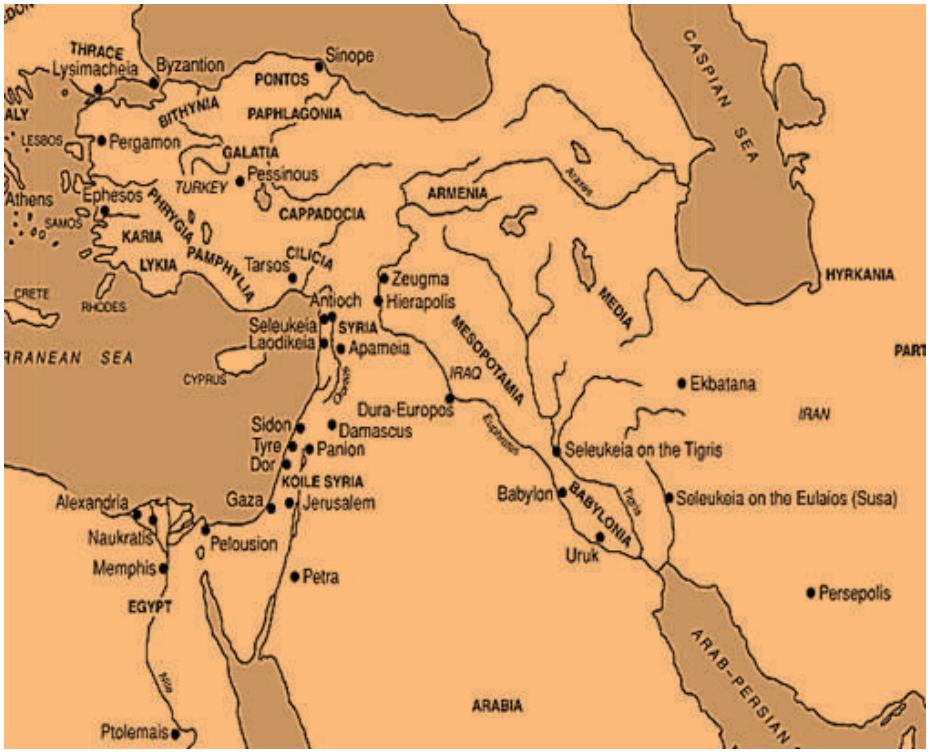

(الشكل رقم١)
خريطة لموقع دمشق في العالم القديم.

أما العاصمة دمشق فقد ورد أقدم ذكر لها باسم تمسقي ti-ma-as-qi في الكتابات المدونة على جدار معبد الكرنك Karnak في الأقصر، وذلك ضمن المدن التي سيطر عليها تحوتمس الثالث[٢] Tuthmosis III، وتتكررت الإشارات إليها في المدونات الآشورية بلفظة دمشق Da-mascus نفسها، وتُسمَّى مملكتها في النقوش الآرامية القديمة باسم آرام Aram[٣].

حيث وقفت مملكة آرام (دمشق) في وجه الملك الآشوري شلمانصر الثالث Shalmanes-er III [٤] في سنة ٨٥٣ ق.م، وشكلت تحالفًا مع الملوك المجاورين بقيادة ملك دمشق برهدد الثاني Bir-Hadad II ضد الملك الآشوري شلمانصر الثالث[٥]، فرد الملك الآشوري على هذا التحالف بتجهيز حملة عسكرية لمحاربته، والتقى الجيشان في معركة قرقر Qarqar قرب نهر العاصي، وعلى الرغم من ادعاء الملك الآشوري شلمانصر الثالث النصر إلا أنه لم يحتل مدينة

(2) هو فرعون مصر حكم بين سنتي 1504-1450ق.م، جاء إلى الحكم بعد وفاة الملكة حتشبسوت، استقر في طيبة، ويرجع الفضل في شهرة ومجد تحوتمس الثالث الكبيرة إلى مجهوده الحربي الذي قام به لتوسيع حدود مملكته، وقد سجل أحداث حملاته العسكرية على جدران معبد الكرنك، راجع:
- تاريخ مصر القديمة: رمضان السيد، ص 76-77.

(3) اللغة الآرامية القديمة: فاروق إسماعيل، ص28.

(4) هو ملك أشوري حكم بين سنتي 858- 824 ق.م، استفاد من جهود أبيه آشور ناصر بال، وقام بحملات على سوريا وفلسطين، وحارب الأحلاف في سوريا، واستولى على مدن كثيرة منها خالمان (حلب) وأحاه (حماه)، راجع:
- تاريخ الشرق الأدنى وحضاراته: رمضان عبده علي، ص 255.

(5)The Ancient Near East in the 12 th-10th Centuries BCE Culture and History: Gali, Gershon., and Others, p. 392.

دمشق[٦].

ودخل برهدد الثاني في حروب أيضًا ضد ملوك إسرائيل ويهوذا، وحقق عدة انتصارات عليهم، وسار خليفته حازائيل Hazaelعلى نهجه في محاربة اليهود[٧].

وعندما جلس تجلات بيلصر الثالث Tiglath-pileser III[٨] على عرش آشور سار إلى دمشق للقضاء على حاكمها ردين، الذي كان يشكل حلفًا ضد الآشوريين، ونجح الملك الآشوري في القضاء على الحلفاء، ومن ثم سار إلى دمشق وحاصرها لمدة ٤٥ يومًا، واحتلها سنة ٧٣٢ق.م، وأصبحت ولاية آشورية[٩].

ظلت السيطرة الآشورية على دمشق حتى نهاية دولتهم، وسقوط عاصمتهم نينوى سنة ٦١١ق.م[١٠]، على يد البابليين، ونجح العاهل البابلي نبوخذ نصر Nebuchadrezzar II [١١] في السيطرة على سوريا [١٢]، ومعها دمشق وفلسطين وضمها إلى الإمبراطورية البابلية[١٣].

لا يُعرف الكثير عن وضع دمشق في الحقبة البابلية[١٤]، ولكن يُرجَّح أنَّ البابليين نهجوا نهج الآشوريين في السيطرة على سوريا والآراميين من خلال الحملات العسكرية المستمرة، من أجل إحكام سيطرتهم على المنطقة[١٥].

ثم دخلت الدولة مرحلة من الضعف السياسي والعسكري، نتج عنها سقوط عاصمتهم بابل بيد العاهل الفارسي قوروش الكبير Cyrus[١٦] سنة ٥٣٩ ق.م[١٧]، الذي سيطر على سوريا[١٨] وفلسطين والمدن الفينيقية[١٩] والشرق الأدنى القديم[٢٠].

أصبحت سوريا جزءًا من الإمبراطورية الفارسية الأخمينية، في حين خضعت البلاد الواقعة غربي نهر الفرات، أي ما بعد النهر Ebirnari، لمسؤولية جوبارو Gubaru حاكم بابل ومرزبان

---

(6) Ancient Damascus: Pitard, Wayne., p. 140141-.

(7) تاريخ سورية القديم: أحمد ارحيم هبو، ص 396.

(8) هو ملك أشوري حكم بين سنتي 745- 727 ق.م، كان إداريًّا من الطراز الأول، حيث قسم إمبراطوريته إلى مقاطعات، وكان قائدًا عسكريًّا فذًّا، استطاع إبان سني حكمه القضاء على الفوضى والاضطراب من بابل إلى سوريا، راجع:
- تاريخ العراق القديم: محمد بيومي مهران، ص 381- 382.

(9) The Aramaeans: their ancient history. culture. Religion: Edward Lipinski, p.406407-.

(10) معالم العصر التاريخي العراق القديم: نبيلة محمد عبد الحليم، ص 231.

(11) هو ملك كلداني حكم بين سنتي 604-562 ق.م، تولى العرش بعد أبيه نابو بولاصر، شهدت بابل في عهده فترة ازدهار ونهضة فنية ومعمارية، ودخل في حروب ضد اليهود وانتصر عليهم، ونقل عدة آلاف منهم إلى بابل فيما يسمى بالسبي البابلي، راجع:
- تاريخ الشرق الأدنى وحضاراته: رمضان عبده علي، ص 274.

(12) A history of the Ancient Near East 3000323- BC: De Mieroop, Marc., p. 276.

(13) Ancient Mesopotamia : new perspectives: McIntosh, Jane R., p. 108.

(14) A history Damascus : Burns, Ross., p. 23.

(15)The Aramaeans in Ancient Syria: Niehr, Herbert ., p. 321.

(16) هو مؤسس الإمبراطورية الفارسية الأخمينية، حكم بين سنتي 559-530 ق.م، حرر الفرس من سيطرة الميديين، وجمع شمل القبائل الإيرانية، ثم جنّد رجالاتها، سيطر على ميديا وبابل، راجع:
- تاريخ العراق وإيران وآسيا الصغرى: أحمد سليم، ص 432-433.

(17) The Persian Empirem The Great Courses: Lee, ,John W. I., p.30.

(18)A history Damascus : Burns, Ross., p. 24.

(19) تاريخ إيران القديم من البداية حتى نهاية العهد الساساني: حسن بيرنيا، ص 166.

(20) A Companion to Ancient History :Erskine, Andrew ., p. 187.

سوريا، ومع وصول داريوس الأول[٢١] إلى عرش الإمبراطورية عمل على تنظيم دولته بطريقة جديدة، إذ أنشأ عشرين مرزبانة، وأصبحت المناطق الواقعة غرب الفرات الأوسط بالإضافة إلى قبرص تشكل المرزبانة الخامسة[٢٢]، وفي أواخر العصر الأخميني أصبحت دمشق ذات أهمية خاصة، بدليل أنها كانت المسؤولة عن تعيين حكام المناطق المجاورة، مثل عمان Ammon[٢٣]، واحتلت مكانة دينية كبيرة[٢٤].

(الشكل رقم ٢)
منحوتة لوجه الإسكندر المقدوني.

وصل الإسكندر الثالث الأكبر Alexander the Great (٣٣٦- ٣٢٣ق.م)[٢٥] (الشكل رقم ٢) إلى حكم مقدونيا[٢٦]، وبعد أن اطمأن إلى هدوء الأحوال في بلاد اليونان شرع في القيام بالحملة التي كان يتأهب لها والده فيليب الثاني Philip II[٢٧] ضد الإمبراطورية الفارسية، وبعد سنتين من اعتلائه العرش، أي في سنة ٣٣٤ق.م، عبر بقواته مضيق الهلسبونت بجيش يبلغ تعداده ثلاثين ألفًا من المشاة، وأربعة آلاف من الفرسان، وتوغل الإسكندر بعد ذلك في آسيا الصغرى التي كانت تُعد من ممتلكات الإمبراطورية الفارسية، وأحرز الإسكندر أول انتصاراته على الفرس عند نهر صغير يُسمَّى كرانيكوس Granicos، فكان هذا النصر فاتحة للاستيلاء على باقي

(21) ملك بلاد فارس، حكم بين سنتي (-522 486ق.م)، اتصف حكمه بالقوة، حيث وسَّع حدود مملكته باتجاه بلاد اليونان، وأخضع عددًا من الولايات اليونانية الواقعة على ساحل آسيا الصغرى، راجع:
- Encyclopedia of the Ancient Greek World :Sacks, David., p.104.
(22) تاريخ سورية السياسي -3000 300ق.م: هورست كلينكل، ص 261-264.
(23) A history Damascus : Burns, Ross., p. 25.
(24) Sophist Kings Persians as Other in Herodotus: Provencal, Vernon., p.121.
(25) الإسكندر الأكبر: عرف أيضًا باسم الإسكندر الثالث، ملك مقدوني، وقائد عسكري، ابن الملك المقدوني فيليب الثاني وأولمبياس، تمكن من السيطرة على الإمبراطورية الفارسية، ووصل بسيطرته العسكرية إلى الهند في سنة 325ق.م، أعد حملة عسكرية وبحرية للسيطرة على شبه الجزيرة العربية، لكنه توفي قبل أن يبدأ بغزوها، راجع:
- Encyclopedia of the Ancient Greek World :Sacks, David., p. 21- 25.
(26) A Companion to Ancient Macedonia: Roisman, Joseph., and Ian Worthington, , Wiley-Blackwell, Oxford, 2010, p. 186.
(27) جندي ودبلوماسي رائع، حكم مقدونيا بين سنتي 359-336ق.م، أسَّس جيشًا قويًّا، استفاد منه ابنه الإسكندر الثالث في حروبه ضد اليونانيين وضد الفرس، راجع:
- Encyclopedia of the Ancient Greek World :Sacks, David., p. 261.

أقاليم آسيا الصغرى، وكذلك الجزر المتاخمة للشاطئ[٢٨].

تقدم الإسكندر في خريف سنة ٣٣٣ ق.م، بعد انتصاره في كرانيكوس، إلى إيسوس، والتقى هناك مع الجيش الفارسي المؤلف من عدد كبير من الجنود الفرس والمرتزقة الإغريق بقيادة داريوس الثالث Darius III[٢٩]، وبنتيجة المعركة (الشكل رقم ٣) التي دارت بين الطرفين انتصر الإسكندر بسبب قدرته السريعة على الإمساك بزمام المبادرة، وجعل تحركات العدو رد فعل لحركته، وتشتيته لأعدائه عن طريق مهاجمتهم من قبل فرَق الخيالة الثقيلة العدة، ثم اتجاهه لتحصين الفرَق الأخرى من الخلف، وعندما رأى داريوَس الثالث أنَّ النصر أصبح من نصيب الإسكندر لاذ بالفرار تاركًا معسكره غنيمة للإسكندر.

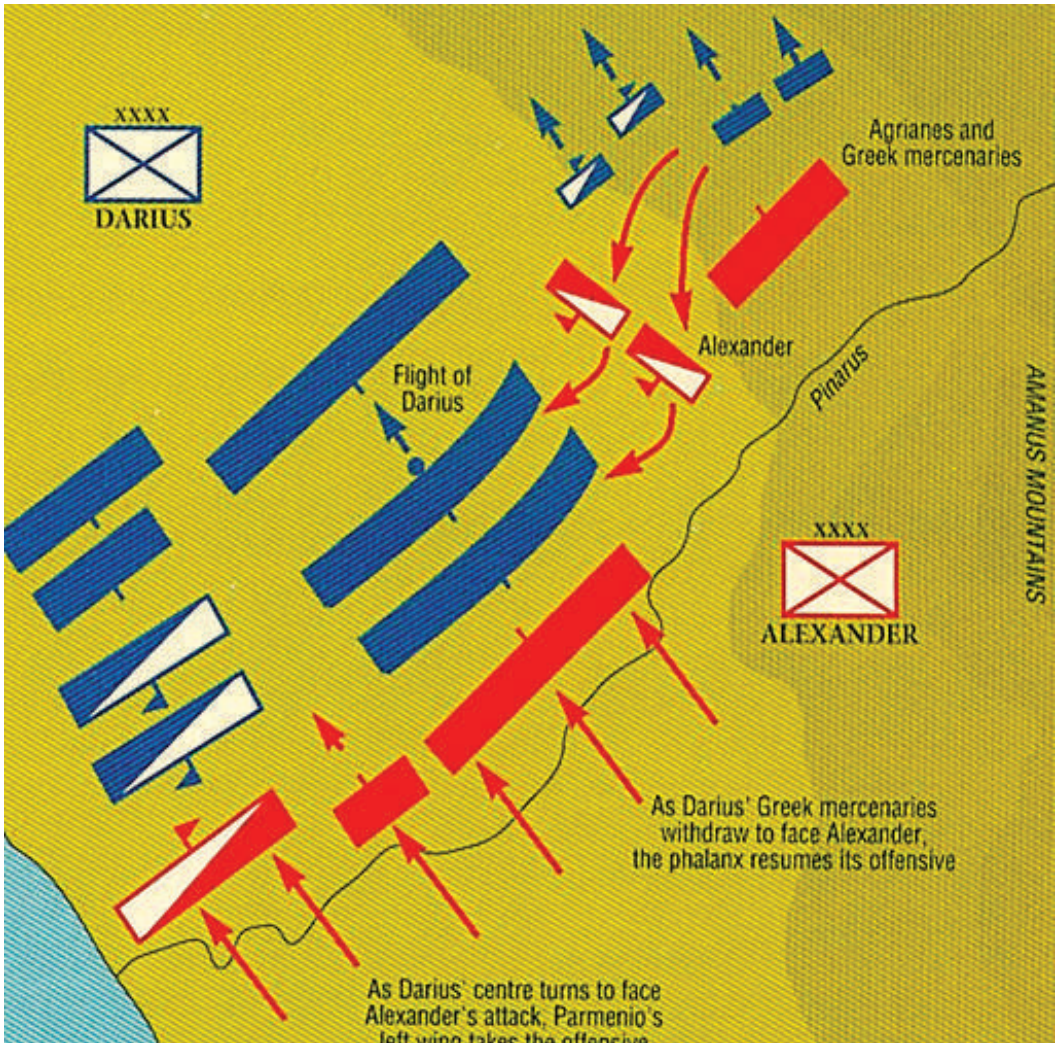

(الشكل رقم ٣)
خطة الإسكندر المقدوني في معركة إيسوس.

اتجه الإسكندر جنوبًا بدلاً من اقتفاء أثر الملك الكبير داريوس، لأنه عدَّ هذا التصرف مضيعة للوقت، كونه كان يخطط للسيطرة على دمشق وعلى الساحل الفينيقي، بهدف فصل القوة البحرية الفارسية عن القوات البرية، وهنا بدأت كتابات المؤرخين الكلاسيكيين عن مدينة

(28) الشرق الأدنى في العصرين الهلينيستي والروماني: أبو اليسر فرح، عين للدراسات والبحوث الإنسانية والاجتماعية، القاهرة، 2002، ص 25-26.
(29) آخر ملوك السلالة الأخمينية الفارسية، عاصر الملك المقدوني الإسكندر الأكبر، دارت بينهما عدة حروب، أدت في النهاية إلى مقتل دار الثالث في إكباتانا، بعد أن تمرد عليه قواده وقتلوه في سنة 330ق.م، ونتيجة لذلك سيطر الإسكندر الأكبر على إمبراطوريته، راجع:
- مقدمة في تاريخ الحضارات القديمة: طه باقر، دار الوراق للنشر، بغداد، 2011م، ج2، ص461.

دمشق في أثناء تأريخهم لسيطرة الإسكندر على الشرق[٣٠].

ثانيًا- دمشق في كتابات المؤرخ ديودور الصقلي Diodorus Siculus :

ذكر المؤرخ ديودور الصقلي [٣١] مدينة دمشق[٣٢] بشكل صريح وواضح في كتابه (المكتبة التاريخية Library of History)، وبالتحديد عندما انتصر الإسكندر الأكبر على داريوس الثالث في إيسوس، وعلم أن داريوس الثالث قد ابتعد باتجاه الجنوب، فأرسل قوات من جيشه بقيادة بارمينيون للاستيلاء على طرق الاتصال، وعندما وصل القائد المقدوني، أجبرَ الفرس على الانسحاب بقيادة عاهلهم داريوس الثالث، الذي قرر الذهاب مع جيش صغير من غير المقاتلين يحمل أمتعته إلى دمشق[٣٣].

ويلاحظ من كلام المؤرخ ديودور أن دمشق كانت حاضرة سوريا في العصر الفارسي الأخميني (٥٣٩-٣٣٣ ق.م)، بدليل أن العاهل الفارسي قد هرب إليها بعد هزيمته في إيسوس، ولم يهرب إلى مدينة أخرى على الساحل السوري أو فلسطين أو حتى مصر.

وعندما جنَّ الليل تفرَّق الجيش الفارسي في كل الاتجاهات، وخاصةً عندما تقدم المقدونيون نحو دمشق، أما داريوس الثالث فقد قطع نهر الفرات مع عدد من جنوده ومرتزقة يونانيين بلغ تعدادهم نحو ٤٠٠٠ جندي، ويُرجَّح أن تكون وجهته بابل[٣٤].

لقد أسهم موقع دمشق المفتوح على الصحراء في إنقاذ حياة العاهل الفارسي داريوس الثالث، الذي أدرك أن الهروب إلى دمشق، ومنها إلى بابل، طريق نجاته من الإسكندر وجيشه، علمًا أنه لو لجأ العاهل الفارسي إلى مدن الساحل السوري أو فلسطين أو مصر لوقع في الأسر، فالهروب إلى دمشق أطال عمر العاهل الفارسي وعمر الإمبراطورية الأخمينية نحو ثلاث سنوات من الزمان.

ويُكمل ديودور حديثه عن دمشق، ويصف كيفية دخول الجنود المقدونيين إليها، دون أن يشير إلى مدينة دمشق بشكل واضح في متن النص، لكنه أشار إليها في الحاشية السفلية، فذكر استيلاء الجنود المقدونيين على دمشق، وسلبهم للغنائم التي تركها الفرس خلفهم، وكانت عبارة عن كميات كبيرة من الفضة، وقليل من الذهب، وعربات مذهبة، وأثاث وملابس فاخرة، تعود للعائلات النبيلة الفارسية، بما فيها الأسرة الحاكمة وأصدقاء الملك وأقرباؤه وقادة عسكريون فرس[٣٥]، ومما لاشك فيه أنَّ هذه الأموال ساعدت الإسكندر على تمويل حملاته[٣٦]، والتقليل

(30) الشرق الأدنى في العصرين الهلينيستي والروماني: فوزي مكاوي، ص 15.

(31) عاش في القرن الأول قبل الميلاد، كتب عن تاريخ العالم في مؤلف عُرف باسم (المكتبة التاريخية) Library of History، ويقع في أربعين جزءًا، بدأ مقدمته بتاريخ العالم منذ العصور السحيقة. وكان الكتاب الأول يتحدث عن مصر، والثاني عن بلاد ما بين النهرين والهند وبلاد العرب، والثالث عن قرطاجة، ومن الرابع حتى السادس يتحدث عن بلاد اليونان القارية وأوروبا، وغطت الكتب من السابع إلى السابع عشر أحداث حرب طروادة إلى زمن الإسكندر الكبير، ومن الكتاب الثامن عشر وحتى الأربعين....، راجع: - تاريخ الإغريق (مقدمة في التاريخ الحضاري والسياسي): خليل سارة، ص 55.

(32) هي واحة قديمة وإحدى الولايات الفارسية الأخمينية بعد النهر (المقصود نهر الفرات) Achaemenid province استمرت بتبعيتها للفرس الأخمينيين حتى سنة 333ق.م، ومن ثم أصبحت تابعة للدولة السلوقية، ومن بعدها للجمهورية الرومانية على يد بومبيوس، راجع:
- The Oxford Classical Dictionary: Hornblower, Simon., and Others, , p.427.

(33)Library of History: Diodorus Siculus, XVII. 32. 14-

(34) Alexander the Great and the Hellenistic Empire: Burn, A p. 117.

(35) Library of History: Diodorus Siculus, XVII. 34. 935-.

(36) نشوء الدولة السلوقية وقيامها (دراسة تاريخية 312-64ق.م): حسن حمزة جواد، ص 19.

من الاعتماد على الأموال المقدمة من المدن اليونانية[٣٧].

لعب موقع دمشق الاستراتيجي في هروب داريوس إلى بابل، ولكن في المقابل قدمت دمشق أموالاً كثيرة للإسكندر المقدوني، شجَّعته على الاستمرار في محاربة الفرس، وتجهيز الجيوش، وتجنيد اليونانيين، وهذا يدل على أهمية دمشق الاقتصادية، بغنائمها الفارسية من ذهب وفضة وملابس فاخرة، علاوة على ذلك فإن دمشق تقع على خطوط التجارة العالمية القادمة من شبه الجزيرة العربية المحملة بالبخور واللبان والمر[٣٨].

ويُؤخذ على المؤرخ ديودور أنه لم يعط أرقامًا دقيقة لعدد الجنود أو للغنائم التي حصل عليها الإسكندر من دمشق، بل تكلم في العَموم، كأن يذكر فضة وذهبًا وأثاثًا، والسبب في ذلك أنَّ المؤرخ ديودور اعتمد في تأريخه عن الإسكندر على شذرات المؤرخ كليتارخوس، الذي كان معاصرًا لبطليموس الثاني فيلادلفوس Ptolemy II Philadelphus[٣٩]ولم يكن معاصرًا للإسكندر المقدوني[٤٠].

وعلى الرغم من أنَّ سيطرة الإسكندر الأكبر على دمشق كانت بمثابة غنيمة كبيرة[٤١] له إلا أنها في الوقت نفسه كانت مصدر قلق دائم للإسكندر، بسبب خوفه من تجمع القوات الفارسية فيها من جديد [٤٢] في حال غادرها واتجه نحو الساحل الفينيقي للسيطرة عليه[٤٣].

أدرك الإسكندر أهمية دمشق الاستراتيجية والاقتصادية والسياسية، لأن السيطرة على الساحل السوري فقط لا تُؤمِّن خطوط قواته من جهة الداخل، في حين أن احتلال سوريا يكون كاملاً بالسيطرة على الساحل والداخل، وخاصة على مدينة دمشق المفتوحة على بلاد الرافدين، التي ما زالت بيد الفرس.

كما تطرق ديودور إلى الحديث عن مدينة دمشق في أثناء وصفه للحملة التي أرسلها أنتيجونوس المقدوني[٤٤] Antigonus of Macedonia في سنة ٣١٢ق.م بقيادة ابنه ديميتريوس للسيطرة على الشرق، وبالفعل تمكن ديميتريوس من السيطرة على أجزاء من الشرق، وكان من ضمنه دمشق، أثناء ملاحقة القائد العسكري يومينيس الكاردي Eumenes of Cardia[٤٥]،

(37) بلاد النهرين في العصر الهيلنستي 331-126ق.م: حلمي رضا، ص 59.

(38) The Social and Economic History of the Hellenistic World: Rostovotzeff, M., IV, p.841.

(39) هو الملك الثاني لمصر البطلمية، حكمها بين سنتي 285- 246 ق.م، تزوج من أرسينوي الأولى، ثم تزوج أخته أرسينوي الثانية، عُرف عصره بأنه من أزهى العصور مما حققه من انتصارات خارجية، راجع،
- Encyclopedia of the Ancient Egypt: Bunson, Margaret., p. 315.

(40) الكتابة التاريخية في العصر الهلنستي: مفيد العابد، مجلة الفكر التاريخي، د.د، د.م، د.ت، ص79.

(41) Introducing the ancient Greeks : from Bronze Age seafarers to navigators of the western mind : Hall, p. 140.

(42) Waters, Matt., A Concise History of the Achaemenid Empire, 550–330 BCE, p. 207.

(43) Tarn, w., Alexander the Great, P. 178.

(44) أحد قادة الإسكندر الأكبر. أصبح وصيًّا على العرش بعد بوليبرخون، وسعى إلى السيطرة على آسيا الصغرى وسوريا ومصر، سعيًا منه لإحياء إمبراطورية الإسكندر الأكبر، انتهت حياته في معركة أبسوس نحو سنة 301 ق. م. راجع:
- الشرق الأدنى في العصرين الهلينستي والروماني: أبو اليسر فرح، ص 47- 50.

(45) Eumenes of Cardia A Greek among Macedonians: Anson, Edward M., p.7.

ومن ثم اتجه نحو بابل لمحاربة سلوقس الأول Seleucus I (٣٥٨- ٢٨١ق.م)[٤٦] والي بابل[٤٧]، ولكن بطليموس Ptolemy I (٣٦٧-٢٨٤ق.م)[٤٨] حارب ديمتريوس وانتصر عليه في معركة غزة Gaza[٤٩]، واستولى على فلسطين وفينيقيا[٥٠] ودمشق، وبعد ذلك عاد أنتيجونوس وسيطر عليها[٥١]. ثم استولى عليها بطليموس عندما كان حلفاؤه يحاربون أنتيجونوس في معركة إبسوس Ipsos سنة ٣٠١ ق.م، وطالب سلوقس الأول بإقليم جوف سوريا، وكانت دمشق جزءًا منه، كإحدى غنائمه من أنتيجونوس[٥٢].

توفي الإسكندر ودخل ورثته Diadochoi (٣٢٣-٢٨١ق.م) في حروب طاحنة، وصلت ذروتها على يد القائد أنتيجونوس، الذي أدرك أهمية احتلال دمشق قبل المغادرة إلى بابل، لأن دمشق هي مفتاح السيطرة على الشرق، وبعد ذلك تسابق أو تكالب ورثة الإسكندر للسيطرة على دمشق من انتيجونوس وابنه ديمتريوس إلى بطليموس وسلوقس، وكأن في دمشق غنيمة كبيرة لا بدّ من الحصول عليها.

يجب الإشارة أن اليونان والمقدونيين أطلقوا على دمشق اسم ديمترياس Demetrias[٥٣] وهو تحريف لاسمها القديم.

كما ذكر ديودور مدينة دمشق أيضًا في سياق حديثه عن القائد الروماني بومبيوس[٥٤]، الذي سيطر على الدولة السلوقية في سوريا سنة ٦٤ق.م[٥٥] ومجيء ملك اليهود أريستوبوليس Aristobulus وأخيه هيركانوس Hyrcanus[٥٦] لحل الخلافات التي نشبت من أجل الملكية أو منصب الكاهن الأعظم High Priest[٥٧].

ومن الجدير بالذكر أنَ المؤرخ ديودور توقَّف عن ذكر مدينة دمشق من سيطرة أنتيجونوس سنة ٣١٢ق.م حتى دخول الروماني بومبيوس إليها سنة ٦٣ ق.م، ومن المرجح أنَّ سبب ذلك يعود إلى ظهور مدن هيلينيستية طغت شهرتها على شهرة مدينة دمشق، ومن هذه المدن مدينة أنطاكيا ولادواكيا، اللتين كانتا تقعان على الساحل السوري، هذا من جهة، ومن جهة

(46) أحد قواد الإسكندر الأكبر، ظهر دوره بشكل واضح بعد قتله للوصي على العرش برديكاس سنة 321ق.م، حصل على ولاية بابل بموجب قرارات مؤتمر تريبارادیسوس، وتمكن من تأسيس الدولة السلوقية التي امتدت من الهند إلى آسيا الصغرى. راجع:
- Encyclopedia of the Ancient Greek World: Sacks, David., p.307.

(47) Library of History: Diodorus Siculus, XIX. 100. 56-.

(48) بطلميوس بن لاجوس: أحد قادة الإسكندر الأكبر المقربين منه، ويعرف أيضًا باسم بطليموس الأول، ولقب باسم سوتير أي المنقذ من قبل سكان جزيرة رودس، لنجاحه في فك الحصار عنها من قبل انتيجونوس، حكم مصر منذ وفاة الإسكندر سنة 323ق.م، وبعد عدة حروب مع انتيجونوس أسس الدولة البطلمية التي استمر في حكمها حتى سنة 284ق.م. راجع:
- Encyclopedia of Ancient Egypt: Bunson, Margaret, p.314.

(49) Great Battles of the Hellenistic World: Pietrykowsk, Joseph, P. 120.

(50) الإغريق والرومان والشرق الإغريقي والروماني: حسن صبحي بكري، ص 388.

(51) A history Damascus: Burns, Ross., p. 29.

(52) دراسات في تاريخ الإغريق: مفيد العابد، ص 192.

(53) The Oxford Classical Dictionary: Hammond, N.G.L., and H. Scullard, , p. 310.

(54) قائد روماني عُين دكتاتورًا في روما سنة 67 ق.م، كلفته روما بالقضاء على القرصنة في البحر المتوسط، فقضى في أثناء ذلك على الدولة السلوقية سنة 64ق.م، قُتل في الإسكندرية سنة 49 ق. م، راجع:
- New classical Dictionary of Greek and Roman: Smith, William, p. 695697-.

(55) الحضارة الهلينستية: تارن، و. و. ، ص 256-275.

(56) Jewish War: Josephus, I. 131136-

(57) Library of History: Diodorus Siculus, XL. 2. 13-.

أخرى لم تصل إلينا مجلداته كاملة، بل وصلت إلينا أجزاء منها.

ثالثًا- دمشق في كتابات المؤرخ فلافيوس أريانوس Flavius Arrianus:

ورد ذكر دمشق في كتابات المؤرخ فلافيوس أريانوس[٥٨] في أثناء حديثه عن الحروب التي شنّها الإسكندر، في كتابه الذي حمل عنوان (حملات الإسكندر Anabasis Alexandri)، وخاصةً بعد النصر الذي حققه على الفرس في معركة أيسوس سنة ٣٣٣ق.م، حيث يقدم لنا المؤرخ فلافيوس وصفًا دقيقًا لهذه المعركة وأحداثها، فيذكر كيفية وصول الإسكندر إلى معسكر داريوس الثالث، وعبوره فوق جثث جنود الأعداء، حتى اقتحمه ووجد بداخله والدة العاهل الفارسي داريوس الثالث وزوجته وبناته اللواتي وقعن في الأسر، بعد فشلهن في الخروج من المعسكر إلى دمشق، كما تطرق المؤرخ فلافيوس إلى ذكر ثروة العاهل الفارسي داريوس الثالث، وكيف أرسل الجزء الأعظم منها إلى دمشق[٥٩].

علمًا أن الإسكندر حصل على غنائم من الفرس تُقدر بنحو ١٨٠,٠٠٠ تالنت talents[٦٠] من أربعة مراكز فارسية هي: ساردیس Sardis ودمشق، وسوسا Susa وبرسيبوليس Perse-polis[٦١].

نستنتج من أول أشارة أو ذكر لمدينة دمشق أن المدينة كانت قاعدة عسكرية مهمة للقوات الفارسية، والدليل أنّ العاهل الفارسي أرسل أمواله وهرب إليها ومنها هرب إلى بابل.

ولم يكتف المؤرخ فلافيوس بذكر مقدار هذه الأموال فقط، بل ذكر اسم الشخص الذي كلفه العاهل الفَارسي بحملها إلى دمشق وبحراستها مع الكثير من الأغراض الملكية، وهو كوفين Cophen بن أرتاباسوس Artabasus، وعندما وصل الإسكندر إلى منطقة ماراثوس Marathus (عمريت اليوم) أرسل قائده بارمينيون للسيطرة على دمشق[٦٢] (الشكل رقم ٤)، الذي استولى عليها بدون قتال[٦٣]، وجمع أموال العاهل الفارسي وكل أغراضه الشخصية غنائم له[٦٤]، وأنجز المهمة مع الخيالة التساليين، الذين احتفظوا بالغنائم التي حصلوا عليها أثناء

---

(58) عاش في القرن الثاني الميلادي، ولد سنة 90م في بيثينيا Bithynia ، وعمل في الفلسفة الرواقية Stoicism، تسلّم مناصب عدة منها في الامبراطورية الرومانية، ولعلّ أهمها قنصل consul على ولاية كبادوكيا Cappadocia في آسيا الصغرى بين سنتي(129-134م)، واستطاع أريان العمل في مجال العلوم والأدب، وتوج هذا العمل بعدة أعمال تاريخية، منها تاريخ بيثينا الذي فُقد ولم يُعثر عليه، وكتاب حملات الإسكندر المقدوني Anabasis الذي قلد فيه المؤرخ أكسنوفون، ولكنه بالمقابل اعتمد على مصادر أصيلة قريبة من الإسكندر الأكبر عندما ألف كتاب الحملات، ومن هذه المصادر مذكرات بطليموس الأول، راجع:

- Encyclopedia of the Roman Empire: Bunson, Mathew, p.40.

(59)Anabasis Alexandri: Arrian, II. 812-.

(60) هي وحدة وزنية استُخدمت في بلدان الشرق القديم وبلاد اليونان القارية تساوي 26 كغ، راجع:

- معجم المصطلحات الآثارية المصور: زياد السلامين، ص225.

(61) A Companion to Ancient Macedonia: Roisman, Joseph., and Ian Worthington, p. 186.

(62) Anabasis Alexandri: Arrian, II. 13. 614-.

- دراسات في تاريخ الإغريق: مفيد العابد، ص 156.

(63) تاريخ الوطن العربي في العصور الكلاسيكية: خليل سارة، ص 62.

(64) Arrian, Anabasis Alexandri, II. 14. 915-.

- Hellenism in the East: the interaction of Greek and non-Greek civilizations from Syria to Central Asia after Alexander: Kuhrt, Amelie., and Susan Sherwin-White, p. 112.

- Ancient Greece from Homer to Alexander: Roisman, Joseph., p.561.

الطريق[٦٥].

وبذلك شغلت دمشق مكانة كبيرة عند الإسكندر، كونها تحولت إلى مركز من مراكز الثروة، في وقت كان فيه الإسكندر بأمس الحاجة إليها، من أجل تمويل حملاته العسكرية الواسعة [٦٦].

وبعد أن أخضع الإسكندر دمشق لسيطرته قام بعدة أعمال فيها:

١- عيّن مينون Menon بن كيرديماس ساترابًا على سوريا.
٢- وضع فيها حامية عسكرية وفرسانًا لضمان ولائها له[٦٧].
٣- عمل على تنظيم التحصينات العسكرية خوفًا من أي خطر فارسي.
٤- بنى مؤسسات يونانية مثل دار لسك العملة [٦٨].

(الشكل رقم٤)
سير قوات الإسكندر الأكبر والسيطرة على دمشق.

بعد أن سيطر بارمينيون على دمشق دخلت المدينة من الناحية التاريخية في حقبة جديدة هي العصور الكلاسيكية (٤٨٠-٣٢٣ق.م)- الهيلينستية (٣٢٣-٦٤ ق.م في سوريا)، ومن الناحية العسكرية استبدلت محتلاً فارسيًا بمحتل مقدوني، ومن الناحية الإدارية يُعَدُّ مينون أول وال مقدوني يحكم دمشق في عهد الإسكندر المقدوني (الشكل رقم ٥).

ومن الملاحظ أنَّ المؤرخ أريانوس اعتمد على مصادر أساسية في كتابه (حملات الإسكندر)، وخاصة على مؤرخ الإسكندر اريستوبولوس، وعلى القائد بطليموس بن لاغوس مؤسس الدولة البطلمية [٦٩]، وهذا ما جعل كتاباته أكثر دقة من كتابات المؤرخ ديودور الصقلي، على الرغم

(65) تاريخ الوطن العربي في العصور الكلاسيكية: خليل سارة، ص 62.
(66) Greece, the Hellenistic world and the rise of Rome: Sabin, Philip., P.464.
(67) Anabasis Alexandri: Arrian, II. 13. 614-.
(68) A history Damascus: Burns, Ross., p. 28.
(69) الكتابة التاريخية في العصر الهلنستي: مفيد العابد، ص 78.

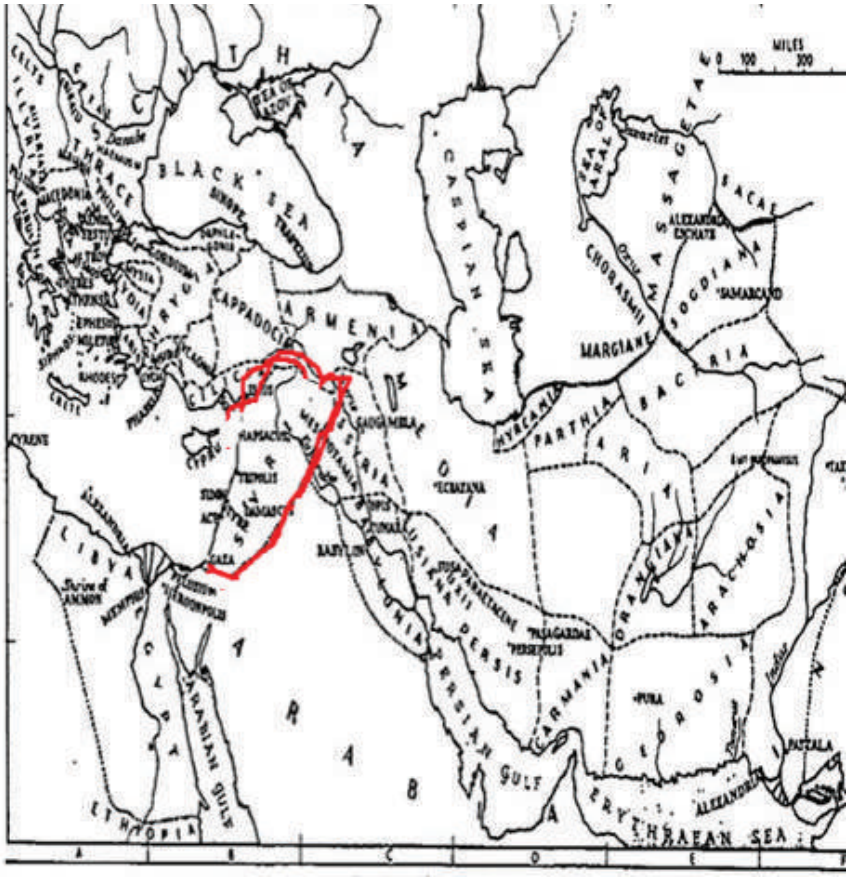

(الشكل رقم ٥)
التقسيمات الإدارية في عهد الإسكندر ولاية سوريا ذات الحدود الحمراء ومركزها دمشق.

من شهرة الأخير، الذي كتب تاريخًا عامًّا ضم بين دفتيه تاريخ الشرق وتاريخ الغرب، عكس أريانوس، الذي اختص في تاريخ حملات الإسكندر، فقد كانت كتاباته عن دمشق دقيقة من حيث الأرقام وذكر أشخاص فرس ومقدونيين عكفوا على إدارة مدينة دمشق.

ومما ورد سابقًا يُستنتج أنَّ مدينة دمشق شغلت مكانة عسكرية كبيرة في تاريخ سوريا القديم إبان السيطرة الفارسية (٥٣٨-٣٣٣ق.م)، والدليل على ذلك أنها كانت تشكل مرزبانة تتبع لها كل الأراضي الواقعة في الجنوب السوري، ونقطة لانطلاق وعودة الجنود الفرس، وعلاوةً على أهميتها العسكرية كانت هذه المدينة تمتلك أهمية استراتيجية تتمثل في كونها خط دفاع أول عن فلسطين ومصر، والدليل على ذلك أنَّ الإسكندر المقدوني قسم جيشه إلى قسمين، قسم بقيادته أخضع الساحل السوري، وذلك خوفًا من الأسطول الفارسي الموجود في البحر الأبيض المتوسط، وقسم آخر بقيادة بارمينيون مهمته السيطرة على دمشق قبل أن يتمركز بها العاهل الفارسي داريوس الثالث، وتكون مركزًا لتجميع فلول الجيش الفارسي المنهزم في إيسوس.

رابعًا- دمشق في كتابات المؤرخ كوينتوس روفوس Curtius Rufus :

ذكر المؤرخ كوينتوس روفوس[٧٠] دمشق لأول مرة في كتابه الذي حمل عنوان (تاريخ الإسكندر The History of Alexander)، عندما بعث داريوس الثالث كل ماله وكنوزه الثمينة إلى دمشق مع مرافق عسكري صغير[٧١]، وأخذ بقية قواته العسكرية إلى كيليكيا[٧٢] مع والدته

[70] هو مؤرخ عاش في منتصف القرن الأول الميلادي، وهناك عدة تساؤلات حول هذا المؤرخ والحقبة التي عاش فيها، وتدل كتابات روفوس أنها تشبه إلى حد كبير كتابات المؤرخ ليفيوس Livy، ألف كتابًا عنوانه تاريخ الإسكندر History of Alexander، راجع:
- Encyclopedia of the Roman Empire: Bunson, Mathew, p. 481.

[71] The History of Alexander: Curtius Rufus, III, p.38.
- Ancient Syria A Three Thousand Year History: Bryce, Trevor, p.149.

[72] Greek military service in the ancient Near East, 401–330 BCE: Rop, Jeffrey., p. 212.

وزوجته[٧٣]، وبعد النصر على داريوس الثالث في أيسوس(الشكل رقم ٦) أرسل الإسكندر قائده بارمينيون إلى دمشق للسيطرة عليها، بسبب أهمية موقعها الاستراتيجي، ولجلب كنوز الملك الفارسي التي أرسلها إلى دمشق لدعم مشاريعه الحربية التوسعية[٧٤]، وبالفعل اتجه بارمينيون إلى دمشق تنفيذاً لأوامر الإسكندر، وعند وصوله إليها اكتشف أنَّ المرزبان أو الساتراب satrap (الوالي) الفارسي قد هرب من دمشق، ولم يذكر لنا المؤرخ روفوس اسم هذا المرزبان، ويرجح روفوس أن سبب هربه امتلاكه أعداداً قليلة من الجنود، نتيجة لقلة التعزيزات التي وصلت إليه، إضافة إلى خوفه من الوقوع في الأسر بيد الإسكندر بعد هزيمته.

(الشكل رقم ٦)
صورة تمثل انتصار الإسكندر في إيسوس وهروب داريوس الثالث.

وفي أثناء عرض المؤرخ روفوس للأحداث التاريخية التي رافقت إخضاع دمشق لسيطرة بارمينيون، يذكر أنَّ المرزبان الفارسي الهارب من دمشق قد أرسل جندياً ينتمي إلى إحدى القبائل الفارسية، وتسمى الماردیان Mardian، لاستطلاع الأوضاع فيها بعد دخول بارمينيون إليها بهدف السيطرة عليها، كما أوكل إليه مهمة أخرى تتمثل بتسليم رسالة إلى الإسكندر، مفادها أنَّ مرزبان دمشق ليس لديه مانع من تسليم الإسكندر كل أموال العاهل الفارسي، إضافة إلى ماله الخاص، دون شروط سابقة، لكنَّ هذا الجندي قد وقع في قبضة بارمينيون فقام بأسره، وفتح الرسالة التي كانت بحوزته، فعرف مضمونها مما شجعه أكثر على إخضاع مدينة دمشق، وبالفعل دخلها فجراً على رأس جنوده، وأصبحت ضمن ممتلكات الإسكندر المقدوني[٧٥].

تميَّز المؤرخ روفوس في ذكر كل شيء عن الإسكندر إيجاباً وسلباً، على عكس أريانوس الذي

(73) The Fourth Century B.C.: Lewis, D. M., and Others, p. 805.
(74) The History of Alexander: Curtius Rufus, III, p. 47.
(75) The History of Alexander: Curtius Rufus, III, p. 47.
- The Persian Empire A Corpus of Sources from the Achaemenid Period: Kuhrt, p. 438439-.

كان يحب الإسكندر، فاحتلال دمشق كان لجلب كنوز داريوس وأمواله، وهذا دليل أن للإسكندر أهدافًا اقتصادية مع أهدافه العسكرية، وكانت غنائم دمشق صيدًا ثمينًا حصل عليها.

ونتيجة لنجاح بارمينيون في إخضاع دمشق لسيطرته عيَّنه الإسكندر المقدوني حاكمًا على سوريا كلها، بما فيها دمشق، واضطر السكان الأصليون للاعتراف بسلطة القائد العسكري الجديد المسيطر على دمشق خوفًا من انتقامه[٧٦].

بعد أن أصبحت دمشق من ضمن ممتلكات الإسكندر المقدوني وصل وفد ملكي من قبل الملك الفارسي داريوس الثالث إلى دمشق لإجراء مفاوضات مع الإسكندر المقدوني، وكان سبب إجراء هذه المفاوضات حسبما ذكر المؤرخ روفوس هو أسر الجيش المقدوني الموجود في دمشق لنساء فارسيات يتمتعن بمكانة مرموقة في الإمبراطورية الفارسية، فطلب الوفد من الإسكندر تحرير النساء الفارسيات مقابل التنازل عن كل المناطق الواقعة في غربي نهر الفرات، إضافة إلى تقديم مبلغ مالي يصل إلى نحو ٣٠٠٠٠ تالنت من الذهب، إلاَّ أنَّ الإسكندر الثالث رفض هذا العرض، فأبدى بارمينيون رأيه بضرورة قبول الإسكندر لهذا العرض، وخاصة مع وجود هذا المبلغ المالي الضخم، فرد عليه الإسكندر مستاءً من رأيه: أنا لست بارمينيون لأفضل المال على المجد العسكري، أنا لست تاجرًا، أنا ملك، وليس من عادة الملوك أن يلهثوا وراء المال تاركين وراء ظهورهم مجدهم العسكري[٧٧].

نبّه المؤرخ روفوس إلى مسألة مهمة، وهي أنّ الوضع السياسي والعسكري والجغرافي في المنطقة اختلف، فسيطرة الإسكندر على دمشق وانتصار إيسوس جعلت داريوس يفاوض الإسكندر لأول مرة من أجل إعادة النساء اللاتي أُسرن مقابل التنازل عن مناطق غربي الفرات.

والسؤال الذي يطرح نفسه على كل باحث من هنَّ النسوة اللاتي فضَّل الإسكندر الاحتفاظ بهنَّ على أن يأخذ هذا المبلغ المالي الضخم؟

لعلَّ من أهمهنَ أسرة داريوس وبارسين Barsine زوجة القائد العسكري ممنون الرودسي Memnon of Rhodes[٧٨]، التي استطاعت أن تحظى بمحبة الإسكندر، فقربها إليه كثيرًا[٧٩] وأنجبت له[٨٠] طفلاً ذكرًا، عُرف باسم هرقل Heracles[٨١]، ومن المعتقد أنَّ الإسكندر كان يطمح إلى تعيين الطفل كوريث لعرشه من بعده، وخاصةً أنه يجمع بين الدماء الفارسية والدماء

---

(76) The History of Alexander: Curtius Rufus, Iv, p. 50.
(77) The History of Alexander: Curtius Rufus, Iv, pp.7677-.
- Alexander of Macedon, 356–323 b.c. a historical biography: Green, Peter., p.233.
- History of Greec to 323 BC: Hammond, N.G.L., p.612.
(78) هو جنرال فارسي، وصهر النبيل الفارسي أرتاباسوس Artabazus، هاجم بارمينيون على رأس جيش صغير، عند مضيق الهيلسبونت، راجع:
- The Fourth Century B.C.: Lewis, D. M., and Others, p. 298.
وحارب الإسكندر المقدوني في معركة كرانيكوس سنة 334ق.م، ولكنه هُزم أمام الإسكندر المقدوني وهرب إلى أفسوس، راجع:
- تاريخ اليونان من فيليبوس المقدوني إلى الفتح الروماني: أسد رستم، الجامعة اللبنانية، بيروت 1969، ص 22- 23.
(79) The History of Alexander: Curtius Rufus, p.310.
(80) Ancient Macedonia: King, Carol J., p. 156.
(81) Olmstead, A., History of The Persian Empire, p.506.
- Alexander's Heirs The Age of the Successors: Anson, Edward:, p.12.

المقدونية، وبالتالي يلاقي قبولاً لدى الفرس والمقدونيين[٨٢].

لم تقدم مدينة دمشق الذهب والفضة والغنائم للإسكندر، فاتح الشرق القديم، بل قدمت له أيضا الحب والزواج وولياً للعهد، فإذن لم تكن الأميرة روكسانا Roxana زوجة الإسكندر الأولى، بل كانت الزوجة الثانية له.

ومما سبق يُستنتج أن ما ذكره المؤرخ كوينتوس روفوس رسم صورة واضحة عما كان يجرى في دمشق قبل سيطرة الإسكندر عليها، وخاصة أن المدينة كانت تمر في مرحلة خطيرة.

ومما يُؤخذ على هذا المؤرخ أنه أغفل ذكر أهمية دمشق الاستراتيجية، فهي بوابة سوريا الجنوبية إلى فلسطين وبيت المقدس إذا كان المحتل قادمًا من الشمال، كما في حالة الإسكندر، علاوةً على أن الإسكندر لا يستطيع التقدم نحو الجنوب دون حماية خطوط الإمداد من الساحل عن طريق السيطرة على المدن الساحلية، خوفًا من الأسطول الفارسي، بينما تكون حماية خطوط إمداده من الداخل في السيطرة على دمشق التي كانت مفتوحة على بلاد الرافدين المسيطر عليها من قبل الفرس أعداء المقدونيين.

ـ الخاتمة:

ومما سبق يُمكن القول بأنَّ مدينة دمشق كانت من المدن القديمة التي سيطر الغموض على تاريخها في الحقبة الأخمينية المتأخرة، وظلّ هذا الغموض مسيطراً عليها إلى أنَّ كشف لنا عدد من المؤرخين الكلاسيكيين مجموعة من الأحداث التاريخية المهمة، التي دارت على أرضها، في أثناء تأريخهم للحملات التي قادها الإسكندر الأكبر للسيطرة على الشرق الأدنى القديم، وكان من أهم النتائج التي توصل إليها البحث:

١- تبوأت دمشق مكانة عسكرية مهمة في العصر الأخميني المتأخر.

٢- ربطت دمشق شمال سوريا بجنوبها أي بفلسطين.

٣- سيطرة الإسكندر على فينيقيا لا تتم من الناحية العسكرية إلا بالسيطرة على دمشق، لأنها تربط الساحل بالداخل أو الصحراء.

٤- فشل المؤرخ ديودور في رسم صورة حقيقية عما كان يجري في دمشق إبان سيطرة الإسكندر عليها.

٥- نجح المؤرخ أريانوس في رسم صورة الأحداث التاريخية التي وقعت في دمشق في أثناء سيطرة الإسكندر المقدوني عليها، كون مصادره أصيلة معاصرة للحدث.

٦- أرّخ روفوس للإسكندر ولا نعرف مصادره الأصيلة، كونه لم يعاصر الإسكندر الأكبر.

(82) The Roman Republic and the Hellenistic Mediterranean From Alexander to Caesar: Allen, Joel., p.41.

مصادر البحث ومراجعه

- المصادر الأجنبية:

- Anabasis Alexandri: Arrian, Tr: E. Iliff Robson, L.C.L., London, 1989, II.
- Jewish War: Josephus, Tr: Thackeray M.A. L.C.L., London, 1956, I.
- Library of History: Diodorus Siculus, Tr: C. Bradford Welles, L.C.L., London, 1963, XVII.
- The History of Alexander: Curtius Rufus, Tr: John Yardley, Penguin Books, London, 2004, III.

- المراجع العربية:

- الإغريق والرومان والشرق الإغريقي والروماني: حسن صبحي بكري، عالم الكتب، الرياض، ١٩٨٥.
- الحضارة الهلينستية: تارن، و. و. ، تر: عبد العزيز جاويد، المركز القومي للترجمة، القاهرة، ٢٠١٥.
- الشرق الأدنى في العصرين الهلينيستي والروماني: أبو اليسر فرح، عين للدراسات والبحوث الإنسانية والاجتماعية، القاهرة، ٢٠٠٢.
- الشرق الأدنى في العصرين الهلينيستي والروماني: فوزي مكاوي، المكتب المصري لتوزيع المطبوعات، القاهرة، ١٩٩٩.
- اللغة الآرامية القديمة: فاروق إسماعيل، منشورات جامعة حلب، حلب، ٢٠٠١.
- تاريخ الإغريق (مقدمة في التاريخ الحضاري والسياسي): خليل سارة، منشورات جامعة دمشق، دمشق، ٢٠٠١.
- تاريخ العراق القديم: محمد بيومي مهران، دار المعرفة الجامعية، الإسكندرية، ١٩٩٠.
- تاريخ العراق وإيران وآسيا الصغرى: أحمد سليم، دار المعرفة الجامعية، الإسكندرية، ٢٠٠٠.

- تاريخ الوطن العربي في العصور الكلاسيكية: خليل سارة، منشورات جامعة دمشق، دمشق، ٢٠٠٥.

- تاريخ إيران القديم من البداية حتى نهاية العهد الساساني: حسن بيرنيا، تر: محمد نور الدين عبد المنعم، المركز القومي للترجمة، القاهرة، ٢٠١٣.

- تاريخ اليونان من فيليبوس المقدوني إلى الفتح الروماني: أسد رستم، الجامعة اللبنانية، بيروت ١٩٦٩.

- تاريخ سورية السياسي ٣٠٠٠- ٣٠٠ق.م: هورست كلينكل، تر: سيف الدين دياب، دار المتنبي دمشق، ١٩٩٨.

- تاريخ سورية القديم: احمد أرحيم هبو، منشورات جامعة حلب، حلب، ٢٠٠٩.

- تاريخ الشرق الأدنى وحضاراته: رمضان عبده علي، دار نهضة الشرق، القاهرة ٢٠٠٢.

- تاريخ مصر القديمة: رمضان السيد، مطابع هيئة الآثار المصرية، القاهرة، د.ت.

- دراسات في تاريخ الإغريق: مفيد العابد، المطبعة الجديدة، دمشق، ١٩٨٠.

- معالم العصر التاريخي العراق القديم: نبيلة محمد عبد الحليم، دار المعارف، د.م، ١٩٨٣.

- معجم المصطلحات الآثارية المصور: زياد السلامين، دار ناشري للنشر الإلكتروني، د.م، ٢٠١٢.

- مقدمة في تاريخ الحضارات القديمة: طه باقر، دار الوراق للنشر، بغداد، ٢٠١١م، ج٢.

- الرسائل العلمية:

- بلاد النهرين في العصر الهيللنستي ٣٣١-١٢٦ق.م: حلمي رضا، رسالة دكتوراه غير منشورة، جامعة القاهرة، ٢٠١٥.

- نشوء الدولة السلوقية وقيامها (دراسة تاريخية ٣١٢-٦٤ق.م): حسن حمزة جواد، رسالة ماجستير غير منشورة، جامعة بغداد، ٢٠٠٨.

- الكتابة التاريخية في العصر الهلنستي: مفيد العابد، مجلة الفكر التاريخي، لا يوجد بياناتها.

- المراجع الأجنبية:

- Alexander 334323- B.c. conquest of the Persian Empire: Warry, John., Oprey, London, 1991.
- Alexander of Macedon, 356–323 b.c. a historical biography: Green, Peter., University of California Press, 2013
- Alexander's Heirs The Age of the Successors: Anson, Edward:, Blackwell, Oxford, 2014.
- Alexander the Great and the Hellenistic Empire: Burn, A.,, English University Press, 1947.
- A Companion to Ancient History: Erskine, Andrew., Wiley-Blackwell, Oxford, 2009.
- A Companion to Ancient Macedonia: Roisman, Joseph., and Ian Worthington, , Wiley-Blackwell, Oxford, 2010.
- A history Damascus: Burns, Ross., Routledge, New York, 2005.
- A History of Greece, 1300 to 30 bc.: Parke,r Victor., Wiley-Blackwell, Oxford, 2014.
- A history of the Ancient Near East 3000323- BC: De Mieroop, Marc., Blackwell Publishing, Oxford, 2007.
-Ancient Damascus: Pitard, Wayne., Eisenbrauns, Indiana, 1987.
- Ancient Greece from Homer to Alexander: Roisman, Joseph., Wiley-Blackwell, Oxford, 2011.
- Ancient Mesopotamia: new perspectives: McIntosh, Jane R., ABC-CLIO's understanding ancient civilizations, California, 2005.
-Ancient Syria A Three Thousand Year History: Bryce, Trevor, Oxford University Press, Oxford, 2014.
- Conflict in Ancient Greece and Rome: Spence, I. G., ABC-CLIO's understanding ancient civilizations, California, 2016.
- Encyclopedia of the Ancient Egypt: Bunson, Margaret., Facts On File, New York, 2002.
- Encyclopedia of the Ancient Greek World: Sacks, David., Facts On File, New York, 2005.
- Encyclopedia of the Roman Empire: Bunson, Mathew, Facts on File, Inc., New York, 2002.
- Eumenes of Cardia A Greek among Macedonians: Anson, Edward M., Brill, Boston, 2015.
- Great Battles of the Hellenistic World: Pietrykowsk, Joseph, , Pen & Sword Books, England, 2001.
- Greece, the Hellenistic world and the rise of Rome: Sabin, Philip., Cambridge University Press, 2008.

- Greek military service in the ancient Near East, 401–330 BCE: Rop, Jeffrey., Cambridge University Press, 2019.
- Hellenism in the East: the interaction of Greek and non-Greek civilizations from - --- Syria to Central Asia after Alexander: Kuhrt, Amelie., and Susan Sherwin-White, Gerald Duckworth, London, 1987.
- History of Greec to 323 BC: Hammond, N.G.L., Oxford University Press, 1963.
- Introducing the ancient Greeks: from Bronze Age seafarers to navigators of the western mind: Hall, Norton & Company Ltd., London, 2014
- New classical Dictionary of Greek and Roman: Smith, William, Harpor, New york, 1884.
- Sophist Kings Persians as Other in Herodotus: Provencal, Vernon., Bloomsbury Academic, London, 2015.
- Tarn, w., Alexander the Great, Cambridge University Press, 1948.
- The Ancient Near East in the 12 th-10th Centuries BCE Culture and History: Gali, Gershon., and Others, University of Haifa, 2010.
- The Aramaeans in Ancient Syria: Niehr, Herbert ., Brill, Leiden, 2014.
- The Aramaeans: their ancient history. culture. Religion: Edward Lipinski, Peeters Publishers, Paris, 2000.
- The Fourth Century B.C.: Lewis, D. M., and Others, Cambridge University Press, 2008.
- The Oxford Classical Dictionary: Hammond, N.G.L., and H. Scullard, , Oxford University, 1980.
- The Oxford Classical Dictionary: Hornblower, Simon., and Others, Oxford University Press, 1999.
- The Persian Empire The Great Courses: Lee, ,John W. I., Virginia, 2012.
- The Persian Empire A Corpus of Sources from the Achaemenid Period: Kuhrt, Routledge, London, 2010.
The Roman Republic and the Hellenistic Mediterranean From Alexander to Caesar: Allen, Joel., Blackwell, Oxford, 2020.
- The Social and Economic History of the Hellenistic World: Rostovotzeff, M., Oxford university press, London, 1941, IV.
-War in the Hellenistic World A Social and Cultural History: Chaniotis, Angelos., Blackwell, oxford, 2005.
- Waters, Matt., A Concise History of the Achaemenid Empire, 550–330 BCE, Cambridge University Press, 2013.

فريد الزَّمان ابن الشَّاطر الدِّمشقي (ت ٧٧٧هـ = ١٣٧٥م) الفلكي - الميكانيكي السَّاعاتي - الجغرافي مُفجِّر الثورة الفلكية الأوروبية (الجزء الأول)

أ.د عمار محمد النهار[1]

(1) الأستاذ في قسم التاريخ، جامعة دمشق، المدير ورئيس التحرير.

ملخَّص البحث

يُغطِّي هذا البحث _ في قسمين _ سيرة عالم الفلك العالمي ابن الشَّاطر الدمشقي، ويشرح إبداعاته اللافتة: الفلكية والميكانيكية والجغرافية، وقيمتها العلمية، وصناعته للساعات، وأثر هذه الإبداعات في العلوم وتطورها، وتأثيرها في الفَلَك الأوروبي وأبرز أعلامه: كوبرنيكوس، ومناقشة مدى مصداقية هذا العالم الغربي في التعامل مع إنجازات ابن الشَّاطر، وخاصة اكتشافه للنظام الشمسي، وبيان مؤلفات عالمنا الدمشقي ومضمونها والثراء العلمي فيها.

سيشتمل الجزء الأول على الحديث عن اسمه نشأته وإبداعه، وعن المهِّدين له من علماء الحضارة العربية الإسلامية، وإبداعاته الفلكية والميكانيكية، وخاصة صناعة الساعات، وبراعته بإبداع الإسطرلابات وصناعاتها وتعليمها.

في حين سيشتمل الجزء الثاني على الحديث عن تخصص لابن الشَّاطر ندر من انتبه إليه، وهو كونه جغرافيا، ثم كيف استند علماء الغرب على أبحاثه، وكان ذلك مفجِّراً لثورة فلكية أوروبية، وعلاقة كل ذلك بكوبرنيكوس، ومدى مصداقية اكتشافاته، بالإضافة إلى مؤلَّفات عالمنا العظيمة، وأهميتها، وبعض تفاصيلها، ثم الحديث عن عصره، وأقرانه من العلماء الذين عاصروه في علوم الرياضيات والفلك والهندسة الميكانيكية والجغرافية، وستكون النهاية مع وفاته.

_ مقدمة:

لمَّا كانت أوروبة، في العصور الوسطى، غارقة في ظلام الجهل والتخلف بمختلف جوانب الحياة، وأولها الجانب العلمي، ولمَّا كان حكامها يخافون أن تُشرق شمس العلم والمعرفة، ويقفون بالمرصاد بوجه من يحاول دخول ميدان العلم، فارضين على أصحاب الطموح أشدَّ العقوبات؛ من حرق وعزل واتهام بالهرطقة ورمي بالجنون وقتل، لمَّا كانت أوروبة على هذه الحال، كان حكام العرب المسلمون يرصدون المكافآت والجوائز للمفكرين والمتميِّزين والمبدعين والمخترعين، فوقتذاك برع العرب المسلمون في العلوم التطبيقية والإنسانية والدينية، وخرج من بين ظهرانيهم علماء عظام، تميَّزوا بعلم موسوعي شامل ومتحرر لا يقبل التعصب، ويرتاح للآخَر ويتكامل معه.

لقد كان لعلماء الحضارة العربية الإسلامية الفضل الكبير في الدراسات العلمية، وخاصة في علم الفلك، تلك الدراسات التي تم الاستناد عليها في تحقيق إبداعات العصر الحديث، وهي ما اعتمد ويعتمد عليه العالم الغربي والشرقي والشمالي والجنوبي في دراساته، وهي أصول علم الفلك الحالي المتطور إلى درجة الخيال، وهذا كله تجسيد لشخصيتنا الحقيقية التي فقدناها، فلماذا لا نبدأ باستعادة هذه الشخصية وذلك المجد؟!

إنَّ علماء الغرب انكبُّوا على دراسة علوم حضارتنا وتراثنا، ومنها الفلك، واستغرق ذلك معهم مئات السنين من الجهد الجبار، ثم بنَوا نهضتهم على ذلك، لذلك كان من الأجدر أن نكون نحن أحقَّ بهذه الدراسات، إذ كان علم الفلك محور اهتمام العلماء المسلمين منذ أكثر من ألف سنة، وتعد الإنجازات التي حقَّقوها في هذا المجال أساسًا للتطور الذي طرأ بعد ذلك على هذا العلم في

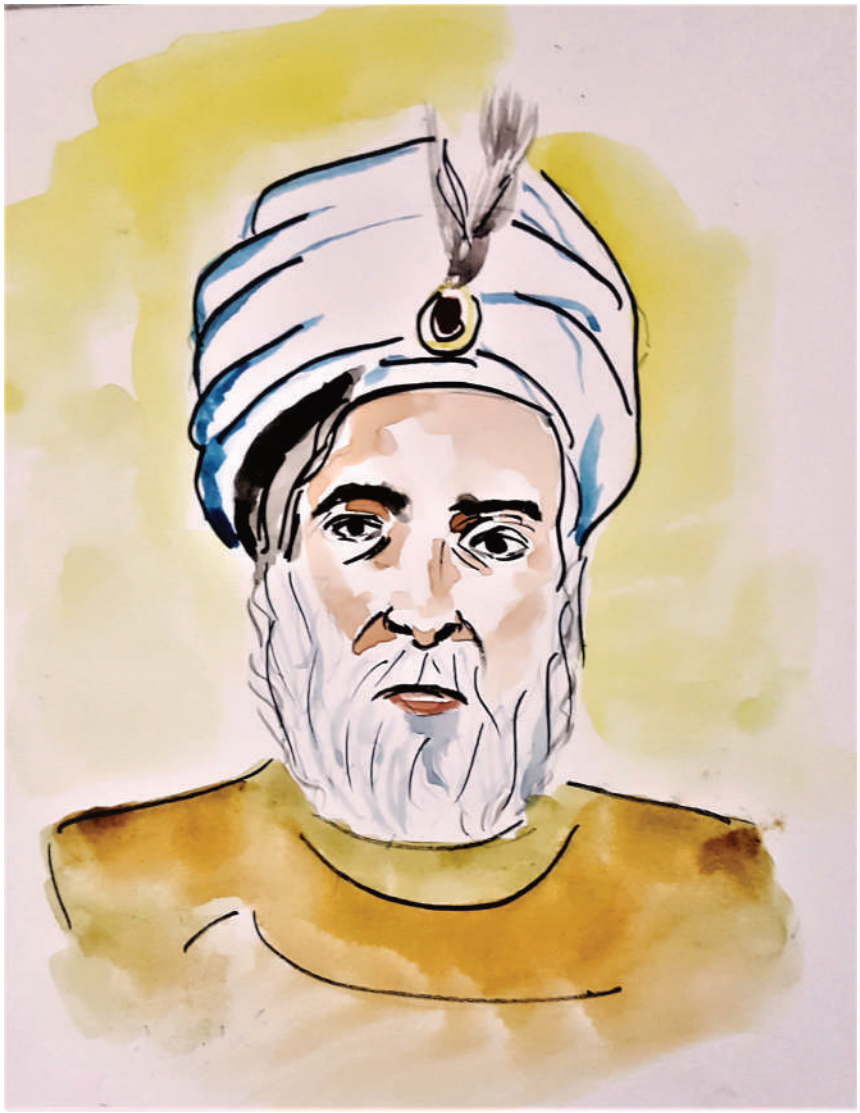

صورة ابن الشاطر كما تخيلناه

أوروبة والعالم، وأمام إنجازات العرب المسلمين الفلكية المذهلة أطلق مؤرخو علم الفلك على المدة الزمنية من القرن الثامن إلى القرن الرابع عشر الميلادي = الثاني إلى الثامن للهجرة اسم (الحقبة الإسلامية)، إذ إنَّ أغلبية الدراسات المتعلقة بالفضاء في هذه المدة كانت في العالم العربي الإسلامي.

ويعد عالمنا ابن الشَّاطر الدمشقيُّ رائدَ هذه الدراسات الفلكية الثورية، فهو الذي قضى نصف قرن من الزمان في الرصد والإبداع والاختراع، ومع أنَّه لم يجد من يُظهر علومَه، من أبناء جلدتنا خاصة، ويضعه في موضعه الحقيقي كرائد في العلوم، وكأحد كبار المجددين في علوم الفلك، فإنَّنا نقول وبكل ثقة: إنَّه البداية الحقيقية لعلم الفلك الحديث، والممهِّد ـ من خلال بحوثه ـ لعصر الفضاء، وإنَّه أعظم مهندس في صناعة الآلات الفلكية.

وهو الذي لفتت مخطوطاته الأنظار مؤخَّرًا، وتشكلت مجموعات علمية لدراستها، وخرجت بنتائج مبهرة، وتناوله بالدراسة الكثير من عمالقة العلم حديثًا، وعلى رأسهم توبي هف، الذي أصدر كتابًا سمَّاه: (فجر العلم الحديث)، ومن يقرأ العنوان يعتقد جازمًا أنَّ هف يتكلَّم ـ بحسب العنوان ـ على العلوم الحديثة والعلماء المعاصرين، ولكن المفاجأة كانت بحديث هف عن ابن الشَّاطر، حيث قارنه بكوبرنيكوس الذي جاء بعده بعدَّة قرون، والنتيجة التي توصَّل إليها: الحكم على كوبرنيكوس أنَّه سرق العديد من إبداعات ابن الشَّاطر.

وبذلك كان لابن الشَّاطر إبداعات لم يستغن عنها العلماء حتى اللحظة، وسنحاول أن نَفيَه حقَّه هنا بذكر أهمها، على أمل أن تُحقَّق كتبه الكثيرة التي ما زالت مخطوطة ومحفوظةَ في الخزائن.

لقد كُتبت عدّةُ أبحاث عن ابن الشَّاطر، وقفتُ على معظمها، وكان لي نصيب في الكتابة عنه بأبحاث مستقلة، وفي ثنايا بعض مؤلَّفاتي، وهنا تُطرح التبريرات التي دفعتني للكتابة مجددًا عن هذا العالم، وهي مسوِّغات كثيرة، ألخِّصها بما يأتي:

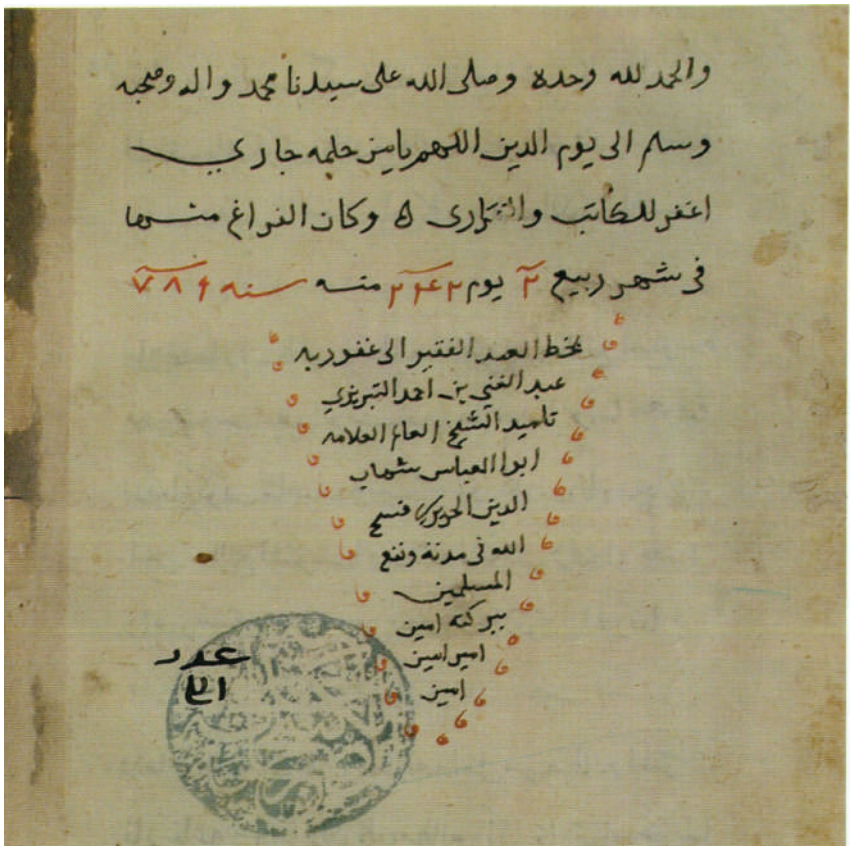
والحمد لله وحده وصلى الله على سيدنا محمد وآله وصحبه
وسلم الى يوم الدين اللهم يا من حلمه جار
اغفر للكاتب والناظر له وكان الفراغ منها
في شهر ربيع ٣ يوم ٢٣ ٢ منه سنه ٧٨٤
لخط العبد الفقير الى غفور ربه
عبد الغني بن احمد التبريزي
تلميذ الشيخ العالم العلامة
ابو العباس شهاب
الدين الحوري فسح
الله في مدته ونفع
المسلمين
ببركته امين
امين امين
امين

مخطوط نزهة السامع في الفلك لابن الشاطر

_ اتَّصفت العديد من الأبحاث السابقة عن ابن الشَّاطر بأنَّها أبحاث عامة بالإجمال، وتؤدي الجانب الثقافي، لذلك ابتعدت عن التَّخصصية والمنهجية.

_ ومنها أبحاث أتت على جوانب وأهملت أخرى.

_ لم تغطِّ الأبحاث السابقة كافة جوانب إبداعات ابن الشَّاطر الكثيرة، فمثلاً لم تُقدِّم هذه الأبحاث هذا العالم كميكانيكي وجغرافي، فالجميع أرَّخ له على أنَّه عالم فلك فقط، كما لم تستوعب جوانب عدة من حياته.

_ العديد من هذه الأبحاث تُعوزها الإحالات إلى معلوماتها، أي لم تأت المادة العلمية فيها موثقة منهجيًّا وأصولاً كما ينبغي.

_ لم تُناقش هذه الأبحاث عددًا من أهم إبداعات ابن الشَّاطر، ومثال ذلك الساعة (الإسطرلاب) التي ذكرها صَديقه الصفدي.

_ لم تنتبه تلك الأبحاث كثيرًا إلى إبداعاته الأساسية، وخاصة المنسوبة منها إلى علماء الغرب.

_ لم تتتبَّع تلك الأبحاث مظانَّ مؤلَّفاته، مثل مخطوطاته الموجودة في مكتبة الأسد الوطنية بدمشق وأرقامها مثلاً.

_ لم تستوعب تلك الأبحاث كامل مصادر ترجمته ومراجعها.

_ لم تضع تلك الأبحاث ابن الشَّاطر ضمن عصره الذي نشأ فيه وأبدع، ونحن نعلم القيمة الكبرى لمعرفة عصر المؤلف.

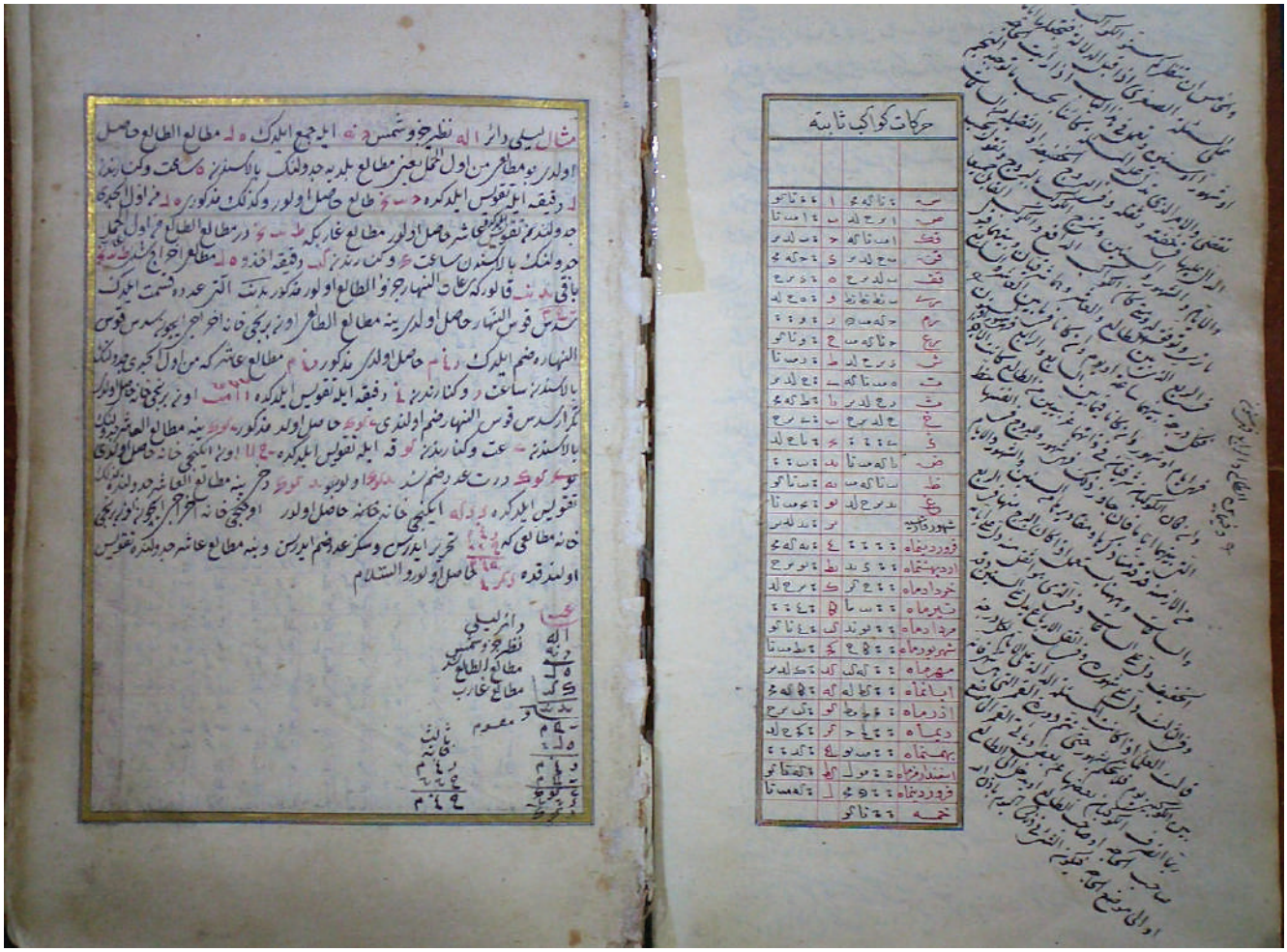

مخطوط من الحضارة العربية الإسلامية عن حركة الكواكب

ـ لم يأت أصحاب تلك الأبحاث على ذكر أقرانه في عصره، عصر المماليك، كما لم يأتوا على ذكر من مهَّد له من سابقيه من علماء الحضارة العربية الإسلامية.

بكل الأحوال: لقد كان ابن الشَّاطر ـ وما يزال ـ مجال اهتمام باحثي الغرب ومؤرِّخيه، بل إنَّ كثيرًا منهم ربطوا الثورة الفلكية الأوروبية بأبحاثه التي أحدثت تغييرات ثورية في مسار دراسات علم الفلك.

ويأتي هذا البحث كمحاولة لتكوين صورة كاملة ـ قدر الإمكان ـ عن هذا العالم وإبداعاته، لعلَّنا نفيه حقَّه، بعد أن تعب ليل نهار في سبيل الدِّين والعلم والحقيقة والإنسانية، وقديمًا قال أجدادنا: من أرَّخ لمؤمن فكأنَّما أحياه.

أولاً ـ اسمه ونشأته وإبداعه:

هو علي بن إبراهيم بن محمد بن الهمام بن محمد بن إبراهيم بن حسان، الأنصاري المؤقِّت، أبو الحسن علاء الدين، المعروف بابن الشَّاطر، من أهل دمشق، مولدًا ووفاة.

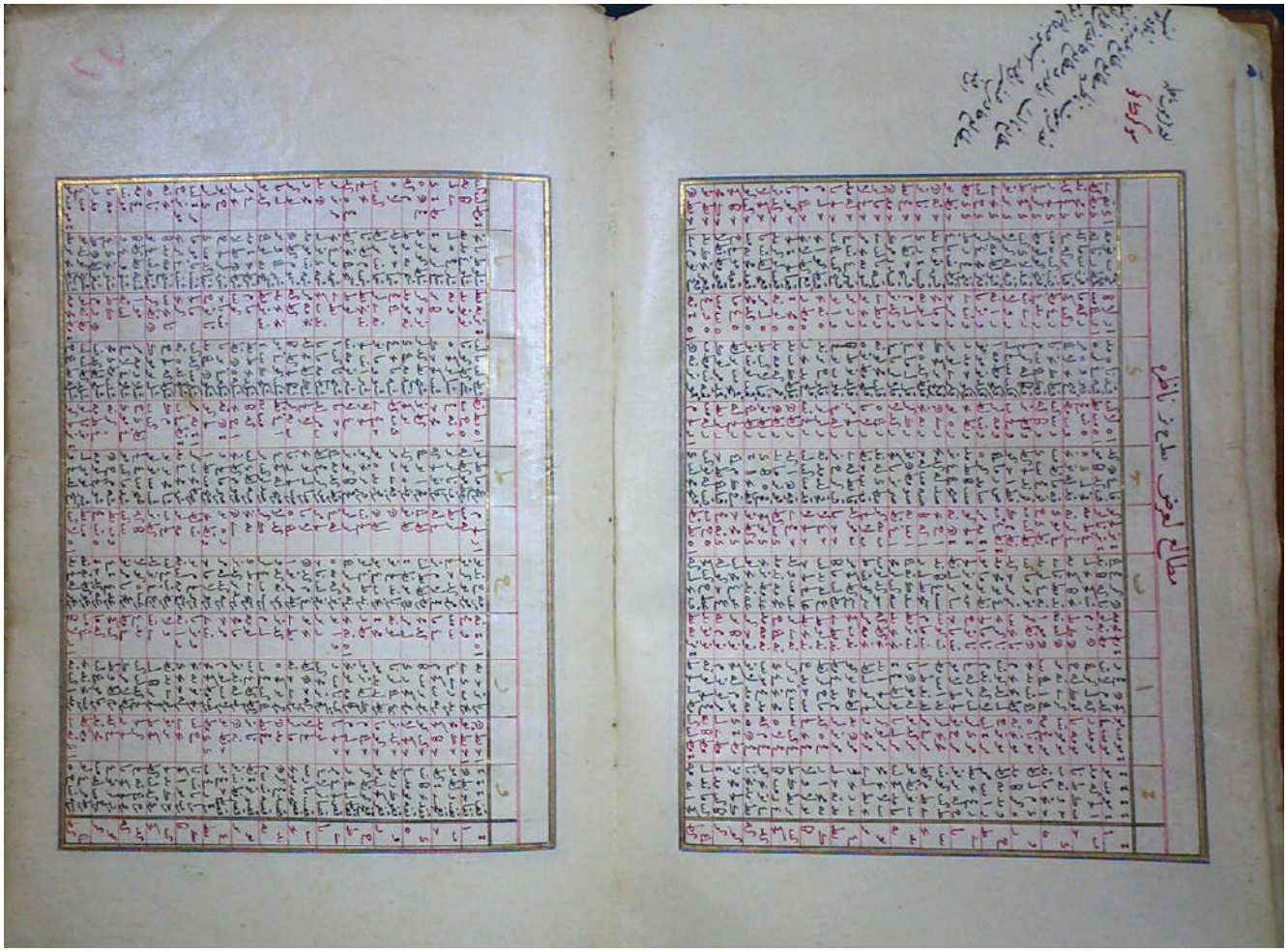

مخطوط من الحضارة العربية الإسلامية عن حركة الكواكب الثابتة

عالم الفلك والرياضيات والهندسة والجغرافية، وُلد في دمشق سنة ٧٠٤ هـ = ١٣٠٤م، ومات أبوه وله ستة أعوام، فنشأ يتيمًا، فكفله جدُّه وأسلمه لزوج خالته وابن عم أبيه.

ومنذ أعوامه الأولى كان كتاب اللّه مُعلِّمه الأول، والآخذ بيده نحو قراءة صفحات الكون المبهم.

وقد علَّمه ابن عمِّ أبيه، علي بن إبراهيم، صنعة تطعيم العاج، ودرَّبه في ورشته عامًا بعد عام، لذلك سمَّاه أهل دمشق بـ (المطعِّم)، كناية عن إبداعه واحترافه منذ صغره لتطعيم الخشب بالعاج، وهي حرفة تحتاج إلى الدقة والمهارة والذوق الرفيع، وكانت تمهيدًا وأساسًا لاختراعاته فيما بعد، لذلك يقول أستاذ فلسفة العلوم بجامعة الإسكندرية ماهر عبد القادر: إنَّ هذه المرحلة أهلَّته ليُصنِّع فيما بعد الآلات التي استخدمها في علم الفلك، وفي هذه الصَّنعة وضع نماذج من التصميمات الجديدة، لتطعيم أخشاب الأبواب والنوافذ والجدران والسقوف، في المساجد والقصور، وتطعيم أخشاب الأثاثات المنزلية من أسرَّة وصناديق ودواليب، وتطعيم ألعاب الأطفال الخشبية بقطع العاج الملونة، فكان أن مهر في الرِّياضيات وخاصة المعرفة الوثيقة

مخطوط من الحضارة العربية الإسلامية عن الاسطرلاب

بالأشكال الهندسية، وحساباتها الزخرفية في التصميم والتنفيذ.

وقد شهد على مهارته هذه صديقه المؤرخ والأديب الكبير خليل بن أيبك الصفدي (ت ٧٦٤ هـ = ١٣٦٣م)، الذي قال: «وأما صناعة التَّطعيم والنِّجارة والنَّحت؛ فله في ذلك اليد الطولى مع الإتقان والتَّحرير»[٢].

كما سُمِّي ابن الشَّاطر بـ«المؤقِّت»[٣]، لتولِّيه أعمال التوقيت بالجامع الأموي، حيث كان يعمل مدة طويلة من حياته مؤذِّنًا ثم رئيسًا للمؤذِّنين.

ولمَّا صار ابن الشَّاطر يافعًا، بدأ يخالط العلماء في حلقاتهم العلمية داخل المسجد الأموي، وفي ندواتهم المنزلية، كما درس في المدرسة الظاهرية، ودرس الأعمال الفلكية لمن سبقوه؛ كقطب الدين الشيرازي، وعمر الخيام، ومؤيد الدين العرضي الدمشقي، ومحيي الدين المغربي، والحسن

(2) الوافي بالوفيات: الصفدي، ج20، ص16.

(3) علم المواقيت: هو علمٌ تُعرف منه أزمنة الأيام والليالي وأحوالها وكيفية التوصُّل إليها، ومنفعته في معرفة أوقات العبادات والطوالع والمطالع من أجزاء البروج والكواكب الثابتة التي فيها منازل القمر، ومقادير الأظلال والارتفاعات وانحراف بعضها عن بعض وسموتها. انظر أبجد العلوم: القنوجي، ج2 ق2، ص227، 228.

بن الهيثم، واستفاد كثيراً من مدرسة (مراغة) التي كان يرأسها نصير الدين الطوسي.

ثم ساقه طبعه وميله الفطري نحو العلم إلى دراسة الهيئة والحساب والهندسة، وزار بلداناً كثيرة، فرحل إلى مصر والإسكندرية لطلب العلم، فتعلَّم هناك علوم الفلك والحساب والهندسة، فألمَّ بأطراف تلك العلوم نظريًّا وتطبيقيًّا، وكانت الدقة من أهم ما يُميِّز شخصيته، فضلاً عن قدرته الفائقة على الابتكار والإبداع.

وعمل ابن الشَّاطر في مرصد دمشق، فأفاد واستفاد من العلماء الموجودين فيه، وخاصة _ إلى جانب الفلك _ في علوم الرياضيات.

وبرع عالمنا بما اكتسبه وجناه في مجالس العلم في علوم الرياضيات والفلك والتوقيت والميكانيك، واشتهر بما أبدعه من منجزات علمية في الفلك وابتكارات في صناعة الساعات المعدنية الميكانيكية.

كما ارتبط عمل ابن الشَّاطر مؤذِّنًا بتفوقه لاحقًا في علم الفلك، فقضى معظم حياته في وظيفة التَّوقيت ورئاسة المؤذِّنين في المسجد الأموي بدمشق.

وقد أدَّت براعته في كل ذلك إلى أن نال ألقابًا كثيرة عظيمة؛ فلُقِّب بأوحد زمانه، وفريد الزَّمان، والمُطعِّم الفلكي، وأعجوبة الدهر[٤].

ومع هذه الألقاب الطَّنَّانة كما يقولون، فإنَّ ابن الشَّاطر اتَّصف بالتواضع، يقول ابن العماد الحنبلي: «وكانت لا تُنكر فضائله، ولا يتصدَّى للتَّعليم، ولا يَفخر بعلومه»[٥].

وقد وقفت على سبب تلقيبه بابن الشَّاطر فيما قاله الصفديُّ صديقُه: «قرأ على علي بن إبراهيم بن يوسف، وكان يُعرف بابن الشَّاطر، فسُمِّي هو بذلك»[٦].

وكان لابن الشاطر ثروة ومباشرات، ودار من أحسن الدُّور وضعًا وأغربها، كما عبَّر المؤرخ ابن العماد الحنبلي[٧].

ولنا أن نختم ترجمته بشهادة معاصر له، هو صديقه المؤرخ الأديب الصفدي، الذي يقول عنه: «هو الإمام، فريد الزمان، المُحقِّق، المتقن، البارع، الرياضي، أعجوبة الدهر»[٨].

ثانيًا _ المُمهِّدون لابن الشَّاطر:

لا شكَّ أن ابن الشَّاطر قد استفاد من أعمال العلماء الذين سبقوه، ثم بنى على ذلك إبداعاته، مع انتهاجه التحري والنقد والتصحيح في تعامله مع هذه الأعمال، وسألخِّص الحديث هنا عن

(4) انظر في ترجمة ابن الشَّاطر: الوافي بالوفيات: الصفدي، ج20، ص12 _ 16. الدارس في تاريخ المدارس: النعيمي، ج2، ص298، 299، إنباء الغمر: ابن حجر، ج1، ص 172، 173، الدرر الكامنة: ابن حجر، ج3، ص 77، شذرات الذهب: ابن العماد، مج8، ص 435. ديوان الإسلام: ابن الغزي، ج3، ص171. شمس الحضارة العربية الإسلامية، مسيرة حضارة غيَّرت معالم أوروبة والعالم: عمار النهار، ص427، 428.
(5) شذرات الذهب: ابن العماد، ج8، ص435.
(6) الوافي بالوفيات: الصفدي، ج20، ص13.
(7) شذرات الذهب: ابن العماد، ج8، ص435. وانظر خطط الشام: محمد كرد علي، ج4، ص46.
(8) الوافي بالوفيات: الصفدي، ج20، ص13.

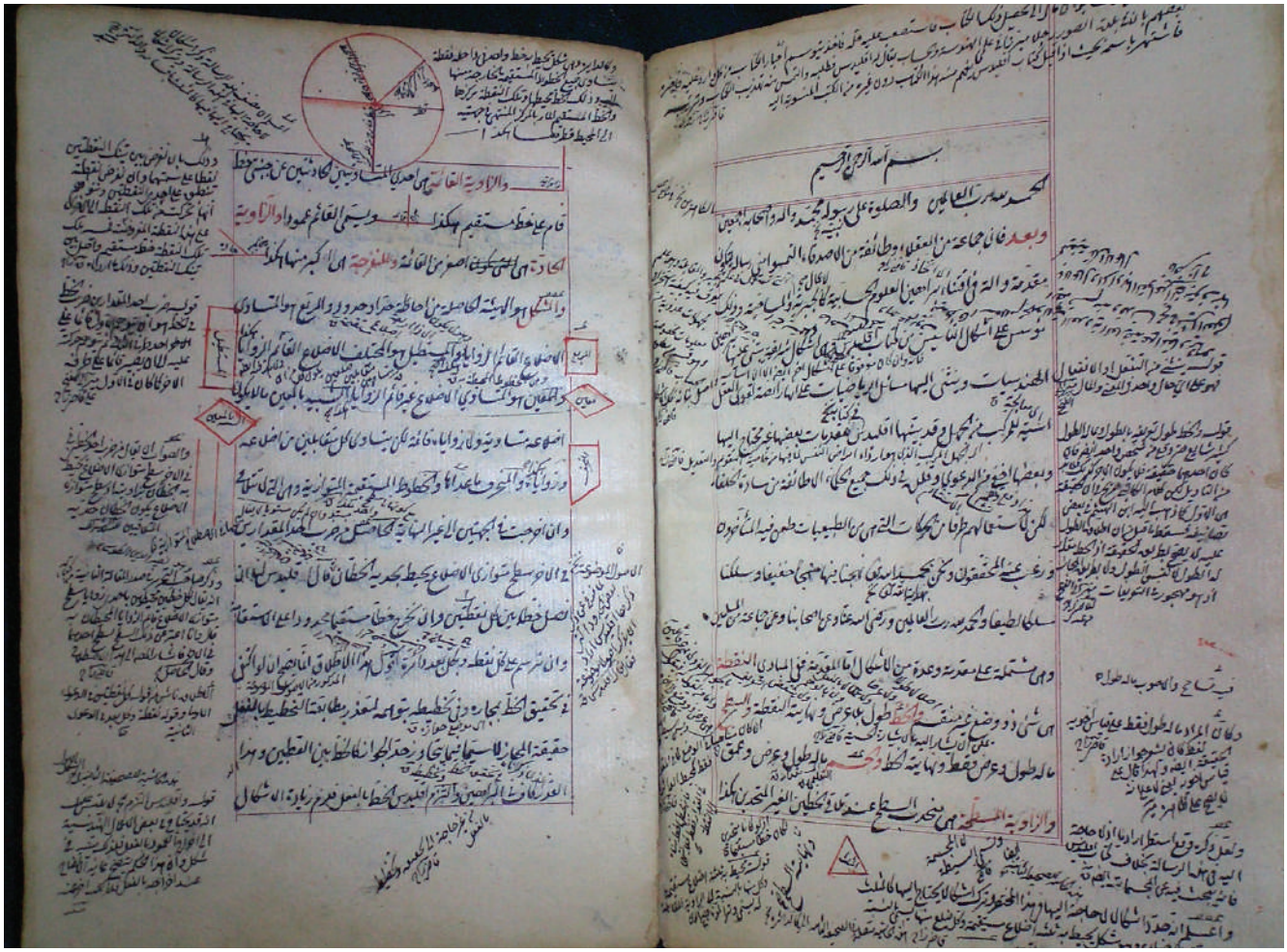

مخطوط الملخص في الهيئة من الحضارة العربية الإسلامية

أبرز هؤلاء العلماء، بعد أن ألمحتُ إلى عدد منهم قبل أسطر.

وأولهم العالم الفيزيائي الفلكي الرياضي الكبير الحسن بن الهيثم (ت ٤٣٠ هـ = ١٠٣٨م)، الذي وضع طريقة لاستخراج ارتفاع نجم القطب على غاية التحقيق، ولا تزال إلى الآن تُستعمل بالآلات الحديثة، ووصل بواسطتها إلى حسابات وأرصاد تكاد تخلو من الأخطاء وتتطابق مع الحسابات الحديثة.

وأبدع بعضَ آلات الرصد، وأصلح بعضَها مثل ذات الحلق، وحسب ارتفاعَ الغلاف الجوي وقدَّره بدقة عالية (١٥كم)، وتوصل إلى أنَّ القمر من دون الأجرام السماوية الأخرى يستمد نوره من ضوء الشمس ولا يضيء بذاته، وبذلك توصل إلى ظاهرة التظليل، وكتب عن تطبيقها.

وكانت نتائج ابن الهيثم معروفة تمامًا لدى أوروبة، وخاصة فيما بين القرنين السادس والسابع الهجريين = الثاني عشر والثالث عشر الميلاديين، وكان ذلك بواسطة (جون بيكام)، ونهل من ابتكاراته علماء كثيرون في القرن الحادي عشر الهجري = السابع عشر الميلادي، وفي مقدمتهم

العالم المشهور (كبلر)[٩].

والعالم الثاني: عبد الرحمن بن عمر بن محمد بن سهل الصوفي (ت ٣٧٦ هـ = ٩٨٦م)، الذي اتبع في أرصاده منهجًا علميًّا دقيقًا، يقوم على المشاهدة والمعاينة المباشرة والمتابعة اليومية، والتسجيل المستمر لكل ما يشاهده أو يكتشفه عن الأجرام السماوية، وكان يرسمها بالألوان ويُمثِّلها على هيئة إنسان أو حيوان أو شيء ما[١٠].

وقد توصل الصوفي، أثناء مراقبتة لحركة دائرة البروج في السماء، ودراسة حركة ما يُسمَّى بالاعتدالين، إلى أنها تتحرك درجة واحدة كل ٦٦ سنة، وكانت حسابات بطليموس كل ١٠٠ سنة، وعلى الحسابات الحديثة كل ٧١ سنة، أي إن الفارق بين الصوفي والمراصد الحديثة العملاقة بأدواتها لا يتجاوز الخمس سنوات.

ورسم خريطة للسماء بدقة فائقة، حسب مواضع النجوم وأحجامها مُقدِّرًا إشعاع كل منها، فتبين فيما بعد أن تقديره متوافق تمامًا مع قانون العالم (فخر)[١١].

والعالم الثالث: ابن الزرقالة (ت ٤٩٣هـ = ١٠٩٩م)، أبو إسحاق إبراهيم بن يحيى التجيبي النقاش[١٢].

وقد ابتكر العديد من آلات الرصد، وأبدع طريقة جديدة تُبيِّن استخدام الإسطرلاب مع دليل لمعرفة ما يُدرَك بالرصد، وسُمِّيت باسمه، أي: الصحيفة الزرقالية، وذلك عندما أضاف للإسطرلاب دائرة القمر التي تؤذن بتتبُّع حركات هذا الجرم التابع للأرض في مجراه، كما أضاف إليه مربعًا لحساب المثلثات يُبيِّن للباحث على الفور الأظلال المبسوطة والمنكوسة للزوايا المقيسة، منسوبة إلى نصف قطر مقسم إلى (١٢) جزءًا، وقد ذاع صيت الصحيفة الزرقالية هذه في أوروبة، واشتهرت هناك باسم (Saphsea) أي الصفيحة.

وقد أخذ كوبرنيكوس الكثير من آراء وأقوال ابن الزرقالة في كتابه (دوران الأجرام السماوية)، ومنها قوله بدوران الكواكب في مدارات بيضويّة (إهليلجية)[١٣].

والعالم الرابع من علماء الفلك في الحضارة العربية الإسلامية: البوزجاني محمد بن محمد بن يحيى بن إسماعيل بن العباس، اختُلف في وفاته، فقيل إنه توفي سنة ٣٧٦ هـ = ٩٨٦م، في بوزجان، وقيل إنه توفي في بغداد سنة ٣٨٨ هـ = ٩٩٨م.

وقد أبدع معادلة السرعة، وهي معادلة ثلاثية، تَوضَّح بموجبها مواقعُ القمر، وكشف التغيُّر

(9) عيون الأنباء في طبقات الأطباء: ابن أبي أصيبعة، ص550 560-. إخبار العلماء بأخبار الحكماء: القفطي، ص114 - 116. عبقرية العرب في العلم والفلسفة: عمر فروخ، ص107-110. نوابغ علماء العرب والمسلمين في الرياضيات: علي عبد الله الدفاع، ص138-140. تراث العرب العلمي في الرياضيات والفلك: قدري طوقان، ص262 - 269. أعلام الفيزياء في الإسلام: علي الدفاع، جلال شوقي، ص56 - 59، 162 - 167. الموسوعة العربية العالمية، (ابن الهيثم – العلوم عند العرب والمسلمين)

(10) إخبار العلماء: القفطي، ص152 ،153. معجم المؤلفين: عمر رضا كحالة، ج2، ص104. موسوعة الأوائل والمبدعين: شوقي أبو خليل ونزار أباظة، ج3، ص580 ،581.

(11) تراث العرب العلمي في الرياضيات والفلك: طوقان، ص194-196. موسوعة الأوائل والمبدعين: شوقي أبو خليل ونزار أباظة، ج3، ص580 ،581.

(12) انظر في ترجمته: التكملة لكتاب الصلة: ابن الأبار، ج1 ص 120. الأعلام: الزركلي، ج1 ص 79.

(13) التكملة لكتاب الصلة: ابن الأبار، ج1، ص120. شمس العرب تسطع على الغرب: زيغريد هونكه، ص144، 145. الأعلام: الزركلي، ج1 ص 79. تاريخ الفكر الأندلسي: آنخل بالنثيا، ص451، 452.

بحركة القمر، وسبق بذلك العالم الدنماركي (تيخو براهي)، الذي نُسب له هذا الكشف، ولهذا الاكتشاف أهمية كبرى تاريخية وعلمية، لأنه أدى إلى اتساع نطاق علم الفلك والميكانيكا[١٤].

والعالم الخامس: ابن يونس أبو سعيد عبد الرحمن بن أحمد بن يونس بن عبد الأعلى الصدفي المصري (ت ٣٩٩ هـ = ١٠٠٨م)، أمره العزيز الفاطمي أبو الحاكم أن يضع زيجًا (جداول فلكية)، فبدأ به في أواخر القرن الرابع الهجري = العاشر للميلاد، وأتمه في عهد الحاكم ولد العزيز، وسمَّاه (الزيج الحاكمي).

ورصد ابن يونس كسوف الشمس وخسوف القمر في القاهرة حوالي عام ٩٧٨م = ٣٦٨هـ، وأثبت فيهما تزايد حركة القمر، وحساب ميل دائرة البروج، فجاء حسابه أقرب ما عُرف إلى الحقيقة، وكان ذلك أول رصد سُجِّل بدقة متناهية وبطريقة علمية بحتة[١٥].

والعالم السادس: الكاشي غياث الدين جمشيد بن مسعود بن محمود الكاشي أو الكاشاني (ت ٨٣٢ هـ = ١٤٢٩م).

بنى مرصدًا امتاز بدقة أرصاده وسمَّاه: مرصد سمرقند، فكان علماء الفلك يأتون إليه من كل فجٍّ لانتهال العلم ونقله إلى بلادهم، فاستطاع أن يُقدِّر بكل دقة الكسوفات التي حصلت في السنوات الثلاث بين عامي ٨٠٩ و٨١١ هـ = ١٤٠٧ و١٤٠٩م. ودقَّق جداول النجوم، ولم يقف عند حد التدقيق، بل زاد على ذلك من البراهين الرياضية والأدلة الفلكية.

وقد درس الكاشي مدارات القمر وعطارد حتى وصل إلى نتيجة مَرضيّة للغاية، فكان أول من اكتشف أن مدارات القمر وعطارد إهليلجية (أي قطع ناقص أو شكل بيَضوي)، ولقد ارتكب العالم الألماني المعروف (يوهان كبلر) خطأ فادحًا بادعائه أنَّه أول من فكَّر بأنَّ مدارات القمر وعطارد إهليلجية[١٦].

ثالثًا _ إبداعات ابن الشَّاطر الفلكية:

ساعدت أبحاث ابن الشَّاطر في تقدُّم العديد من العلوم أيَّما تقدم؛ إذ برع في علوم الجغرافية والفلك والحساب والهندسة كثيرًا، حتى لُقِّب بألقاب تدل على ذلك.

وسعى لإنتاج نموذج أكثر توافقًا مع الملاحظات التجريبية وعمليات الرصد الفلكي، ويمكن أن نقول إنَّ أعماله تُمثِّل نقطة تحوُّل في علم الفلك، إذ تُعد ثورة علمية قبل عصر النهضة.

وقدَّم ابن الشَّاطر نماذج فلكية في أزياج جديدة (جداول فلكية رياضية)، قائمة على التجارب والمشاهدة والاستنتاج الصحيح، وقد ادَّعى كوبرنيكوس هذه النماذج لنفسه، وخدمه لاحقوه في أوروبة في هذا الادعاء.

(14) الفهرست: ابن النديم، ص394، 395. إخبار العلماء: القفطي، ص188، 189. تراث العرب العلمي في الرياضيات والفلك: طوقان، ص202. أثر العرب في الحضارة الأوروبية: جلال مظهر، ص287. تاريخ العرب العام: سيديو، ص346. الحضارة العربية: جاك ريسلر، ص177. الرواد العرب في الرياضيات والفلك: صلاح الدين خربوطلي، ص144.

(15) مرآة الجنان وعبرة اليقظان: اليافعي، ج2، ص341. تراث العرب العلمي في الرياضيات والفلك: طوقان، ص-243 246. الرواد العرب في الرياضيات والفلك: صلاح الدين خربوطلي، ص168، 169. وانظر مجلة الفيصل: العدد (40)، ص 68.

(16) انظر عن كل ذلك: نوابغ علماء العرب والمسلمين في الرياضيات: الدفاع، ص204-209. تراث العرب العلمي في الرياضيات والفلك: طوقان، ص-402 405. الأعلام: الزركلي، ج2، ص136. موسوعة الأوائل والمبدعين: أبو خليل وأباظة، ج5، ص912.

وخلال بحثه في الوقت وتحديده فلكيًّا؛ قام ابن الشَّاطر بتجميع جداول تعمل على الربط بين الوظائف الفلكية المقاسة وبين مواعيد الصلاة، اعتمد فيها على خط عرض لمنطقة تقع شمال دمشق وتُعطى الدرجة (٣٤)، حيث يُستفاد منها في تحديد موعد شفق شروق الشمس وغروبها، هذا بالإضافة إلى تحديد موعد صلاة الظهر.

ودرس ابن الشَّاطر حركة الأجرام السماوية بكل دقة، كما نجح في قياس زاوية انحراف دائرة البروج، وتوصل إلى نتيجة غاية في الدقة، وأثبت أنَّ زاوية انحراف دائرة البروج تساوي (٢٣ درجة و٣١ دقيقة)، علمًا بأن القيمة المضبوطة التي توصَّل إليها علماء القرن العشرين بوساطة الآلات الحاسبة هي (٢٣ درجة و٣١ دقيقة و١٩،٨ ثانية)[١٧].

ومن أهم إنجازات ابن الشَّاطر: تصحيحه لنظرية بطليموس، التي كانت ترى خطأ أنَّ الأرض هي مركز الكون، وأنَّ الأجرام السماوية كلها تدور حولها مرة كل أربع وعشرين ساعة، ولكن ابن الشَّاطر أثبت أنَّ الأرض والكواكب المُتحيِّرة هي التي تدور حول الشمس بانتظام، وأنَّ القمر يدور حول الأرض.

وفي أشهر كتبه (نهاية السُّول[١٨] في تصحيح الأصول)، انتقد ابن الشَّاطر النظام الفلكي البطلمي، ورفض أفكار بطليموس وغيره من علماء الإغريق حول الشمس والقمر والنجوم والكواكب، واقترح بدلاً من ذلك نموذجًا فلكيًّا جديدًا.

وكان العالَم كله في زمن ابن الشَّاطر يعتقد بصحة هذه النظرية التي لا تحتمل جدالاً، يقول ابن الشَّاطر: «إنَّه إذا كانت الأجرام السماوية تسير من الشرق إلى الغرب، فالشمس إحدى هذه الكواكب تسير، ولكن لماذا يتغيَّر طلوعها وغروبها؟ وأشد من ذلك أن هناك كواكب تختفي وتظهر، سمُّوها الكواكب المُتحيِّرة، لذا الأرض والكواكب المُتحيِّرة تدور حول الشمس بانتظام، والقمر يدور حول الأرض».

وقد توصل كوبرنيكوس إلى هذه النتيجة _ التي تُنسب إليه للأسف _ بعد ابن الشَّاطر بقرون.

ولاحظ العديد من العلماء أنَّ التفاصيل الرياضية والحسابية لنموذج كوبرنيكوس الفلكي مطابقة تمامًا لنموذج ابن الشَّاطر، وقد علق نويل سويردلو على أن نموذج كوبرنيكوس الخاص بكوكب عطارد خاطئ، وبما أنَّه هو نفسه نموذج ابن الشَّاطر، فهذا يشكل أفضل دليل على أنَّ كوبرنيكوس كان ينسخ أعماله من مصادر أخرى من دون فهم كامل، وهذا يُثبت على الأقل أنَّ ابن الشَّاطر كان له الأثر الكبير على أعمال كوبرنيكوس.

كما لم يُعجَب ابن الشَّاطر بشكل نظرية بطليموس من الناحية التخطيطية، ولم يُقنعه أيضًا توصيف أبعاد وحجم كل من القمر والكواكب، وفي سعيه لإزالة الغرابة وعدم الوضوح الظاهر في توصيف بطليموس الفلكي _ الذي كان حينها من المسلمات _ قام ابن مدينة دمشق بإدراج تعديلات عبقرية تعتمد على الدوائر الثانوية، التي قادته إلى الوصول لنظرية مُوحَّدة مركزها

(17) انظر العصر المفترى عليه، عصر المماليك البحرية، دراسة فكرية: عمار النهار، ص458. تاريخ المماليك: عمار النهار، ص511 _ 513. مجلة الفيصل: العدد (24)، ص61، 62. أثر الحضارة الإسلامية على أوروبة: عمار النهار، ص381، 382.

(18) السُّول: أصلها السُّؤل، فسُهِّلت الهمزة لتحقيق السَّجع.

الشمس، تقوم فيها الكواكب بالدوران ضمن دوائر معينة، والمميز أنه قد وصل إلى نفس أعداد كوبرنيكوس التي بلغها الأخير بعد قرنين ونصف من وفاة العالم الدمشقي[١٩].

ومن إنجازات ابن الشَّاطر الفلكية: معرفته لعلم الخيط في المزولة وتركيبه، وتُستعمل بعض الآلات الفلكية التي ابتكرها وصمَّمها في الرصد والأخرى في الحساب، كما تمثِّل الساعة الشمسية التي وضعها في الجامع الأموي بدمشق، والساعة النحاسية الصغيرة المحفوظة في المكتبة الأحمدية بحلب، القدرة الإبداعية الكبيرة في هذا العلم عند ابن الشَّاطر.

وليس ابتكار ابن الشَّاطر للربع الهلالي والربع العلائي والربع التام إلا تطويراً لِلآلات الحسابية المتداولة في زمانه، وهذه بمجملها آلات مبتكرة مصممة ميكانيكيًّا لتعطي حلولاً رقمية للمشكلات الأساسية لعلم الفلك الكروي، وإن افتقرت هذه الأدوات لبعض الدقة فقد امتازت وعوضت عن ذلك بسهولة الحصول على النتائج.

وصنع ابن الشَّاطر (صندوق اليواقيت) لأحد الحكام المماليك في دمشق، والذي احتوى على ساعتين شمسيتين، محفوظتَين في مكتبة أوقاف حلب، وفي حال تغطية هذا الصندوق يتحول إلى آلة إسطرلاب، وعُرف فيما بعد باسم: دائرة معدل النهار، وأهم أجزائه إبرة مغناطيس لامتدادها في الجهات الأربع، ثم رسوم لمعرفة القبلة في بعض البلدان، وقد حفر عليه ابن الشَّاطر من الداخل درجات عرض ست مدن: الصعيد (مصر العليا)، مصر (القاهرة)، غزة، دمشق، حلب، بغداد، البصرة، فارس، كرمان، الهند (وسط الهند)[٢٠].

وكان ابن الشَّاطر مبدعًا في وضع الزيَج، والزيج كلمة من أصل فارسي تعني الجداول السلطانية، أي انسجام خطوط الطول مع العرض كنسيج، وهو أمر يفيد في معرفة أماكن وجود الكواكب في السماء والأبعاد بينها، حيث تُسجَّل نتائج الأرصاد في الزيج، وكانت تُوضع في محطة مراقبة النجوم.

وعلم الأزياج هو من فروع علم الفلك، وقد شرحه ابن خلدون بأنَّه صناعة حسابية تقوم على قوانين عددية فيما يخص كل كوكب عن طريق حركته، وما أدى إليه برهان الهيئة في وضعه من سرعة وبطء واستقامة ورجوع، ويُعرف به مواضع الكواكب في أفلاكها لأي وقت فُرض من قبل حسبان حركاتها على تلك القوانين المستخرجة من كتب الهيئة، ولهذه الصناعة قوانين كالمقدمات والأصول لها في معرفة الشهور والأيام والتواريخ الماضية، وأصول متقررة في معرفة الأوج والحضيض والميول وأصناف الحركات، واستخراج بعضها من بعض، يضعونها في جداول مرتبة تسهيلاً على المتعلمين[٢١].

(19) مؤتمر: الترجمة وإشكالات المثاقفة، بحث يوسف بن عثمان: الترجمة والتلقي ومنافسات السبق في الاكتشافات العلمية، ص8 _ 10. أعلام الحضارة العربية الإسلامية: زهير حميدان، ج4، ص83، 84. وانظر تاريخ علم الفلك في العراق: عباس العزاوي، ص35، 36. تراث العرب العلمي في الرياضيات والفلك: طوقان، ص221. ابن الشَّاطر: غانم، ص14-31. ابن الشَّاطر مكتشف النظام الشمسي: صالح السعيدي، موقع جريدة القبس الكويتية. وانظر: Ibn Alshater; Kennedy (E –S). p 14.

(20) انظر الندوة العالمية التاسعة لتاريخ العلوم عند العرب: العطاء العلمي العربي في العصور الإسلامية، بحث الدكتور سامي شلهوب: الآلات الفلكية لابن الشَّاطر الفلكي الدمشقي من القرن الرابع عشر. وقد أشرنا إلى هذا الإنجاز على أنه ساعة في فقرة الساعات. أثر الحضارة الإسلامية على أوروبة: عمار النهار، عمرو منير، ص384، 385. العصر المفترى عليه، عصر المماليك البحرية، دراسة فكرية: عمار النهار، ص458. الحضارة العربية الإسلامية: عمار النهار، ص317، 318. خطط الشام: محمد كرد علي، ج4، ص46.

(21) ابن خلدون: المقدمة، ص642، 643، وانظر في تعريف الزيج أيضًا مفتاح السعادة ومصباح السيادة: طاش كبري زاده، ص486. أبجد العلوم: القنوجي، ج2، ق1، ص372. دائرة المعارف: بطرس البستاني، مج9، ص333.

وتاجُ كُتب ابن الشَّاطر في ذلك هو: (زيج ابن الشَّاطر)، وهو الكتاب الذي صار به مدرسة فلكية متميزَة في الشام كله، تعادل وتماثل في تميزها مدرسة ابن يونس الفلكية في مصر، قبل أربعة قرون، ففي هذا الكتاب حقَّق ابن الشَّاطر أماكن الكواكب، وبيَّن سائر حركاتها. وقد رتَّب كتابه أحسن ترتيب، وشرح كل ما ورد فيه في مئة باب. ويأتي هذا الزيج، أو الجداول الفلكية، من حيث تسلسله التاريخي، بعد زيج البتَّاني، وزيج الطُّوسي، وزيج ابن يونس الحاكمي.

كما قلب ابن الشَّاطر في هذا الكتاب نظرية بطليموس عن الشمس والكواكب رأسًا على عقب، أو أنَّه أوقفها على قدميها، فقد برهن رياضيًّا وفلكيًّا، في هذا الزيج، ثم في زيجه الصغير الجديد، أنَّ الأرض، وهي من الكواكب السبعة، تدور حول نفسها على محور لها مرَّة في كل يوم، فيكون الليل والنهار، وحول الشمس مرَّة في كل سنة شمسية، فتكون الفصول الأربعة، وكذلك تفعل سائر الكواكب من دوران حول نفسها، ودوران حول الشمس في أفلاك دائرية متباعدة.

ولمهارته الفائقة، طلب الخليفة العثماني مراد الأول _ الذي حكم الشام ما بين عامي ٧٦١ و٧٩١هـ _ من ابن الشَّاطر أن يُصنِّف له زيجًا، فألَّف له زيجًا جديدًا ضمَّنه نظرياته الفلكية.

وقد بنى ابن الشَّاطر الزيج الجديد على قواعد رياضية ومنهجية علمية صحيحة، إذ وضع جداول تحتوي على حسابات عددية، استنتجها من قوانين رياضية، اعتمد فيها على خبرته في علوم الحساب والهندسة.

وانتقد ابن الشَّاطر في الزيج الجديد الذي أنشأه ابنَ الهيثم ونصير الدين الطوسي، لأنهما لم يضعا نظريات بديلة عن نظريات بطليموس في كتابه (المجسطي) التي انتقداها، وهو الأمر الذي تفاداه ابن الشَّاطر عندما وضع في الزيج الجديد نظريات مبنية على منهجية علمية صحيحة[٢٢].

رابعًا _ ابن الشَّاطر الميكانيكي، صانع الساعات:

أتقن ابن الشَّاطر الهندسة كثيرًا، وخاصة علم الحيل أو الميكانيك، وكان مبدعًا في علم الساعات.

وأهم ما أنتجه في هذا المجال إبداعٌ مثير يستحق الدراسة والتتبُّع، فلقد ذكر صلاح الدين الصفدي، ونقل ذلك عنه النعيمي (ت ٩٢٧ هـ = ١٢٥٠ م)، في ترجمته لابن الشَّاطر ما يأتي: «هو الإمام فريد الزمان المحقِّق المتقن، دخلتُ منزله في شهر رمضان عام ٧٤٣هـ = ١٣٤٢م لرؤية الإسطرلاب الذي أبدع وضعه، فوجدته قد وضعه في قائم حائط في منزله داخل باب الفراديس

(22) انظر الآلات الفلكية لابن الشَّاطر الفلكي الدمشقي من القرن الرابع عشر: سامي شلهوب، الندوة العالمية التاسعة لتاريخ العلوم عند العرب. أثر الحضارة الإسلامية على أوروبة: عمار النهار، عمرو منير، ص384، 385. الحضارة العربية الإسلامية: عمار النهار، محمد شعلان الطيار، ص317، 318.

في درب الطيَّار، ورأيت هذا الإسطرلاب، فأنشأ لي طربًا، وجدَّد لي في المعارف أربًا...

وصورة هذا الإسطرلاب المذكور: قطرُه مقدار نصف أو ثلث بذراع العمل تقريبًا، يدور أبدًا على الدوام في اليوم والليلة من غير رمل رحى ولا ماء على تحركات الفلك، لكنَّه نُسِّق بتثاقيل قد رتَّبها على أوضاع مخصوصة، تُعلَم منه الساعات المستوية والساعات الزمانية بحركة واحدة، وهنا من أغرب ما يكون، ويعلم من الطالع والغارب والمتوسط والوتر، ويعلم منه ارتفاع الشمس وسمتها وسعة مشرقها ووقت طلوع الكواكب وتوسطها وغروبها، وما يتعلق بذلك من سعة الطلوع والغروب والبعد والمطالع، وبالجملة فكل ما في رسائل الإسطرلاب من الأبواب والأعمال فإنَّه يظهر في هذا الإسطرلاب للعيان من غير عمل بوضع يد أو غيرها، وفوق الإسطرلاب دائرة تدور دورة كاملة في ربع درجة، والزوايا مقسومة بخمسين قسمًا متساوية، ومقسومة أيضًا بخمسة عشر قسمًا متساوية، وفي مركز هذه الدائرة شخص يمتد إلى محيطها، وكلما وصل رأس الشخص إلى أول قسم من الخمسة عشر كان جزءًا واحدًا من ستين جزءًا من الدرجة الواحدة، وهو دقيقة، وهو واضح مقداره في العين مساحة إصبعين، وإذا وصل الشخص المذكور إلى أول قسم من الأقسام الخمسينية كان جزءًا من مئتي جزء من الدرجة الواحدة، فعلى هذا تكون الساعة منقسمة بستين قسمًا بكمال الدورة، وبتسعمئة قسم من الأقسام الثانية، وبثلاثة آلاف قسم من الأقسام الثالثة، فيكون اليوم بلياليه منقسمًا مئتين وسبعين ألف قسم متساوية، وكل منها مدرك بالبصر مساحة عرضه دون الإصبع، وفي كل قسم من هذه الأقسام الاثنين والسبعين ألفًا يُسمع عند مضي كل قسم دقة من آلة تذهب وتجئ على أعلى الإسطرلاب، وفي أعلاه ثلاثة أبواب، إذا مضت ساعة مستوية فالباب الثالث الأوسط يسقط منه بندقة في الكأس الأيمن عند أول كل وقت من أوقات الصلوات الخمس، فيعلم بذلك دخول أول الوقت الشرعي، ومجموع هذا الإسطرلاب وما يحركه من الآلات في مساحة ذراع تقريبًا طولاً وعرضًا وعمقًا، وأما حسن هذا الإسطرلاب ووضعه وتحرير آلاته وإتقانها وظرفها ففي غاية الحسن»[٢٣].

ومعنى كلام الصفدي أنَّه رأى في قصر ابن الشَّاطر بدمشق، آلة من النحاس معلقة على جدار، تدور بغير رحى ولا ماء، وتُستخدم في قياس أوضاع الأجرام السماوية، لا يزيد قطرها على نصف أو ثلث ذراع تقريبًا (ثلاثين سنتيمترًا)، وبها عقرب يدور حول مركز الدائرة بهذه الآلة، بانتظام عجيب، فظنَّ أنَّ ما يراه هو إسطرلاب جديد اخترعه ابن الشَّاطر، فأخبره ابن الشَّاطر أنها ساعة ابتكرها وصنعها بيديه من النحاس، واستخدم فيها صنعة الحيل (الميكانيك) ليعرف بها الزمن في النهار والليل، ودون رمل ولا ماء، ولا ظل متحرك للشمس.

وقد رأى المختصون أنَّ ما يقصده الصفدي ليس الإسطرلاب الذي هو ميزان الشمس، لأنَّ اختراعه كان قبل زمنه بمئات السنين، ولكنَّه يقصد الآلة المسمَّاة في زماننا بالساعة، فيكون ابن الشَّاطر قد صنع الآلة الجامعة وآلة الساعة الفريدة، التي تعمل ليلاً ونهارًا بدون أيِّ مساعدة لا من رمل ولا من ماء.

(23) الوافي بالوفيات: الصفدي، ج20، ص13، 14. الدارس في تاريخ المدارس: النعيمي، ج2، ص298، 299.

وقد استنتج عبد القادر بدران أنَّ هذا وصف للساعة وليس للإسطرلاب، فعقَّب على نص الصفدي بما يأتي: «الذي يلوح لي أنَّ الذي دعاه الصفدي الإسطرلاب ليس هو الإسطرلاب المشهور، لأنَّ هذا ميزان الشمس، واختراعه كان قبل زمنه بألوف من السنين، ولكنه الآلة المسماة في زمننا بالساعة، ويكون ابن الشَّاطر هو المخترع لهذا النوع العظيم الفائدة»[٢٤].

ولو صحَّ ما رواه الصفدي، فهي أول ساعة حائط معدنية من نوعها عرفتها الدنيا، بل أول ساعة ميكانيكية عرفها العالم، ومن قبل ابن الشَّاطر كان ابن يونس الفلكي قد ابتكر الرَّقَّاص أو البندول، ليفيد منه الفلكيون في أعمال الرصد الفلكية، ولعل ساعة ابن الشَّاطر المعدنية كان بها رقاص يتحرك يمنة ويسرة، طوال الليل والنهار.

ويعتقد كثيرون أنَّ الرَّقَّاص (بندول الساعة) من مخترعات العالم الإيطالي (جاليليو) (١٦٤٢م = ١٠٥٢هـ)، وأنَّ هذا العالم أول من استطاع أن يستعمله ويستفيد منه، وهؤلاء قد يستغربون إذا قلنا لهم إنَّ هذا غير صحيح، وإنَّ الفضل في اختراعه يعود إلى عالم من علماء الحضارة العربية الإسلامية، هو ابن يونس[٢٥]، سبق غيره في استعمال الساعات الدقاقة، وبهذا يكون جاليليو مسبوقًا في هذا الاختراع بستة قرون، وما كان لنا أن نجرؤ فننسب لابن يونس هذا الاختراع لولا اعترافات المنصفين من العلماء الأجانب[٢٦].

فإذا تصفحنا كتاب «تاريخ العرب العام» للعالم الفرنسي الشهير سيديو، سنجد نصًّا صريحًا يقول فيه: «واخترع ابن يونس الرقاص، وميل الساعة الشمسية ذا الثقب»[٢٧].

ويعترف العالم ديفيد سميث بشكل أوضح بقوله: «ومع أن قانون الرقاص هو من وضع جاليليو، إلا أن كمال الدين بن يونس لاحظه وسبقه في معرفة شيء عنه، وكان الفلكيون يستعملون البندول لحساب الفترات الزمنية أثناء الرصد»[٢٨].

ولا نعرف إن كان لابن الشَّاطر كتابًا عن الساعات الميكانيكية من بين مؤلَّفاته الرياضية والفلكية، ولعله يكون قد وضع مثل هذا الكتاب، ووصل من بعده إلى عالم الفلك والحيل والمضخات والبخار، السوري الأصل، الحجازي المولد، المصري النشأة والثقافة: تقي الدين محمد بن معروف الأسدي الرَّصَّاد (ت ٩٩٣ هـ = ١٥٨٥ م)، وصنع بناء عليه أكثر من نموذج لساعات ميكانيكية، بينها كانت ساعة ميكانيكية فلكية، دلَّنا على ذلك أنَّ تقي الدين الراصد قد وضع عن ساعاته هذه كتابًا، وأشاد فيه وفي كلٍّ كتبه بابن الشَّاطر[٢٩].

وبكلِّ الأحوال، وثَّق المتخصصون أنَّ ابن الشَّاطر هو أول من أبدع ساعة ميكانيكية، فأخرجها

(24) مناداة الأطلال ومسامرة الخيال، ص366. وانظر عما سبق: ابن الشَّاطر: عماد غانم، ص13. مقدمة كتاب علم الساعات والعمل بها: رضوان الساعاتي، ص52. دور علماء الحضارة العربية الإسلامية في تأسيس العلوم الحديثة (الأصول الكيميائية والفلكية): عمار النهار، ص138، 139.
(25) أتينا على ذكره في فقرة: الممهدون لابن الشَّاطر.
(26) انظر تراث العرب العلمي في الرياضيات والفلك: طوقان، ص243. أثر العرب في الحضارة الأوروبية: مظهر، ص290.
(27) تاريخ العرب العام: سيديو، ص402.
(28) تراث العرب العلمي في الرياضيات والفلك: طوقان، ص244.
(29) انظر الأعلام: الزركلي، ج7، ص105، 106. كشف الظنون: القسطنطيني، ج1، ص81، 249، 255، 716، 736، 753، ج2، 982، 1112. مقدمة كتاب علم الساعات والعمل بها: الساعاتي، ص52.

من دائرة الماء إلى دائرة الميكانيك، ومن دائرة الخشب إلى دائرة المعدن، وجعلها صغيرة بعد أن كانت تبلغ عدَّة أمتار، فصارت بمقدار ثلاثين سنتيمترًا، وأدخل فيها الآلات المعدنية، مستغنيًا عن الماء وآلاته الخشبية الطويلة العريضة[٣٠].

ومن الساعات التي صنعها ابن الشَّاطر: آلة لضبط أوقات الصلاة، وسمَّاها: البسيط، وكانت موضوعة في مئذنة العروس في الجامع الأموي الكبير حتى ١٢٩٠هـ = ١٨٧٣م، حيث كان يعمل مؤقتًا فيه، إذ ابتكر كثيرًا من الآلات التي امتازت بسهولة التصميم وتلافي التعقيدات التي وُجدت في الآلات السابقة، وتسببت في بعض الأخطاء، فقام بصناعة آلة تُسمَّى: مُوقِّت الصلاة، وتُعرف أيضًا باسم البسيط كما نوهنا، أو المزولة الشمسية، يُقاس بها الوقت خلال ساعات النهار مبنيًا على ظل الشمس، ولم تكن تضبط الوقت إلا عند السادسة مساء والسادسة صباحًا فقط، فهي تعتمد على الشمس وزاوية انحرافها عن الأفق، أي إن مبدأها يعتمد على الزوايا عوضًا عن الساعة والدقائق والثواني.

وقام ابن الشَّاطر بوضع هذه الآلة على منارة العروس[٣١]، في باحة المسجد الأموي الشمالي، ونقش عليها دوائر البروج الاثنتي عشرة، ويتوسط اللوح مؤشر نحاسي لمعرفة مواقيت الصلاة في الفصول الأربعة، وقد ثُبِّت مؤشر بشكل عمودي على اللوحة.

وهي ساعة شمسية أفقية لمعرفة الساعات الزمانية التي تقسم كلاً من النهار والليل إلى اثني عشر قسمًا في جميع الفصول، وتتكون من ثلاثة أجزاء، تبين الساعة الرئيسية منها الساعات المعوجة أي غير المتساوية لكل أربع دقائق تمامًا، أما الساعة الموجودة في الشمال وكذلك الساعة الموجودة في الجنوب فقد صُنعت لتبيين الساعات المتساوية.

والبديع في هذه الساعة: أنَّ مساحتها مترين مربعين (٢×١)، وهي مصنوعة من الرخام الذي نُقش عليه نظام من الدوائر والمنحنيات الفلكية المعقدة التي ساعدت على قراءة الوقت ببساطة ودقة منذ لحظة شروق الشمس وحتى غروبها، ومن المفروض أنَّ بقاياها في متحف دمشق الوطني، لكن المسؤولين هناك نفَوا لي ذلك، مع العلم أنَّ الأخبار المتداولة تؤكد أنَّ هذه المزولة (الساعة الشمسية) قد نُقلت إلى المتحف الوطني السوري بتاريخ ١٩٥٩/٦/٧م، وهي محطَّمة، وفيها قطع ناقصة، ومكوَّنة من لوح رخامي أبيض (بقي بعض أجزائه) نُقشت عليه دوائر البروج الاثني عشر، يتوسط هذا اللوح مؤشر نحاسي مثبت بشكل عمودي عليه، وقد دُوِّن على أحد جانبي اللوح النَّص الوثائقي الآتي: «وُضعت هذه الآلة الجامعة للأعمال الميقاتية برسم الجامع الأموي في دولة سيِّدنا مولانا السلطان الملك (...) سيف الدنيا والدين منجك كافل الممالك الشريفة بالشام المحروسة، أعزَّ الله أنصاره، في نظر مولانا العبد (...) بيد مصنِّفها علي إبراهيم بن محمد الأنصاري، المؤقت في الجامع الأموي، الشهير بابن الشَّاطر (...) سنة ثلاث وسبعين وسبعمئة»[٣٢].

(30) مقدمة كتاب علم الساعات والعمل بها: الساعاتي، ص51. المدخل إلى تاريخ الحضارات: عمار النهار، ص437. أعلام الحضارة العربية الإسلامية: حميدان، ج4، ص82. أثر الحضارة الإسلامية على أوروبة: عمار النهار، عمرو منير، ص382. المذاهب الفكرية والحضارة الإسلامية: عمار النهار، منشورات جامعة دمشق، 2018، ص409.

(31) يقول ابن العماد الحنبلي: «يُقال: إنَّ دمشق زُيِّنت عند وضعها». شذرات الذهب: ابن العماد الحنبلي، ج8، ص435. وانظر خطط الشام: محمد كرد علي، ج3، ص46.

(32) مصر وبلاد الشام في عصر المماليك: عمار النهار، ص292، 293. العصر المفترى عليه: عمار النهار، ص458. تاريخ الحضارة: عمار النهار،

إسطرلاب من صناعة الشيخ الفلكي محمد الطنطاوي في المتحف الوطني بدمشق بتصوير الباحث (وجه الإسطرلاب)

ويُعقب عبد القادر بدران على هذه الآلة، وما جرى لها، بقوله: «أما المنحرفتان، فقد بقيتا إلى حدود سنة تسعين ومئتين وألف في مئذنة العروس، وفي أثنائها كان شيخنا الشيخ محمد الشهير بالطنطاوي إمامًا في الهيئة والميقات في دمشق، فنظر في هاتين المنحرفتين، فرأى وضعهما قد اختل لمرور السنين واختلاف الرياح والأمطار عليهما، وبينما هو يحرر وضعهما إذا بالبلاطة قد انكسرت، فشرع بإنشاء منحرفتين على نمطهما حتى أتمهما، غير أنه رسمهما على الأفق الحقيقي فاختل العمل بهما، ولم ينتفع بهما كالأوليتين، وقد حصل له أثناء العمل معاكسات من أهل دمشق، وهجاه بعض ذوي الخلاعة والعقل المنحرف، ثم إنَّه رسم منحرفتين على الأفق المرئي ووضعهما في جامع الدقاق»[٣٣].

ومن إبداعات ابن الشَّاطر، في مجال صناعة الساعات الميكانيكية، صناعته (صندوق اليواقيت) لأحد الحكام المماليك في دمشق، الذي احتوى على ساعتين شمسيتين، وفي حال تغطية هذا الصندوق يتحول إلى آلة إسطرلاب، وعُرف فيما بعد باسم: دائرة معدل النهار، وأهم أجزائه إبرة مغناطيس لامتدادها في الجهات الأربع، ثم رسوم لمعرفة القبلة في بعض البلدان، ثم ساعة شمسية كلية تُمال إلى الأفق بقدر عرض البلد، ثم دائرة استوائية كلية يُقاس بها الوقت ليلاً ونهارًا.

وقد عرف هذا الصندوق لأول مرة العالمان: ريتش وغاستون، ما بين عامي ١٩٣٠ و١٩٤٠، وهذا الشرح مكَّن مؤلف كتاب: History of Technology عام ١٩٧٦م من تقديم الشرح الوافي له[٣٤].

خامسًا _ ابن الشَّاطر والإسطرلاب:

لقد برع ابن الشَّاطر وتفوَّق في قضايا الإسطرلاب، وأكثر ما اشتهر به في زمانه هو صنعه للإسطرلابات وتعليم استعمالها، كما أنَّه عمل على تطويرها وتطوير اثنين من الأرباع الفلكية والمثلثية الأكثر استعمالاً في حسابات الفلك وقياسه.

إبراهيم زعرور، ص251.

(33) منادمة الأطلال ومسامرة الخيال: بدران، ص366.

(34) انظر الآلات الفلكية لابن الشَّاطر الفلكي الدمشقي من القرن الرابع عشر: سامي شلهوب. الحضارة العربية الإسلامية: عمار النهار، محمد شعلان الطيار، ص319.

فكان له في هذا المضمار إنجازات كثيرة، منها :

_ إبداعه إسطرلابًا قدَّمه لأحد المشايخ، وهو محفوظ في مكتبة باريس الوطنية.

_ صنع الإسطرلاب (الساعة) الذي شاهده المؤرخ الصفدي في قائم حائط منزل ابن الشَّاطر.

_ تحدثنا عن صنع (صندوق اليواقيت) الذي قدمه لأحد الحكام المماليك في دمشق، والذي احتوى على ساعتين شمسيتين، وفي حال تغطية هذا الصندوق يتحول إلى آلة إسطرلاب، عُرف فيما بعد باسم: دائرة معدل النهار.

_ ثم إنَّه ألَّف في علم الإسطرلاب، ومن ذلك كتبه: (رسالة في الإسطرلاب) و(مختصر العمل بالإسطرلاب) و(تحفة الأحباب في الضروري والأصل في علم الإسطرلاب).

إسطرلاب ابن الشاطر

_ كما ابتكر ابن الشَّاطر الكثير من الأدوات المستخدمة في الرصد الفلكي والأدوات المستخدمة في القياس الحسابي، ومنها الساعتان الشمسية والنحاسية، والربع العلائي، والربع التام المستخدمان في حل مسائل علم الفلك بكيفية يسهل معها الحصول على النتائج[٣٥].

_ وقد اطلعتُ على تحقيق كتاب ابن الشَّاطر (رسالة ابن الشَّاطر في علم الإسطرلاب)، وفيه خلص محققا الكتاب إلى أنَّ ابن الشَّاطر كان فلكيًّا من الطراز الأول، وأنَّه قام بتطوير الإسطرلاب الذي كان يستخدمه في حساباته الفلكية المتعدِّدة التي وردت في هذه المخطوطة، واستنتجا أنَّ إسطرلابه اختلف عن الإسطرلابات الأخرى، وأنَّ ابن الشَّاطر تميز بنقد الأعمال الأخرى للفلكيين، ومثال ذلك ما ورد في الباب السابع، في فصل: في معرفة القبلة في النهار والليل[٣٦].

والإسطرلاب من أعظم إبداعات العرب المسلمين، وهو من آلات علم الفلك، والاسمُ كلمة يونانية مؤلَّفة من قسمين: إسطر: وهو النجم، ولا بون: وهو المرآة، وأُطلقت على عدة آلات فلكية تنحصر في ثلاثة أنواع رئيسية، تُمثِّل مسقط الكرة السماوية على سطح مستو، أو مسقطها

(35) انظر العصر المفترى عليه: عمار النهار، ص458. تاريخ المماليك: عمار النهار، ص512. مجلة الفيصل: العدد (24)، ص61، 62.
(36) انظر رسالة ابن الشَّاطر في علم الإسطرلاب: ابن الشَّاطر، ص25، وانظر ص3 _ 26.

على خط مستقيم، أو الكرة بذاتها من دون مسقط[٣٧].

وسُمِّي الإسطرلاب أيضًا بميزان الشمس[٣٨]، ويُعرف بوساطته كثير من الأمور النجومية كارتفاع الشمس ومعرفة الطالع[٣٩].

ويتألَّف الإسطرلاب من قرص معدني مقسَّم إلى درجات، ويدور على هذا القرص عدَّاد ذو ثقبين في طرفيه، ويُعلَّق من حلقة تعليقًا عموديًّا، ثم يوجَّه العداد نحو الشمس، وحين تمر أشعة الشمس من ذينك الثقبين يُقرأ ارتفاع الكوكب من الحد الذي وقف العداد عليه[٤٠].

إسطرلاب من صناعة الشيخ الفلكي محمد الطنطاوي في المتحف الوطني بدمشق بتصوير الباحث (ظهر الإسطرلاب)

وآلة الإسطرلاب آلة دقيقة تُصوَّر عليها حركة النجوم في السماء حول القطب السماوي، وتُستخدم هذه الآلة لحل مشكلات فلكية عديدة، كما تُستخدم في الملاحة وفي مجالات المساحة، وتُستخدم ـ إضافة إلى ذلك ـ في تحديد الوقت بدقة ليلاً ونهارًا، وقد اهتم بها العرب المسلمون اهتمامًا كبيرًا، واستخدموها في تحديد مواقيت الصلاة، كما استخدموها في تحديد مواعيد فصول السنة.

ووجه الإسطرلاب يحتوي على خريطة القبة السماوية، كما يحتوي على أداة تشير إلى الجزء المنظور من القبة السماوية في وقت معيَّن، وقد رُسمت القبة المنظورة على وجه الإسطرلاب المسطح بطريقة حسابية دقيقة، وهي الطريقة ذاتها التي استُخدمت في رسم خريطة العالم (الكرة الأرضية) على مساحة مسطحة، وهذه الطريقة تسمح بتحوُّل الدوائر من أشكال كروية إلى أشكال مسطحة دون أي تغيير للقيمة الحقيقية للزاوية التي تُرسم بين خطين على الشكل الكروي، وعلى هذا، فإن خط الأفق، وخطوط المدارات، وخط الاستواء، والخطوط السماوية تظل في شكل دوائر، أو في شكل أجزاء من دوائر[٤١].

وكانت بغداد من أهم المدن التي اعتنت بهذا العلم، وكانت مركزًا مهمًّا من مراكزه، غير أنَّها لم تكن المركز الوحيد، فالمراصد كانت كثيرة في دمشق والقاهرة وسمرقند وطليطلة وفاس وقرطبة،

(37) العلوم البحتة في العصور الإسلامية: عمر رضا كحالة، ص173، 174. مجلة (الحرفيون)، العددان (244، 245)، السنة 32، ص60، 61.
(38) كشاف اصطلاحات الفنون والعلوم: محمد علي التهانوي، ج1، ص176.
(39) أبجد العلوم: صديق القنوجي، ج2، ق1، ص89.
(40) حضارة العرب: غوستاف لوبون، ص463. العصر المفترى عليه: عمار النهار، ص455.
(41) العصر المفترى عليه: عمار النهار، ص455، 456. الموسوعة العربية العالمية، بحث الإسطرلاب.

علمًا أنَّ أهم مدارس الفلك كانت مدارس بغداد والقاهرة والأندلس[٤٢].

وقد برع العرب المسلمون في هذا المجال، وأضافوا إضافات كبيرة على الإسطرلاب تحدَّدت في جانبين: الجانب الوظيفي الاستخدامي ورسم خطوطه، والجانب الشكلي الخارجي.

وقد قام علماء الفلك المسلمون خلال القرن الرابع الهجري = العاشر الميلادي، بإضافات عديدة للإسطرلاب؛ شملت قياس محيط الكرة الأرضية وجمع الخرائط الفلكية التي تصور حركة الكواكب، وحدَّدوا أشكال مداراتها، واستفاد من مجهودات هؤلاء العلماء كل من المسلمين والأوروبيين، فقد وُجدت ترجمة لاتينية، يعود تاريخها إلى عام ٦٧٥هـ = ١٢٧٦م، لما كتبه عالم الفلك العربي (ما شاء الله) عن الإسطرلابات، ويوجد اليوم عدد كبير من الإسطرلابات التي صنعها الفلكيون المسلمون؛ وهذه الإسطرلابات منتشرة في عدد كبير من متاحف العالم[٤٣].

صورة الباحث مع مزولة ابن الشاطر الأصلية

واتُّخذت خطوات تجريبية في نهاية القرن الرابع الهجري = العاشر الميلادي لنقل المعرفة بالإسطرلاب إلى أوروبة، ومن بين الأعمال الفلكية العديدة، ظهرت ترجمة هرمان الدلماثي لكتاب بطليموس: تسطيح الكرة، أو نظرية الإسقاط المجسم. كما ترجم يوحنا الإشبيلي إلى اللاتينية كتابًا عن الإسطرلاب للعالم (ما شاء الله)، وذلك في أواخر القرن الثاني الهجري = الثامن الميلادي.

وقد حفَّزت هذه الترجمات اللاتينية لمؤلفات عربية إسلامية عن تركيب الإسطرلاب واستخداماته المؤلفين الأوروبيين على تصنيف عدد من الأعمال الأصيلة شملت كتابًا عن تركيب الإسطرلاب واستخداماته لريمون المارسيلي، قبل عام ٥٣٦هـ = ١١٤١م، وكتابًا عن تركيب الإسطرلاب لأديلارد الباثي في المدة ٥٣٧ – ٥٤١هـ = ١١٤٢-١١٤٦م تقريبًا، وكتابًا عن استخدامات الإسطرلاب لروبرت الشستري في عام ١١٤٧م، ومؤلفًا عن استخدامات الإسطرلاب

(42) حضارة العرب: غوستاف لوبون، ص456.
(43) العصر المفترى عليه: عمار النهار، ص455، 456. الموسوعة العربية العالمية، بحث الإسطرلاب.

لأبراهام بن عزرا في المدة ٥٥٣ – ٥٥٦هـ = ١١٥٨-١١٦١م تقريبًا.

أما مؤلفات القرن السادس الهجري = الثاني عشر الميلادي فقد كشفت في مناقشاتها لاستخدامات آلة الإسطرلاب عن دراية بمصادره ومشكلاته في تسلسل منطقي ومعالجة متدرجة بانتظام مع تزايد الصعوبات. وبالنسبة للإنشاءات الهندسية على ظهر الإسطرلاب، فقد كانت معروفة في أوروبة في القرن الرابع الهجري = العاشر الميلادي، لكن ريمون المارسيلي وصفها أولاً بوضوح، ثم أتيحت للاستخدام العام في القرن السابع الهجري = الثالث عشر الميلادي[٤٤].

وقد وصلني كتاب فريد عن الإسطرلابات الموجودة في المتحف الوطني الألماني في مدينة نورنبيرج، وفيه صور لأجهزة ومعدات فلكية عربية إسلامية وألمانية[٤٥].

_ الخاتمة:

في نهاية حديثي عن هذا العالم الفريد، أقف مطرقًا رأسي خجلاً من جرَّاء الطريقة التي يتم التعامل فيها مع مثل هذا العملاق الذي قدَّسه الغربيون، بينما نسيه أبناء جلدته نظريًّا وعمليًّا، وليس لي إلا أن أذكر مثالين مؤلمين محبطين كتوصيف للإهمال الذي لقيه عالمنا الفذ:

فلقد جهدتُ، وعبر أشهر، محاولاً وبكل تصميم، أن أصل إلى مزولته التي كانت في مئذنة العروس في الجامع الأموي، والمثبَّت بديلاً عنها المزولة التي قام بالتعديل عليها الشيخ محمد الطنطاوي، ولم أصل إلى أي نتيجة، وعلى الرغم من أنَّ الأخبار المتواترة على الألسنة تروي أنَّ هذه المزولة قد تم حفظها في المتحف الوطني السوري، لكنَّ عدداً من الجُهَّال أكَّدوا أنَّها ليست موجودة فيه، وبالتالي شاع بين الناس أنَّ هذه المزولة في حكم المفقود، وهنا أتقدم بالشكر الكبير لمدير الآثار والمتاحف في سورية الأستاذ نظير عوض، ونائبه الدكتور همام سعد، ومديرة القسم الإسلامي في المتحف الدكتورة نيفين سعد الذين، الذين سهَّلوا لي مهمة البحث في المتحف عن هذه المزولة، حتى استطعنا العثور عليها، والحمد لله.

وآتي إلى المثال الثاني؛ فإنَّ أخبار المؤرخين تقول إنَّ ابن الشاطر قد دُفن في مقبرة باب الصغير الدمشقية الشهيرة، وهذا كلام واضح، لكن الغامض وغير الواضح، أو غير المفهوم وغير المبرر بأي تبرير، أنَّ توثيق ذلك غير موجود بأي قيود رسمية، لا عند المحافظة ولا عند الأوقاف ولا عند إدارة مكتب دفن الموتى، وعبثًا بحثتُ طويلاً في السجلات الرسمية، ولم تسعفني أي جهة بأي معلومة عن قبره، عندها انتقلت إلى البحث الميداني، وبعد البحث الشاق والطويل في أرجاء أقسام مقبرة باب الصغير الكثيرة، لم أتوصل لشيء، مما زادني إحباطًا وغضبًا من هذا الإهمال

(44) العلوم والهندسة في الحضارة الإسلامية: دونالد هيل، ص-292 293.
(45) عنوان الكتاب: كنوز علم الفلك: جيرهارد بوت، ألمانية، 1983م.

الغريب العجيب الذي لا يمكن للعقل أن يفهمه أو يستوعبه أو يجد له عذرًا، عندها سكَّنتني قراءتي لسورة الفاتحة على روح ابن الشَّاطر الطاهرة، ثم قرأتها ثانية على موت الضمير الأخلاقي والإنساني تجاه علماء حضارتنا، وتجاه عالم تسبَّب بثورة فلكية في أوروبة.

والشيء بالشيء يُذكر: فمن المعيب فينا أيضًا الأساليب التي تلقَّينا بها علوم أجدادنا:

فالبعض منَّا انطلقت أبحاثهم من الدراسات القديمة دون البحث عن جديد.

وآخرون سلَّموا تسليمًا تامًّا لما هو شائع بين الأوساط العلمية دون التَّحقُّق مما يُشاع أو يُنشر.

ومنَّا من كان منطلق دراساته ما كتبه المستشرقون.

وكثير من الباحثين تعاملوا مع سير العلماء بتسليط الضوء على عمومية علومهم التي اشتهروا بها، دون الغوص في دقائق إبداعاتهم ومقارنتها مع تطور العلوم التاريخي.

ومنَّا من توقَّف عند أنساب العلماء، فحدث نوع من التنازع لجرِّ هذا العالم إلى هذه الأمة أو تلك، فأصبحت القضية: هل هذا العالم فارسي، أم تركي، أم عربي، أم هنديَ!؟

وإن كنَّا نقول سابقًا متأسِّفين: إنَّ مخطوطات علماء حضارتنا محفوظة في مكتبات أوروبة، ويَضنُّون علينا بها! نقول الآن متأسِّفين بشكل أكبر: إنَّ مخطوطات ابن الشَّاطر متوفرة في مكتباتنا، وفي مكتبة الأسد الوطنية بدمشق وحدها أكثر من عشرة مخطوطات لهذا العالم لم تصلها يد المحقِّقين والدَّارسين! وهذا أمر يدعو للحزن، خاصة أنَّ المعهد الوحيد المتخصص في تحقيق مخطوطات العلوم التطبيقية في سوريا بل في البلاد العربية، وهو معهد التراث العلمي في جامعة حلب، قد تم تجميد عمل الدراسات العليا فيه لأسباب ليست بالأسباب!

أقول: إن كنَّا مقصِّرين بحق ابن الشَّاطر وأمثاله، فأرجو أن نُعوِّض ذلك ولو بوضع مشروع لتحقيق مخطوطاته، لنكتشف كنوزًا عظيمة، وهذا أمر مؤكَّد، وأذكر هنا قصة خديجة، شقيقة الطبيب الرَّازي، التي ذكرت لنا الحديث الآتي: كان شقيقي الرَّازي يُكدِّس وُريقات في صندوق خاص، حكمتْ عليها بالتَّفاهة، لكنني بعد وفاته، أخرجت ما في هذا الصندوق، فإذا محتواه يقع في ثلاثين جزءًا، أطلق عليه الأطباء اسم (كتاب الحاوي)، لأنَّه جمع فيه كل الأمراض، كما جمع في شخصه اختصاص الأطباء في كل مجال، فصار يُعرف بأنَّه أوسع موسوعة طبية في التاريخ.

لذلك، وأمام كل هذه الغمامات السوداء، أجد نفسي متفائلاً بما نملك من تراث عظيم خلَّفه لنا أجدادنا، ومنهم ابن الشَّاطر، يكفي لأن ننطلق بقوة من جديد، وها هي الأبحاث الحديثة تُثبت كل يوم حقائق عن كنوز ماضينا.

مصادر البحث ومراجعه

ـ المصادر المخطوطة:

ـ الأشعة اللامعة في العمل بالجامعة: ابن الشَّاطر، مخطوط، مكتبة الأسد الوطنية بدمشق، رقم م ش م ١١٠٥٣ .

ـ جداول التعاديل للكواكب الخمسة السيَّارة: ابن الشَّاطر، مخطوط، مكتبة الأسد الوطنية بدمشق، رقم م ف م ٥١٥٨ .

ـ جدول ميل الشمس لكل عرض وجدول طول البلاد وعرضها : ابن الشَّاطر، مخطوط، مكتبة الأسد الوطنية بدمشق، رقم م ش م ١٥٥٦٦ .

ـ ربع الأوتار: ابن الشَّاطر، ميكروفيلم، مكتبة الأسد الوطنية بدمشق، رقم م ف م ٩٧ ت ١٧ .

ـ الربع التام لمواقيت الإسلام: ابن الشَّاطر، مخطوط، مكتبة الأسد الوطنية بدمشق، رقم م ش م ٣٢٦٤ .

ـ الربع الكامل: ابن الشَّاطر، ميكروفيلم، مكتبة الأسد الوطنية بدمشق، رقم أ ف م ٩٧ ت ١٩ .

ـ الروضات المزهرات في العمل بربع المقنطرات: ابن الشَّاطر، مخطوط، مكتبة الأسد الوطنية بدمشق، رقم م ش م ١٤٤٩٧ .

ـ رسالة في الإسطرلاب: ابن الشَّاطر، مخطوط، مكتبة الأسد الوطنية بدمشق، رقم م ش م ٥٨١٦ .

ـ رسالة في العمل بالربع المجيب: ابن الشَّاطر، مخطوط، مكتبة الأسد الوطنية بدمشق، رقم م ش م ٩٣٦٧ .

ـ رسالة في العمل بربع الدائرة الموضوع عليه المقنطرات المطوية: المارداني عبد الله بن خليل، مخطوط، مكتبة الأسد الوطنية بدمشق، رقم م ش م ٣٢٦٤ .

ـ زيج ابن الشَّاطر: ابن الشَّاطر، مخطوط، مكتبة الأسد الوطنية بدمشق، رقم م ف م ٦٩ .

ـ كشف الريب في العمل بالجيب: المزي محمد بن أحمد ، مخطوط، مكتبة الأسد الوطنية بدمشق، رقم م ش م ٥٩٦٠ .

ـ نزهة السامع في العمل بالربع الجامع: ابن الشَّاطر، مخطوط، مكتبة الأسد الوطنية بدمشق، رقم م ش م ٣٢٦٤ .

ـ نهاية السُّول في تصحيح الأصول: ابن الشَّاطر، ميكروفيلم، مكتبة الأسد الوطنية بدمشق، رقم م ف م/٦٨٠ ت أ .

ـ المصادر المطبوعة:

ـ أبجد العلوم: صديق القنوجي، عناية: عبد الجبار زكار، دمشق، وزارة الثقافة، ١٩٨٨ م.

ـ الإحاطة في أخبار غرناطة: ابن الخطيب محمد بن عبد الله، تحقيق: محمد عبد الله عنان، القاهرة، الشركة المصرية للطباعة، ط٢، ١٩٧٣ م

ـ إخبار العلماء بأخبار الحكماء: علي بن يوسف القفطي، القاهرة، مكتبة المتنبي.

ـ الأعلاق الخطيرة في ذكر أمراء الشام والجزيرة: ابن شداد محمد بن علي، تحقيق: دومنيك سوردیل، دمشق، المعهد الفرنسي، ١٩٥٣ م.

ـ أعيان العصر وأعوان النصر: خليل بن أيبك الصفدي، تحقيق: محمد أبو زيد وآخرين، بيروت، دمشق، دار الفكر، ط١، ١٩٩٨ م.

ـ إنباء الغمر بأبناء العمر: ابن حجر أحمد بن علي، بيروت، دار الكتب العلمية، ط٢، ١٩٨٦ م.

ـ الانتصار لواسطة عقد الأمصار: ابن دقماق إبراهيم بن محمد، بيروت، لجنة إحياء التراث، دار الآفاق.

ـ البداية والنهاية: ابن كثير إسماعيل، وثقه: محمد معوض وغيره، بيروت، دار الكتب العلمية، ط١، ١٩٩٤ م.

ـ تاج المفرق: خالد البلوي، تحقيق: الحسن السائح.

ـ تحفة النظار (رحلة ابن بطوطة): ابن بطوطة محمد بن عبد الله، تحقيق: عبد الهادي النازي، الرباط، أكاديمية المملكة المغربية، ١٩٩٧ م

ـ التعريف بالمصطلح الشريف: ابن فضل الله العمري أحمد بن يحيى، تحقيق: سمير الدروبي، الكرك، جامعة مؤتة، ط١، ١٩٩٢ م.

ـ التكملة لكتاب الصلة: ابن الأبار محمد البلنسي، تح عبد السلام الهراس، بيروت، دار الفكر، ١٩٩٥ م.

ـ خريدة العجائب وفريدة الغرائب: عمر بن الوردي، تحقيق: محمود فاخوري، دار الشرق العربي، حلب.

ـ خطط الشام: محمد كرد علي (ت ١٣٧٢ هـ)، مكتبة النوري، دمشق، ط٣، ١٩٨٣ م.

ـ الخطط المقريزية: المقريزي أحمد بن علي، بيروت، دار صادر.

ـ الدارس في تاريخ المدارس: عبد القادر بن محمد النعيمي، إعداد عمار النهار، الهيئة العامة السورية للكتاب، ط١، ٢٠١٤. + إعداد إبراهيم شمس الدين، بيروت، دار الكتب العلمية، ط١، ١٩٩٠ م.

ـ الدرر الكامنة في أعيان المائة الثامنة: ابن حجر أحمد بن علي، تحقيق: محمد جاد الحق، مطبعة

المدني، ط٢، ١٩٦٦م

ـ ديوان الإسلام: شمس الدين أبو المعالي محمد بن عبد الرحمن بن الغزي (ت ١١٦٧هـ)، تحقيق: سيد كسروي حسن، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ط١، ١٩٩٠.

ـ رحلة العبدري: محمد العبدري، تحقيق: علي كردي، دمشق، دار سعد الدين، ط١، ١٩٩٩م

ـ رسالة ابن الشَّاطر في علم الإسطرلاب: ابن الشَّاطر، تحقيق وشرح: مجدي أمين، أيمن كردي، جامعة الملك سعود، كلية العلوم، ٢٠٠٧.

ـ الروضة البهية الزاهرة في خطط المعزية القاهرة: محيي الدين بن عبد الظاهر، تحقيق: أيمن فؤاد سيد، القاهرة، مكتبة الدار العربية، ط١، ١٩٩٦م

ـ زبدة كشف الممالك وبيان الطرق والمسالك: خليل بن شاهين، تصحيح: بولس راويس، القاهرة، دار العرب، ط٢، ١٩٨٨م.

ـ كتاب السلوك لمعرفة دول الملوك: المقريزي أحمد بن علي، صححه ووضع حواشيه: أحمد زيادة، القاهرة، مطبعة لجنة التأليف، ط١، ١٩٥٨م.

ـ شذرات الذهب في أخبار من ذهب: ابن العماد عبد الحي أحمد، تحقيق: محمود الأرناؤوط، دمشق، بيروت، دار ابن كثير، ط١، ١٩٩١م

ـ صبح الأعشى في صناعة الإنشا: القلقشندي أحمد بن علي، تحقيق: محمد حسين شمس الدين، بيروت، دار الكتب العلمية، ط١، ١٩٨٧م

ـ الضوء اللامع لأهل القرن التاسع: السخاوي محمد بن عبد الرحمن، بيروت، دار مكتبة الحياة.

ـ الطالع السعيد الجامع أسماء نجباء الصعيد: الإدفوي جعفر بن ثعلب، تحقيق: سعد حسن، الدار المصرية للتأليف والترجمة، ١٩٦٦م.

ـ علم الساعات والعمل بها: رضوان الساعاتي، تحقيق: محمد دهمان.

ـ عيون الأنباء في طبقات الأطباء: أحمد بن القاسم بن أبي أصيبعة، تح: نزار رضا، بيروت، مكتبة الحياة.

ـ الفهرست: ابن النديم، دار المعارف، تونس.

ـ القلائد الجوهرية في تاريخ الصالحية: محمَّد بن علي شمس الدِّين بن طولون الصالحي (ت ٩٥٣هـ = ١٥٤٦م)، تحقيق: محمَّد أحمد دهمان، صدر القسم الأول منه عام ١٩٤٩ مع خريطة، من مطبوعات مكتب الدِّراسات الإسلاميَّة بدمشق، والقسم الثاني عام ١٩٥٦.

ـ كشاف اصطلاحات الفنون والعلوم: محمد علي بن شيخ علي التهانوي، دار صادر، بيروت.

ـ كشف الظنون: حاجي خليفة مصطفى القسطنطني، بيروت، دار الفكر، ١٩٨٢م.

ـ كنز الدرر وجامع الغرر: ابن أيبك الدواداري، تحقيق: بيرند راتكه، القاهرة، المعهد الألماني للآثار، ١٩٨٢م.

ـ كنوز الذهب: سبط ابن العجمي أحمد بن إبراهيم، كنوز الذهب في تاريخ حلب، تح شوقي شعث، فالح بكور، دار القلم العربي، حلب، ط١، ١٩٩٦ .

ـ المختصر في أخبار البشر: أبو الفداء إسماعيل، بيروت، دار الكتاب اللبناني.

ـ مرآة الجنان وعبرة اليقظان: عبد الله بن أسعد اليافعي، وضع حواشه خليل المنصور، بيروت، دار الكتب العلمية، ط١، ١٩٩٧م.

ـ مقدمة ابن خلدون: عبد الرحمن بن خلدون، ضبط وحواشي: خليل شحادة، بيروت، دار الفكر، ط٢، ١٩٨٨م.

ـ ملء العيبة بما جُمع بطول الغيبة في الوجهة الوجيهة إلى الحرمين ومكة وطيبة: ابن رشيد محمد بن عمر، تح: محمد الحبيب بن خوجة، تونس، الشركة التونسية للتوزيع، ١٩٨١م.

ـ منادمة الأطلال ومسامرة الخيال: عبد القادر بدران (ت ١٣٤٦هـ)، تحقيق: زهير الشاويش، المكتب الإسلامي، بيروت، ط٢، ١٩٨٥م.

ـ النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة: ابن تغري بردي يوسف، قدم له محمد شمس الدين، بيروت، دار الكتب العلمية، ط١، ١٩٩٢م.

ـ الوافي بالوفيات: خليل بن أيبك الصفدي، تحقيق: أحمد الأرناؤوط وتركي مصطفى، دار إحياء التراث، بيروت، ٢٠٠٠م.

ـ المراجع العربية:

ـ ابن الشَّاطر: عماد غانم، معهد التراث العلمي العربي، حلب، ١٩٨٤م.

ـ ابن الشَّاطر: محمد مروان مراد، مجلة الباحثون، دمشق، العدد ٥٧، آذار، ٢٠١٢ .

ـ ابن الشَّاطر مكتشف النظام الشمسي: صالح السعيدي، موقع جريدة القبس الكويتية.

ـ أثر الحضارة الإسلامية على أوروبة: عمار النهار، عمرو منير، الشارقة، معهد الشارقة للتراث، ط١، ٢٠١٧ .

ـ أثر العرب في الحضارة الأوروبية: جلال مظهر، دار الرائد، بيروت، ١٩٦٧م.

ـ أعلام الحضارة العربية الإسلامية: زهير حميدان، دمشق، وزارة الثقافة، ١٩٩٦م.

ـ أعلام الفيزياء في الإسلام: علي الدفاع، جلال شوقي، مؤسسة الرسالة، بيروت، ط٢، ١٩٨٥م.

ـ الأعلام: خير الدين الزركلي، بيروت، دار العلم للملايين، ط١٤، ١٩٩٩م.

ـ الأيوبيون والمماليك في مصر والشام: سعيد عاشور، القاهرة، دار النهضة العربية، ١٩٩٣م.

ـ بلاد الشام في عصر المماليك: عمار النهار، الأردن، عمَّان، دار الإعصار العلمي، ط١، ٢٠١٩.

ـ تاريخ الحضارة: عمار النهار، إبراهيم زعرور، منشورات جامعة دمشق، ٢٠١٠.

ـ تاريخ المماليك البحرية: علي حسن، مصر، مكتبة النهضة، ط٢، ١٩٤٨م.

ـ تاريخ المماليك في مصر وبلاد الشام: محمد سهيل طقوش، بيروت، دار النفائس، ط١، ١٩٩٧م.

ـ تاريخ المماليك: عمار النهار، منشورات جامعة دمشق، ٢٠١٣.

ـ تاريخ علم الفلك في العراق: عباس العزاوي، دمشق، ١٩٥٣م.

ـ تراث العرب العلمي في الرياضيات والفلك: قدري طوقان، جامعة الدول العربية، القاهرة، ١٩٥٤.

ـ التصوير عند العرب: أحمد تيمور باشا، أخرجه: زكي حسن، القاهرة، مطبعة لجنة التأليف، ١٩٤٢م.

ـ التفوق العلمي في الإسلام: جعفر الأرشدي، مؤسسة البلاغ، بيروت، ط١، ١٩٩٠م.

ـ الحضارة العربية الإسلامية: عمار النهار، محمد شعلان الطيار، منشورات جامعة دمشق.

ـ دائرة المعارف: بطرس البستاني، بيروت، دار المعرفة.

ـ دمشق بين عصر المماليك والعثمانيين: أكرم العلبي، الشركة المتحدة للتوزيع، دمشق، ١٩٨٢.

ـ دور علماء الحضارة العربية الإسلامية في تأسيس العلوم الحديثة (الأصول الكيميائية والفلكية): عمار النهار، دمشق، دار البركة، ط١، ٢٠١١.

ـ ربابنة الخليج العربي: خالد محمد سالم، الكويت، ط١، ١٩٨٢م.

ـ الرحالة المسلمون في العصور الوسطى: زكي حسن، بيروت، دار الرائد، ١٩٨١م.

ـ الرواد العرب في الرياضيات والفلك: صلاح الدين خربوطلي، دار مجلة الثقافة، دمشق.

ـ شمس الحضارة العربية الإسلامية، مسيرة حضارة غيَّرت معالم أوروبة والعالم: عمار النهار، دمشق، دار أفنان، ط١، ٢٠٠٨.

ـ عبقرية العرب في العلم والفلسفة: عمر فروخ، المكتبة العصرية، بيروت، ط٤، ١٩٨٠م.

ـ العصر المفترى عليه، عصر المماليك البحرية، دراسة فكرية: عمار النهار، دمشق، مجموعة الكمال المتحدة، دار النهضة، ط١، ٢٠٠٧م.

ـ العلوم البحتة في العصور الإسلامية: عمر رضا كحالة، دمشق، المكتبة العربية، ١٩٧٢م.

ـ عمالقة منسيون: عمار النهار، وزارة التعليم العالي، جامعة دمشق، كتاب الأدب العلمي، ط١، ٢٠٢٢.

ـ مجلة (الحرفيون)، دمشق، سورية، الاتحاد العام للحرفيين.

ـ مجلة الفيصل، الرياض، السعودية.

ـ المدخل إلى تاريخ الحضارات: عمار النهار، الأردن، عمَّان، دار الإعصار العلمي، ط١، ٢٠١٩.

ـ المذاهب الفكرية والحضارة الإسلامية: عمار النهار، منشورات جامعة دمشق، ٢٠١٨.

ـ مفتاح السعادة ومصباح السيادة: أحمد طاش كبري زاده، تحقيق: علي دحروج، بيروت، مكتبة لبنان، ط١، ١٩٩٨م.

ـ مصر الإسلامية وتاريخ الخطط المصرية: محمد عبد الله عنان، الهيئة المصرية العامة للكتاب، ١٩٩٨م.

ـ معجم المؤلفين: عمر كحالة (ت ١٤٠٨هـ)، مكتبة المثنى، بيروت، دار إحياء التراث العربي، بيروت ومؤسسة الرسالة، بيروت، ط١، ١٩٩٣م.

ـ ملامح من حضارتنا العلمية وأعلامها المسلمين: كارم السيد غنيم، القاهرة، الزهراء للإعلام العربي، ط١، ١٩٨٩.

ـ مؤتمر: الترجمة وإشكالات المثاقفة، بحث يوسف بن عثمان: الترجمة والتلقي ومنافسات السبق في الاكتشافات العلمية، منتدى العلاقات العربية والدولية.

ـ الموسوعة العربية العالمية، مؤسسة أعمال الموسوعة، الرياض.

ـ موسوعة الأوائل والمبدعين: شوقي أبو خليل ونزار أباظة، دار المنبر.

ـ موسوعة تاريخ العلوم العربية: رشدي راشد، بيروت، مركز دراسات الوحدة العربية، ط١، ١٩٩٧.

ـ الندوة العالمية التاسعة لتاريخ العلوم عند العرب: العطاء العلمي العربي في العصور الإسلامية، التأثر والتأثير، معهد التراث بجامعة حلب، وكلية الآداب بجامعة دمشق واحتفالية دمشق عاصمة الثقافة العربية، ٢٨ — ٣٠ تشرين الأول ٢٠٠٨م، بحث الدكتور سامي شلهوب: الآلات الفلكية لابن الشَّاطر الفلكي الدمشقي من القرن الرابع عشر.

ـ نظم دولة سلاطين المماليك: عبد المنعم ماجد، القاهرة، مكتبة الأنجلو مصرية، ط٢، ١٩٨٢م.

ـ نوابغ علماء العرب والمسلمين في الرياضيات: علي عبد الله الدفاع، دار الاعتصام.

_ المراجع الأجنبية المعرَّبة وغير المعرَّبة:

_ تاريخ الأدب الجغرافي العربي: إغناطيوس كراتشكوفسكي، ترجمة: صلاح الدين هاشم، بيروت، دار الغرب الإسلامي، ط٢، ١٩٨٧م.

_ تاريخ الأدب العربي: كارل بروكلمان، ترجمة: عبد الحليم نجار وآخرين، الهيئة المصرية العامة للكتاب، ١٩٩٣م.

_ تاريخ العرب العام: سيديو، ترجمة: عادل زعيتر، دار إحياء الكتب العربية، ١٩٤٨م.

_ تاريخ الفكر الأندلسي: آنخل بالنثيا، ترجمة: حسين مؤنس، القاهرة، مكتبة النهضة المصرية، ط١، ١٩٥٥م.

_ تراث الإسلام: شاخت، بوزورث، ترجمة: حسين مؤنس، إحسان العمد، الكويت، المجلس الوطني للثقافة، ١٩٧٨م.

_ حضارة العرب: غوستاف لوبون، ترجمة: عادل زعيتر، الهيئة المصرية العامة للكتاب، ٢٠٠٠م.

_ الحضارة العربية: جاك ريسلر، ترجمة: غنيم عبدون، الدار المصرية للترجمة والنشر.

_ شمس العرب تسطع على الغرب: زيغريد هونكه، ترجمة: فاروق بيضون، كمال دسوقي، دار صادر، بيروت، ٢٠٠٠م.

_ العلوم الإسلامية وقيام النهضة الأوروبية: جورج صليبا، تعريب: محمود حداد، الدار العربية للعلوم ناشرون.

_ العلوم والهندسة في الحضارة الإسلامية: دونالد هيل، ترجمة: أحمد فؤاد باشا، الكويت، عالم المعرفة، ٢٠٠٤م.

_ فجر العلم الحديث: توبي هف، ترجمة: محمد عصفور، عالم المعرفة، ٢٦٠، الكويت، ٢٠٠٠م.

_ كنوز علم الفلك: جيرهارد بوت، ألمانية، ١٩٨٣م.

_ الميكانيك والفلك في الشرق في العصر الوسيط: أ.ت غرغوريان، م.م روجانسكايا، ترجمة: أمين طربوش، الهيئة العامة السورية للكتاب، ط١، ٢٠١٠.

- Ibn Alshater; Kennedy (E –S) - Aleppo university- Institue of the history of Arabic sciense.
- Geography and commerce((The legacy of Islam); Kramers :J.H, sir Thomas Arnold and Alfred Guillaume, Oxford , 1931 .

حيُّ الميدان الدمشقيُّ
نشأته وآثاره العمرانية

محمد راعي البلها[1]

(1) متخصص في التاريخ، باحث.

ملخَّص البحث

يتناول هذا البحث حيَّ الميدان الدمشقيَّ، باعتباره واحدًا من الأحياء القديمة والعريقة في دمشق، واكب في تاريخه الطويل معظمَ العهود التاريخيّة الإسلامية التي مرّت بها مدينة دمشق، وتركت به تلك العهود شواهد هامة من معالم الحضارة وتراث الأجداد ورونق الماضي، لذلك كلّه، صار هذا الحي الدمشقي حلقة من حلقات تاريخ دمشق وحضارتها.

وتضمَّن البحث حديثًا مفصَّلاً عن العوامل المؤثرة في نمو الحي وتطوره، والآثار المعمارية وأنواعها، وما تبقى منها.

_ المقدمة:

إن حي الميدان من أكبر ضواحي دمشق في جهتها الجنوبيّة، وأقدم ذكر له كان في العهد الفاطمي، وفي العهد المملوكي بدأت الضواحي السكنية بالظهور خارج الأسوار، ومنها ضاحية الميدان التي بُدئ بعمارتها، فظهرت فيها المساجد وبعض المدارس، واشتهرت بزواياها على الخصوص.

واستمرَّت عمارة الحي في العهد العثماني، حيث تعود أكثر دور الميدان الفخمة إلى هذا العهد، ولكن للأسف تم هدم عدد كبير من هذه الدور الجميلة أواخر السبعينيات، وكان من أجملها دار الموصلي، ودار البيطار.

ويمكن القول بأن حي الميدان بدمشق يمثل نموذجًا من نماذج الحياة الاجتماعيّة الأصيلة لدمشق وعادات أهلها، التي ما تزال باقية في الحيِّ حتى اليوم.

ويتألف البحث من ثلاثة محاور، تضمَّن المحور الأول حديثًا عن العوامل المؤثرة في نمو حي الميدان وتطوره، وتناول المحور الثاني الآثارَ المعمارية وأنواعها في الحي، وخُصِّص المحور الثالث للحديث عن الآثار التاريخية العمرانية الباقية في حي الميدان.

المحور الأول: العوامل المؤثرة في ظهور حي الميدان وتطوره

كان لظهور حي الميدان في دمشق وتطوره، في العصرين المملوكي والعثماني، عوامل خاصة لا تنطبق على باقي أحياء دمشق، وأغلب المدن الإسلامية، فهو حيٌّ مُتميِّز بأسباب ظهوره، إذ لم يتطور بسبب النمو الطبيعي للمدن، أو بسبب هجرة أقوام جديدة فحسب، بل كانت له عوامل هامة وخاصة به، أسهمت في نموه وتطوره.

إن حي الميدان يظهر في كتب المؤرخين منذ القرن الثامن الهجري بوصفه حيًّا متكاملاً في المنطقة الجنوبية من دمشق، الواقعة خارج سور المدينة، وكان وراء ظهور هذا الحي وتطوره عوامل متنوعة، من أهمها[٢]:

أولًا - الميدان مكان للتدريب العسكري:

جاءت كلمة الميدان من ميدان التدريب، حيث كان في دمشق في العصر المملوكي ميدانان

(2) حي الميدان في العصر العثماني، مارينو، د. بريجيت، ص 74.

كبيران للتدريب العسكري، هما الميدان الأخضر في غرب المدينة، وميدان الحصى في جنوب المدينة، وثمة معلومات وإشارات أن ميدان الحصى كان واقعًا بالقرب من جامع منجك، في دائرة الموصلي حاليًّا، حيث تشير الوثائق العائدة إلى أواسط القرن الثامن عشر، بصورة واضحة إلى هذا القطاع بوصفه حي الميدان، ومن الطبيعي في هذه الحالة أن يكون هذا الحي قد أخذ اسمه من ميدان التدريب.

وتشير المصادر أيضًا إلى وجود زاوية للرفاعية في جنوبي حي الميدان، في نهاية العهد المملوكي وبداية العهد العثماني[٣]، ومع أن الموقع الدقيق لهذا البناء غير معروف في الوقت الحاضر، إلا أن المعطيات المتوفرة تدلُّ على أنه بالقرب من جامع الرفاعي وحمام الرفاعي، اللذين حُدد موقعهما في دائرة الموصلي، وعلاوة على ذلك، فقد أشير منذ منتصف القرن الثالث عشر إلى وجود عدد من التركمان، تم تعدادهم في العصر العثماني في قطاع الحقلة الواقع إلى الجنوب من دائرة الموصلي[٤].

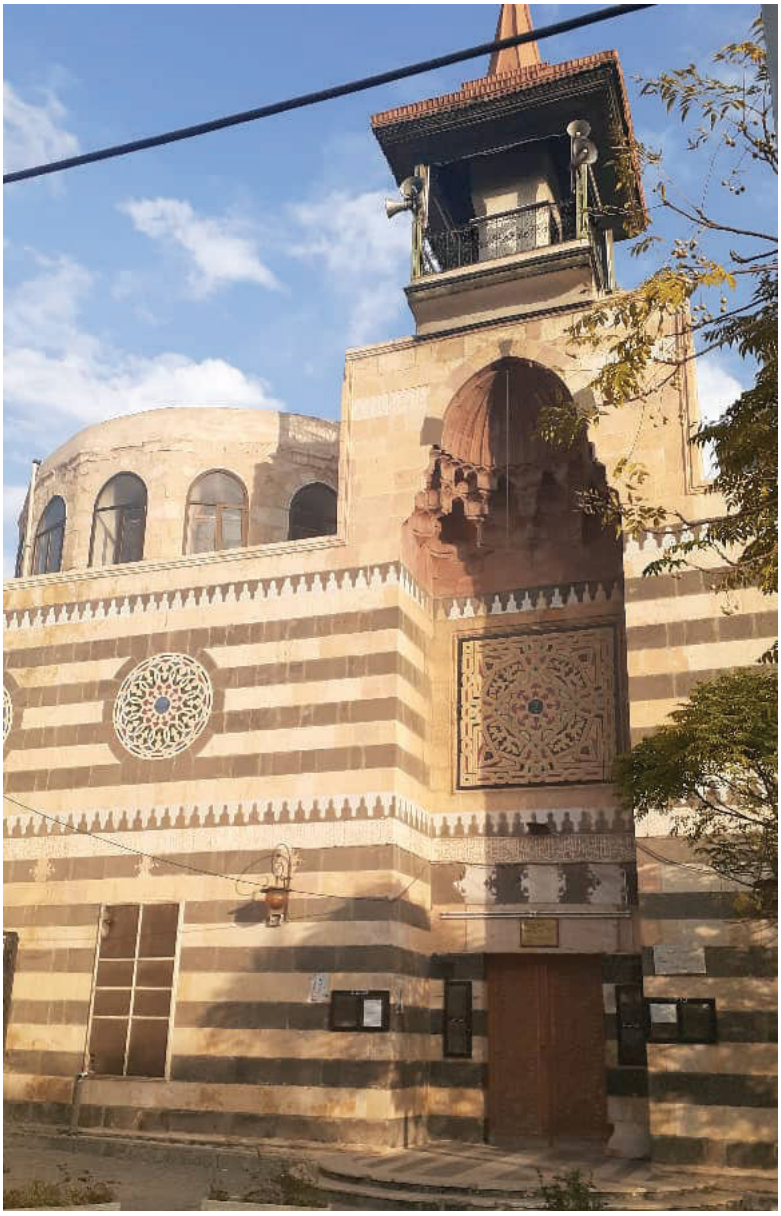

واجهة التربة التينبية، الغنية بالمقرنصات، ويظهر فيها ساكف أملس، وشريط كتابي فشريط مزرر، تعلوه حشوة هندسية مربعة، تتخللها بقايا قطع من القاشاني الأزرق، وفي وسطها شعر الأمير «رنك» الأمير تينبك مزين بالقاشاني، وتعود إلى سنة ٧٨٩هـ.

وكان هناك «برأس ميدان الحصى» قباب عائدة إلى التركمان في منتصف القرن الثالث عشر في عام ٦٦٤/ ١٢٦٥م، فيمكن القول بأن هذه القباب الصغيرة قد أعطت اسمَها إلى تجمع سكاني واقع إلى الجنوب من دمشق هو القبيبات، وعُرف هذا التجمع في عام ٨٣٤ / ١٤٣١، ولا يزال منفصلاً عن دمشق، إلا أنه أدمج فيما بعد ضمن النسيج العمراني لحي الميدان[٥].

(3) الدارس في تاريخ المدارس، النعيمي، عبد القادر بن محمد (ت978هـ)، ج1، ص 41.
(4) حي الميدان في العصر العثماني، مارينو، د. بريجيت، ص 75-76، حيث كان التركمان عادة أفرادًا في الجيش.
(5) حي الميدان في العصر العثماني، مارينو، د. بريجيت، ص 78.

ثانيًا – الميدان: (المُصلَّى، مكان صلاة وإعلان بعض القرارات المهمة):

شكل المصلى عاملاً آخر من عوامل نشوء هذا الفضاء خارج المدينة، فمنذ عهد الرسول صلى الله عليه وسلم كانت الصلوات الجماعية، كصلاة العيدين، والاستسقاء، تقام خارج المدن في ساحات واسعة عُرفت باسم المصلى، وفي عام ٦٠٦ هـ / ١٢٠٩ م بُنِي في القطاع الذي يعنينا جامع، هو جامع المصلى[٦]، وبقي معروفًا بهذا الاسم حتى اليوم.

وقد ظهرت وظيفته السياسية بصورة واضحة لدى الانتقال من السلطة المملوكية إلى السلطة العثمانية في دمشق، ففي ٢٨ شعبان ٩٣٣/ ٢٦ أيلول ١٥١٦م، اجتمع مشايخ الحارات في المُصلَّى وقرروا « تسليم البلد » للعثمانيين[٧].

وظل المُصلَّى في العصر العثماني معروفًا بوصفه مكانًا تقام فيه الصلوات الجماعية، كصلاة الاستسقاء في فترات احتباس المطر، كما حدث في عام ١٠٧٣هـ /١٦٦٣م[٨]، أو الصلوات التي تتصل بالحياة السياسية في الدولة العثمانية وبعلاقاتها الخارجية، ففي عام ١٠٧٩هـ / ١٦٦٨م، على سبيل المثال، توجَّه قسم كبير من سكان دمشق إلى المصلى، كي يتضرعوا إلى الله أن ينصر العثمانيين لدى فرضهم الحصار على جزيرة كريت[٩]، وبذلك أصبح المصلى مكانًا مشهورًا بإجابة الدعاء فيه، خصوصًا في أعقاب الزلزال الذي وقع في عام ١١٧٢هـ / ١٧٥٨م[١٠].

ثالثًا- المقابر:

شكَّلت المقابر عاملاً آخر من عوامل نشوء حي الميدان وتطوره، حيث يقع إلى الجنوب من المصلى ضريح صهيب الرومي، الذي رُمِّم في عام ٦٢٤هـ / ١٢٢٧م[١١]، وأصبح مزارًا للمسافرين القادمين إلى المدينة، وقد أقيمت أضرحة أخرى (ضريح أبو البرغل، وضريح الجنيد العسكري، وضريح محمد القرشي) في هذا المكان، الذي تطبَّع بطابع ديني واضح لكونه ضم رفات شخصيات دينية مشهورة.

وتوجد حاليًا ثلاث مقابر في حي الميدان [١٢]، لكنها لم تكن لها تلك الصفة الدينية في المصادر العائدة إلى العصور الوسطى، باستثناء مقبرة القبيبات الواقعة إلى الجنوب من جامع كريم الدين، وقد امتلك أفراد كثيرون قبورًا في جنوب دمشق، رغم أن بعضهم كان يقطن في الجهة المقابلة لحي الميدان، على سفح جبل قاسيون، ومن هؤلاء أحد القضاة في الجامع الأموي، الذي دُفن في نهاية القرن السابع / الثالث عشر، عام ٦٩٢هـ / ١٢٩٣م، في الميدان، بناء على رغبة سجَّلها في وصيته[١٣].

(6) منادمة الأطلال، بدران، عبد القادر، ص 389. خطط دمشق دراسة تاريخية شاملة، العلبي، أكرم حسن، ص310.
(7) مفاكهة الخلان في حوادث الزمان، ابن طولون، ج2، ص 28.
(8) صفحات في تاريخ دمشق في القرن الحادي عشر الهجري، كناش إسماعيل المحاسني، ص 131.
(9) صفحات في تاريخ دمشق في القرن الحادي عشر الهجري، كناش إسماعيل المحاسني، ص 140.
(10) ذيل ثمار المقاصد، طلس، أسعد، ص 225.
(11) ذيل ثمار المقاصد، طلس، أسعد، ص 230.
(12) إن أهم مقبرة من هذه المقابر الثلاث هي مقبرة باب الله، وهذه المقبرة هي الأبعد عن مركز المدينة، وتمتد على طول 400م، ثم تأتي بعدها من حيث الاتساع مقبرة الحقلة (130× 150م)، ثم مقبرة الجورة (180× 80م).
(13) كتاب تالي وفيات الأعيان، ابن الصقاعي، ص123، جاء فيه " 189 شرف الدين عمر بن خواجا إمام، الفارسي العدل الناسخ المعروف بالياغُرت، كان من الكتاب الملاح، سلك طريقة حسنة في العدالة، سكن بقاسيون، وفي كل يوم يحضر إلى المدينة يجلس في مسجد ينسخ ويشهد في مكانه وعلى القضاة، توفي في ربيع الأول سنة اثنتين وتسعين وستمئة بجبل قاسيون، ودفن بميدان الحصى بوصية منه".

واجهة مسجد الخانقية بعد هدم قسم كبير منه

وفي هذا الحي كانت تُستقبل الشخصيات الرسمية، وكان بفضل موقعه على أطراف المدينة مسرحًا لمعارك دموية، حيث شكّل مسرحًا لمواجهات بين جيوش متنافسة، ففي العهد الفاطمي (القرن الرابع / العاشر) أُشير إلى حملة تعبئة عسكرية نُظمت فيه بهدف حماية المدينة من هجمات الأعداء، وكان مسرحًا لمعارك حالت دون توجُّه سكان دمشق إلى المصلى لإقامة الصلاة، كما شهد عددًا من النشاطات الحربية إبّان العهدين الزنكي والأيوبي (القرن السادس / الثاني عشر).

ومنذ نهاية القرن الثامن / الرابع عشر، صارت صورة الميدان، باعتباره حيًّا مسكونًا، ترتسم شيئًا فشيئًا، حيث أخذ يتشكل تدريجيًّا كحي من أحياء المدينة في لحظة مفصلية من تاريخ القرن الثامن / الرابع عشر، والآثار المعمارية القائمة فيه، وكذلك الإشارات إلى وجود سكان قطنوه، هما شاهدان على ذلك[١٤].

رابعًا – دور قافلة الحج وتجارة الحبوب في تطور حي الميدان:

إن دور قافلة الحج وتجارة الحبوب قد تبدَّى، في حي الميدان، بشكل جلي من خلال الآثار المعمارية التي خلفها هذا النشاط التجاري على امتداد الشريان الرئيسي للحي، وتمثلت بالبوائك، وهي أبنية متعددة الاستخدامات، وأهمها أنها معدة لحفظ الغلال وبيعها[١٥].

وبوجه عام فإن وجود هذه البوائك على امتداد طريق حوران يجد تفسيره في العلاقات التجارية المزدهرة التي كان الميدان يقيمها مع تلك المنطقة الزراعية، حيث كانت كمية كبيرة من حبوب حوران تُنقل إلى حي الميدان، وكان تجار الحبوب يُقيمون في حي الميدان، بالقرب من

(14) حي الميدان في العصر العثماني، مارينو، د. بريجبت، ص 80.
(15) غرائب البدائع وعجائب الوقائع، ابن الصديق، حسن، ص 46. حي الميدان في العصر العثماني، مارينو، د. بريجبت، ص 108.

بوائكهم المستخدمة في تخزين الحبوب على طريق الحج[١٦].

وأيًّا كان مصدر هذا القمح، فإن بناء البوائك على امتداد الشريان الرئيسي للحي أضفى على هذا الحي خصوصية، وخلع على دمشق طابعًا خاصًّا بين المدن العثمانية الكبرى.

ويرى سوفاجيه أن كل ما يتعلَّق بالحج من مظاهر التجارة يتمركز على طريق مكة، فتظهر هناك خارج الباب الغربي مجموعة من الأسواق يجد فيها المسافرون وأرباب القوافل وباعة القمح من الفلاحين وأصحاب الإبل من البدو كل ما يحتاجونه من ثياب وأحذية ومعدات سفر، وعلى الطريق التي تؤدي إلى الحجاز تتتابع مستودعات القمح دون انقطاع بين المشاهد المبنية في عهد المماليك، فتُؤلِّف ضاحية يبلغ طولها الثلاثة كيلو مترات، تنمو فتطغى على قرية صغيرة تُدعى القبيبات، أي القباب الصغيرة، كان يسكنها زراع الأراضي المجاورة، ثم ما لبثت تلك الضاحية أن دُعيت «الميدان» نسبة لميدان الحصى القديم، القريب منها، وسُمِّي طرفها الجنوبي (باب اللّه)، وهو المحل الذي يترك فيه الحجاج مدينة دمشق متجهين نحو البيت الحرام[١٧].

خامسًا - وحدة مكانية تميزت مع مرور الزمن:

إن ظهور باب في قطاع القبيبات، في نهاية القرن الخامس عشر ومطلع القرن السادس عشر [١٨]، دل على اندماج الحي مع المدينة، فقد أشار أحد الرحالة، وهو الشيخ إبراهيم الخياري[١٩]، أن هذا الباب كان مفتوحًا عند وصوله إلى دمشق عام ١٦٦٩م[٢٠]، كذلك فإن الشخصيات المهمة التي كانت تغادر دمشق كان يجري مرافقتها حتى باب اللّه، الذي شكل حدًّا لفضاء المدينة العمراني[٢١]، وفي نهاية القرن التاسع عشر أشار (ألفرد .فون كريمر)[٢٢] إلى وجود هذا الباب بالقرب من الزاوية السعدية، وأنه يُمثِّل الحدَّ الذي ينتهي عنده حي الميدان، ووصفه بأنه مبني من الحجارة، ومزود في جزئه العلوي بكوى لرمي العدو وبموقع حراسة، غير أن (أ .فون كريمر) شكّك في قدرة هذا الباب على الصمود وحماية المدينة، وزعم أن من الممكن تدميره ببضع قذائف مدفعية[٢٣].

وفي القرون اللاحقة، مثّل هذا الباب حدًّا فاصلاً لفضاء نال مكانة مهمة لدى مختلف ولاة دمشق، وهو ما تجلى في أعمال الترميم التي كانت تتم بمبادرتهم، وهكذا فإن جنفلي عثمان باشا[٢٤] قام في عام ١٠٤٨هـ / ١٦٣٨م بإعادة رصف الطريق الممتد من جامع السنانية إلى باب

---

(16) حي الميدان في العصر العثماني، مارينو، د. بريجبت، ص 110.
(17) دمشق الشام، سوفاجيه، جان، ص45.
(18) مفاكهة الخلان في حوادث الزمان، ابن طولون، ج1، ص 191
(19) إبراهيم بن عبد الرحمن الخياري المدني (ت 1083هـ/ 1672م)، أصله من مصر سكن المدينة المنورة، رحل إلى دمشق والآستانة، وصنف رحلة سماها تحفة الأدباء وسلوة الغرباء، توفي بالمدينة المنورة. المحبي، خلاصة الأثر في أعيان القرن الحادي عشر، 1/ 25.
(20) تحفة الأدباء وسلوة الغرباء، الخياري، إبراهيم، ص 96.
(21) صفحات في تاريخ دمشق في القرن الحادي عشر الهجري، كناش إسماعيل المحاسني، ص102.
(22) -ألفرد فون كريمي (1243-1306هـ/ 1828-1889م)، مستشرق وسياسي نمساوي، نشر كتبًا عدة عن الإسلام والثقافة الإسلامية، زار دمشق بين عامي (1849-1851م)، ودرس أوابدها، ووضع كتابًا أسماه (طوبوغرافية دمشق) نشره في جزأين في فينا عام 1854م، وهو من أهم المصادر عن تاريخ دمشق في تلك الفترة، حيث وصف دمشق ومناخها وموقعها ونظام توزيع المياه فيها، وأوابدها التراثية وآثارها المتعددة.
(23) مارينو، د. بريجبت، حي الميدان في العصر العثماني، ص 132.
(24) تولى دمشق سنة 1048 هـ حتى 1050هـ. ولاة دمشق في العهد العثماني، المنجد، صلاح الدين، ص33.

الله [٢٥].

وفي عام ١١٦٥م قام أسعد باشا العظم[٢٦] برصف الطريق الممتد من باب المصلى حتى باب الله [٢٧]، الذي تمرُّ عليه قافلة الحج، التي كان والي دمشق مسؤولاً عنها وقتئذ.

ومهما يكن من أمر فإن أقوال الإخباريين تُشير إلى توسُّع الحي حتى باب الله، ولدى الهجوم الذي شنه الوالي الباشا عبد الله باشا الشتجي[٢٨] على الميدان في شهر ربيع الثاني ١١٧١هـ / ١٧٥٧م تجاوزت المعركة حد باب الله، فقد ذكر بديري الحلاق: « ولم يضرب هو وعسكره بالسيف إلى أن وصلوا خارج باب الله فقتلوا خلقًا كثيرًا »[٢٩]، وكان الأهالي يحتشدون على جانبي الطريق الممتد من باب الله حتى أسوار المدينة للتعبير عن فرحتهم بوصول والٍ جديد، فقد أقيمت الزينات « بدءًا من باب الله » في شهر ربيع الثاني ١٢٢٢هـ / ١٨٠٧م احتفالاً بوصول الوالي كنج يوسف باشا[٣٠].

يذكر البديري الحلاق[٣١] أن والي الشام أسعد باشا العظم، الذي ولي خلال السنوات (١١٦٥ – ١١٧٠هـ / ١٧٥٢ – ١٧٥٧م)[٣٢]، عمر طريق الميدان من باب المصلى حتى باب الله، ولم يظلم أحدًا بذلك ولا أخذ من أحدًا شيئًا.

واجهة مسجد أراق السلحدار ٧٥٠ هـ: في الميدان التحتاني وهو في الواقع تربة الأمير أراق السلحدار المملوكي، وفيها المقرنصات التي تعلوها طاسة شعاعية فوقها زخارف متعددة الألوان، وفوقها ساكف حجري منقوش

(25) حي الميدان في العصر العثماني، مارينو، د. بريجيت، ص 133.
(26) تولى دمشق سنة 1165ه حتى 1170هـ. ولاة دمشق في العهد العثماني، صلاح الدين، ص 79.
(27) حوادث دمشق اليومية، الحلاق، أحمد البديري، ص 121.
(28) عبدي باشا الجيته جي والي دمشق العثماني من سنة 1171 هـ / 1757م حتى 1173هـ/1800م. ولاة دمشق في العهد العثماني، صلاح الدين، ص 81.
(29) حوادث دمشق اليومية، الحلاق، أحمد البديري، ص 214.
(30) حوادث بلاد الشام، العبد، حسن آغا، ص 134
(31) حوادث دمشق اليومية، الحلاق،أحمد البديري، ص 167.
(32) ولاة دمشق في العهد العثماني، المنجد، صلاح الدين، ص 79.

كما يروي القساطلي[٣٣] أن الوالي راشد باشا، الذي ولي خلال السنوات (١٢٨٣ - ١٢٨٨هـ/ ١٨٦٦-١٨٧١م)[٣٤]، حسّن طريق الميدان، فصار صالحًا لسير المركبات وزرع على جانبيه الشجر.

سادسًا - إدماج الحي في نظام الدفاع عن المدينة:

كان الميدان، بسبب موقعه الجغرافي، هدفًا لهجمات كثيرة، وقد جرت محاولات منذ مطلع القرن العاشر نهاية القرن الخامس عشر لإدماج الميدان في نظام الدفاع عن المدينة، وهكذا أُقيمت في عام ٩٠٣هـ / ١٤٩٧م، الأساسات لسور في رأس القبيبات[٣٥]، وذُكر في عام ٩١٠هـ / ١٥٠٤م « بناء سور بأبواب بأواخر العمائر آخر القبيبات»[٣٦]، وفي العصر العثماني ورد ذكر بوابات أخرى تُفضي إلى محلات أو تُؤدي إلى الريف[٣٧].

كذلك فقد وُجدت أبواب أخرى في الميدان، ففي السنوات ١٨٢٧ - ١٨٣٠م، ورد في وثائق المحفوظات، ذكر بوابة الزفتية على مقربة من زقاق الجورة وزقاق المسلخ، كما كشفت خارطة وضعها الجيش الفرنسي في المشرق، في عام ١٩١٩م، عن وجود أبواب أخرى على الأطراف الخارجية للحي، مطلة على الريف، ففي القطاع الوسطاني من الحي كان يقع إلى الغرب «باب الحطب»، وإلى الشرق «باب الجوانية»، و«باب فيصلية»، غير أننا نجهل تاريخ بناء هذه الأبواب.

وقد ورد أيضًا ذكر عدد من الأبواب في وسط الحي، مطلة على زقاقات معينة، ففي السنوات ١٨٢٠-١٨٣٠م، كان هناك باب لزقاقين من أزقة مقسم الميدان هما: زقاق المحمص[٣٨]، وزقاق العسكري[٣٩]، وكذلك ذُكر ثلاثة أبواب في محلة باب المصلى، في السنوات ١٩٣٠ - ١٩٤٠م، واقعة في الشمال والشرق والجنوب، وكان الباب الواقع في شمال المحلة، والذي كان قائمًا في تلك السنوات، يُغلَق في الساعة التاسعة مساءً[٤٠]، كما أُشير أيضًا إلى وجود خمسة أبواب في القطاع الوسطاني لحي الميدان، كانت تُغلَق في الساعة العاشرة مساءً[٤١]، وعلى أية حال فإن آثار باب زقاق القرشي وباب زقاق الجورة ما تزال بادية للعيان حتى اليوم.

سابعًا – حدود حي الميدان:

اشتهر في العصر المملوكي أربعة أحياء تقع جنوب دمشق على طريق الحجاج، وهي: «السويقة، والمصلّى، وميدان الحصى، والقبيبات»[٤٢].

وهذه الأحياء هي التي تُشكِّل حيَّ الميدان:

السويقة: تقع جنوب قصر حجاج، ظاهر باب الجابية، وهي أول الميدان، وبها التكية

(33) الروضة الغناء في دمشق الفيحاء، القساطلي، نعمان، ص99.
(34) ولاة دمشق في العهد العثماني، المنجد، صلاح الدين، ص 93.
(35) مفاكهة الخلان في حوادث الزمان، ابن طولون، ج1، ص 189، 191.
(36) مفاكهة الخلان في حوادث الزمان، ابن طولون، ج1، ص 282
(37) حي الميدان في العصر العثماني، مارينو، د. بريجبت، ص 91.
(38) حوادث بلاد الشام، العبد، حسن آغا، ص 313
(39) حوادث بلاد الشام، العبد، حسن آغا، ص 297
(40) حي الميدان في العصر العثماني، مارينو، د. بريجبت، ص 133.
(41) حي الميدان في العصر العثماني، مارينو، د. بريجبت، ص 134.
(42) دمشق بين عصر العثمانيين والمماليك، العلبي،أكرم، ص 62.

المرادية.

المصلَّى: يقع جنوب السويقة، وكان مصلى العيدين والاستسقاء، ويُسمَّى اليوم باب المصلى.

ميدان الحصى: ويقع جنوب المصلَّى، ويُسمَّى اليوم «الميدان التحتاني».

القبيبات: تقع جنوب ميدان الحصى، وتُعرَف اليوم بـ«الميدان الفوقاني».

وكان لهذه الأحياء دور كبير في الحياة العامة لدمشق.

وقد كانت دمشق، في العصر العثماني، مقسمة إلى ثمانية أقسام، وكان حي الميدان يشكل قسمين من هذه الأقسام، حيث جاء في المصادر: (ثُمن الميدان التحتاني[٤٣] الذي عرضه شرقًا بغرب من مقبرة باب الصغير إلى ملاصقة محلة قبر عاتكة وقبر الولي الصالح والقطب الفالح سيدي الشيخ علي الغواص الرفاعي قدس الله سره العالي، وطوله قبلة بشمال من ملاصقة ثمن الميدان الفوقاني إلى ملاصقة ثمن القنوات على العرض.

وفي الثمن المذكور من الجوامع: جامع الصابونية، وجامع الشيخ حسن آل سعد الدين، وجامع السويقة[٤٤]، وجامع المصلى، وجامع النارنج[٤٥]، وجامع منجك، وجامع الرفاعي، وجامع الشيخ

محراب مسجد فلوس، يعود للعصر الفاطمي، والمحراب فيه نقوش جصية نباتية نادرة

(43) الميدان التحتاني: استوطنه في القرن السادس الهجري نبلاء وأمراء الأتراك الأتابكية والأكراد أرباب الدولة النورية الآتين من الموصل شمال العراق، وأصبحت ناحية تعرف (ناحية الموصلي).
(44) أحد المساجد في حي السويقة المحروقة غربي مسجد باب المصلى.
(45) مسجد مهدوم أُقيم محله مخفر للشرطة.

صهيب، وجامع جوبان[٤٦]، وجامع بشارة[٤٧]، وجملة مساجد ومدارس وحمامات.

الثمن الرابع: (الميدان الفوقاني): الذي عرضه شرقًا بغرب من ساحة الزفتية والمحلة المعروفة بالقاعة إلى طريق صف الجوز الموصل إلى قرية القدم الشريفة، وطوله قبلة بشمال من باب مصر المعروف ببوابة اللّٰه الكائن في آخر ميدان الحصى الملاصق للمقبرة المدفون فيها سيدي الشيخ تقي الدين الحصني، إلى ملاصقة ثمن الميدان التحتاني على عرضه، وبالثمن المذكور من الجوامع: جامع الدقاق، وجامع السلطان أحمد الغازي، وجامع الكنجلية، وجامع التينبية، وجامع الحلاج، وجملة مساجد ومدارس وزوايا)[٤٨].

ثم مع بداية عهد الاستقلال تغيَّرت حدود الحي، حيث امتدَّ حيُّ الميدان من الشمال إلى الجنوب بطول نحو (٢٣٠٠) م، بدءًا من مفرق خان المغاربة حتى بوابة مصر (ساحة الأشمر الحالية)، ويقال لهذا الموضع أحيانًا بوابة اللّٰه، وتوضَّعت على جانبيه المنشآت الدينية، ومستودعات الحبوب التي تُعرف بالبوايك، ومفردها بايكة، وكل واحدة منها مقسمة إلى حجرات صغيرة تُسمَّى (مقالب) و(حوش)، لاستضافة الحيوانات الناقلة للحبوب، ومن أشهر هذه البوايك: بايكة آل النوري وآل المهايني وغيرها [٤٩].

واليوم يُقسم حيّ الميدان إلى ثلاثة أقسام: الميدان التحتاني، محلّة باب المصلّى وما يليها، ثم الميدان الوسطاني، وبعده الميدان الفوقاني عند بوابة اللّٰه. ويشقّها طريق الحجّ المعروف باسم الدّرب السّلطاني والطريق العظمى.

وأما الميدان الفوقاني فيقع في منتهى المدينة من جهة القبلة، ويمتدّ من سوق الجزماتيّة إلى بوّابة اللّٰه (باب مصر)، ويضمّ من الأحياء والمحال: سوق الجزماتيّة، الحقلة، ساحة عصفور، ساحة بحصيص، والراقية، وزقاق الطالع، وزقاق البرج، وزقاق الماء، وزقاق أبي حبل، والمشارفة، والحارس، والجمّالة، والغلاينية، والنصارى، وزقاق قيصر.

المحور الثاني: الآثار المعمارية وأنواعها في حي الميدان

تمثَّلت هذه الأبنية في الأنواع التالية[٥٠]:

أولًا: الأبنية الدينية:

أ- المساجد الكبرى: وتتمثل في جامع منجك، وجامع كريم الدين[٥١].

ب- الأضرحة: ساهم عدد من الأمراء المماليك في التطوير المعماري لطريق الميدان، فعلى مدى قرن كامل، منذ مطلع القرن الثامن / الرابع عشر وحتى مطلع القرن التاسع / الخامس عشر، شاد الأمراء المماليك في دمشق على طول الطريق التي تعبر حي الميدان متجهة

(46) مهدوم ومحله مقبرة عائلية.
(47) مهدوم ومحله اليوم دوار ساحة باب المصلى المركزي.
(48) الروضة البهية في فضائل دمشق المحمية، عربي كاتبي الصيادي، محمد عز الدين بن حسين، ص 100-104.
(49) مدينة دمشق، جبر، صفوح، ص 210
(50) حي الميدان في العصر العثماني، مارينو، د. بريجبت، ص 80.
(51) حي الميدان في العصر العثماني، مارينو، د. بريجبت، ص 81.

نحو الجنوب أضرحة مخصصة للاستخدام كمدافن لهم، حيث شُيِّد أحد عشر ضريحًا ما بين الأعوام ٧٠٣هـ / ١٣٠٣م و٨٢٣ هـ / ١٤٤٢م، ويضاف إلى هذه المشيدات، التي نجهل غالبًا موقعها الدقيق، ضريحان آخران ضمتهما زاويتان، هما ضريح اشقتامور المارديني (المتوفى عام ٧٩١هـ / ١٣٨٩م) الذي ضمته الزاوية الرشيدية[٥٢]، وضريح إينال الجكمي (المتوفى عام ٨٤٢هـ / ١٤٣٩م) الذي ضمته الزاوية الجباوية[٥٣].

واجهة حمام فتحي في الميدان الوسطاني الغنية بالزخارف الهندسية الجميلة، والمداميك الموزعة بالتناوب المسماة بالأبلق

ج- الزوايا:

إضافة إلى الجوامع والأضرحة شكلت الزوايا مَعْلَمًا مُهمًّا للحياة الدينية في الميدان، حيث أُقيمت عدة زوايا في العصر المملوكي، منها الرفاعية والرشيدية والموصلية والجباوية[٥٤].

ثانيًا: الأبنية المدنية:

أ- الحمامات:

شكلت الحمامات مؤشرًا على نمو حي الميدان، ووجدت في وقت من الأوقات تسعة حمامات في الميدان، ويبقى تاريخ بناء ثلاثة منها هي حمام الشيخ حسن في باب المصلى وحمام التوتة والحمام الجديد في القبيبات مجهولاً[٥٥]، ويعود بناء ثلاثة حمامات أخرى إلى العصر المملوكي، وهي حمام سنقر (القرن الثالث عشر) في الجزء الشمالي للحي بالقرب من باب المصلى، وحمام الموصلي (نهاية القرن الرابع عشر) [٥٦]، في الجزء الجنوبي للحي، وفي العصر العثماني بُنيت ثلاثة حمامات جديدة (حمام الرفاعي وحمام فتحي وحمام عقيل)، وذلك تجاوبًا مع حاجات سكان كانوا في طور التوسع[٥٧].

(52) حي الميدان في العصر العثماني، مارينو، د. بريجبت، ص 82.
(53) حي الميدان في العصر العثماني، مارينو، د. بريجبت، ص 82.
(54) حي الميدان في العصر العثماني، مارينو، د. بريجبت، ص 84.
(55) الحمامات الدمشقية، كيال، منبر، ص 122.
(56) الحمامات الدمشقية، كيال، منبر، ص 122.
(57) حي الميدان في العصر العثماني، مارينو، د. بريجبت، ص 88.

ب- الخانات: ورد في نهاية القرن الخامس عشر ذكر عدة خانات على طول الطريق المتجهة إلى القبيبات، منها خان القبيبات، وخان السومر، وخان المنصور، وخان القصبة، وخان المغاربة في السويقة، وهذا يدل على إقامة سكان مغاربة في هذا المكان، لكننا نجهل تاريخ بناء هذا الخان، ولا نعلم سوى أنه كان قائمًا في عام ١٧٧١م [٥٨].

ج- البوائك: إن البوائك في الميدان من الآثار المعمارية التي خلَّفها هذا النشاط التجاري على امتداد الشريان الرئيسي للحي.

وطوال العصر العثماني كان لهذه البوائك استخدامات متعددة، ومع ذلك، فإن غالبيتها قد استُخدمت لتخزين القمح (بائكة معدة لوضع القمح)، كما استُخدمت أحيانًا لبيع المنتجات الزراعية (بائكة معدة لبيع الغلال) [٥٩].

وذكرت (مارينو، د. بريجبت) أنها أحصت قرابة ستين بائكة، غير أن عمليات الهدم التي طاولت النسيج العمراني القديم تحملنا على الاعتقاد بأن عدد البوائك كان أكبر من ذلك، فيما مضى، و البائكة بناء «مستطيل الشكل، يستند سقفه إلى عوارض من خشب الصفصاف، محمولة على أقواس فاصلة، ذات فتحات كبيرة، وترتفع نقطة ارتكازها على الأرض قرابة متر ونصف»[٦٠]، أما موقع هذه البوائك فقد كان في الأغلب على الشريان الرئيسي للحي[٦١].

ثالثًا - الكنائس: يوجد في حي الميدان ثلاث كنائس بُنيت في الحي إبان النصف الأول من القرن التاسع عشر، وكانت إحدى هذه الكنائس، وهي كنيسة كاثوليكية، قد بُنيت في عام ١٨٣٤م في محلة باب المصلى، أما الكنيستان الأخريان، الأولى كاثوليكية والثانية أرثوذكسية، فقد شُيِّدتا عام ١٨٣٣ وعام ١٨٤٠م في قطاع القرشي إلى الشمال من مقسم سوق الميدان[٦٢].

المحور الثالث: الآثار التاريخية العمرانية الباقية في حي الميدان

ومن أهم المشيدات المعمارية التي ما زالت باقية، منها:

١- مسجد آراق السلحدار ٧٥٠ هـ: في الميدان التحتاني على يمين الطريق، شمال حمام فتحي، وهو في الواقع تربة الأمير آراق السلحدار المملوكي[٦٣].

وتتمتع التربة بواجهة مرتفعة معقودة بالمقرنصات تعلوها طاسة شعاعية فوقها زخارف متعددة الألوان، وفوقها ساكف حجري منقوش يحمل النص التالي: أنشأ هذه التربة المباركة العبد الفقير إلى الله آراق السلحدار نائب السلطنة الشريفة بصفد المحروسة...[٦٤].

(58) غرائب البدائع وعجائب الوقائع، ابن الصديق، حسن، ص 45.
(59) غرائب البدائع وعجائب الوقائع، ابن الصديق، حسن، ص46.
(60) حي الميدان في العصر العثماني، مارينو، د. بريجبت، ص 109.
(61) حي الميدان في العصر العثماني، مارينو، د. بريجبت، ص 109.
(62) حي الميدان في العصر العثماني، مارينو، د. بريجبت، ص 372. معجم دمشق التاريخي، الشهابي، قتيبة، ج2، ص 149. الروضة الغناء في دمشق الفيحاء، القساطلي، نعمان، ص 102
(63) خطط دمشق دراسة تاريخية شاملة، العلبي، أكرم حسن، ص 308
(64) الآثار التاريخية في دمشق، سوفاجيه، جان، ص 90، الآثار الإسلامية في مدينة دمشق، ولتسينجر، كارل، ص204. ثمار المقاصد، ابن عبد الهادي، ص 192، العمارة العربية الإسلامية خصائصها وآثارها في سورية، الريحاوي، عبد القادر، ص 169.

بائكة في الميدان الوسطاني، وهي من البوائك النادرة التي ما تزال على وضعها الأصلي

٢- جامع باب المصلى

٤٩٧ هـ: أو جامع المصلى، بُني في ميدان الحصى، ولا يُعرف تاريخ بنائه الأول، غير أنه عثر فيه على حاجز خشبي ثمين مؤرخ بسنة ٤٩٧هـ[٦٥]، ولذلك يُرجَّح أنه من العصر السلجوقي.

وقد خرب المسجد في الفتن الكثيرة التي تعرَّضت لها دمشق [٦٦]، فأمر الملك العادل سيف الدين بتجديده سنة ٦٠٦هـ، وبُوشر بذلك في شوال من العام التالي.

وقد جُدِّد المسجد سنة ٧٤٠ هـ في آخر أيام الملك الناصر ونائبه على الشام الأمير تنكز، كما جُدِّد في العصر العثماني سنة ١٢١٧هـ، وسقفه يشبه سقف الجامع الأموي، والمسجد ما يزال إلى اليوم أكبر مسجد في دمشق بعد الجامع الأموي، ولم يبق من بنائه الأيوبي إلا قاعدة المئذنة [٦٧].

٣- جامع تنبك ٧٩٨ هـ: (حي الميدان الفوقاني، شرقي الطريق، ويُعرف بالتربة التينبية وتربة تنبك، بناه نائب دمشق تنبك أو تنم، من مماليك السلطان برقوق، سنة ٧٩٨هـ، ودُفن فيه.

وذكر كارل أن بناءه كان سنة ٦٨٣هـ، وأخطأ في تحديد موقعه فجعله في غرب الطريق، والجامع معروف ومشهور[٦٨].

والتربة مشيدة بالمداميك الحجرية ذات الألوان المتناوبة (الأبلق)، تتوسطها بوابة مرتفعة معقودة بالمقرنصات، تعلوها طاسة محززة، وفوق الباب ساكف أملس، فمدماك من الحجارة المزررة، فشريط كتابي، فشريط مزرَّر، تعلوه حشوة هندسية مربعة، تتخلَّلها بقايا قطع من القاشاني الأزرق، وفي وسطها شعر الأمير «رنك» الأمير تينبك مزين بالقاشاني[٦٩].

(65) العمارة العربية الإسلامية خصائصها وآثارها في سورية، الريحاوي، عبد القادر، ص101.
(66) ذيل الروضتين، أبو شامة، بيروت، دار الجيل، د.ت، ج1، ص 67
(67) خطط دمشق دراسة تاريخية شاملة، العلبي، أكرم حسن، ص 310
(68) الآثار الإسلامية في مدينة دمشق، ولتسينجر، كارل، ص 307، خطط دمشق دراسة تاريخية شاملة، العلبي، أكرم حسن، ص315.
(69) الآثار التاريخية في دمشق، سوفاجيه، جان، ص92، الآثار الإسلامية في مدينة دمشق، ولتسينجر، كارل، ص207. ثمار المقاصد في ذكر المساجد، ابن عبد الهادي، ص 204، العمارة العربية الإسلامية خصائصها وآثارها في سورية، الريحاوي، عبد القادر، ص 174، خطط دمشق دراسة تاريخية شاملة، العلبي، أكرم حسن، ص 315.

٤- جامع الدقاق ٧١٨ هـ: ويُعرف بجامع كريم الدين أو الكريمي، وجامع القبيبات، ويقع في الميدان الفوقاني شرقي الطريق العام مقابل حمام الدرب، بناه القاضي كريم الدين بن عبد الكريم بن هبة الله[٧٠].

أما الجامع فقد أُمر ببنائه في عاشر صفر سنة ٧١٨هـ، وبوشر به فورًا، فانتهى في شعبان من العام نفسه، وأُلقيت فيه الخطبة الأولى في ١٧ شعبان بعد أسبوع واحد من اكتمال جامع تنكز، ثم اشترى له نهرًا وأجراه إليه ففرح به الناس ونصبوا عليه الأشجار، وعمل حوضًا كبيرًا بجانب الجامع يشرب منه الناس والأنعام[٧١].

وفي سنة ١٣٥٠هـ جدَّدته الأوقاف وبنت له دكاكين على الشارع العام [٧٢].

٥- جامع الرفاعي ٩٦٠هـ: مسجد لطيف، يقع في الميدان الوسطاني، إلى الشمال من حمام الرفاعي، وقد احترق سنة ١٣٤٤هـ - ١٩٢٥م، فأعيد بناؤه بعد خمسة عشر عامًا[٧٣]، ويُدخل إلى المسجد من الجهة الغربية، حيث يوجد الصحن المفروش بالرخام الجيد، والمنبر من العصر العثماني، والمنارة مدورة وحجرية ترتفع من فوق عقد الباب[٧٤].

٦- جامع منجك ٨١٠ هـ: في الميدان الوسطاني، بناه الأمير ناصر الدين محمد بن إبراهيم بن سيف الدين منجك الكبير في حدود سن ٨١٠ هـ[٧٥]، وقد اختلف المؤرخون في أمر بنائه[٧٦].

وقد ذهب الأستاذ العلبي إلى القول إن الباني هو الأمير ناصر الدين محمد، لأن أحدًا لم يذكر هذا الجامع على الإطلاق قبل سنة ٨٠٠هـ، ولأن المذكور كان محبًّا للعمران وعاش بدمشق سنوات طويلة معزَّزًا مكرمًا، ولأنه مدفون إلى جانب جامعه[٧٧].

وقد جُدِّد المسجد تجديدًا شاملاً في العصر العثماني، في أوائل القرن الرابع عشر، والمسجد اليوم مجدَّد ومعظم آثاره المملوكية تقع في الجهة الشرقية والشمالية، وهو معروف ومشهور، وله أثر واضح في منطقة الميدان[٧٨].

---

(70) -وكيل الخاص السلطاني ببلاد الشام، كان قبطيًّا فأسلم كهلًا، فقرَّبه الملك الناصر حتى أصبح الرجل الثالث في الدولة بعد السلطان ونائبه في الشام تنكز، وكان كريمًا يحب العلماء ويقربهم ويُوفي ديون الغارمين، وقد غضب عليه الناصر وصادره فاستقر في أسوان، ثم أحس بالشر فصلى ركعتين، وقال: عشنا سعداء ومتنا شهداء، ثم شُنق في ربيع الأول سنة 724 هـ، وقيل بل انتحر، وكان يومئذ من أبناء التسعين. الدرر الكامنة في أعيان المئة الثامنة، ابن حجر العسقلاني، أحمد بن علي، 3 / 16-17.

(71) البداية والنهاية، ابن كثير، إسماعيل بن عمر، 14 / 116، الآثار الإسلامية في مدينة دمشق، ولتسينجر، كارل، ص 211.

(72) خطط دمشق دراسة تاريخية شاملة، العلبي، أكرم حسن، ص 326.

(73) ثمار المقاصد، ابن عبد الهادي، ص 218.

(74) خطط دمشق دراسة تاريخية شاملة، العلبي، أكرم حسن، ص 328.

(75) سيف الدين منجك الكبير هو نائب الشام، وصاحب المدرسة المنجكية وحمام منجك، خلف ولدًا، يقال له إبراهيم، وله ولد اسمه ناصر الدين محمد، ورث مجد آل منجك، وأصبح السيد المطاع في دمشق والقاهرة، وقربه الملك المؤيد شيخ، فوسع جامع الأقصاب والمدرسة العمرية، وتوفي في دمشق سنة 844هـ عن سبعين سنة، ودُفن في تربته قرب جامعه المذكور في "الجزماتية" اليوم. الضوء اللامع لأهل القرن التاسع، السخاوي، محمد بن عبد الرحمن، 281/6.

(76) -ذكر النعيمي وابن المبرد وبدران وسوفاجيه والمنجد أن بانيه هو إبراهيم، المتوفى سنة 793هـ، ثم عاد النعيمي وذكر أن بانيه هو محمد بن إبراهيم، وذكر كارل والريحاوي أن الباني هو سيف الدين منجك – الجد الأكبر لآل منجك. الدارس في تاريخ المدارس، النعيمي، عبد القادر بن محمد (ت978هـ)، 444/2، منادمة الأطلال، بدران، عبد القادر، ص 389، الآثار التاريخية في دمشق، سوفاجيه، جان، ص 50. الآثار الإسلامية في مدينة دمشق، ولتسينجر، كارل، ص206

(77) خطط دمشق دراسة تاريخية شاملة، العلبي، أكرم حسن، ص 356-357.

(78) خطط دمشق دراسة تاريخية شاملة، العلبي، أكرم حسن، ص 356-357.

٧- جامع النقشبندي ٩٨١ هـ: في حي السويقة بدمشق، غرب مقابر الباب الصغير، وجنوب قصر حجاج، ويُعرف بجامع المرادية أيضًا[٧٩].

أما الجامع فإن لبنائه قصة تشبه قصة جامع التوبة، ذلك أنه كان يُقيم في السويقة رجل صالح، يقال له الشيخ محمد اليتيم الصوفي، وكان إلى جانبه حوش تجتمع به «بنات الخطا»، فاستأجره الشيخ وأخرجهن منه، واتخذ فيه مصلًّى صغيرًا بمحراب.

وعندما دخل مراد باشا دمشق، وأراد بناء جامع، أرشد إلى هذا المكان، فأمر ببناء الجامع والتربة، ورتَّب له خطيبًا وإمامًا ومؤذنين، وبنى فيه الحجرات للغرباء، ورتَّب لهم مطبخًا وطعامًا، كما قرَّر مقرئين لتلاوة القرآن الكريم فيه[٨٠].

مأذنة جامع باب المصلى، من الجوامع الكبيرة في دمشق التي تشبه الجامع الأموي

٨- جامع الغواص: من جوامع حي الميدان الوسطاني، وهو جامع قديم لا يُعرف له تاريخ بناء سوى أنه جُدِّد في العهد العثماني سنة (١٢٩٥هـ / ١٨٧٨م)[٨١]، ثم وُسِّع سنة (١٣٩٤هـ / ١٩٧٤م)، وفي داخله ضريح الشيخ علي الغواص الصوفي[٨٢].

٩- جامع الشيخ يعقوب: من جوامع حي الميدان الفوقاني منطقة الحقلة، يعود للعصر العثماني، ولا يُعرف بالضبط تاريخ بنائه، وهو مسجد له صحن مفروش بالحجارة البيضاء

(79) نسبة لبانيه مراد باشا والي دمشق العثماني، الذي دخلها سنة 676هـ، وتوفي فيها في العام نفسه، ودُفن في تربته لصيق الجامع من الشرق، على الطريق العام.

(80) الآثار الإسلامية في مدينة دمشق، ولتسينجر، كارل، ص195. ولاة دمشق في العهد العثماني، المنجد، صلاح الدين، ص 16.

(81) الروضة البهية في فضائل دمشق المحمية، عربي كاتبي الصيادي، محمد عز الدين بن حسين، ص 100

(82) ذيل ثمار المقاصد، طلس، أسعد، ص 242، مشيدات دمشق، ذوات الأضرحة وعناصرها الجمالية، الشهابي، قتيبة، ص 579.

والسوداء وفيه بركة مُثمَّنة، وإيوان يقوم على ثلاث قناطر، وفي غربيه ضريح الشيخ يعقوب، الذي نُسبت تسمية الجامع إليه، وللمسجد مئذنة مثمَّنة تحتها [٨٣]، وبجواره ضريح لمجدده السيد طالب عقيل (١٢٣٢هـ /١٨١٧م)، وهو الذي أنشأ السبيل تحت مئذنته سنة (١٢٢٨هـ / ١٨١٣م) [٨٤].

١٠- زاوية الرفاعي (مسجد فلوس من العصر الفاطمي): مسجد زاوية الرفاعي، وفيه محراب هو كل ما بقي من مسجد قديم كان يُعرف بمسجد فلوس، يرجع للعصر الفاطمي [٨٥]، ويمتاز هذا المحراب بنقوشه الجصية المؤلفة من عروق الكرمة الملتفة وشريط من الخط الكوفي المزخرف[٨٦].

١١- مسجد الخانكية: في الميدان الفوقاني، كان له جبهة حسنة فيها زخارف مملوكية يدخل من بابها إلى ممر طويل يؤدي إلى قاعة فيها بركة ضخمة فوقها قبة عالية الأركان وإلى جنوبها وشمالها قبتان أخريان جُعلت إحداهما كتابًا والثانية مسجدًا [٨٧]، والمسجد هُدم قسم كبير منه في المحلق الجنوبي.

١٢-مسجد الجنيد العسكري: من مساجد العهد المملوكي في حي الجزماتية – الميدان الوسطاني – قرب جامع الرفاعي من جهة الجنوب، وفوق بابه لوحة مكتوب عليها: بسملة بتاريخ العشر الأوسط من ربيع الآخر سنة ٧٨٤هـ أمر بنقش جهات الوقف على مصالح المسجد المعمور بذكر الله تعالى وبنية واقفه الفقير إلى الله تعالى الجناب الشهابي بن حيدر العسكري تقبَّل الله منه وفي غرة ربيع الأول سنة ١٣٥٢هـ جددَّ بناءَه عن متولي الوقف المذكور سائل العفو والغفران من الله تعالى الفقير عبدُ الله الجندي).

احترق هذا المسجد إبان الثورة السورية سنة ١٩٢٥م، وفي سنة ١٩٣٥م جُدِّد ووُسِّع، وفي داخله ضريح تنسبه العامة إلى الجنيد العسكري[٨٨].

١٣- مسجد دار القرآن الأفريدونية[٨٩] ٧٤٩هـ: وتقع المدرسة خارج باب الجابية، وقد عدَّها النعيمي من الترب، ولم يذكرها ضمن المدارس[٩٠]، وابن كثير ينص صراحة على أنها دار للقرآن الكريم [٩١].

وزارها كارل ووصفها، وقال إنها تعد نموذجًا مستمدًا من خطط المدارس ذات الإيوانات الأربعة، وإن الباحة والإيوان والقبة فيها مستوحاة من الفن الرافدي[٩٢].

(83) ذيل ثمار المقاصد، طلس، أسعد، ص 235، 242.
(84) الشهابي، قتيبة، مشيدات دمشق، ص 605.
(85) العمارة العربية الإسلامية خصائصها وآثارها في سورية، الريحاوي، عبد القادر، ص 98.
(86)- الآثار التاريخية في دمشق، سوفاجيه، جان، ص 79.
(87) ذيل ثمار المقاصد، طلس، أسعد، ص 212
(88) ذيل ثمار المقاصد، طلس، أسعد، ص 206، مشيدات دمشق، الشهابي، قتيبة، ص 206.
(89) -واقفها التاجر الكبير شمس الدين أفريدون العجمي، كان من خيار التجار وصلحائهم مشهورًا ومشكور السيرة، توفي في رجب سنة 749 هـ، ودفن بمدرسته المذكورة التي جعلها دارًا للقرآن الكريم، ووقف عليها الأوقاف الجيدة. البداية والنهاية، ابن كثير، 14 / 227.
(90) الدارس في تاريخ المدارس، النعيمي، عبد القادر بن محمد (ت978هـ)، 1/ 276.
(91) البداية والنهاية، ابن كثير، 14/ 227.
(92) الآثار الإسلامية في مدينة دمشق، ولتسينجر، كارل، ص 174.

والمدرسة اليوم ما تزال في مكانها، وفيها قبر الواقف، وتُتَّخذ مصلى لأهل الحي، وتُعرف أيضًا بمسجد العجمي، ويجري ترميمها، وهي مشيدة مملوكية[٩٣].

مأذنة وصحن مسجد الدقاق (كريم الدين) في الميدان الفوقاني بعد الترميم

١٤- مسجد دار القرآن الصابونية ٨٦٨ هـ[٩٤]:

ابتدأ بعمارتها سنة ٨٦٨هـ، وكان فيها جامع بخطبة، وقد اشترط الواقف في هذه المدرسة شروطًا غريبة، منها أن يكون الخطيب شافعيًّا، والإمام حنفيًّا[٩٥].

وصفها كارل الذي ذكرها، وسماها جامع الصابوني، وقد رسمها بدقة، وبيَّن أحوالها في عصره بتفصيل تام[٩٦].

وهي من أجمل مشيدات ذلك العصر، غنية بالعناصر الزخرفية الرصينة التي تؤمن توازنًا تشكيليًّا بتنوع تفاصيلها وتوزُّعها وبتناظر مساحاتها، في مبنية بالمداميك الحجرية ذات الألوان المتناوبة، وبوابتها مرتفعة ومعقودة بالمقرنصات المترفة وفوقها طاسة[٩٧].

والمدرسة اليوم معروفة مشهورة إلى الجنوب من دار القرآن الأفريدونية[٩٨].

١٥- مسجد الزاوية الرشيدية ٧٣٥ هـ: في الميدان الفوقاني غربي الشارع العام مقابل جامع الدقاق، المعروف قديمًا بالجامع الكريمي، لصيق حمام الدرب.

لا تتوفر معلومات وافية عن الزاوية، ولم يذكرها أحد من المؤرخين، وأول من أشار

(93) البداية والنهاية، ابن كثير، 14 / 262، الدارس في تاريخ المدارس، النعيمي، عبد القادر بن محمد (ت978هـ)، 223/2، الآثار الإسلامية في مدينة دمشق، ولتسينجر، كارل، ص 174، منادمة الأطلال، بدران، عبد القادر، ص319، الآثار التاريخية في دمشق، سوفاجيه، جان، ص 89، ذيل ثمار المقاصد، طلس، أسعد، ص 193، خطط دمشق دراسة تاريخية شاملة، العلبي، أكرم حسن، ص 60، العمارة العربية الإسلامية خصائصها وآثارها في سورية، الريحاوي، عبد القادر، ص170.

(94) بناها القاضي الخواجا أحمد الشهابي بن علم الدين بن سليمان بن محمد البكري الدمشقي المعروف بالصابوني، المتوفى سنة 873هـ، والمدفون في مدرسته المذكورة مقابل الباب الصغير. الدارس في تاريخ المدارس، النعيمي، عبد القادر بن محمد (ت978هـ)، 1/ 13، دور القرآن في دمشق، النعيمي، عبد القادر بن محمد (ت 927هـ)، ص 17.

(95) الدارس في تاريخ المدارس، النعيمي، عبد القادر بن محمد (ت978هـ)، 1/ 13، دور القرآن في دمشق، النعيمي، عبد القادر بن محمد (ت 927هـ)، ص 17.

(96) الآثار الإسلامية في مدينة دمشق، ولتسينجر، كارل، ص178.

(97) مشيدات دمشق، الشهابي، قتيبة، ص 471. دور القرآن في دمشق، النعيمي، عبد القادر، ص 18.

(98) خطط دمشق دراسة تاريخية شاملة، العلبي، أكرم حسن، ص 69.

إليها باسم المدرسة الرشيدية كان فولتسينجر، وقد زارها مع بدايات هذا القرن وقال عنها: (ويبدو أن القبة الشمالية تضم قبرًا في داخلها)، لكنه لم يُحدِّد من هو صاحب هذا القبر[٩٩]، ثم تلاه سوفاجيه في تسميتها بالمدرسة، وذكر أنها تربة مجهولة ربما كانت لنائب السلطنة بدمشق (أشقتمر)[١٠٠].

والزاوية اليوم قائمة في حي الميدان، ويُسمُّونها المدرسة الرشيدية والزاوية الرشيدية، ومسجد الشيخ حماد[١٠١].

١٦- الزاوية السعدية الجباوية ٩١٤هـ: توجد في الميدان الفوقاني غربي الطريق العام وشمالي الزاوية الرشيدية، وكانت أصلاً تربة للأمير إينال الجكمي نائب الشام، الذي قُتل سنة ٨٤٢هـ في حوران، ودُفن في تربته، ولم تكن قد أُنجزت بعد.

ثم جاء الشيخ حسن السعدي الجباوي، فسقفها وسكن فيها، وبعده جاء سعد الدين فرفع سقفها وعلاها وجعل لها قماري مضيئة وبيَّضها بالجص سنة ٩٦٤هـ.

مدخل جامع الدقاق (كريم الدين) الغربي، مع المأذنة

وهي مشيدة ذات واجهة واسعة مبنية بالأبلق، فيها ثلاث نوافذ، تعلو سواكفها ثلاثة أقواس ملساء مدببة، فوقها حقول من الأشرطة الزخرفية والمزرَّرة، وترتفع في أعلى البناء قبتان ملساوان متجاورتان، تستند كل منهما إلى رقبة باثنتي عشرة ضلعًا[١٠٢].

(99) الآثار الإسلامية في مدينة دمشق، ولتسينجر، كارل، ص210.
(100) الآثار التاريخية في دمشق، سوفاجيه، جان، ص92.
(101) خطط دمشق دراسة تاريخية شاملة، العلبي، أكرم حسن، ص 418. وهي مقرٌّ للطريقة الرشيدية الصوفية بدمشق، ذيل ثمار المقاصد، طلس، أسعد، ص 233.
(102) مشيدات دمشق، الشهابي، قتيبة، ص 495.

١٧- التربة الجيبغائية[١٠٣]:

تربة مملوكية في جادة سوق الغنم عند سوق النحاتين على طريق الميدان التحتاني، إلى الجنوب من المدرسة الصابونية، وقبالة القسم الشمالي لمقبرة الباب الصغير، ذكرها فولتسينجر، ونقل عنه سوفاجيه باسم (الولي الشيباني)، جُدِّدت سنة (١٢٢٦هـ / ١٨١١م)[١٠٤].

١٨- التربة السنبلية[١٠٥]:

تقع هذه التربة في الميدان التحتاني على الطريق العام، عند السور الغربي لمقبرة الباب الصغير، بجوار تربة مختار من جهة الشمال، وتُعرف اليوم بتربة آل دركل بعد أن تحولت إلى مدفن لهم.

وواجهة هذه التربة من أجمل واجهات الترب الخاصة في دمشق، مشيدة بالمداميك الحجرية ذات الألوان المتناوبة (الأبلق)[١٠٦].

١٩- تربة مختار[١٠٧]:

تقوم هذه التربة في حي الميدان التحتاني على الطريق العام عند السور الغربي لمقبرة الباب الصغير إلى الجنوب المجاور للتربة السنبلية، وتعد أول تربة مملوكية أُقيمت في هذا الموضع لا تزال باقية إلى اليوم[١٠٨].

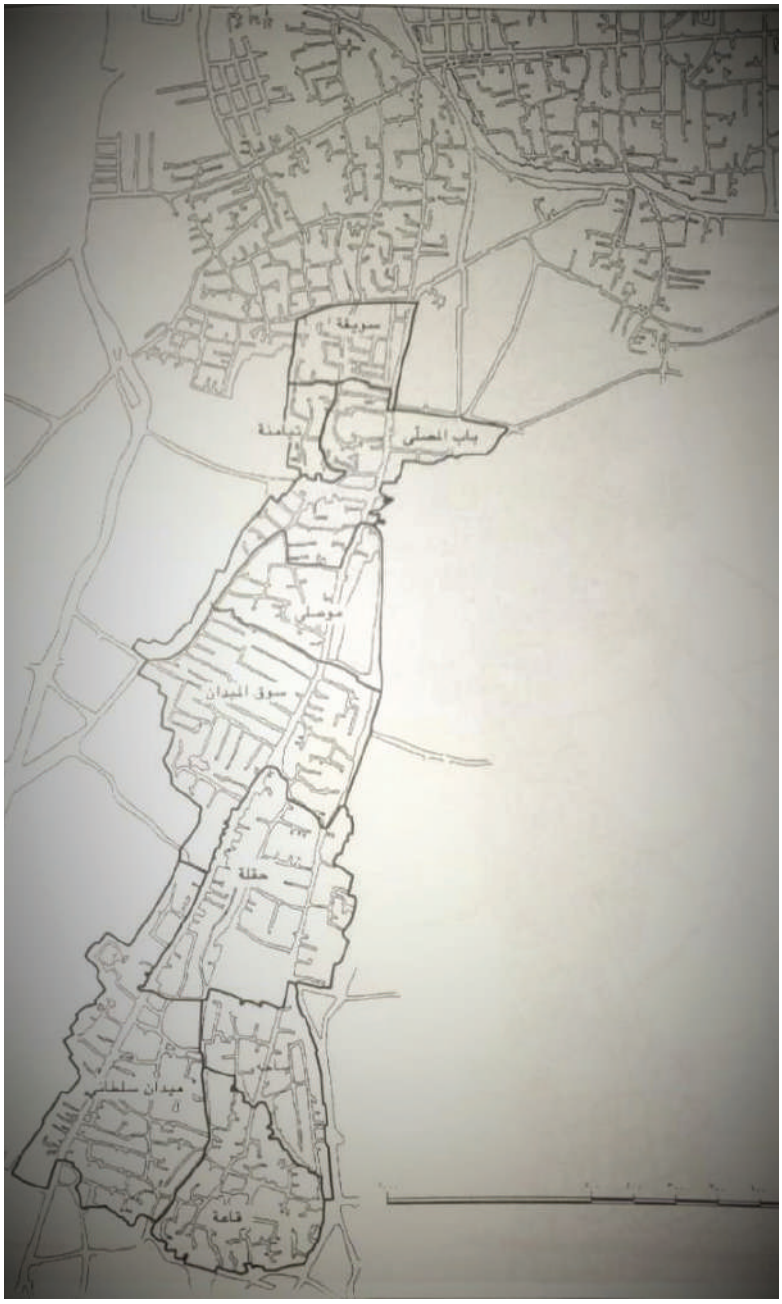

خريطة حي الميدان، وأقسامه الرئيسة

(103) تنسب إلى الأمير الكبير المعمر سيف الدين ألجي بغا المتوفى بدمشق في العصر المملوكي سنة (754هـ / 1353م)، والمدفون فيها. الدارس في تاريخ المدارس، النعيمي، عبد القادر بن محمد (ت978هـ)، 2 / 227.

(104) الآثار الإسلامية في مدينة دمشق، ولتسينجر، كارل، ص190، بعنوان (الولي الشيباني)، الآثار التاريخية في دمشق، سوفاجيه، جان، ص90.

(105) أنشأها في العصر المملوكي الأمير سنبل بن عبد الله الطواشي، الذي توفي سنة (827هـ/1424م) ودفن فيها. الآثار الإسلامية في مدينة دمشق، ولتسينجر، كارل، ص 191، العمارة العربية الإسلامية خصائصها وآثارها في سورية، الريحاوي، عبد القادر، ص 175.

(106) الشهابي، قتيبة، دمشق تاريخ وصور، ص 309-310.

(107) تضم قبر الطواشي ظهير الدين مختار، أحد أمراء الطبلخانات بدمشق، المتوفى في العهد المملوكي سنة (716هـ / 1316م) لذلك نُسبت تسميتها إليه، والاسم الشائع لهذه التربة هو (تربة الشيخ حسن) أو (مدرسة الشيخ حسن راعي الحمى). العمارة العربية الإسلامية خصائصها وآثارها في سورية، الريحاوي، عبد القادر، ص 174. الآثار التاريخية في دمشق، سوفاجيه، جان، ص95.

(108) الآثار التاريخية في دمشق، سوفاجيه، جان، ص 95، العمارة العربية الإسلامية خصائصها وآثارها في سورية، الريحاوي، عبد القادر، ص 174.

٢٠- حمام الدرب: في حي الميدان، مقابل جامع القبيبات أو الجامع الكريمي، وكان يقع إلى شماله حمام الجديد وبيت المهايني.

وفي إبان الثورة السورية أصابه قصف القنابل الفرنسية، فجدَّدته الحاجة «حسيبة النوري»[١٠٩].

٢١- حمام الرفاعي – القرن العاشر –: في الميدان الجزماتية، شرقي الطريق العام وهو من الحمامات الأثرية المسجلة، وعليه لوحة تشير إلى أنه من حمامات القرن العاشر[١١٠].

٢٢- حمام فتحي ١١٥٦هـ: في الميدان الوسطاني، غربي الطريق، يُنسب إلى فتحي أفندي الدفتردار الذي كان مديرًا للمال في دمشق، وقد قُتل فتحي أفندي على يد أسعد باشا العظم سنة ١١٥٩هـ[١١١].

أما الحمام فقد جدَّده السيد شفيق النوري سنة ١٣٦١هـ، ثم أُغلق وتحوَّل إلى مستودع للحبوب، ثم قامت الأثار بترميمه، وهو اليوم يُستخدم كقاعة للمناسبات الاجتماعية[١١٢].

---

(109) الحمامات الدمشقية، كيال، منير، ص202، خطط دمشق دراسة تاريخية شاملة، العلبي، أكرم حسن، ص511.

(110) الحمامات الدمشقية، كيال، منير، ص 124. الآثار الإسلامية في مدينة دمشق، ولتسينجر، كارل، ص 206.

(111) الدارس في تاريخ المدارس، النعيمي، عبد القادر بن محمد (ت978هـ)، 1/ 13، دور القرآن في دمشق، النعيمي، عبد القادر بن محمد، ص17، الآثار الإسلامية في مدينة دمشق، ولتسينجر، كارل، ص178.

(112) الدارس في تاريخ المدارس، النعيمي، عبد القادر بن محمد (ت978هـ)، 1/ 13، دور القرآن في دمشق، النعيمي، عبد القادر بن محمد، ص 17، الآثار الإسلامية في مدينة دمشق، ولتسينجر، كارل، ص178.

_ الخاتمة:

إن بداية حي الميدان الفعلية تعود إلى العصر المملوكي، حيث تأثر بالجانب العسكري لهذه الدولة، فجاءت كلمة الميدان من ميدان التدريب، كما تأثر بالعامل الديني حيث شكّل المصلى عاملاً آخر من عوامل نشوئه، كما تأثر بالعامل الاقتصادي المتمثل في دور قافلة الحج وتجارة الحبوب، من خلال امتداد الشريان الرئيسي للحي الذي عُرف بالطريق السلطاني والطريق العظمى، وكان اسم مدخله الجنوبي باب اللّه.

وقد أسهمت تجارة القمح، وما نتج عنها من بناء البوائك، على امتداد الشريان الرئيسي للحي، في إضفاء خصوصية على هذا الحي، جعلت دمشق تكتسب طابعًا خاصًّا بين المدن العثمانية الكبرى.

وكانت الأبنية المعمارية في حي الميدان تشمل الأبنية الدينية مثل المساجد والزوايا، وكذلك الأبنية المدنية مثل الحمامات والخانات والبوائك وغيرها .

مصادر البحث ومراجعه

ـ المصادر:

ـ البداية والنهاية، ابن كثير، إسماعيل بن عمر، بيروت، دار التراث العربي، ١٩٨٨م.

ـ تاريخ ابن قاضي شهبة، ابن قاضي شهبة، تحقيق عدنان درويش، دمشق، المعهد العلمي الفرنسي للدراسات العربية، ١٩٩٤م.

ـ تاريخ البصراوي، البصروي، علي بن يوسف، تحقيق أكرم حسن العلبي، بيروت، دار المأمون للتراث، ١٩٨٨م.

ـ تالي كتاب وفيات الأعيان، ابن الصقاعي، تحقيق وترجمة ج. سبليه، دمشق، وزارة الثقافة، ١٩٧٤م.

ـ تحفة الأدباء وسلوة الغرباء، الخياري، إبراهيم، بغداد، وزارة الثقافة، ١٩٦٩م.

ـ ثمار المقاصد، ابن عبد الهادي ويليه ذيل ثمار المقاصد، طلس، أسعد، دمشق، المعهد الفرنسي، بيروت، مكتبة لبنان، ١٩٧٥م.

ـ حوادث بلاد الشام، العبد، حسن آغا، تحقيق يوسف جميل نعيسة، دمشق، دار دمشق، ط١، ١٩٨٦م.

ـ حوادث دمشق اليومية، الحلاق، أحمد البديري، تحقيق أحمد عزت عبد الكريم، القاهرة، الجمعية المصرية للدراسات التاريخية، ١٩٥٩م.

ـ الدرر الكامنة في أعيان المئة الثامنة، ابن حجر العسقلاني، أحمد بن علي، بيروت، دار إحياء التراث العربي، د.ت.

ـ ذيل الروضتين، أبو شامة، بيروت، دار الجيل، د.ت.

ـ الروضة البهية في فضائل دمشق المحمية، عربي كاتبي الصيادي، محمد عز الدين بن حسين، تحقيق صلاح الدين خليل الموصلي، دمشق، دار الفارابي للمعارف، ط١، ١٤٢١هـ / ٢٠٠٠م.

ـ الروضة الغناء في دمشق الفيحاء، القساطلي، نعمان، دار الرائد العربي، بيروت، ١٩٨٢م.

ـ الضوء اللامع لأهل القرن التاسع، السخاوي، محمد بن عبد الرحمن، بيروت، دار الجيل، د.ت.

ـ غرائب البدائع وعجائب الوقائع، ابن الصديق، حسن، تحقيق يوسف نعيسة، دمشق، دار المعرفة، ط١، ١٩٨٨م.

ـ مفاكهة الخلان في حوادث الزمان، ابن طولون، تحقيق محمد مصطفى، القاهرة، وزارة الثقافة، ١٩٦٢م.

ـ منادمة الأطلال، بدران، عبد القادر، بيروت، المكتب الإسلامي، ط٢، ١٤٠٥هـ / ١٩٨٥م.

ـ نزهة الرفاق عن شرح حال الأسواق، ابن عبد الهادي، يوسف، تحقيق حبيب زيات، مجلة المشرق، العدد ٣٦، سنة ١٩٣٩م.

ـ المراجع:

ـ الآثار الإسلامية في مدينة دمشق، ولتسينجر، كارل، وواتسينجر، كارل، تعريب قاسم طوير، تعليق عبد القادر الريحاوي، مديرية الآثار العامة، دمشق، ١٩٨٣م.

ـ آداب المريدين في التصوف، الشيباني الموصلي، صلاح الدين خليل، دمشق، مكتبة الموصلي الشيباني، ط١، ١٤٠٤ هـ / ١٩٨٤م.

ـ الحمامات الدمشقية، الكيال، منير، دمشق، دار دمشق، ١٩٨٦م.

ـ حي الميدان في العصر العثماني، مارينو، د. بريجبت، ترجمة ماهر الشريف، دمشق، دار المدى للثقافة والنشر، ط١، ٢٠٠٠م.

ـ خطط دمشق دراسة تاريخية شاملة، العلبي، أكرم حسن، دمشق، دار الطباع للطباعة والنشر والتوزيع، ط١، ١٤١٠هـ / ١٩٨٩م.

ـ الدارس في تاريخ المدارس، النعيمي، عبد القادر بن محمد، بيروت، دار الكتب العلمية، ١٤١٠هـ / ١٩٩٠م.

ـ دمشق بين عصر العثمانيين والمماليك، العلبي، أكرم، دمشق، الشركة المتحدة للطباعة والنشر،١٩٨٢م.

ـ دمشق تاريخ وصور، الشهابي، قتيبة، دمشق، مؤسسة النوري للطباعة والنشر، ط٣، ١٩٩٠م.

ـ دور القرآن في دمشق، النعيمي، عبد القادر بن محمد، تحقيق: د. صلاح الدين المنجد، بيروت، دار الكتاب الجديد، ط٣، ١٩٨٢م.

ـ صفحات في تاريخ دمشق في القرن الحادي عشر الهجري، كناش إسماعيل المحاسني، تحقيق صلاح الدين المنجد، مجلة المخطوطات العربية.

ـ مدينة دمشق، جبر، صفوح، مشق، منشورات وزارة الثقافة، ١٩٦٩م.

ـ مرآة الشام، العظمة، عبد العزيز، تحقيق نجدة فتحي صفوت، دار رياض نجيب الريس للكتب والنشر، لندن، ١٩٨٧م.

ـ مشيدات دمشق ذوات الأضرحة وعناصرها الجمالية، الشهابي، قتيبة، دمشق، وزارة الثقافة، ١٩٩٠م.

ـ معجم دمشق التاريخي، الشهابي، قتيبة، دمشق، طبع وزارة الثقافة، ١٩٩٩م.

ـ ولاة دمشق في العهد العثماني، المنجد، صلاح الدين، دمشق، ١٩٤٩م.

أمير الشعراء

دِمَشْقِيَّاتُ شَوْقي وشامِيَّاتهُ

ظلالٌ وارفةٌ من التَّاريخ والشِّعْروالفَنِّ والجَمال

(القسم الثاني)

أ.د محمد رضوان الداية[1]

(1) أستاذ الأندلسيات في جامعة دمشق سابقًا، نائب رئيس جامعة بلاد الشام.

ملخَّص البحث

يتناول هذا القسم من بحث «دمشقيات شوقي وشامياته» مكانة دمشق في شعر أحمد شوقي، مع عرض لبعض قصائده التي مجَّد فيها دمشق، وعبَّر عن حبِّه لها وإعجابه بها، وفيها تظهر مواقفه القومية واعتزازه بالتاريخ العربي، إضافة إلى خصائص الإبداع والجمال في شعره.

_ تمهيد:

نشرنا في العدد السابق القسمَ الأول من بحث «دمشقيات شوقي وشامياته – ظلال وارفة من التاريخ والشعر والفن والجمال»، وفي هذا العدد ننشر القسمَ الثاني، الذي يتناول جملة من قصائد أحمد شوقي، التي ذكر فيها دمشق، ومكانتها الحضارية، مع التركيز على إبراز العناصر الفنية والجمالية في أدب شوقي.

(٦) شوقي، والشام، والنّزعة العربيّة

(ومفتاح انتماء شوقي في دمشق والشام)

حين ابْتُلِيَ المشرقُ العربيّ بالاحتلال الأوربي لجأ العربُ إلى مكافحته بالسّلاح وبسائر أنواع المُقاومَة، وكانوا في حاجةٍ إلى إعلامٍ قويّ واسع المَدى يحمل القضيّة، ويُحَمّس الناس كما فعل الشعراء قديماً.

وكان النظرُ مُتوجهّاً إلى كبار الشعراء: شوقي، وحافظ، والمَطْران. واستبطأ أهل الشام مبادرتهم فُرادى أو مُجتمعَين، حتى قال إبراهيم طوقان[٢]:

جئتكم عاتباً بلابلَ مِصرٍ ... بلبلُ الرَّوضِ عَتْبُه ألْحانُ

رَفْرَفَ الشّعرُ فوقكم بجَناحَيْـ ... ـهِ، وفي ساحكم غذاهُ البَيانُ

وتَسامى صرحُ العروبة في مصـ ... ـرٍ، وهل غيركم له أركانُ؟

كم بلاد تهزّكم ليس فيها ... لَكُمُ جِيرةٌ ولا إخوانُ

خطْبُنا لا يهزّ شوقي، ولكنْ ... جاء (روما) فهزّهُ الرُّومانُ![٣]

خَطْبُنا لا يهزّ (حافظ إبرا ... هيم) لكنْ تهزّهُ اليابانُ![٤]

ما لِـ(مَطْران) يا فلسطينُ شأنٌ ... بِكِ، لكنْ لهُ بـ (نيرونَ) شانُ![٥]

(2) ديوان إبراهيم (أعمال شاعر فلسطين إبراهيم طوقان) — ص: 188.
(3) يشير إلى قصيدة لشوقي في ديوانه 1: 54 بعنوان (روما). و: هَزّه: استدعى أريحيّته.
(4) يشير إلى قصيدة حافظ: ديوان حافظ إبراهيم – ج2 ص7.
(5) هو الشاعر اللّبناني نزيل مصر: خليل مطران.

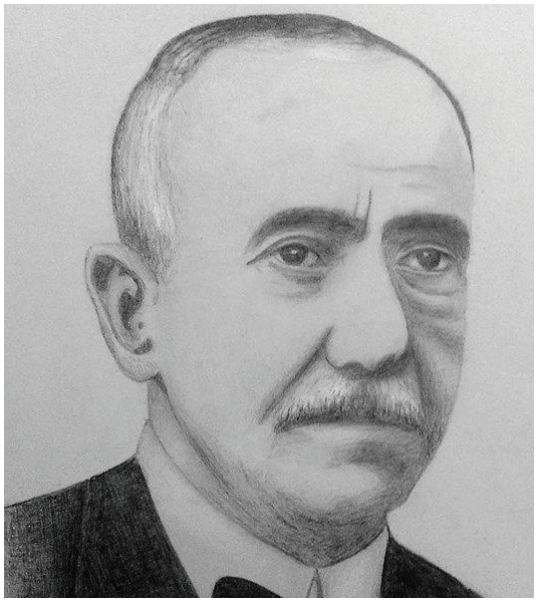

أحمد شوقي

على هذه الصُّورة وجّه شاعر فلسطين خطابه إلى الشّعراء الكبار الثلاثة بكلمة شعريّة، عاتبًا، سائلاً إياهم أن يلتفتوا إلى مشكلات الأمة، وأحوالها الصعبة، وكان لـ: مُصطفى الشهابي[٦] نهجٌ آخر.

وقد سَرَد الشهابي خبر مقابلته أحمد شوقي، قال وهو يَسْرُدُ الخبر إنه و«عُصبة تلامذة» كما سَمّاهم كانوا يتساءلون – وهم في إستانبول – متى ينظم شوقي في قضايا العرب مثل أشعاره التي نظمها في ظلال الدّولة العثمانيّة؟ وكانوا يحسدون الوقائع والأماكن التي كان يذكرها شوقي في شعره.

قال الدكتور الشهابي[٧]: ثم دار دولاب الدَّهر، فثارت الحرب الكُبرى، فطحنتنا في مَنْ طحنته، وأهلكت عددا من رفاقنا، لكنّ ما انقشعت غَمائمُها السّود حتى فُصلت البلاد العربيّة عن البلاد التركيّة، وطلع علينا شوَقي بـ(سينيّته) المشهورة في الأندلس، وفيها:

وعلى الجُمعة الجلالة والنّا ... ...صرُ نورُ الخميس تحت الدِّرَفْسِ

ثم قوله:

صَنْعَةُ الداخل المبارك في الغَرْ ... ب وآلٍ له مَيامينَ شُمْس

قال الشّهابي[٨]: «ما إن قرأنا هذه الأبيات وأشباهها حتّى هَلّلنا وكبّرنا وقلتُ: الآن بدأ أمير الشعراء[٩] يكون شاعر النّزعة العربيّة الكبُرى». قال: «ثم اختلفنا إليه[١٠] في لبنان منذ سبع سنين، وإنّا في ذات يوم لنُسَرِّحُ الطرف في آكام الجبل وحراجه الملتفّة، ونتنادر... وإذا بأحد رفاقنا يبتدرُ شوقي قائلاً: «يا أبا علي[١١] يا أمير الشعراء[١٢]! أنت شاعر مصر الأكبر، وشاعر الإسلام، وشاعر الملوك من آل محمد علي باشا (في مصر) وشاعر العثمانيّين، والترك الكماليّين، وأنت الفيّاضُ الذي جمع بين وصف الدنيا وأجمل ما فيها، ووصف الآخرة بأروع ما في الدين من إيمان وتقوى: هلا أضفتَ إلى كلّ هذه النواحي التي سالت فيها مُرْهفاتُ أقلامك، ومَقاطرُها[١٣] ناحية هي لدينا بكل ذلك؟ فقال – رحمه اللّه – وقد تجهّمَ لنا[١٤]، وانتصبَ على كرسَيّه: أيُّ

وطوقان يشير إلى قصيدة مطولة لمطران في (نيرون) طاغية روما: ديوان الخليل – ج2 ص: 97.

(6) مصطفى بن محمد سعيد الشّهابي، الأمير، أديب لغوي عالم بالمُصطلحات الزراعية، ترأس المجمع العلمي العربي نحو تسع سنوات، تقلّب في المناصب الوزارية وغيرها. وله مؤلّفات وبحوث كثيرة. وله تقدم في وضع المصطلحات الزراعية والنباتية. (الأعلام 7: 245).

(7) مجلة المجمع العلمي العربي المجلد 13: الصفحة: 106.

(8) مجلة المجمع العلمي العربي المجلد 13: الصفحة: 106.

(9) مجلة المجمع العلمي العربي المجلد 13: الصفحة: 106.

(10) اختلف إليه: تردّد. يريد: قصدنا إليه (مرّةً بعد مرّة).

(11) كان شوقي يكنّى بـ (أبي علي)، باسم ولده البكر: علي.

(12) سبق أنّ شوقي كان يلقّب بأمير الشعراء قبل إعلان ذلك في ملتقى أدبيّ اجتماعي عامّ سنة 1927.
قلت: ولعل المتكلم من هؤلاء الشباب كان هو نفسه مصطفى الشهابي.

(13) شبه الأقلام بالسّيوف المرهفة. ومقاطر الأقلام: أحبارها (ما يسيل من الحبر – يقطر – فيكتب ما ينظم من الشعر).

(14) يقال: جَهمه: استقبله بوجه كريه. يقول إنّ شوقي أبدى امتعاضاً لظاهر كلامهم.

ناحية هذه؟ وكأنه يستغربُ أنِ تكون ثَمَّةَ نواح لم تتناولها عبقريّته، ولم يَبْدُ للناس فيها بيانُه، فقلتُ: هي التي قد ذَرَّ قَرْنُ شمسها[15]، ولاحَ نوْر هلالها في أندلسيّتك السّينيّة: هي وصفُ روائع الطبيعة في الشرق العربيّ كافّةً، هي تذكيرُنا بالشموس السّواطع من أجدادنا، هي حَثُّنا على عظيم الأعمال، وجليل الشؤون حتى نصبحَ أحراراً في بلادنا؛ والخلاصة ألّا تَقْصُرَ نفسك في فرائدك على مصر، أو على مَنْ لا يفهمونك من التُّرك، بل نطمَحُ بها إلى البلاد العربيّة اللّسان كلها، فتكون شاعر العرب في الشرق والغرب، وسينكبّون على قصائدك يستظهرونها، ويُرَدّدونها في كل مكان، ويمزجونها بدمهم، حتى إنه لو أمكن انتقال العلوم والآداب بالوراثة لَوُلِدَ أطفالنا وهم حُفّاظ لأشعارك مذاييعُ لأخبارها..»!!

قال الشهابي: ثم أضفتُ قائلاً: نحن ما تقاعسَ شُعَراؤنا عن القيام بواجبهم نحو مصر، وهاك مطران[16]، والرافعي[17] وغيرهما، دليلٌ ساطع على ذلك، كما أنّ النزعة العربيّة ما عدمت شعراءها كالزّركلي[18]، وجَبْري[19]، ومردم[20]، والخطيب[21] في الشام، والزّهاوي[22] والشبيبي[23]، والكاظمي في العراق[24]؛ ولكنّ النفس توّاقةٌ إلى إيمانك بهذه النّزعة حتى تكونَ أميرَها، وأميرَ شُعرائها على التّخصيص، كما أنت أمير الشعراء على التعميم».

قال الشّهابي:

«ولقد رأيتُ بعد ذلك وَجْهَهُ المُرْبَدّ[25] يَبَشُّ لنا، ولَمَحْتُ الخيرَ في سَرائره؛ وإذا به يُجيبُ قائلاً: «أيها الصّحاب، كأني بكم تأتمرونَ بي! لكنكم ما تجاوزتم المكنونَ في نفسي!».

قال الشهابي: «فانطلقنا نَتباشر بالأمر[26]، وإذا شوقي يطلع علينا بعد قليل[27] – أي عندما اجتمعنا لتكريمه في مجمعنا العلمي العربيّ الدمشقي في ١٠ آب (أغسطس) سنة ١٩٢٥م بيتيمة نونيّة ما مدَح الإنسُ ولا الجِنُّ دمشقَ وأهلها بمثلها منذ كانت المدينةُ الخالدةُ، حتى أيام الناسِ هذه»...

(٧) قصيدة «دمشق»

(قم ناج جلّق...)

هذه القصيدة الدمشقيّة الشّاميّة الأولى[28] هي من أعلى قصائد ديوان أ حمد شوقي، وأجملها:

---

(15) القَرْنُ من الشمس: أول ما يبزغُ عند طلوعها. وذرّت الشمس: ظهرت أول طلوعها.

(16) خليل مطران (-1871 1949) شاعر لبناني نزل مصر، واستقرّ فيها وكان يلقب بـ (شاعر القطرين). (الأعلام 2: 320).

(17) مصطفى صادق الرافعي (-1881 1937) من كبار الكتاب، شاعر، عالم بالأدب. أصله من طرابلس الشام. (وهو من أهل مصر). (الأعلام 7: 235-236).

(18) خير الدين الزركلي (-1893 1976): شاعر، أديب، مؤرخ، من شعراء الوطنيّة في الشّام، له ديوان، ومؤلفات، وله السّفر الكبير: «الأعلام».
- ترجم لنفسه في آخر كتاب الأعلام ج8.
- وإتمام الأعلام: نزار أباظة ومحمد رياض المالح – 12-18.

(19) شفيق جبري: أديب لغوي شاعر له ديوان (نوح العندليب)، وله مؤلفات في الأدب والنقد. (الأعلام 2: 187).

(20) خليل مردم بك: كاتب شاعر. له مؤلفات مختلفة، وله ديوان (ط)، ورأسَ مجمع اللغة العربية (1895 – 19؟؟).

(21) خالد محمد الخطيب، طبيب من رجال الثورة السّورية (-1900 1937) له ديوان مطبوع. (الأعلام 2: 298).

(22) جميل صدقي الزّهاوي (-1863 1936) قال الزركلي: شاعر ينحو منحى الفلاسفة. له مؤلفات. له عشرون ألف بيت منها ديوان الزهاوي (ط). (الأعلام 2: 137).

(23) محمد جواد بن محمد النّجفي، المعروف بالشّبيبي، شاعر، أديب، له مؤلفات وديوان مطبوع، وهو من أهل النجف. (الأعلام 6: 74).

(24) عبد المحسن بن محمد، أبو المكارم. قال الزركلي: شاعر فحل، كان يلقب بـ (شاعر العرب). له ديوان مطبوع.

(25) ارْبَدّ وجهُ فلان: احمرّ حمرةً فيها سَواد عند الغَضب.

(26) تباشر القوم: بشّر بعضهم بعضاً بما هو حَسَنٌ خَيّر.

(27) هذا الـ (قليل) هو المدة القصيرة الفاصلة بين لقاء الشهابي وأصحابه لشوقي، وبين حضوره إلى دمشق مدعوّاً من المجمع.

(28) ديوان شوقي 1: 160.

أحمد شوقي وسعد زغلول وخلفهم عبد الوهاب حين تبناه شوقي

عذوبةَ كلام، وروعة بيان، ودقّة أوصاف، وصدقَ لهجة، وذَوْبَ عاطفة، وحرارةَ انتماء، ودلالة أخوّة؛

وهي في أعلى قصائده وأروعها ارتباطاً بأرض دمشق والشام، وعشقاً لأهلها، وحفظاً لآثارها، والتفاتاً إلى أحوالها، وتغلغلاً في تاريخها، ومعرفةً برجالها، وتقديراً لحضارتها؛

وهي في أعلى قصائده وأجملها: ربطاً بين ماضي دمشق وحاضرها، وتقويماً لأثرها، ورفعاً لشأنها؛

وهي في أعلى قصائده وأجملها وقوفاً على مَرابعها، وخشوعاً عند مسجدها، واستحضاراً لوقائعها؛

وهي في أعلى قصائده وأحقّها معرفةً بحقوق مَنْ رَفَعُوا شأن دمشق، وعزّزوا نفوذها، وربطوا أنحاء العالم القديم بحاضرتها، وأهدوا إلى الدنيا لغتها الجميلة، وعاداتها المُعجبة، وثقافتها الأصيلة؛

وهي في أعلى قصائده وأدقها تعبيراً عن عواطفه، وقد تكلّم بلسان أهلها، وروى عنهم، وانتمى فيهم، وحملَ لواءهم، وصار واحداً منهم.

ولقيت هذه القصيدة تقديراً متعدّد الجوانب من أهل دمشق على اختلاف اهتماماتهم؛ وقف عندها الباحثون وقفات خاصّة تأريخاً لها، وكلاماً في خصائصها، وتبياناً لموقف شوقي من دمشق والشام وأهلها.

وأدهش المتابعين والدارسين أن شوقي نظمها في دمشق، وكانت بنت ليلتها، أو بنت جلستها، وجعلها بديلاً عن قصيدة كان أحضرها معه. ومما قاله الأستاذ الرئيس محمد كرد علي في كلمة تأبين شوقي في المجمع العلمي العربي بدمشق؛ وهو يذكر خبر القصيدة:

«وأجمع العارفون بالشعر أنه لم تُمدح دمشق بمثل هذا اللسان.. ذلك لأن الشاعر مدَحها بل رثاها متأثراً بغابرها وحاضرها فبكى وأبكى..»[٢٩].

وحين وصل الدكتور شوقي ضيف[٣٠] إلى هذا المَجال من كتابه عن أحمد شوقي قال، وبين يديه ما صرّح به أهل دمشق والشام:

«ولم تُمدَح دمشق بقصيدة كما ذكر مجدها الغابر في هذه القصيدة:

(29) مجلة المجمع العلمي العربي – المجلد 13 الصفحة: 75.
(30) شوقي شاعر العصر الحديث – د. شوقي ضيف – دار المعارف بالقاهرة – الطبعة الحادية عشرة: 145.

قُمْ ناجِ جِلَّقَ وانشُدْ رَسمَ مَن بانوا مشت على الرسمِ أحداث وأزمانُ

ثم قال: «وقد صاغ فيها شوقي عواطف الدمشقيّين، وعبّر عنهم تعبيراً نفسيّاً دقيقاً بما يجول في ضمائرهم..».

وفي كلمة د. مصطفى الشّهابي[٣١] – الذي كان من أهم صلات الوصل بين شوقي ودمشق[٣٢]– في ذلك الاحتفال أن شوقي حين حضر حفل تكريمه في سنة ١٩٢٥ :

«طلع على الحاضرين، وعلى أهل دمشق والشام بيتيمة نونيّة، ما مدح الإنسُ ولا الجنُّ دمشقَ وأهلها بمثلها منذ ما كانت هذه المدينة الخالدة حتى أيّام الناس هذه؛ وقد تَناولتْ تلك الدرّة وصف دمشق وجنّاتها، والإشادة بالأمويّين وملكهم العظيم. وذكّرت أهل الشام بأنهم أحفاد بني غسّان، وبني عبد شمس، وحثّهم على إعادة المُلك [الحكم العربي]، وأوضحت لهم السُّبل التي تؤدّي بهم إلى هذه الغاية».

قال: «ولو لم يكن للفقيد سوى هذه القصيدة في منازعنا القوميّة لكانت وحدها منّةً له في أعناقنا، ما دام في بلاد الشام ناطقٌ بالضّاد ...».

تمثال أحمد شوقي في القاهرة

ومن أخبار هذه القصيدة التي استرسلت بعد نظمها بمدّة ما رواه كاتب أحمد شوقي وأمين سرّه[٣٣]، قال: «وممّا أُهدي إلى شوقي في الاحتفال [الذي نُصّب فيه أحمد شوقي أميراً للشعراء] علبة فضّة، وداخلها إطار من الفضّة حول قصيدة:

قُم ناجِ جلق وانشد رسم من بانوا ...

[أُهديت إليه] من النادي العربي في بمباي [بالهند].

بنى أحمد شوقي قصيدته (دمشق) عربية أعرابية، وفصيحة عصرية، تجمع بين خصائص الشعر الجزل البدوي الأعرابيّ، وبين رهافة الحضارة النَّديَّة، وجمع شوقي بين هذين الطرفين في توازن عجيب، وتدفق غريب، واستفاضة واسعة، فكأنه لشدّة الانفعال، وسرعة التدفق الشعري يُسابق الكلام في نصٍّ شعريٍّ لم تظفر دمشق والشام بمثله.

ولم تُنقص حرارة الانفعال، ولا تدفّق الارتجال من خصائص فنه الشعري، بل زادت في مزاياه،

(31) مجلة المجمع العلمي العربي – المجلد 13 – الصفحة: 108.
(32) انظر في هذا البحث فقرة: «شوقي والشّام والنزعة العربية».
(33) اثنى عشر عاماً في صحبة أمير الشعراء – أحمد عبد الوهاب أبو العزّ – ص: 43.

وتألّقت «ربّةُ الشعر» عند شوقي في تقديم هذه القصيدة الفذّة التي خَلَدت هي في ذاتها، وخَلّدت مدينةً تستحق هي وأهلها مَزِية الخلود..

مُجْرَيات القصيدة

عَنْوَنَ الديوان للقصيدة بـ (دمشق)[٣٤]، وهي في واحد وأربعين بيتاً، وذكر أحمد شوقي دمشق في البيت الأول باسمها التاريخي (جِلّق)[٣٥]، وخاطب نفسه[٣٦]، واستفاد من الطريقة التقليدية في الافتتاح، ولكنْ بلمحة سريعة باحثاً عن آثار قديمة مرّ عليها الزمان. ولكن: إذا رَثّت (بليت أو كادت) فقد بقي في بلاد الشام من إرث التاريخ والحضارة – كما قال في البيت الثالث – «الدين، والوحي، والأخلاق...» ... وأثنى الشاعر على أهل دمشق (والشام) قديماً وحديثاً ...

قُمْ ناجِ جِلّق وانشُدْ رَسْمَ مَنْ بانوا ... مشت على الرَّسْم أحداثٌ وأزمانُ[٣٧]

هذا الأديمُ كتابٌ لا كفاءَ لهُ ... رثّ الصحائف باقٍ منهُ عنوانُ[٣٨]

الدين والوحي والأخلاقُ طائفةٌ ... منه، وسائره دنيا وبهتانُ[٣٩]

ما فيه إن قُلّبت يوماً جواهرُهُ ... إلّا قرائحُ من راد وأذهانُ[٤٠]

وخَرج من التاريخ القديم إلى التاريخ الإسلامي؛ فإن الشام كانت تحت ولاية الأُمويين من الفتح إلى نهاية الدولة ١٣٢هـ – ٧٥٠م بدأ ذلك بولاية يزيد بن أبي سفيان[٤١] ثم ولاية أخيه معاوية[٤٢] الذي استمر والياً فخليفة أزيد من أربعين سنة، ثم آل الحكم إلى ابنه وحفيده، وبعدهم إلى الفرع المرواني ابتداءً بمروان بن الحكم.

بنو أُميّة للأنباءِ ما فَتَحوا ... وللأحاديث ما سادوا وما دانُوا

كانوا ملوكاً سريرُ الشرق تحتهمُ ... فهل سألتَ سريرَ الغَربِ ما كانوا[٤٣]

عالين كالشمس في أطراف دولتها ... في كلّ ناحيةٍ مُلْكٌ وسلطانُ[٤٤]

(34) ديوان شوقي 1: 160-162.

(35) في الروض المعطار في خبر الأقطار – لمحمد بن عبد المنعم الحميري – تحقيق د. إحسان عباس – مؤسسة ناصر للثقافة – 1980م – ص169: «جِلّق بالشام، وهي دمشق»، وفي237: «دمشق قاعدة الشام، ودار ملك بني أميّة».
- ومعجم البلدان – لياقوت الحموي (دمشق).

(36) ويصحّ أن يكون الخطاب عامّاً.

(37) نشدَ الرسم (أي الأثرَ): بحث عنه، وآثار الديار: ما بقي منها. وقوله: (مَنْ بانوا): أي ذهب زمانهم. والإشارة هنا إلى بني أميّة، غاضوا في التاريخ، وتركوا في الحضارةِ والعُمران والفتوح والسّير الذهبيّة القيمة آثاراً خالدة.

(38) الأديم: وجه الأرض.

(39) طائفة منه: جزء.

(40) قرائح: جمع قريحة، يقول: لبني أمية أذهان تشعّ ذكاءً. وقصد بـ (راد): الراديوم: المعدن المشعّ (اتخذه مادّة للتشبيه).

(41) يزيد بن أبي سفيان (توفي 18هـ): يزيد بن صخر بن حرب الأموي من رجالات بني أمية شجاعة وحَزْماً تولى مهامّ كثيرة آخرها ولاية الشام. توفي بدمشق. (الأعلام 8: 184).

(42) معاوية بن أبي سفيان (رضي الله عنه) (31 ق.هـ - 60هـ/603-680م) ولي الشام بعد أخيه، وتولى الخلافة منذ سنة 40هـ. (الأعلام 7: 261-262).
تلا معاويةُ (رضي الله عنه) أخاه يزيد في الولاية، ثم آلت إليه الخلافة. قال الزركلي في ترجمته: «أحد دهاة العرب المتميّزين، كان حليماً فصيحاً وقوراً...».

(43) نقل شوقي (السّرير) من معناه الشّائع ليدل به على مستقرّ الحكم (كما قالوا عرش، وهو سرير المُلك).

(44) مُلك هنا بمعنى حُكم، لأن بني أمية لم يتخذوا ألقاباً إماريّةً ولا ملكيّة.

يا ويحَ قلبي مهما انتابَ أرسُمَهُمْ سَرى به الهمُّ أو عادَتْهُ أشجانُ[٤٥]

إذن: فُتوحات بني أمية خلَّدها التّاريخ، وسارت بأنبائها الرُّكبان، وكانت دمشق مُسْتَقرّاً لحكمهم، وانطلاقاً لفتوحاتهم، فأين هذا العزّ من مكانة أوربّة في ذلك الزّمان؟

ووَصل بين مجد الشّرق ومجد الأندلس، وذكَر ما أنشده في الأمويين، وهو في ديار الأندلس، بتعاطف وودّ وانتماء:

بالأمسِ قمتُ على الزّهراء[٤٦] أنْدُبُهم واليوم دمعي على الفَيْحاء هَتّانُ[٤٧]

في الأرض منهم سَماواتٌ وألويةٌ ونَيّراتٌ، وأنواءٌ، وعقبانُ[٤٨]

معادنُ العزّ قد مالَ الرّغام بهم لو هان في تُرْبه الإبريزُ ما هانُوا[٤٩]

بكى على ضياع الأندلس حين وقف على أطلال (الزهراء) عند قرطبة، وهو اليوم يأسى لما صنع الفرنسيّون بالشام.

وذكَر أثرَ دمشق في الحضارة العربيّة الإسلاميّة:

لولا دمشقُ لما كانت طليطلةٌ ولا زَهَتْ ببني العَبّاس بَغْدانُ![٥٠]

ودخل شوقي في هذه الزيارة المسجد الأمويّ، وهي المرة الأولى التي يرى فيها هذا المسجد؛ وسرعان ما استحضر التاريخ، واستحضر المسجد الأموي في قرطبة، وقد بكى شوقي كما أخبر ابنُه حسين[٥١] حين دخل المسجد الأموي الأندلسي، وبكى حين دخل المسجد الأموي بدمشق: أخذه الجلالُ والجمالُ وظلالُ الإسلام، وروعة العُمران، وقُدسيَّةُ المكان.

مَرَرْتُ بالمَسْجد المحزونِ أسألُهُ هل في المُصَلَّى أو المحراب مروانُ؟[٥٢]

تغيَّرَ المسجدُ المحزونُ واخْتَلفتْ على المَنابرِ أحرارٌ وعُبْدانُ[٥٣]

فلا الأذانِ أذانٌ في مَنارته إذا تَعالى ولا الآذانُ آذانُ[٥٤]

وكان شوقي مُولعاً بوصف الأماكن الجميلة، وفي الدّيوان قصائد كثيرة تتناول بلداناً في أوربة وفي تركية، وفي لبنان، وغيرها .... ولكنه أثنى على جمال الغُوطة التي رآها، واستظلّ بظلالها، ومن

(45) أرسم جمع رسم: الآثار الباقية.

(46) الزّهراء: ضاحية قرطبة، أنشأها عبد الرحمن النّاصر، وألحق بها بساتين وحدائق، وكانت مدينة علم وثقافة أيضاً، وسرعان ما ازدهرت وتوسعت: «الرّوض المعطار»: 195، و«الآثار الأندلسية الباقية» - محمد عبد الله عنان – 8- 92.

(47) الفيحاء من أسماء دمشق، وأوصافها (وأصل معنى الأفيح: الواسع).

(48) جاء بمفردات الثّناء للأمويّين على سبيل الوصف والتّشبيه، ألوية جمع لواء، ونيّرات جمع نيّرة: مصدر إشعاع شامل، وأنواء (جمع نوء) المراد كرمٌ كأنه مطر الموسم الغزير، وعقبان جمع عُقاب، شبّه به رجالهم الأشدّاء.

(49) الرّغام: التُّراب، والإبريز: الذهب الخالص.

(50) طليطلة من مدن مَوْسَطة الأندلس. وكانت مركزاً علميّاً وثقافيّاً، وقامت فيها لجان لترجمة الكتب العربية إلى اللغات الأُخرى. وذكر شوقي (طليطلة) مثلًا وإشارة.

- و(كانت) هنا فعل ماض تام: أي وُجدت (المراد: مركز حضاري).

(51) أبي شوقي: 155.

(52) مروان بن الحكم، تولى الخلافة بين 64 و65هـ، وعدّه شوقي رمزاً لبني أمية في عدد من قصائده.

(53) اختلفت: مرّ بعضها بعد بعض.

(54) المنارة هنا: المئذنة.

ثَمَّ صار يزورها كلّما جاء إلى دمشق، وسجَّل أمين سرّه زيارةً مؤرخةً سنة ١٩٣٠ لبلدة دُمّر[٥٥].

آمنتُ باللّه واستثنيتُ جنَّته ... دمشقُ روحٌ وجنّاتٌ وريحانُ[٥٦]

قال الرّفاقُ وقد هبّتْ خمائلها: ... الأرضُ دارٌ لها الفيحاء بُستانُ[٥٧]

دخلتُها وحواشيها زُمُرُّدةٌ ... والشمسُ فوقَ لجينِ الماءِ عقيانُ[٥٨]

ولمّا كانت دمشق جنة كان شجرُ الحَوْر كحوريّات الجنّة الكواشف عن السّيقان:

والحورُ في دُمَّرٍ أو حول هامَتها ... حُورٌ[٥٩] كواشفُ عن ساقٍ وولدانُ[٦٠]

وربوةُ الوادِ في جلبابِ راقصةٍ ... الساقُ كاسيةٌ والنَّحْرُ عُريانُ[٦١]

والطيرُ تَصْدَحُ من خلف العيونِ بها ... وللعيونِ كما للطّيرِ ألحانُ[٦٢]

وأقبلتْ بالنّباتِ الأرضُ مختلفاً ... أفوافهُ فهو أصباغٌ وألوانُ[٦٣]

وقد صفا بَردى للرّيح فابْتَردتْ ... لدى سُتورٍ حَواشيهنَّ أفنانُ[٦٤]

ثم انْتَشَتْ لم يَزُل عنها البلال ولا ... جَفَّت من الماءِ أذيالٌ وأردانُ[٦٥]

وعند الربوة اكتمل المشهدُ البَصَريّ الرائع الحُسن، المُعجَب للعيون، باجتماعه إلى صُداح الطيور[٦٦] و«ألحان» تصفيق الجداول ومساقط المياه، وصوّر الشاعرُ هذه الأماكن بريشة الشاعرِ في مثل روعة المناظر في الرِّياض الشّامية والغياض الملتفّة الأشجار.

وذكَر شَوقي لُبنان، وكان قد أثنى عليه، من قَبل[٦٧]، وبَهره جمالُه، وجعله طريقاً إلى دمشق

(55) اثني عشر عاماً في صحبة أمير الشعراء – أحمد عبد الوهاب – ص45.

(56) الرّوح: نسيمُ الريح. قال الأمير شكيب (شوقي أو صحبة أربعين عاماً) (ص334) قال شوقي «آمنت بالله...» يقلّد الدمشقيين في كلماتهم، لأنهم يستعملون هذه الجملة كثيراً في مواضع العجب.

(57) يريد بالرفاق: مُستقبليه في دمشق: رئيس المجمع العلمي العربي وأعضاء المجمع وسائر من كانوا في رحلة الغوطة.

(58) ذكر الزمرّد لأنه يغلبُ عليه اللون الأخضر. واللُّجَيْنُ: الفضة، والعِقيان: الذهب الخالص.
يقول: ائتلفت الألوان: خضرة النبات وفِضيّة الماء الذي انعكست عليه الشمس الذّهبية اللون!

(59) دُمّر: تبعد عن وادي بردى نحو 4كم، وتعدّ أحد متنزهات مدينة دمشق (المعجم الجغرافي 3: 350).
- والهامة: بلدة في وادي بردى على السفح الجنوبي لجبل طهر الإوز، تبعد 13كم عن دمشق (المعجم الجغرافي 5: 443).

(60) الحَوْرُ: أهم الأشجار غير المثمرة في الغوطة، ويشغل عُشر مساحة الغوطة. (غوطة دمشق – د. صفوح خير- ص-515 518).
- ولدان جمع الوليد: الخادم الشابّ ؛ ومنه {يطوف عليهم ولدان مخلدون إذا رأيتهم حسبتهم لؤلؤاً منثورا} [المؤمنون: 50]. قال أبو حيان الأندلسي أي: كاللؤلؤ في بياضهم وصفاء ألوانهم.

(61) الرَّبوة: من متنزهات دمشق القريبة منها؛ وسميت بذلك لارتفاعها، وهي تنتج الفواكه والخضراوات، ومن المفسرين مَن قال إنها المذكورة في الكتاب الكريم. (البحر المحيط 15: 453).

(62) العيون: عيون الماء. وتكثر في الغوطة الينابيع، وتكثر مساقط المياه عند أطراف الجبال كالذي في الهامة، حيث تنحدر من الجبل المطل عليها: «مسيلات مياه كثيرة» - المعجم الجغرافي 5: 443.
وألحان عيون الماء: الخرير.

(63) أفواف جمع فُوف: ثياب رقاق موشاة مخططة، شبَّه بها شوقي الأزهار وأنواع الورد.

(64) أفنان جمع فنن: غُصن. ابترد جوّ الغوطة بنسائم بَردى. (وجعل المكان كالفناء الذي له ستور تطيف به. وأغصان الأشجار هي تلك السّتور).

(65) أذيال جمع ذيل (الثوب)، وأردان جمع ردن (كُمّ الثوب).

(66) نقول: صَدَح صَدْحاً وصُداحاً.

(67) ديوان شوقي 1: 64 في قصيدة لبنان، ومما قاله:
لبنانُ والخلدُ اختراع اللّه لم ... يوسَمْ بأزينَ منهما ملكوتُهُ

والغُوطة.. إلى ما هو أحلى وأجمل، وعاد إلى أهل دمشق (والشّام عامّةً) الذين جَمعوا الكرَم الموروث أباً عن جَدّ من أيّام (طيّ)[٦٨] و(شيبان) – الذين كثُرَ فيهم الأجوادُ والأنجاد – وذكر من أجداد أهل الشام قبيلة (غسّان)[٦٩] التي استوطنت الشام، وجعلت دمشق (قبل الإسلام) حاضرَتها، كما ذكرَ عبد شمس (أحد أجداد بني أميّة).

وأثنى على دمشق وأهلها، والشّام، على سبيل الكناية بنقاء العرض، وعُلوّ الشّرف: (بيْضُ الأسرّة)، وذكرَ بقاءَ مجدهم القديم، وخلودَ ذكرهم العظيم، فإنّهم بَنُو عَبْدِ شَمْس الباقي ذِكرهم في التّاريخ عالياً، وإن انقضى زمانهم، وتبدّلت الدّنيا بعدهم.

خَلَفتُ لبنان جنّات النّعيم وما ... نُبِّئتُ أنّ طَريقَ الخُلد لُبْنانُ

حتّى انحدرتُ إلى فَيحاءَ وارفةٍ ... فيها النَّدى وبها طَيٌّ وشيْبانُ

نزلتُ فيها بفتيانٍ جَحاجِحَةٍ ... آباؤهم في شباب الدّهر غَسّانُ[٧٠]

بيضُ الأسرَّةِ باقٍ فيهم صَيَدٌ ... من عبد شَمْسٍ وإن لم تَبْقَ تيجانُ[٧١]

قال الأمير شكيب أرسلان في قول شوقي (خَلّفتُ لبنان...): «ظننتُ أن لبنان هو الجَنّة، ولكنْ، بعدما أفَضتُ منه (انتقلت منه) إلى دمشق علمتُ أنّه لم يكن إلّا طريقَ الجنة..»[٧٢] وأن الجنة هي الفيحاء[٧٣].

– والغوطة في شَهر آب (أغسطس) تكون قد أضافت إلى الجمال الطبيعي الغامر ازديان[٧٤] الشّجر بألوان الثّمر، ويكون للسّيران[٧٥] في هذا الوقت معنًى آخرُ مع الاستمتاع بالمناظر؛ هو: اكتمال الجلسات بما يَسُرُّ؛ من نتاج أشجار الغُوطة الكثيفة التي تتشابك أغصانُها، وتدنو للمارّ من تحتها بما يلذّ من ثمراتها...

جَنّاتٌ متواصلةٌ بين رياض وغياض، وجَداولُ رقراقةٌ، ونسائمُ عليلةٌ، وأطيارٌ صَدّاحةٌ، وحركةٌ للفلاحين والضَّمّانة[٧٦] يُتابعونَ حركة الحياة بين المَزارع التي تجودُ بما وهبَ اللّه من الثّمرات، وبين الأسواق ودكاكين الباعة هنا وهُناك...

وتقتضي عاداتُ ضيافة الزّائر (وخاصّة إن لم يكن من بلاد الشام) أن يَتناول عدداً من الوجبات في ظلّ (السِّيران) فتَتمّ ضيافةُ الزائر... أو تأخذ بُعْداً إضافيّاً...

وختم شوقي القصيدةَ الفذّة بالأبيات من ٣٠ إلى ٤١، وفيها:

---

(68) طيّ (وطيّء): منها حاتم الطائي، قالوا في أمثالهم: أجود من حاتم (الميداني 1: 326).
وكان معن بن زائدة من أجواد العرب، وفي أمثال الميداني 1: 368 «حدِّث عن معنٍ ولا حَرَج!» ونسبة معن في شيبان.

(69) غسّان (يعني الغساسنة) وأصلهم من عرب اليمن.

(70) جحاجحة جمع جَحْجاح، وجَحْجح: السيّد الكريم السَّمح.

(71) العرب تقول: فلان أبيض أي نقيّ العرض، وبيض الأسرة: كناية عن علو الشرف ونقاء العرض.
- والصَّيَدُ: صفة الرَّجل الأصْيَد: المتكبّر. المزهوّ بنفسه.

(72) شوقي أو أربعون سنة في صحبة أمير الشعراء – أضواء السلف: 334.

(73) أصل معنى الفيحاء: الواسعة الممتدة، وصارت الكلمة صفة لدمشق، ثم عَلماً عليها.

(74) مصدر: ازدان: حَسُن وجَمُلَ.

(75) السّيران: كلمة سورية اشتقوها من مادة (س ي ر)، وهي قريبة من (فُسْحَة) المصرية؛ ولكنها أوسع دلالة؛ والمراد: رحلة من المدينة إلى روضة أو غيضة أو بستان، يحمل فيها القاصدون زادهم حاضراً (جاهزاً) أو يقيمون آلة الطبخ والتّحضير للمائدة في أحضان الطبيعة، وقد يكون مع القاصدين موادّ غذائية لأكثر من وجبة. ويكون معهم أدوات التّسلية المختلفة. وتمتد الرحلة عادة نهاراً كاملاً، وقد تمتد إلى الليل، وخُصوصاً في الأيّام المقمرة.

(76) الضّمّانة في كلام أهل الشام جمع الضّمّان: الذي يشتري الثمر على شَجره بمبلغ يُتفق عليه، ويبقى في المزرعة أو البستان إلى نهاية الموسم.

– شكرٌ لـمُضيفيه، وثناءٌ عليهم وعلى كرمهم، وعلى بلدهم؛
– ونصيحَةٌ لأهلَ دمشق وسائر بلاد الشام باغتنامِ الوقتِ لبناء بلد يعيدُ ذكريات المجد القديم، شام بني أميّة، فالذي مضى قد مضى، فابنُوا بناءً جديداً، وأحْيُوا تراثكم التّليد ...
وفصّل شوقي في مقتضيات النَّهضة من: إتقان العمل، وتسخير المال لبناء الدَّولة، وائتلاف أبناء البلاد، والتفافهم حول مصالحهم العامّة.
وألمحَ إلى تسخير شعره لأهل الشّام نصيحةَ واحد كأنّه من أهل البلد؛ والحقيقة أن هذه الزّيارة عالية القيمة والأثَر في حياة شوقي وفي شعره، وكان نتاجُها في الشّام سروراً وبهجة وإعجاباً ورضًا ...
وأشار إلى أن مصر والشام، وسائر بلاد العرب وطنٌ واحدٌ، يتكلم لغة واحدة مُشتركة لا تنقطع أسبابها، قال:

يا فِتية الشّام شُكراً لا انقضاءَ لهُ ... لو أنَّ إحسانكم يَجْزيه شكرانُ[77]
ما فوق راحاتكم يوم السَّماحِ يَدٌ ... ولا كأوطانكم في البشر أوطانُ[78]
خَميلةُ اللّه وشَّتْها يداه لكمْ ... فهل لها قَيّمٌ منكم وجَنّانُ؟[79]

نَصائح شوقي (الأخوية) مبسوطةً، ولا شكّ في أن هذا مَقْصُود منه. فقد كان الفرنسيُّ المحتّل يفرّقُ بين الناس، ويكيدُ لهم، وكان الاتّحاد والتوافق أساس نجاح الجهاد ضده، ومقاومته حتى طرده.
وقال، وهو يشير إلى الدّولة السورية آنذاك:

شيدوا لها المُلْكَ وابْنُوا ركنَ دَولتها ... فالمُلكُ غَرْسٌ وتجديدٌ وبُنيانُ[80]
لو يَرْجِعُ الدَّهْرُ مَفْقُوداً له خَطرٌ ... لآبَ بالواحد المَبْكيِّ ثَكْلانُ[81]
المُلكُ أنْ تَعْمَلُوا ما اسْطَعْتُم عملاً ... وأنْ يبينَ على الأعمالِ إتقانُ[82]
المُلْكُ أن تُخْرجَ الأموالُ ناشطةً ... لمَطْلَبٍ فيه إصلاحٌ وعُمْرانُ
المُلْكُ تحتَ لسانٍ حولَهُ أدبٌ ... وتحت عَقلٍ على جَنْبيه عِرْفانُ
المُلْكُ أنْ تتلاقَوْا في هَوى وطنٍ ... تفرّقت فيه أجناسٌ وأدْيانُ

راوح شوقي بين أسلوبي الخبر والإنشاء في نصائحه ليصل إلى ما يريد بأكثر من وسيلة، وكرّر

(77) الفِتْيَةُ جمع الفَتى، ولها معانٍ: السَّخِيّ (الكريم) وذو النّجدة.
(78) يقول لا أحد يفوقكم في الكرم والسماحة.
- والرّاحات جمع الراحة: اليد.
(79) الخمائل جمع الخميلة: الشجر الملتف، كنّى عن الغوطة بالخميلة.
- والجَنّان: البستاني. وهي فصيحة، ولكنها من استعمال أهل الأندلس، نقلها شوقي من هناك (وهي رائجةٌ الآنَ في بلاد المغرب). وكان ابن خفاجة – لكثرة وصفه الطبيعة في الأندلس – يلقب بـ: جَنّان الأندلس.
(80) ينصح شوقي أهل الشام، ويُخلص في النصح وقد عَدَّ نفسه منهم، أن يبنوا دولتهم، ويُبدعوا مجداً جديداً كالقديم الذي مضى. والذي يذهب لا يعود.
(81) آبَ به: رجع.
(82) معنى البيت مأخوذ من حديث مشهور: «إن الله يُحب إذا عمل أحدكم عملًا أن يتقنه».

كلمة (الملك) التي أوردها لمعنى الدولة القوية المتماسكة، ونبّه على إرادة البناء الصادقة، والعمل الجادّ المتقن، وبذل المال لإتمام ذلك، والاجتماع على قلبٍ واحدٍ كما يجتمعون على لسان واحد، وعلى تفكيرٍ سليم، يبلغ مَقاصده.

نصيحةٌ مَلؤها الإخلاصُ صادقةٌ والنُّصح خالصُه دينٌ وإيمانُ

وجاء البيت التالي على مَوردِ الحكمة وضربِ المثل، ولكنّه في الحقيقة يريد أن يوصلَ نصيحته بلطفٍ ورقّة، ومودّة:

والشعرُ ما لم يكنْ ذكرى وعاطفةً أو حكمةً فهو تقطيعٌ وأوزانُ

ونحن في الشّرق والفُصحى بنو رَحمٍ ونحن في الجُرح والآلامِ إخوانُ

يُسَوِّغُ لأهل دمشق، وسورية تقديمه النّصح لهم بأنّ من مهمّة الشعر أن يكون كما قال مُتَضّمناً: الذكرى والعاطفة الصادقة والحكمة الخالدة. وإلّا فلا قيمة للشعر عندما يكون كلاماً موزوناً خالياً من الفائدة والأهميّة.

(٨) نكبة دمشق

هذه القصيدة

في ١٢ آذار (مارس) نشر أحمد شوقي في جريدة الأهرام قصيدة جديدةً له عن دمشق والشام، وفي مقدمة القصيدة من الديوان أن فرنسا كانت قد اضطُرّت إلى إجابة بعض مطالب سورية بعد ثورة دمشق، فأصدرت بياناً في ١٥ كانون الثاني (يناير) أعلنت فيه إلغاء القيود عن الحرّيات المشروعة، وإجراء انتخابات للجمعية التأسيسيّة؛ وشارك (شوقي) أهل سورية في فرحهم[٨٣].

وعنوان القصيدة في الديوان: «ذكرى استقلال سورية وذكرى شهدائها»[٨٤].

«ونكبة دمشق» هذه التي جعل (شوقي) عبارتها عنواناً لقصيدة رائعة نظمها بمناسبة ما أصاب دمشق على يد المُستعمر الفرنسي، وكان قد مرّ على وجوده في سورية خمس سنوات قاسية، تأهّب فيها السوريون للثورة على العدوّ، والتخلّص منه بالوسائل المختلفة. وحين زار شوقي دمشق، وحضر حفل تكريمه في ٢٥ آب ١٩٢٥ كانت الثورة قد بدأت طلائعها: جمراً تحت الرّماد، وما لبثت أن اشتعلت نارُها، وأوقع ثوار الجبل الهزيمة المُرّة بكتيبة فرنسية في (المزرعة)، وهبَّ ثوار دمشق والغوطة يتابعون الحركة ضد الاستعمار، ويسندون ثورةَ الجبل، ووصل الدكتور عبد الرحمن الشهبندر الذي أسّس حزب الشّعب المقاوم إلى الجبل، ولقي سلطان باشا الأطرش، وتضافرت الجهود ضد الفرنسيين في حركة منظمة[٨٥].

ووقعت حوادثُ مختلفة ضد الإفرنسيين في الغُوطة وغيرها، ثم إنّ فرقة من المجاهدين دخلت دمشق، ووصلت إلى مقرّ الجنرال الفرنسي (ساراي) وكاد أن يقع في أيديهم، ولما لم يستطع هو وكتائبه التغلب على الثوار التفت إلى مدينة دمشق: في أحيائها الداخلية الحيوية، وسلّط المدافع والدبّابات، وألقت القوات الفرنسية من قلعة المزة وقلعة دمشق حُمَمها المدمّرة، والحارقة على أحياء دمشقية

(83) ديوان شوقي 1: 364.
(84) تشغل القصيدة ما بين 364 و368 من الجزء الأول من الدِّيوان.
(85) انظر: الثورة العربية الكبرى – تاريخ مفصّل للقضية العربية – أمين سعيد – مكتبة مدبولي – القاهرة – 326-327.
- وتاريخ الثّورة السّورية الكبرى في عهد الانتداب الفرنسي – أدهم الجندي – 344-345.

شوقي في إسبانيا مع أولاده

عامرة، زاهرة، غاصّة بالقاطنين من السّكان، وحوانيت التجار وسائر معالم تلك الأحياء[٨٦]، واستمرّت قوات المستعمر الفرنسي تقتل وتحرق وتخرّب ثلاثة أيّام: من الأحد ١٨ تشرين الأول إلى مساء الثلاثاء ٢٠ تشرين الأول: فهدّمت الدُور الأثريّة والمنازل العريقة؛ وأُحرقت الدكاكين والحوانيت والمصانع، وقُتل الأبرياء: في جريمة شنيعة تأثر لهاَ العالم كلّه، ولم تستطع فرنسا نفسها الخلاص من اللّوم والاستهجان العالمي[٨٧]، وخلعت الجنرال ساري وعيّنت بعده (جُوفنيل).

وذكرت التواريخ ومذكرات السياسيّين والإعلاميّين الخسائر الفادحة في الأرواح وفي الممتلكات، «وقد اشتدّ القصف المتواصل في الأسواق الداخلية، ولا سيّما الميدان، والشاغور، وباب السريجة.... وأصاب الدّمار سوق الحميدية وشارع مدحت باشا، وأصاب القصف جامع السّنانية...»[٨٨].

وأشار فيليب خوري[٨٩] إلى «تدمير الكنوز المعماريّة والأثرية» في هذا العُدوان. ودُمّر حي سيدي عامود، وبقي على مكانه اسم (الحريقة) إلى اليوم، وإن كان العُمران قد انطلق فيه من زمان.

بين يدي القَصيدة

من كتب (الذكريات) التي عُنِيت بأحمد شوقي كتاب: «شوقي أو صداقة أربعين سنة» للأمير

(86) «خرب واحترق 600 ستمئة دار عظيمة الجانب خلال 24 ساعة» وزاد الجنود الفرنسيون «النهب والسّلب من الممتلكات والمخطوطات والمدّخرات فكانت النكبة مضاعفة».
انظر: لطفي الحفار 1885-1968 مذكراته، حياته، وعصره - سلمى الحفار الكزبري –146-168.
- و: ثورة سورية الكبرى: أسرارها وحوادثها ونتائجها – تنبؤات خطيرة عن كارثة فلسطين الحاضرة – مذكرات الزعيم الشهيد عبد الرحمن الشهبندر – ص85-88.

(87) وقد ظهرت احتجاجات دولية متعدّدة على همجية فرنسا في سورية في أحداث دمشق – سماها فيليب حتي «استنكارات دولية».
- سوريا والانتداب الفرنسي – سياسية القوميّة العربية – (فيليب خوري) -1997 ص: 221.

(88) لطفي الحفار: 147.

(89) سورية والانتداب الفرنسي: 220.

شكيب أرسلان[٩٠]، فقد سرد في كتابه حكايات وأخباراً ومواقفَ كثيرة، وسجّل من لقاءاته الطّويلة معه، وانتخب قصائد كاملة أو قطعاً من قصائد أحمد شوقي بين مراجعة وتعليق وإشادة وتبيين. وكان أرسلان يعدّ شوقي خليفة أبي الطيب المتنبي: وكانت لشكيب أرسلان وقفة خاصّة عند قصيدة شوقي المُعَنونة «نكبة دمشق»، وأجْمَلَ مقاصدَها، ونبّه على إشاراتها، وربَطها بالتاريخ والأحداث المُعاصرة.

وقد رأيتُ الاستفادةَ ممّا كتبه الأمير عن القصيدة، وحَلَّيتُ الكلامَ بحواشٍ إضافيّةٍ بين شرحٍ وإحالةٍ وتعليق.

قصيدة شوقي في الثورة السُّورية[٩١]

لمّا دَمَّر الفرنسيّون دمشق في إبّان الثورة السورية – وفي أيام العداوة بين السوريِّين والفرنسيين – أقيمت في القاهرة حفلةُ استنكار لذلك العَمل، وتُليت فيه الخُطب والقَصائد، فقال شوقي القصيدة الآتية؛ وتسابقت الصحف إلى نشرها، فاشترت جريدة (السياسة) امتياز السبق إلى نشر هذه القصيدة بأربعين جنيهاً، وضُمّ هذا المال إلى إعانة منكوبي الثّورة السُّورية[٩٢]:

سلامٌ من صَبا بَردى أرقُّ ... ودمعٌ لا يُكَفْكَفُ يا دمشقُ![٩٣]

ومعذرةُ اليَراعة والقَوافي ... جَلالُ الرُّزء عن وصف يَدِقُّ[٩٤]

وذكرى عن خَواطرها لقلبي ... إليك تَلَفُّتٌ أبداً وخَفْقُ[٩٥]

وبي ممّا رمتك به اللّيالي ... جِراحات لها في القلب عُمقُ[٩٦]

دخلتك والأصيلُ له ائتلاقٌ ... ووجهك ضاحكُ القَسمات طَلْقُ[٩٧]

وتحت جِنانك الأنهارُ تجري ... وملءُ رِباكِ أوراقٌ ووُرْقُ[٩٨]

وحَوْلي فتيةٌ غُرٌّ صِباحٌ ... لهم في الفضلِ غاياتٌ وسَبْقُ[٩٩]

---

(90) الأمير شكيب أرسلان: (1286 – 1366هـ/-1869 1946م) شكيب بن حمود أرسلان من سلالة التنوخيّين ملوك الحيرة. عالم بالأدب والسّياسة، مؤرخ، من كبار الكتّاب، يُنعت بأمير البيان، من أعضاء المجمع العلمي العربي بدمشق، ولد في لبنان، وسكن دمشق مدّة، وصار عضواً في مجلس المبعوثان بإستانبول. وسكن في أوربة مدّة. عالج السياسة الإسلامية قبل انهيار الدولة العثمانية، وكان من المتحمسين من أنصارها. وكانت وفاته في بيروت. له مؤلفات في الأدب والسّياسة والتاريخ والفكر الإسلامي. وله ديوان شعر. (الأعلام 3: 173-174).

(91) شوقي أو صداقة أربعين سنة – بقلم أمير البيان شكيب أرسلان –ص:252.

(92) ديوان شوقي 1: 398

- وقد شُكّلت في دمشق «جمعيةُ إغاثة منكوبي الثّورة» واستمر عملها إلى منتصف سنة 1926 (انظر: لطفي الحفار – 146).

(93) لا يكفكف: لا ينقطع دَرُّه.

(94) اليَراعة: القصبة التي تُقَلَّم، ويكتب بها مغموسة بالحبر. والجمع: يَراع. والقوافي هنا إشارة إلى القصائد. والرزء: المصيبة.

(95) (ها) في كلمة خواطرها ضمير يعود على دمشق.

(96) المراد بالليالي هنا مصائب الزمان المختلفة.

(97) ائتلق البرقُ: لمع وأضاء، واستعاره شوقي للأصيل (لإشراقته قبل المغيب). والقَسَمات جمع القَسْمة: ملامح الوجه.

(98) الأوراق: أوراق الشجر، والوُرْقُ جمع ورقاء: الحمامة (يغلب أن تكون رمادية اللون).

(99) غُرّ: جمع أغرّ: كرام (وأصل معناه البياض)؛ وصِباح جمع صَبيح: حسن، جميل (شكلاً وخُلُقاً).

- قال حسين شوقي (ابن الشاعر) في كتابه عن أبيه: «إن أباه حين زار دمشق [مدعوّاً من المجمع] استقبله شبابها استقبالاً عظيماً، وقد ذكر هؤلاء الشباب....».

- أبي شوقي: حسين (أحمد) شوقي – ص: 150-151.

على لَهَواتهمْ شعراءُ لُسْنٌ ... وفي أعطافهم خُطباءُ شُدْقُ

رواةُ قصائدي فاعجبْ لشعرٍ ... بكلّ محلّة يرويه خَلْقُ

صباح الوجوه، هم – بلهَواتهم كنايةٌ عن أفواههم – شعراءُ لُسْنٌ (جمع ألْسَن، وهو الفصيح)، وفي أعطافهم – كناية عن مواقفهم – خُطباء شُدْقٌ جمع أشدق، وهو المِفْوّه البليغ. ومع هذا فإنهم رواةُ شعري الذي: بكلّ محلّة من الدّنيا له رواةٌ. قلت (والسّياقُ للأمير أرسلان): لم يبالغْ شوقي في هذا، ولكنْ لم يَروِ عنه الرُّواة من الشعر كما رووا من هذه القصيدة[100]، ثم قال:

غَمَزْتُ إباءهم حتى تَلَظَّتْ ... أُنوفُ الأُسْدِ واضطرم المدَقُّ[101]

وضجّ من الشَّكيمة كلُّ حُرٍّ ... أبيٍّ من (أُمَيَّة) فيه عِتْقُ[102]

لحاها اللّه أنباءً توالتْ ... على سمع الوليّ بما يَشُقُّ[103]

يفصّلها إلى الدنيا بريدٌ ... ويُجْمِلُها إلى الآفاق بَرْقُ[104]

تكادُ لروعة الأحداث فيها ... تُخالُ من الخُرافَة وهي صدقُ

وقيل: معالمُ التاريخ دُكّت ... وقيل: أصابها تَلَفٌ وحَرْقُ

– يقول: إنه كانت تَأتي أخبارُ هذه القارعة النازلة بدمشق، الصّاكّة للأسماع، مُجْملةً بالبرقيّات، مفصّلة بالكتابات، يكادُ الناسُ يحسبونها من الخُرافات المُخَيَّلة؛ والحقيقةُ أنّها وقائعُ وقعت فعلاً. وقيل إنه دُمّر ذلك اليوم أبنيةٌ تاريخية وبيوتٌ مزدانة بأفخر الصنعة العربيّة، ثم قال:

ألست – دمَشْقُ – للإسلام ظئراً؟ ... ومُرْضعَةُ الأُبُوّة لا تُعَقُّ![105]

صلاحُ الدين تاجُك لم يُجَمَّل ... ولم يُوسَمْ بأزْيَنَ منهُ فَرْقُ[106]

وكل حضارةٍ في الأرض طالتْ ... لها من سرحك العُلْويّ عِرْقُ[107]

سماؤك من حُلى الماضي كتابٌ ... وأرضُك من حُلى التاريخ رقُّ[108]

---

(100) سبق في سياق القصيدة السابقة «قم ناج جلّق...» أن الأدباء والنقاد جعلوها غُرّة شعره في دمشق والشام وأهلها. وشعره في دمشق والشام ينافس بعضه بعضاً!

(101) أصل معنى الغمز: الجَسّ (جسّ التين ليعرف أناضج هو أم فِجّ، استعاره شوقي لمعنى: جَرّب أو اختبر إباءهم). و: تلظَّت النار: تلهّبت. واضطرم: اتّقد. والمِدَقّ: قصبة الأنف. تقول العرب: حَمِي أنف فلان: اشتدّ غيظه وغضبه.

(102) الشكيمة: حديدة اللجام المعترضة في فم الفَرس. والعِتقُ: الكرَمُ ونجابة الأصل.
يقول إن أهل دمشق والشام يأنفون من وجود المحتلّ عن إباءٍ وشَمَم وأصالة موروثة من أيام أجدادهم بني أميّة.

(103) الوليّ: النّصير والمُحبّ. ولحاها: دعاء عليها، الكلام عامّ في تأثر كلّ مَنْ بلغته أنباء نكبة دمشق، وقصد نفسه أولًا بـ (الوليّ).

(104) المراد ما يحمله البريد، وما تنقله البرقيات.

(105) الظئر: المرضعة والمربيّة. لقد كنت يا دمشق كالأم الحانية، الراعية للإسلام، وانطلاقته في أنحاء الدنيا. وهذه الأم تستحق البرّ لا العقوق.

(106) الفرق: الفاصل بين صفّين من شعر الرأس. ومراده الرأسُ جملةً (الذي يُتَوّج).
- وقد مرّ الكلام على صلاح الدين في فقرة خاصّة، وانظر فقرة: خلاصة وخاتمة.

(107) السّرح جمع السّرحة: الشجرة الطويلة العظيمة. يقول: من تراث دمشق العلمي والفني والأدبي عرقٌ في حضارات الأمم كلّها.

(108) الرَّق: (بفتح الراء): جلدٌ رقيق كان يكتب عليه.

بَنَيْت الدّولة الكبرى ومُلكاً ... غبارُ حَضارتَيْه لا يُشقُّ[109]

له بالشام أعلامٌ وعُرْسٌ ... بشائرُه بأندلسٍ تُدَقُّ

بعد أنْ ذكر صلاحَ الدين دفينَ دمشق ذكر الدَّولة الكُبرى، ويريد بالدولة الكُبرى: دولةَ بني أُمَيَّة؛ لأنه لم تتسّع فتوحات الإسلام في دَوْرٍ كما اتّسعت في زمانهم لا سيّما خلافة عبد الملك بن مَرْوان، [وابنه الوليد].

ويشيرُ بقوله: «غبار حضارتيه... الخ» إلى الحضارة الأُمويّة في دمشق، والحضارة الأموية في قُرطبة، فإن الثانية لها عروقٌ من الأولى.

ثم قال:

رِباعُ الخُلد – ويحكَ – ما دَهاها؟ ... أحقٌ أنّها درَستْ؟ أحقٌ؟[110]

وهل غُرَفُ الجِنانِ منضّداتٌ ... وهل لنعيمهنّ كأمْسِ نَسْقُ؟[111]

وأينُ دُمى المقاصرِ من حِجالٍ ... مَهَتَّكةٍ وأستارٍ تُشَقُّ؟[112]

برزْنَ وفي نواحي الأيكِ نارٌ ... وخلف الأيكِ أفراخٌ تُزَقُّ[113]

إذا رُمْنَ السّلامةَ من طريقٍ ... أتَتْ من دونه للموت طُرْقُ!

بليلٍ للقذائفِ والمَنايا ... وراءَ سمائه خَطْفٌ وصَعْقُ[114]

إذا عصف الحديد احْمرّ أُفْقٌ ... على جَنباته، واسْوَدَّ أُفْقُ[115]

إذا قرأ القارئ هذه الأبيات تصوّر الحالة كأنّه يراها بعينه: عقائل مقصورات في الحجال برزْنَ إلى الطّرق للنّجاة، والنّارُ تعملُ في البُيوت، وتأخذ على الهاربين والهاربات أفواه الطرق، وعلى أيدي أولئك العقائل أطفالٌ كالأفراخ التي تزقّها أُمّهاتها بمناقيرها، وقد ضاقت على الناس الأرضُ بما رَحُبَت، فكيف سلكوا فهي النار النازلةُ عليهم في جَوْف الظلام: تخطفُ الأرواح، وتَصْعَقُ الأجسام طول الليل – لأنّ ضرب دمشق بالمدافع استمر ٥٦ ساعة – كلّما نزلت كرةٌ من كرات الدّيناميت احمرّ جانبٌ من الأفق بلون اللّهيب، واسْوَدّ الجانب الآخَرُ بلون الدُّخان. ويستحيلُ على أيّ شاعرٍ أن يبلغ هذه الدرجة من البلاغة في وصف القذائف الحربيّة، ولا سيّما تحت الظلام.

---

(109) لا يُشق غباره: لا يسبقه أحد. لا نظيرَ له.

(110) «ويحك» ويح: كلمة توجّع وترحم، وتجيء بمعنى الويل. يخاطب مَنْ نقل أخبار دمشق القاسية.

(111) منضّدة: منسقة، وجعلها غرفاً من الجنان (جمع جنّة) إشارة إلى غنى دمشق والغوطة بالبساتين والرّياض.

(112) المقاصِر والمقاصير جمع المقصورة: الحُجْرة. والحجال: جمع الحَجلة. ساتر كالقبة يزيّن بالثياب والستور للعروس. والدمية (جمعها دُمًى) الصورة الممثلة (التمثال) من عاجٍ وغيره. ويضرب بها المثل في الحسن.
- وتقول العامة في الشام في الفتاة الحُسّانة: (أحلى من الصّورة).

(113) أفراخ جمع فرخ: الصغير من الطير، وزقّ الطائر فرخه: أطعمه. شبه الأطفال بصغار الطير.

(114) صَعِقَ: أصابته الصاعقة. وتُستعار للشدائد.

(115) الحديد هنا كناية عن الأسلحة المختلفة.

ثم قال:

سَلِي مَنْ راعَ غيدَك بعد وَهْنٍ ... أ بَيْنَ فؤاده والصّخر فرقُ؟[116]

وللمستعمرين وإن ألانُوا ... قلوبٌ كالحجارة لا تَرِقُّ

رماك بطيشه ورمى فرنسا ... أخو حَرْبٍ به صَلَفٌ وحُمْقُ[117]

إذا ما جاءه طلاّبُ حقٍّ ... يقول «عصابةٌ» خَرجُوا وشَقُّوا[118]

يقول: هل مَنْ أدْخَل على نساء دمشق هذا الهول كلّه يقال: إنّ بين قلبه والصخر فرق؟ لا لعَمْري! إنّ قلبه لكالصخر قسوةً، وهذه حال الدولة الاستعمارية بأسرها، فإنّ رجالها – وإن ألانوا القول – فَلينُهم رياء، وفعلهم بعكس قولهم، وقلوبُهم كالحجارة أو أشدّ قسوة.

وقد رماك يا دمشق، ورمى فرَنسا – نفس وطنه – بسبب رَمْيك – قائد متكبّر أحمق، يعني به الجنرالَ ساراي، وقد كان إذا جاؤوا يَرْجُونه الكفّ عن ضرب دمَشق أجابهم أنه إنما يضرب عُصاةً شقُّوا عصا الطاعة[119].

ويُشير شوقي بقوله: «رمى فرنسا» إلى أن هذا الفعل بقي سبّةً وعاراً في التاريخ على فرنسا بسبب هذا القائد، ولم يقدر أن يدافع عنه أحد:

دمُ الثوار تعرفُه فرنسا ... وتعلمُ أنّه نورٌ وحقُّ

جرى في أرضها، فيه حياةٌ ... كمُنْهَلِّ السّماء، وفيه رزقُ[120]

بلاد ماتَ فتْيَتُها لتَحْيا ... وزالوا دون قومهمُ ليبقوا

وحُرّرت الشعوبُ على قناها ... فكيف على قناها تُستَرقُّ؟[121]

يريد أنّ فرنسا لها درايةٌ بدم الثوّار، وهي تعلمُ ما أوجدتهُ الثورةُ فيها من حقوق كانت ضائعة، وأنوار علم كانت خافية، وأن الثورةَ كانت حياةً لفرنسا، وقد مات فيها البعضُ ليحيا الكلُّ. ومن عادة الشعُوب أن تنال حرّيتها برؤوس الحراب، فكيف يُعقل أنّ سورية تزادُ رِقّاً على رِقٍّ برؤوس الحِراب بعد أن سفك السّوريون دماءهم لأجل الحرّية؟

---

(116) الوَهَنُ: منتصف الليل، أو بعده بقليل.

- والغيد جمع غيداء: الفتاة الناعمة الليّنة. أراد مُطلق نساء دمشق.

(117) الصّلف: العجرفة والتكبّر. وأخُو الحرب (الإجرامية) الجنرال الفرنسي (ساراي) وذكره شوقي أيضاً مع ناره المحرقة فقال (الديوان 2: 492).

رعناء أرسلها ودسّ شواظها ... في حجرة التاريخ أرعنُ أحمقُ

(118) أصل معنى العصابة الجماعة، وضيّقوا معناها في العصر الحديث لتدل على جماعة السُّوء.

(119) في كتاب: تاريخ الثورات السورية لأدهم الجندي (-344 345) «أن وفداً تألف لإقناع (ساراي) بإيقاف ضرب دمشق وإحراقها، كان مؤلفاً من: سعيد الجزائري، وتاج الدين الحَسني، ونسيب حمزة، فأجابهم بأنه لن يتوقف القصف والتدمير حتى انقضاء المدة المعيّنة وفق الخطة المرسومة، والأوامر المحدّدة، واشترط أن يقدم الأهالي مئة ألف ليرة ذهبية غرامة حربية (!!) وثلاثة آلاف بندقية مع عتادها، وأنّ كل رصاصة تطلق من أحياء دمشق سيكون نصيب ذلك الحيّ التدمير، وحدّد موعداً لتأدية الغرامة، وإذا لم يتم تنفيذ الشروط سيستمرّ قصف المدينة بالمدافع حتى تزول دمشق من الوجود!!».

(120) السماء هنا: المطر. وانهلّ: انسكب غزيراً.

(121) القنا جمع القناة: الرُّمح.

ثم قال:

بني سوريةَ اطَّرحوا الأماني ... وألقُوا عنكم الأحلامَ ألقوا[١٢٢]

فمن خدَعِ السياسةِ أن تُغَرُّوا ... بألقاب الإمارة وهي رِقٌّ[١٢٣]

وكم صَيَدٍ بدا لك من ذليلٍ ... كما مالت من المصلوب عنقُ[١٢٤]

فتُوقُ الملك تحدثُ ثم تمضي ... ولا يَمضي لمُختلفين فَتْقُ

يخاطبُ أبناء سورية قائلاً: ذَرُوا الأماني، وانْبُذوا الأحلامَ الكواذب، ولا تغترّوا بلقب (الدولة السورية)، ولا (لبنان الكبير)، وما أشبَهَ ذلك من «ألقاب مملكة في غير موضعها»، فإنّ كل هذه الحكومات أسماء ما أنزل اللّه بها من سلطان، وكلها مُستعبَدة لفرنسا[١٢٥].

وقد تجدون مَن عليه لقب (أمير) أو (وزير) وهو جالس على كرسيّه، وإنما هو مائل العنق ينظر إلى نقطة واحدة: يخالهُ الناس أميراً أصيدَ من شدة كِبْرِه، وليس ذلك بعبرة، بل المصلوبُ أو المشنوق يميل بعنقه وهو ميّت!

وقد أنّث شوقي (العُنق) وليس ذلك بخطأ، وإن كان التذكير أقوى.

ثم قال: إنّ فُتوق المُلك تحدثُ في كل مكان، ولكنّها قابلة للرَّتق إلّا إذا انصدعت الوحدة، وتفرّقت كلمة الشعب، فذلك فتقٌ لا رَتْق له، وشقٌّ لا يُحاص، فإيّاكم وأن تصدعوا وحدتكم بالخلاف فيما بينكم.

ثم قال:

نصحتُ ونحن مختلفون داراً ... ولكنْ كلّنا في الهمِّ شرقُ

ويجمعنا – إذا اختلفت بلادٌ – ... بَيانٌ غيرُ مختَلف ونُطقُ

يقول: ليست مصر والشام بدار واحدة [من الناحية الجغرافيّة] ولكن مصر والشام كلتاهما من الشرق [البلاد العربية والإسلامية]، فبينهما جامعةٌ شرقيّةٌ، ولسان كل من القطرين هو اللسانُ العربيّ، وأيّةُ رحم شابكة أكثرُ من هذا؟

وقفتم بينَ موتٍ أو حَياةٍ ... فإن رُمْتُم نَعيمَ الدّهر فاشْقُوا[١٢٦]

---

(122) الأحلام هنا: الأفكار الضعيفة والآراء السخيفة.

(123) الرقّ: العبودية: حقيقةً أو مجازاً.

(124) الصَّيَدُ مصدر صَيِدَ والأصيد: المتكبّر، المزهو بنفسه.

(125) فصّلت التواريخ في هذا الإجمال الذي قدّمه الأمير شكيب، ونقف، مثلًا، عند كتاب فيليب خوري (سوريا والانتداب الفرنسي) – مرجع سابق – قال (ص: 83-84): «حين أمسك الفرنسيون بحصّتهم من (الكعكة) يعني سورية، بدؤوا يسعون إلى تقسيمها إلى قطع أصغر بهدف عزل الحركة القومية». قال: «وقد أدّى إنشاء دولة لبنان الكبير إلى ما هو أكثر من نقل مقاليد الحكم إلى أقلية حاكمة، فهو أيضاً أدام اعتماد الموارنة على الدعم الفرنسي للبقاء في الحكم».
وفيه أن «انحياز فرنسا إلى جانب لبنان أثار مشاعر العداء للفرنسيّين لدى الحركة الوطنية في سورية».
وعمل الفرنسيون على إحداث تغييرات قانونية لمنع البلاد من التوحّد سياسيّاً ومن ذلك: (-84 85):
«- دمشق، وحلب لواءان منفصلان (بدلاً من اللواءين العثمانيّين).
- سنجق (إسكندرون) إدارة مستقلّة إلى حد بعيد.
- جبل الدروز وحدة مستقلّة إلى حدّ بعيد.
- الأقضية الجبلية خلف اللاذقية لواء خاص منفصل.
- ومن بعد ذلك التنازل عن إسكندرون لتركيا (تمّ هذا سنة 1938) لتحييد تركيا إذا اندلعت حرب».

(126) هذا في معنى قول الشاعر:

وللأوطان في دَم كُلّ حُرٍّ ... يدٌ سلَفت ودَيْنٌ مُستَحقُ

ومن يَسْقي ويَشربُ بالمَنايا ... إذا الأحرار لم يُسْقَوْا ويَسْقوا؟[127]

ولا يبْني الممالكَ كالضّحايا ... ولا يُدني الحقوقَ ولا يُحِقُّ

ففي القتلى لأجيالٍ حَياةٌ ... وفي الأسرى فدًى لهمُ وعِتقُ

وللحريّة الحمراء بابٌ ... بكلّ يدٍ مُضَرَّجَةٍ يُدَقُّ![128]

ينثر شوقي بهذا النظم نصائحه لأهل سورية مبنيّةً على التجربة، والتّاريخ، والمبادئ السَّرمديّة، فيقول للسوريّين: وقفتم الآن بين الموت والحياة، فإن رُمتُم الراحة الكبرى فاتّعَبُوا، وإن نَشَدتم النَّعيم المُقيم فاختاروا لأنفسكم الشقاء مدةً من الزمن؛ لأنّه لا يدرج النعيم إلا من أوكار العذاب. وإن دماء الأحرار المسفوكة في سبيل الأوطان ديُونٌ مستحقة لا بدّ للدهر من أن يتوفّر على إيفائها. ومَنْ لعمري يُسقى ويشرب بكؤوس المنايا نَهْلاً وعَلاً إذا كان أحرار البلاد لا يشربون بتلك الكؤوس؟ ولا يَسْقونَ بها؟.. وقال: إنه لا شيء يقوم عليه أساس المُلك مثلُ الضَّحايا، ولا ما يُحقُّ الحقوقَ غيرها. فكل أمّة بَذلت في سبيلَ حرّيتها دماءً فإن تلك دماءً تنال لها حقوقها في الحرية، ولا يقدر أن يكابر فيها مُكابر. وبالجملة فلا تحيا الأمم إلا بقتل بعض رجالها، ولا يعيشون طلقاء إلا بأسر البعض الآخر. وما قرع بابَ الحريّة إلّا الأيدي الملطخة بالدم. وقد وصف الحرية بـ (الحمراء) كناية عن كونها لا تُنال إلا بالدم المسفوك. ويجوز أن

تمثال أحمد شوقي في روما

أُعِدّت الراحة الكبرى لمن تعبا

(127) معنى البيت وبعض مفرداته مستفادة من الآية الكريمة (116) من سورة التوبة:
{إن الله اشترى من المؤمنين أنفسهم وأموالهم بأن لهم الجنة يقاتلون في سبيل الله فيقتلون ويقتلون...} الآية.

(128) تحدث الدكتور صالح الأشتر عن أثر الأدب، والشّعر خاصّةً، في الشعوب فإنه «يهزّ وجدانها ويثير مشاعرها» ثم قال: «والحقّ أن صوت شوقي كان يرنّ في أجواء العالم العربي، ويهزّ ضمائر النائمين، ويفتح أعينهم على الخطر، ويرسم للأجيال طريق النصر الدامي». واستشهد بقول شوقي:

وللحرية الحمراء باب ... بكل يدٍ مضرّجة يُدَقّ

- أندلسيات شوقي – د. صالح الأشتر.

يقال في معنى (الحمراء) إنها الشديدة، وذلك أنّ العرب وصفوا الشدّة دائماً بالحمرة.
ثم قال:

جزاكم ذو الجلال بني دمشقٍ ... وعزُّ الشرقِ أوّله دمشقُ
نصرتم يومَ محنته أخاكم ... وكلُّ أخٍ بنصرِ أخيه حَقُّ

يدعو لأهل دمشق أن يؤيدهم الله عزّ وجلّ، ويذكر أن دمشق في الحقيقة كانت أول مركز عزّ وسيادة للشرق؛ فإن الدولة الإسلامية الأولى – وهي دولة بني أمية – إنما اتخذت دمشق لها عاصمةً؛ ثم يقول لأهل دمشق: مَرْحى لكم! أنتم الذين نصرتم إخوانكم الدّروز يوم زحف إليهم الفرنسيس، فلم تَذَرُوهم مُنفردين، وشغلتم الفرنسيس من الوراء بثورة الغُوطة، ولا عَجب في ذلك، فإنّكم إنما نَصَرْتُم إخوانكم، وكلّ أخي حَقٍّ [جديرٌ] بِنَصْرِ أخيه.
ثم يقول:

وما كان الدّروزُ قَبيلَ شرّ ... وإنْ أُخذُوا بما لم يَسْتَحقّوا[129]
ولكنْ ذادَةٌ وقُراةُ ضَيْفٍ ... كينبوعِ الصَّفا خَشُنُوا ورَقّوا[130]
لهم جَبلٌ أشَمُّ له شعافٌ ... مَواردُ في السّحاب الجُوْنِ بُلْقُ[131]
لكلِّ لبوءةٍ ولكل شبلٍ ... نضالٌ دون غايته ورشْقُ
كأنَّ من السّموءَلِ فيه شيئاً ... فكُلُّ جهاته شَرَفٌ وخُلْقُ[132]

قال:
وإنّ إخوانكم الدّروز هؤلاء لم يكونوا قبيلة شرّ، وإنهم لم يستحقّوا النّكال الذي أراد الفرنسيس إنزاله بهم. فالدّروز في الحقيقة قوم كرام، يقرون الضيف، ويمنعون حماهم بالسيف. وهم يجمعون بين الرقّة والخشونة، ففي حال السلم وعدم الاعتداء عليهم تراهم أرقّ النّاس خَلْقاً، وأكثرهم أدباً، وأخفضهم جناحاً؛ فإذا اعتدى عليهم معتد انقلب كلّ منهم ليثاً عادياً بعد أن كان حملاً وديعاً، وما أشبههم بالينبوع المنفجر من الصخر في الجمع بين الرقّة والجُمود. ولهم جبل أشمّ له رؤوس كأنها موارد للسَّحاب، وهذه الرؤوس تجمع بين البَياض من صُخورها والسّواد من السُّحب التي تتراكم عليها، فلذلك هي بُلق؛ وإذا اعتدى معتد على الدروز وجدت كل امرأة منهم أسَدةً تناضل عن قومها، وكلّ شاب أسداً يُراشقُ عن قومه[133]، وكأنما هو السَّموءَل في وفائه وشرف نفسه وحميّة أنفه مع سعة حلمه ورقةِ طبعه، فهو من كل الجهات شرفٌ وحُسْنُ خُلق.

(129) أُخِذَ بما لا يستحقُّ: ظُلِمَ.
(130) ذادَةٌ: من ذادَهُ: دفعه، وطرده، قال الشاعر:

لا أذودُ الطّيرَ عن شجرٍ ... قد بلوتُ المُرَّ مِنْ ثَمَرِهْ

(131) الشّعاف جمع الشعفة، وهي: من كل شيءٍ أعلاه. الجُون: جمع جَوْن وهو الأسود. وبُلْقٌ: كان فيه سواد وبياض.
(132) السَّموءَل بن عادياء، ضُرب به المثل في الوفاء، قالوا: «أوفى من السموءَل».
- مجمع الأمثال للميداني – تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم – 3: 446: أوفى من السموءَل.
(133) يقال تراشق القوم: تناضلوا. (تقال في المناضلة بالسلاح واللسان). يريد الأمير: يدافع عن قومه.

شوقي وأولاده

(٩) ذكرى استقلال سورية وذكرى شهدائها

عالج شوقي ما ورد في عنوان القصيدة بتفصيل سَلْسَلَهُ على منهج خاصّ به في معالجةً موضوعاته، وفيه ستّة مفاصل:

١. فالأول: كلام عامٌ في الحياة والموت وآراء للشاعر، وفيها ترشيح للمفصل الثاني:

٢. وفيه كلام على (أهل الواجب) كما سَمّاهم، الذين يجعلون الأمة والوطن في رأس اهتماماتهم.

٣. وقدّم العزاء لسورية بشهدائها.

٤. واستطرد بلطف، وحُسْن اتصال إلى رُسلٍ جاؤوا من سورية يحملونَ إليه رسالة مكتوبة بحبر غريب، يهنّؤونه بإمارة الشعر: طار لها فَرحاً وتقديراً.

٥. وانتقل نقلة سلسَةً من قصة أولئك الرُسل، وهم حُماة الدّيار إلى جهاد السّوريّين ضد الاستعمار، وناقش قضية السلم وشروط قبولها، ووازن بين أحوال الحرب وأحوال السّلم، وكيفية التعامل معها.

٦. ووقف – وأطال الوقوف – عند ذكرى استشهاد البطل المغوار الأبيّ: يوسف العظمة، ووفّاه حقه – من القصيدة – وكأنّه يجدّد رثاءه[١٣٤].

بين يدي القصيدة

هذه القصيدة أثرٌ أدبيّ بالغ الحُسن، جَيّاشُ العاطفة. يتابع فيه شوقي التفاته إلى دمشق والشّام، ويُتابع اهتمامه بقضايا سورية والسوريّين، وفيها ملمحان يلفتان النظر: أحدهما يخصُّ الشاعر موصولاً مع مجاهدي الشام، والثاني موصولٌ بموقفٍ من مواقف التّاريخ العربيّ السّوري عند هُجوم الإفرنسيّين على دمشق والشام هجوماً يُذكّر بـ (هولاكو) و(جنكيز خان) وعُتاة الحملة الإفرنجيّة (الصليبية). فقد رجع شوقي بالذاكرة – والمناسبة مستمرّةٌ – إلى يوسف العظمة الذي سجّل اسمه في سجل الخُلود، ودخل في صحيفة الشهداء.

١- بعد «تنصيب» شوقي أميراً للشّعراء، وفي ليلة ساهرةٍ في داره بالقاهرة، تسلّم رسالة كان

(134) ولد يوسف العظمة في دمشق 1884، وفيها تعلّم؛ ومن الآستانة تخرج ضابطاً عسكريّاً، وتدرّب في ألمانيا أيضاً، وتقلّب، على صغر سنّه في مناصب عسكرية ذات أهميّة في الجيش العثماني، وتولّى رئاسة أركان الحرب العامّة برتبة قائم مقام في سورية. وحين أُعلن الاستقلال عيّنه الملك فيصل في عدد من المهامّ العسكرية والسياسيّة، حتى صار وزيراً للحربية (الدفاع) سنة 1920.

ونصح العظمة الملك فيصل بعدم حلّ الجيش، كما طلب غورو الفرنسي. ثم ظهرت نيّات فرنسا المبيّتة، وهجم الفرنسيون بقوًى متعدّدة كثيرة. ولم يكن ليوسف العظمة وهو مسؤول الدفاع عن الوطن أن يشاهد دخول العدو الفرنسي... ولهذا قام بما يجب على المحامي عن الأهل والبلاد القيامُ به ولو كان في ذلك سقوطه شهيداً في 24 تموز 1920. فراح شهيداً، وصار مثالاً للشام في الفداء والإباء، وقد قالت العرب:

ومبلغُ نفسٍ عُذْرَها مثل مُنْجِحِ

لها – كما أرّخ حسين شوقي – «وقعٌ عظيم في نفسه، إذ هي تحيّةٌ من زعماء الثورة السّورية، كُتبت بميدان القتال، وقد وقّعها هؤلاء الأبطال واحداً واحداً» قال حسين شوقي: «وقد أشار أبي إليها في قصيدته في ذكرى شهداء استقلال سورية، إذ قال:

ذكرتُ المهرجانَ وقد تجلّى ووفدَ المَشرقين، وقد توالى

وداري بين أعراسِ القوافي وقد جُليتْ سماءً لا تُعالى

تسَلّل في الظّلام إليّ نِضْوٌ وبلّغني التحيَّة والسّؤالا

إلى آخر الأبيات الخاصة بالمناسبة (الأبيات من ٣٩-٥٤)[١٣٥].

وكان توقيع كل منهم بعد كتابة اسمه: بقطرات استمدّها من دَمِه، محبةً في شوقي وتقديراً لنصرته المجاهدين والقضية السورية.

٢- وقعت بلاد الشام (الطبيعيّة) والعراق بين أيدي الإنجليز والفرنسيين، واختلفا على القسمة، إلى أن استقرت الحال الاستعمارية على أن تكون سورية (ومنها لبنان) لفرنسة؛ وفلسطين (ومعها الأردن) والعراق للإنجليز.

وبقي من الدولة العربية الكبرى التي وعد بها الإنجليز الشريف حسين سورية وحدها، وتركوها للملك فيصل بن الحسين، وأعلن يوم ٨ آذار عيداً لقيام الدّولة العربية، ولكن الأمر لم يستقر على هذه الحال.

ونقرأ في أحد كتب تاريخ هذه الفترة[١٣٦]: أن «الحكومة الفرنسية لم تكن على استعداد للقبول بأيّة حكومة قوميّة في دمشق، وتُرك فيصل يقع في أحضان الوطنيّين المتطرفين لتبرّر فرنسا تدخلها في سورية».

– وتحرّكت فرنسا بتفويض أوربيّ[١٣٧] نحو دمشق «فأُجريت الاستعدادات من أجل الاحتلال الكامل لسورية في أقرب تاريخ ممكن».

– «وتوصّل ملبران رئيس الوزراء الذي خلف (كليمَنْصُو) والجنرال غُورو، ومستشارو ملبران السياسيون إلى قرار نهائي بشأن مصير الحكومة العربية المتمثّل في التّفكيك»[١٣٨].

– وفي أيار ١٩٢٠ أدخل الفرنسيون عُملة (سوريّة)[١٣٩] صادرة عن بنك سورية الذي يملكه الفرنسيون وربطوها بالفرنك الفرنسي.

– وكانت فرنسا في أوائل تشرين ١٩١٩ عيّنت هنري غورو مندوباً سامياً لفرنسة في سورية، وقائداً لجَيْش المشرق، وتعيين هذا «الكاثوليكي الورع أثلج صدرَ الحزب الاستعماري في فرنسا، وكان يدعو علناً إلى وجود عسكري في الداخل السُّوري يدافع عن الحماية الدينيّة الفرنسية في سورية...»[١٤٠].

وذكر المؤرّخون الدّوافع الكثيرة لدى فرنسا لاحتلال سورية من سياسية ودينية واقتصادية.

---

(135) أبي شوقي: 145.
(136) سوريا والانتداب الفرنسي – فيليب خوري: 63.
(137) بعد مؤتمر (سان ريمو – نيسان 1920) (سوريا والانتداب الفرنسي – فيليب خوري: 63).
(138) سوريا والانتداب الفرنسي – فيليب خوري: 63.
(139) النقد الورقي.
(140) سورية والانتداب الفرنسي: 61.

وبعيداً عن اتفاقية سايكس – بيكو، وعن مؤتمرات أوربة أعلن المؤتمر السوري العام الاستقلال في ٧ آذار ١٩٢٠، وتألفت الوزارة برئاسة رضا الركابي، الذي لقب أيضاً بالحاكم العسكري العامّ، وأقيمت حكومةٌ عربيّةٌ في لبنان برئاسة عمر الداعوق.

– حين كان (غورو) يراسل الملك فيصل في شروط اشترطها لعدم دخول سورية (الإنذار المؤرخ في ١٠ تموز ١٩٢٠) كان يفعَل ذلك كسباً للوقت، وإخفاءً لنيّاته المبيّتة، واستجاب فيصل لمحتويات الإنذار[١٤١] ومنها حلّ الجيش. وكان رأي وزير الحربية يوسف العظمة ألّا يحلّ الجيش، وتوالت الأحداث، وزحف (غورو) على سورية.

– وكان تاريخ إنذار غورو ١٤ تموز، وكان اجتياحُه البقاع في ٢١ تموز ووصوله إلى ميسلون في ٢٤ تموز.

– اتجه يوسف العظمة إلى ميسلون، ورتّب أُمور المعركة بما يناسب الجغرافية، والقوات الباقية معه من جيش منحلّ، ومتطوعة غير مدربة وأسلحة قليلة. ونصَب ألغاماً في طريق دبابات الفرنسيّين لتعطب ويَتراكب بعضُها إلى بعض ليستفيدَ جيشُه من هذه البلبلة، لكنْ جاء من قطع أسلاك الألغام (عصابة من بيروت حسب رواية عبد العزيز العظمة)[١٤٢] وظهر في الجيش القليل العدد أصلاً مَنْ جاء متلصّصاً أو متعاوناً[١٤٣]، وقاوم العظمة مع البقية الباقية من جنوده الذين ثبتوا – بعد فرار بعضهم – وأصابته شظيةٌ من قذيفة من مدفع معاد، وسقط شهيداً.

– وكان الجيش الغازي مُزَوّداً بالمدافع والدّبابات والطائرات، وبقوّات كبيرة منَ السّنغال (وكانت فرنسا تحتل بلادهم) ومن غيرهم أيضاً (كالجزائريّين)[١٤٤].

وقد أشار شوقي في قصيدته إلى جوانب هذه المعركة غير المتكافئة. ورثى يوسف العظمة، وذكر أثر استشهاده في استنهاض الهمم للثورة على الفرنسيّين[١٤٥].

– وكنتُ في ذكرى ٢٤ تموز كتبتُ مقالة نشرت في جريدة (الوطن) الدمشقية بعنوان «قائد برتبة مقاوم» أشرتُ فيها إلى روح التضحية من هذا البطل، وروح الإباء من عربيّ أصيل، وخصلة الشجاعة، وفيها:

«وفي ٢٤ تموز ١٩٢٠ خرج القائد مع القلة من الضباط والجنود ومع مَنْ جاء من المتطوّعين. كانوا جميعاً مثل وزير الدفاع (وزير الحربية) القائد يوسف العظمة برتبة مقاوم، وحظي بعضهم أيضاً برتبة شهيد»[١٤٦].

– و(ميسلون) في المعجم الجغرافي[١٤٧] مزرعة تتبع ناحية الدّيماس، وعُرفت عند الفتح الإسلامي: باسم عيد الشهداء؛ لأن جماعة قد استشهدوا فيها عند فتح مدينة دَمشق؛ وتقع في مُنخفض يمتدّ بشكل متطاول بين جبل سعيدة في الشمال، والحصحاص في الجنوب، وهي في النهاية الجنوبية لسلسلة جبال لبنان الشرقية.

---

(141) أحداث الثورة العربية – ميسلون نهاية عهد – صبحي العمر (ص: 146).

(142) انظر تفصيلًا في كتاب: مرآة الشام: تاريخ دمشق وأهلها – عبد العزيز العظمة – (فقرة كارثة ميسلون 485-492).

(143) مرآة الشام: 488.

(144) سورية والانتداب الفرنسي – فيليب خوري: 128.

(145) وقد عالج شوقي الفكرة في قصيدته عن المجاهد الشهيد عمر المختار في الديوان (2: 344- 347) ومطلع قصيدته في عمر المختار:

ركزوا رفاتك في الرمال لواءَ ... يستنهض الوادي صباحَ مساءَ

(146) الوطن: 2009/7/23.

(147) المعجم الجغرافي 5: 384.

وذاعت شهرة ميسلون بسبب المعركة التي كانت فيها، واستشهد فيها البطل المجاهد يوسف العظمة.

قال أحمد شوقي[148]، تحت عنوان:

(ذكرى استقلال سورية وذكرى شهدائها)

«حياةٌ» ما نريدُ لها زِيالا ... و«دنيا» لا نَودُّ لها انتقالا

و«عيشٌ» في أُصول الموت سُمٌّ ... عُصارَتُهُ، وإن بسَط الظّلالا

وأيامٌ تطيرُ بنا سَحاباً ... وإن خيلت تدبُّ بنا نمالا[149]

نُريها في الضَّمير هوًى وحُبّاً ... ونُسْمعُها التَّبَرُّمَ والمَلالا!

قِصارٌ حين نُجْري اللّهوَ فيها ... طِوالٌ حينَ نقطَعُها فعالا[150]

ولم تَضِق الحَياةُ بنا ولكنْ ... زِحامُ السُّوءِ ضَيَّقَها مَجالا!

ولم تقتُلْ براحَتها بَنيها ... ولكنْ سابَقُوا الموتَ اقتتالا[151]

ولو زادَ الحياةَ الناسُ سَعْياً ... وإخلاصاً لزادتهمْ جَمالا

كأنّ اللّه إذْ قسمَ المعالي ... لأهل الواجبِ ادَّخَر الكَمالا[152]

ترى جدّاً ولست ترى عليهم ... ولوعاً بالصّغائرِ واشتغالا

وليسوا أرْغَدَ الأحياءِ عيشاً ... ولكنْ: أنْعمُ الأحياء بالا

إذا فَعلُوا فخيرُ الناس فعلاً ... وإن قالوا فأكرمهمْ مَقالا

وإن سألتْهُمُ الأوطانُ أعْطَوْا ... دماً حُرّاً، وأبناءً، ومالا

وجاء هذا البيت (وإن سألتهم الأوطان) انتقالاً سلساً بين الأبيات الأولى السابقة، وقد طالت (نسبيّاً) ودخل منها – وهي تقدمة مناسبة – إلى تضحية ثوار سورية ومجاهديها ضد المستعمر الفرنسي.

– وخاطب أهل سورية ذاكراً شجاعتهم وفداءهم، وشاركهم ما هم فيه:

---

(148) ديوان شوقي 1: 364.

(149) الأيام تمر بسرعة شديدة (ضرب مثلًا من سير السحاب) وإن وقع الظن بأنها بطيئة (ضرب مثلًا من سير النمل).

(150) الفَعال: العمل الحميد.

(151) قال المتنبي في هذا المعنى: (التبيان في شرح الديوان – العكبري – 4: 24):

كلما أنبت الزمانُ قناةً ... ركّب المرءُ في القناة سنانا

(152) أهل الواجب كناية عن الذين يؤدون الواجب: نحو الوطن، ونحو الأهل، ونحو الضيوف، ونحو سائر النّاس. وقوله (أهل الواجب) مستفاد من أُسلوب شعبي ولغة صحيحة.

بني البلد الشقيق عزاء جارٍ ... أهابَ بدَمْعه شَجَنٌ فسالا[153]

قضى بالأمسِ للأبطالِ حقّاً ... وأضحى اليومَ للشُّهداء غالى[154]

يُعَظِّمُ كلَّ جهدٍ عبقريٍّ ... أكان السِّلمَ أم كانَ القتالا[155]

وما زلنا إذا دهت الرّزايا ... كأرحمِ ما يكونُ البيتُ آلا[156]

وقد أنسى الإساءة من حَسُودٍ ... ولا أنسى الصَّنيعة والفَعالا[157]

أسبغ شوقي على المجاهدين ما يليق بهم من الأوصاف، وعبارات التكريم، وذكر رثاءه للشهداء، وتبجيله للأبطال المجاهدين.

– ثم التفت إلى وفد المجاهدين، ورسالتهم النفيسة:

ذكرتُ المهرجانَ وقد تجلّى ... ووفْدَ المَشرقين، وقد توالى[158]

وداري بين أعراسِ القوافي ... وقد جُليتْ سماءً لا تُعالى

تسلّل في الزّحامِ إليّ نضْوٌ ... منَ الأحرارِ تحسَبُه خَيالا![159]

رسول الصّابرين ألمَّ وَهْناً ... وبلّغني التحيّة والسُّؤالا[160]

دنا منّي فناوَلني كتاباً ... أحسَّتْ راحتايَ له جَلالا[161]

وجَدْتُ دمَ الأسودِ عليه مسكاً ... وكانَ الأصلُ في المسكِ الغَزالا[162]

كأنّ أسامِيَ الأبطالِ فيه ... حواميمٌ على رقٍّ تتالى[163]

---

(153) أهاب به: دعاه. والشجن: الحُزن.

(154) أثنى على الأبطال المجاهدين، ثم عظّم شأن الشهداء، ووفاهم حقهم.

(155) يُثني على رجال الثورة السياسيين (يفاوضون لإخراج المستعمر سلماً) وعلى مَنْ حمل السلاح منهم، فكلاهما يخدم الوطن.

(156) الرّزايا جمع الرزية: المصيبة والنائبة. و: دهت: أصابت.

(157) الصنيعة: المعروف. والفَعال: العمل الحميد.

(158) مهرجان تنصيب شوقي أميراً للشعراء. وتوالى (أعضاء الوفد): تتابع.

(159) نِضْو: نحيل (أنحله طولُ المُجاهدة). وقوله: تحسبه خيالًا أي من نُحوله.

- وقد بالغ المتنبي حين ذكر نحوله:

كفى بجسمي نحولاً أنني رجل ... لولا مخاطبتي إياك لم تَرني!

(التبيان 4: 186 – وفيه: قد بلغ في النحول الغاية.. وأن عائده (زائره في المرض) يستدل عليه بصوته، لا يراه لنحوله).

(160) الوهن: منتصف الليل، أو بعده بقليل. بلّغه التحية، والسؤال عن حاله (.. كيف الصحة؟ كما يقول أهل الشام).

(161) الكتاب: الرسالة.

(162) في المعجم الوسيط: المسك: نوع من الطِّيب يُتَّخَذُ من نوع من الغزلان. انتهى.

ولقّب المجاهدين بالأسود. وذكر المسك لأنهم وقّعوا بدمائهم، فكأن دماءهم مسكٌ (كالذي يُستخرج من دم الغزلان).

- وفي شعر أبي الطيب (التّبيان 3: 20):

رأيتك في الذين أرى ملوكاً ... كأنّك مستقيمٌ في مُحال

فإنّ تَفُقِ الأنامَ وأنت منهم ... فإنّ المسكَ بعضُ دمِ الغزالِ

(163) تواقيعهم – بعد أسمائهم – كأنّها حروف مختصرة متواصلة كحروف (حم). والرقّ: جلد رقيقٌ يُكتب عليه. وتتالى: تتوالى (وقع بعضهم في إثر بعض).

رواةُ قصائدي قد رتّلوها ... وغَنّوها الأسنّةَ والنِّصالا[164]

إذا ركزوا القَنا التفتُوا إليها ... فكانت في الخيام لهمْ نقالا[165]

بني سُورية التَئمُوا كيوم ... خَرجْتُم تطلبونَ به النّزالا[166]

سَلُوا الحريّةَ الزّهراء عَنّا ... وعنكم هل أذاقَتْنا الوِصالا؟[167]

وهل نلنا كلانا اليوم إلّا ... عراقيبَ المواعد والمِطالا[168]

عرفتم مَهْرَها فَمَهَرْتُموها ... دماً صَبغ السَّباسبَ والدِّعالا[169]

وقُمْتُم دونَها حتّى خضَبْتُم ... هوادجَها الشّريفةَ والحِجالا[170]

دَعُوا في الناس مَفْتُوناً جَباناً ... يقولُ: «الحربُ قد كانت وَبالا»![171]

أيطلبُ حقَّهم بالرُّوح قومٌ ... فَنَسْمَعَ قائلاً: «ركبوا الضّلالا»!

وكونُوا حائطاً لا صَدْعَ فيه ... وصَفّاً لا يُرَفَّعُ بالكُسالى

وعيشوا في ظلال السّلم كدّاً ... فليسَ السِّلمُ عجزاً واتّكالا[172]

ولكنْ أبعدُ اليومين مَرْمًى ... وخيرُهما لكم نُصحاً، وآلا

وليس الحربُ مركبَ كلّ يوم ... ولا الدَّمُ كلَّ آونة حَلالا

سأذكرُ ما حَيِيتُ جدارَ قَبْرٍ ... بظاهر جِلّقٍ ركبَ الرِّمالا

مقيمٌ ما أقامتْ مَيْسَلونٌ ... يذكِّرُ مصرعِ الأُسْدِ الشِّبالا[173]

لقد أوحى إليَّ بما شَجاني ... كما تُوحي القبورُ إلى الثّكالى[174]

---

(164) رتّلوها: أنشدوها. والأسنة جمع سنان (رمح)، والنصال جمع النَّصل: حديدة الرمح والسهم والسكّين.

(165) كانت قصائده – وهم في مرابضهم العسكرية إمتاعاً وغذاء نفس (كما يكون النُّقل عند السامرين والساهرين) نقال جمع نقل.

(166) طلب إلى السّوريين أن يلتئم شملهم، ويكونوا على قلب رجل واحد، كما كانوا في عزّ الثورة والجهاد.

(167) الحرية الزّهراء (البيضاء) في مُقابل (الحرية الحمراء). انتقد المفاوضات غير المُجدية في مصر مع الاستعمار البريطاني، وفي سورية مع الفرنسي؛ لأن الحرية لا تُنال إلا بالجهاد (ولو كان دامياً). وهو يُشير إلى ما قاله في (الحرية الحمراء في القصيدة السابقة).
- والوصال هنا: بلوغ الحرية، وفكّ قيود الاستعمار، استعاره من معاني الغزل.

(168) مواعيد عرقوب مشهورة تقال فيما لا يَقَعُ الوفاء به. والمطال: المماطلة.

(169) السباسب جمع السَّبسب: المفازة (الصحراء الواسعة). الدِّعال جمع دَعل: الشجر الكثيف المُلتفّ.

(170) الهوادج جمع الهودج: مَحْمَل له قبّة يُهيّأ للمرأة، يوضع على الدابّة، تكونُ فيه عند الانتقال والسفر. ومنه: هودج العروس. والحجال جمع الحَجلة: قبة تُزَيّن للعروس.

(171) الوبال: الفساد.

(172) يقول: سلم القوة، الذي تحققت فيه المطالب والمآرب.

(173) الأُسْد جمع أسد. ويصح أن تُقرأ الأسَد بالإفراد، ويكون المقصود يوسف العظمة، وإلا فالكلام عام في شهداء ميسلون.

(174) شجاه: أحزنه.

تَغيَّبَ عَظْمَةُ العَظمات فيه ... وأوّلُ سيّدٍ لقيَ النّبالا
كأنّ بُناتَهُ رَفَعُوا مناراً ... من الإخلاص أو نَصَبُوا مثالا[١٧٥]
سِراج الحقّ في ثبج الصَّحارى ... تهابُ العاصفاتُ له ذُبالا[١٧٦]
ترى نور العقيدة في ثَراهُ ... وتنشَقُ من جَوانبه الجَلالا[١٧٧]
مشى ومشت فيالقُ من فرنسا ... تَجُرُّ مَطارفَ الظَّفر اختيالا[١٧٨]
ملأنَ الجوَّ أسلحةً خفافاً ... ووجْهَ الأرض أسلحةً ثقالا[١٧٩]
وأرسلن الرياحَ عليه ناراً ... فما حَفَل الجنوبَ ولا الشّمالا[١٨٠]
سلوهُ هل ترجّلَ في هَبُوبٍ ... من النّيران أرْجَلت الجبالا؟[١٨١]
أقام نَهارَه يَرْمي ويُرْمَى ... فلمّا زالَ قُرْصُ الشّمسِ زالا[١٨٢]
وطاحَ: تَرى به قَيْدَ المنايا ... ولستَ ترى الشَّكيم ولا الشّكالا[١٨٣]
فكُفّن بالصَّوارم والعوالي ... وغُيّبَ حيث جال وحيثُ صالا[١٨٤]
إذا مَرّتْ به الأجيالُ تَتْرى ... سمعتَ لها أزيزاً وابتهالا[١٨٥]
تعلّق في ضمائرهم صليباً ... وحَلّق في سرائرهم هِلالا

---

(175) بناة ضريح يوسف العظمة. والمثال: التمثال.
(176) الذُّبالة: الفتيلة التي تُوضع في السّراج (المعمر بالزيت) وتوقد لتضيء.
والصورة في البيت دقيقة معبّرة، فالضريح في الصحراء كفتيلة السّراج المضيئة لكنّها لتمكنها وقوتها لا تستطيع الرياح العاصفة إطفاءها. أي: (ذكرى يوسف العظمة خالدة).
(177) قوله: «وتنشق من جَوانبه الجلالا» فيه استعارة غريبة.
(178) فيالق جمع فيلق: الفرقة من الجيش. والمَطارف جمع المُطْرَف: كساء من الخزّ (الحرير) ذو ألوان. يتخذه الرؤساء والكبراء، وفيه علامة الكبرياء.
(179) الخفاف هنا الطائرات، والثقال: المدافع والدبّابات.
(180)
(181) هَبُوب مبالغة اسم فاعل من هَبّ كما نقول: قَتُول وظَلوم.
بقي يوسف العظمة ثابتاً في المعركة (كالفارس على فرسه لم يُنزله عنه شدّة المعركة)، معركةٍ لو كانت الجبال فرساناً وخاضتها لترجّلت (نزلت عن الخيل لشدة وطأتها).
(182) بقي يوسف العظمة يقاتل، ويتلقّى الضَّربات، حتى أصابته الشظية القاتلة (الموصلة إلى الشهادة) حين انتصف النّهار (وقت الزَّوال) فـ (زال) الأولى من وقت الزوال، وزال الثانية بمعنى: مات.
- وفي: (سورية والانتداب الفرنسي) أن المعركة بدأت وانتهت «في ساعات قليلة»، وهذا مقصد شوقي من استشهاد العظمة عند الزوال.
- (سورية والانتداب الفرنسي – فيليب خوري – ص: 128).
(183) طاح: مات (سقط شهيداً).
- الشكيم جمع الشكيمة: الحديدة من اللّجام التي تكون في فم الفَرس، والشكال: القيد. أخذ شوقي ذلك من صفة الجَواد الأصيل.
(184) الصَّوارم جمع صارم من صفاتِ السَّيف، والعوالي جمع العالية، وهي الرُّمح. وجال من الجولة، وصال من الصّولة في المعركة.
وفي المعجم الجغرافي (5: 384): «ودُفِنَ يوسف العظمة مكان استشهاده ولا يزال ضريحه إلى الآن [في ميسلون]».
(185) تترى: متوالية (تمرّ بضريحه جيلًا بعد جيل) ترفع أصواتها بالدعاء له، والابتهال إلى الله تعالى برفع درجته بين الصدّيقين والشهداء.

(١٠) فوزي الغزّي

- كان في جملة ملامح مَيْل شوقي إلى دمشق والشّام وانتمائه إليها انتباهه المتواصل – منذ زيارته إليها (آب ١٩٢٥) – إلى أحداثها وإلى مجريات الحياة فيها. وتأكدّت صداقاته وصلاته من دون انقطاع، ابتداءً من أحد رؤسائها محمد علي العابد، ووصولاً إلى محبّيه ومنشدي شَعره من كبارهم وصغارهم.

وقصيدته في رثاء فوزي الغزي واحدةٌ من فَرائده الشّامية التي طوّق بها أعناق أهل دمشق والشام: تخليداً ومحبّة وانتماء...

لقد كانت لقاءاته بالغَزّي قليلة ولكنّها مؤثّرة، وعميقة، وأظهرت هذه القصيدة عمق معرفته بالرجل، ومكانته، وأثره الوطنيّ والعلمي والإنساني، وانتبه شوقي إلى عظيم أثر وفاة الغزي على الحركة الوطنية والوثبة الفكرية والثقافية والحضارية في سورية الفتية.

ولكي تكون القصيدة شاملةً عاد إلى مَنهجه في قصائده الشاميّات، وما يلحَق بها، من العَطف على قضايا سورية، والنصح لرجالها من أهل السياسة والجهاد خاصّةً؛ وعَدَّ ذلك واجباً وطنيّاً ودينيّاً في وقت واحد. وعدّ شعره جانباً من جَوانب رسالة الشاعر المحبّ لأهله ولوطنه. وقد قال في دمشقيّته الأولى[١٨٦]:

نصيحةٌ ملؤها الإخلاص صادقةٌ ... والنّصحُ خالصهُ دينٌ وإيمانُ

والشعر ما لم يكن ذكرى وعاطفةً ... أو حكمةً فهو تقطيعٌ وأوزانُ

- في باب الرثاء من طبعة الدكتور أحمد الحوفي لديوان شوقي قصيدة بعنوان فوزي الغزي، نُشرت في جريدة (الأهرام) المصرية في ٢٢ حزيران (يونيه) ١٩٣٠، وألقيت في حفلِ تأبينه في دمشق ١٩٣٠.

وكان شوقي قد عرف فوزي الغزي حين زار دمشق (آب ١٩٢٥) وكان الغزي من المحتفلين بشوقي، فقد كان من أعيان دمشق، ومن رجال العلم والقانون، ومن زعماء الثورة السوريّة. ولا شكّ في أن الرابطة الحقوقية بين الرّجلين، قد أسهمت في متانة الصلة، على قصر مدّة اللقاءات بينهما، وقد قال شوقي في القصيدة في هذا المعنى:

أبكي ليالينا القصارَ وصُحبةً ... أخذتْ مَخيلَتُها تَجيشُ وتبْرُقُ

وتدخل هذه القصيدة في دمشقيات شوقي وشامياته، فهي في شخصية دمشقية وطنيّة متميّزة، وفي القصيدة كلام موجّه إلى أهل الشام ليتوحّدوا ولا يتفرّقوا. وهذا ملمَحٌ لم ينسَ شوقي ترداده في قصائده الشاميات جميعا.

وكانت وفاةُ (الغزّي) المأساويّة، واعتباطُه شاباً، أباً لثلاثة أطفال صغار، عاملاً إضافيّاً حَرَّكَ مشاعرَ الشّاعر، وألهبَ عواطفه، واستحقّ رثاءه، وتقديم العزاء لأهله، ولأهل دمشق والشام عامّة.

- المرثيّ بهذه القصيدة علم من أعلام دمشق في العلم والفكر والثقافة والسياسة، والاجتماع مولده ووفاته في دمشق (١٨٨٧ - ١٩٢٩).

(186) ديوان شوقي 1: 162.

شارع أحمد شوقي في دمشق في حي أبو رمانة

«ينتمي فوزي الغزي إلى أسرة اشتهرت بالفقه والعلوم الإسلامية، وفدت من فلسطين في القرن الخامس عشر (الميلادي) وسرعان ما استحوذت على منصب مفتي الشافعية، وظلّ في يدها إلى القرن العشرين. سكنوا حي العمارة، وأداروا أوقافاً خيرية، وكانت لهم أملاكٌ واسعةٌ في دوما[187]، وتولى بعضهم مناصب مدنية، وخرج منهم قضاةٌ كبار. تخرّج في المدرسة الملكية العليا في الآستانة، وخدم في الجيش العثمانيّ الخدمة الإلزامية، وعاد إلى دمشق مع دخول الجيش العربي ١٩١٨.

وحين نشأت تجمعات وأحزاب في سورية في عهد الانتداب كان الغزي مع الفئات المعارضة لفرنسة، الآخذة بأسباب الكفاح المسلح ما دامت المفاوضات غير مجدية. ولما عاد عبد الرحمن الشهبندر من منفاه ١٩٢٤ كان الغزي من فريقه، ولقي من فرنسا الاضطهاد والحبس والتغريب، وكان من أعضاء حزب الشعب الذي أنشأه الشهبندر، وكان أمين سرّه فارس الخوري. وكان من جملة سجناء (أرواد) سنة ١٩٢٥. واختير الغزي ليكون مع الوفد السوري المفاوض للانتداب طلباً للاستقلال. ثم كان الغزي مع الذين نفتهم فرنسا إلى الحسكة في حزيران ١٩٢٦، ثم نُقل إلى لبنان منفياً أيضاً (في قرية من قرى قضاء البترون). وفي شباط ١٩٢٨ صدر عفو شمل الغزي.

وعُيّن الغزي عضواً في لجنة صياغة الدستور، وبرز في هذه المجموعة هو وفايز الخوري (وكانا محاميين). وحين تدخلت فرنسا لتعديل بعض مواد الدستور السيادية رفض الغزي، وبرز مناضلاً عن الدستور، وحقوق الشعب، واشتهرت خطبه ومقالاته، وطارت له شهرة واسعة، ونال لقب (أبو الدستور).

وانطفأت هذه الشعلة بجريمة اتهمت فيها زوجته، وابن أخ له، بدسّ السمّ له في الدّواء.

وللغزي: حقوق الدول العامة في جزأين (ط). وقد درّسَ الحقوق في جامعة دمشق، وكان أستاذاً قديراً[188].

– ربط شوقي في القصيدة بين رثاء فوزي الغزّي، وبيان خصاله، وأثر وفاته في سورية عامة وفي الحركة الوطنية، والوثبة العلمية في دمشق؛ وبين حال دمشق والشام في مقاومة الاستعمار الفرنسي بالمفاوضات (وإن كان الفرنسيون يختلون ويخدعون) والمقاومة المتواصلة لإزعاج العدو وإخراجه، طلباً للاستقلال.

فوفاة الغزي كانت جرحاً فوق جرح الوطن (الأبيات ١–٧)، والغزي كان ممن لفت نظر شوقي وعرفه وصادقه (١١– ١٦)، وحادثة وفاته كانت سمّاً له وكالسّم في جنب الوطن (١٧– ٢٠)، ودمشق حزينة – ويحق لها – على وفاة الغزي المأساوية (٢١– ٢٨)، والقصيدة مناسبة للبكاء

(187) (دوما) مركز قضاء، وأكبر مدن الغُوطة الشرقية، تقع إلى الشمال من دمشق على بعد نحو 12كم، واشتهرت بزراعتها وأشجارها المثمرة.
(188) رواية اسمها سورية 1: 493-505.

على الغزي وتعداد خصاله ومواهبه، وأثره السياسي والوطني في الشام (ذكر أوّلاً أسرة الغزي ٢٩- ٣٢) واسترسل مصوراً فداحة خسارته:

يا مأتماً من عبد شمسٍ مثلهُ للشمس يُصنَعُ في الممات ويُنسقُ

(القصيدة ٣٣-٤٢)، وختم بالنّصيحة، التي يقدّمها لدمشق وللشام عن محبّة وإخلاص (٤٣-٤٥).

قصيدة فوزي الغزي[١٨٩]

بدأ بمواساة دمشق التي لم تكد تخرج من نكبة فرنسا حتى دخلت في جو الحزن لجرح آخر، هو وفاة ابن دمشق العربيّ الوطني القانوني المعلم المجاهد، ذي المزايا. وفي أخبار وفاته أن دمشق «يوم السبت ٥ تمّوز أغلقت أسواقها حداداً، وخرجت الحشود في موكب مهيب لوداع الشاب المحامي والسياسي الوطني فوزي الغزي، وخلافاً للعادة اشتركت النساء إلى جانب الرجال في التشييع، وزحفت الوفود من جميع أنحاء سورية ولبنان كما مشى في جنازته العلماء والوجهاء والجماهير الشعبية الفقيرة بمظاهرة عظمى تأسفاً على رجل قلّ نظيره بين الرجال حسب شهادات رفاقه...»[١٩٠].

جُرحٌ على جُرحٍ حنانَك جلَّقُ حُمِّلْتِ ما يوهي الجبالَ ويُرْهِقُ[١٩١]

صبراً لباةَ الشرقِ، كلّ مصيبةٍ تَبْلى على الصّبْرِ الجميل وتَخْلَقُ[١٩٢]

أنسيت نار الباطشينَ وهزّةً عَرت الزمانَ كأنّ روما تُحْرَقُ[١٩٣]

رعْناءُ أرسلها ودسَّ شُواظَها في حُجرة التاريخ أرْعنُ أحمقُ[١٩٤]

فَمشت تُحَطِّم باليمينِ ذخيرةً وتَلُصُّ أُخرى بالشَّمالِ وتَسْرِقُ![١٩٥]

جُنّتْ فَضَعضَعها وراضَ جماحَها من نَشْئَكَ الحُمْسِ الجنُونُ المُطْبِقُ[١٩٦]

يا واضع الدُّستور أمسِ كخُلقه ما فيه من عوَجٍ ولا هو ضَيِّقُ[١٩٧]

نظمٌ من الشورى وحكمٌ راشدٌ أدبُ الحضارة فيهما والمَنْطِقُ

لا تُخْشَ ممّا ألحقوا بكتابه يبقى الكتابُ وليس يبقى الملحقُ![١٩٨]

---

(189) ديوان شوقي 2: 492-495.
(190) رواية اسمها سورية 1: 500.
(191) حنانك: رحمتك، ويقال: حنانيك: رحمة منك موصولة برحمة. يوهي: يُضعف.
(192) لباة الشرق كناية مخترعة من شوقي عن دمشق، وهي الأسدة. وتَخْلَقُ: تبلى.
(193) الباطشون: الفرنسيون مستعمرو سورية. شبه حريق دمشق بحريق روما في أثره ومصيبته. وعراه: ألمّ به، وأصابه.
(194) رعناء (مؤنث أرعن): هوجاء. الشواظ: اللّهب (لا دخان له).
(195) لصّ الشيء: سرقه.
(196) ضعضعها: أضعفها. راضَ (من التّرويض: التذليل كترويض الفرس الجموح). جماح: يقال جمح الرجل: ركب هواه فلا يمكن ردُّه. والحمس جمع الأحمس: الصلب المتشدّد. والمطبق من الجنون: الذي يغشى صاحبه ويعمّه، ويقال: جهل مُطْبِق أي: شامل.
(197) ونال فوزي الغزي لقب: «أبو الدّستور».
(198) يشير شوقي إلى رغبة فرنسا في تعديل ستّ موادّ، ورفض الغزي الاستجابة لهم. (هناك تفصيل في: رواية اسمها سورية 1: 498-499).

مَيْتَ الجلال من القوافي زفرةٌ تجري ومنها عبرةٌ تترقرقُ[١٩٩]

ولقد بعثتهما إليكَ قصيدةً أفأنْتَ مُنتظرٌ كعهدك شيّقُ[٢٠٠]

أبكي ليالينا القصار وصُحبَةً أخذت مَخيلَتُها تَجيشُ وتَبْرُقُ[٢٠١]

لا أذكرُ الدّنيا إليك فربّما كَرِهَ الحديثُ عن الأُجاج المُغْرَقُ[٢٠٢]

طُبعت من السُّمّ الحياةُ: طعامُها وشرابُها وهَواؤها المُتَنَشَّقُ

– في جملة مواساة شوقي في وفاة الغزي أنّ الحياة تحملُ في طيّاتها ما يسرّ، وتحمل أيضاً ما يصعبُ، أو يُحزن. وأورد كلمة (السّم) المناسبة لحال الوفاة المأساويّة، في معرض تلك المعاني، وأراد بالسّم هنا كل ما يعترض من آلام وأحداث محزنة (على سبيل المجاز).

والنّاسُ بين بَطيئها وذُعافها لا يعلمونَ بأيِّ سُمَّيها سُقُوا![٢٠٣]

كنّى الشاعر عن الموت بعد عمر طويل بالسم البطيء، والموت اعتباطاً في الشباب (أو الكهولة) باسم الذّعاف: السريع التأثير.

أمّا الوَليُّ فقد سَقاكَ بسُمّه ما ليس يَسْقيك العَدُوُّ الأزرقُ![٢٠٤]

طلبوكَ والأجلُ الوشيك يَحُثّهم ولكلّ نفسٍ مُدّةٌ لا تُسْبَقُ[٢٠٥]

لمّا أعانَ الموتُ كيدَ حبالهم عَلقتْ، وأسبابُ المنيَّة تَعْلَقُ[٢٠٦]

طرقت مهادَكَ حيّةٌ بشريّةٌ كفرت بما تنتابُ منهُ وتَطْرُقُ[٢٠٧]

وأشار إلى من دسّ السّم في دواء الغزي (أو من دسّت) بكلمة (الوليّ) في لفتة لغوية بارعة، فإنه أشار إلى القاتل، وحمّله مسؤولية التخلي عن واجبه في حفظ الأسرة وحياة صاحب الأسرة المحبّ لها. وقد روى نجيب الريس في جريدته أن الغزي حين كان سجيناً (من قبل الإفرنسيين في جزيرة أرواد) شوهد يبكي بكاء شديداً، ولما سأله الريس عن سبب بكائه قال «لقد جاءني كتاب (رسالة) من البيت فأثّر في نفسي أن زوجتي وحدها وقد بَعُدْتُ عنها وعن أولادي، وقد قرأتُ الكتاب أكثر من عشرين مرّة...».

يا فَوْزِ! تلكَ دمشقُ خلفَ سَوادها ترمي مكانكَ بالعُيونِ وتَرْمقُ[٢٠٨]

---

(199) مَيْتَ منصوبة على النّداء. والشاعر يبعثُ من شعره (كنّى عنه بالقَوافي) زفرةَ أسًى، وعَبْرَةَ حُزن.
(200) يتذكر إصغاء فوزي الغزي لأشعار شوقي حين كانا يلتقيان في دمشق.
(201) المَخيلة جمعها مخايل، يقال: ظهرت في فلان مَخايل النّجابة أي: دلائلُها ومَظانُّها. وتجيشُ: تضطرب من حُزنٍ أو فرح.
(202) الأجاج يجمع الملوحة إلى المرارة.
(203) يقال سمٌّ ذعاف (بالذال) وزعاف: أي سريع القَتل. وموتٌ زعاف: سريع.
(204) العدوّ الشديد العداوة.
(205) من معنى: {لكل أجل كتاب}.
(206) يقال: عَلِقَ الظبي بالحِبالة: نشب، وصِيْدَ. يقول: دبّر القاتل كيده، وأُعين بالموت المقدّر.
(207) حية بشرية: امرأة (انظر مقدمة القصيدة). والمهاد: الفِراش. وانتاب: قصد. وطرق: أتى (ليلًا). كفرت هذه القاتلة بحسن العشرة.
(208) يا فوزي (على التّرخيم). ودمشق في سوادٍ: حداداً على فقد الغزي.

ذكرَتْ ليالي بَدْرِها فتلفَّتتْ ... فعَساك تطلعُ أو لعلّك تُشرقُ[٢٠٩]
بَردى وراء ضفافه مُستَعْبِرٌ ... والحورُ محلولُ الضّفائر مُطرقُ[٢١٠]
والطّيرُ في جنّات دُمَّرَ نُوَّحٌ ... يجدُ الهمومَ خَليُّهنّ ويأرَقُ[٢١١]
ويقول كُلّ مُحَدّث لسميره ... أبذات طوق بعد ذلك يُوْثَقُ؟
عشقت تهاويلَ الجمال ولم تجدْ ... في العبقريّة ما يُحَبُّ ويُعْشَقُ!
فمشتْ كأنَّ بنانها يدُ مُدمنٍ ... وكأنّ ظلّ السُّمِّ فيها زئبقُ

– أشرك أحمد شوقي الطبيعة في الحزن على الفقيد من لبس السواد، ومن النظرة الباكية إلى دارك ومكتبك، وتتذكر إشراقتك كالبدر في سماء دمشق. وأثرت وفاته في كل شيء من دمشق وحولها: بَردى الباكي، والحورُ الذي أشبه الفتيات حللنَ شعرهنّ حداداً، وطيور دمّر التي طالما غرّدت غناءً فرحاً صار غناؤها نُواحاً!

ورجع إلى القاتلَة – كما قررت المحكمة آنذاك – وكنّى عنها بـ (ذات الطوق)[٢١٢]، وجعل جنايتها – على رغم رعاية المرثي لها ولأبنائها – سبباً في الشكّ في كل ذات طوق! هذه المذكورة عمي قلبُها عن العبقريّة التي كانت في كَنَفها ورعايتها، ثم جاء بصورة حركيّة لدس السّم في الدَّواء، وكأن يدها يد مُدْمِنٍ (متعوِّد) وذكر الزئبق لسرعة الحركة المطلوبة.

ولَوَ أنَّ مَقْدُورًا يُرَدُّ لرَدَّها ... بحياته الوَطنُ المَرُوعُ المُشْفِقُ[٢١٣]
أشقى قَضاء الأرض بعدكَ أُسرةٌ ... لولا القَضاءُ من السّماء لما شَقُوا
قَست القلوبُ عليهمُ وتحجَّرتْ ... فانظرْ فؤادَك هل يَلينُ ويَرْفقُ
إنّ الذين نَزلْتَ في أكنافهم ... صَفَحُوا فما منْهُمُ مَغيظٌ مُحْنَقُ[٢١٤]
سَخروا من الدّنيا كما سَخرتْ بهمْ ... وانْبَتَّ من أسبابها المُتَعلَّقُ
يا مأتماً من عبد شمس، مثلهُ ... للشّمس يُصنَعُ في المَمات ويُنْسَقُ[٢١٥]
إن ضاق ظهرُ الأرض عنكَ فبَطْنُها ... عمّا وراءَكَ من رُفات أضْيقُ
لمّا جَمَعْتَ الشّامَ من أطرافه ... وافى يُعَزِّي الشّامَ فيكَ المَشْرِقُ[٢١٦]
يبكي لواءٌ من شباب أُميّةٍ ... يَحْمي حمى الحقِّ المبينِ ويَخْفِقُ[٢١٧]

---

(209) يقول: كنت البدر في سماء دمشق، ودمشق – وهي تتذكر أيام إشراقك – تتمنّى لو كنت تعودُ من جديد!.
(210) مُستعبر: يستدعي العَبَرات (الدّموع).
(211) الخَليُّ: الذي لا تنتابه الهموم: فنواح هذه الطيور يؤثر في الخليّ فيحزن!
(212) كنّوا قديماً عن المرأة بـ (ذات السوار)، واشتهرت عبارة: «لو ذاتُ سوارٍ لطمتني».
(213) لو كان شيء يردّ القدر لافتدى الوطن الفقيد بحياته.
(214) يخاطب الفقيد، الذي نزل في أكناف خَلْق تركوا الغيظ، وصَلَحُوا (وقد صاروا في خارج الدنيا).
(215) هذا المأتم الذي أقيم لهذا الفقيد سليل الأُمويّين لا يشبهه إلا مأتم يقامُ للشمس لو قُدّر لها الفناء.
(216) من أطرافه، أي أطراف بلد الشام ونواحيه. يقول: التفَّ في مأتمك أهل الشام جميعاً فحقّ أن يعزّيك المشرق كلّه.
(217) شباب أمية: أهل دمشق (الشباب خاصة) لأنّهم مطمح الأمّة في الدفاع عن الوطن وحفظه، وطرد العدو منه.

لـمَستُ نواصيَها الحصونُ ترومهُ وتلمَّستْهُ فلم تجده الفَيْلَقُ[٢١٨]

– يقول: إن الفقيد كان ركنَ الزّعامة السورية، فإذا طلبت المشورة والرأي أجابها بالرَّأي الصّحيح المناسب، وإذا سألته أن يخطب (في الوطنيات خاصة) جاء بالخطاب البلاغي الفصيح.

فيحاءُ! أينَ على جنانك وَرْدَةٌ كانت بها الدُّنيا تَرِفُّ وتَعْبَقُ[٢١٩]

– وهذه الوردة ليست كسائر الورد، فعبيرها وعبقها يشمل الدنيا كلها.

عُلويّةٌ تجدُ المَسامعُ طيَّها وتُحسُّ رَيّاها العقولُ وتَنْشَقُ
وأرائكُ الزّهر الغُصونُ، وعَرْشُها يدُ أُمَّة، وجبينُها، والمَفْرِقُ
مَنْ مبلغٌ عنّي شُبولةَ جلَّق قولاً يَبَرُّ على الزَّمانِ ويَصْدُقُ
باللّه جَلَّ جلالُه، بمُحَمَّدٍ بيَسُوعَ، بالغَزّيِّ: لا تتفرّقوا

– يدعو شباب دمشق وأهل الشام عامة إلى التوحّد، ونبذ الخلاف، وأدخل في المقسم به اسم فوزي الغزي، في لفتة ذكية كريمة.

قد تُفْسِدُ المَرْعى على أخَواتها شاةٌ تَندُّ عن القَطيعِ وتمْرُقُ![٢٢٠]

تذييل:

وفي مَنْ رثى فوزي الغزي الشاعر الدمشقي محمد البزم[٢٢١] وعنوان قصيدته (مصرع الحق) ولم ينتبه المحققان إلى شخصية المرثيّ، وكشفتُها في دراستي عن البزم[٢٢٢] من أمور متعدّدة في ثنايا القصيدة منها ذكر اسم ابنه (خلدون).

ورثاه حليم دَمُّوس (شاعر سوري – لبناني) وذكر أسماء أولاده وهم بنتان: (دلال وعفاف) وصبي (خلدون)[٢٢٣].

قال محمد البزم:

يا أبا خلدون قد عالجتها جهمة الطلعة حلاً واغترابا

وقال حليم دمّوس:

يا واضع الدستور قُمْ واتْلُه إنّ بني قومي له منصتونْ
يا بطل (الكتلة) يا فخرها قم واشهد (الكتلة) حيرى العيونْ[٢٢٤]
وانظر إلى الأبناء في مهدهم يشجيهمُ الخطبُ فلا يهجعونْ!

(218) نواصيها: أعاليها. والفيلق: الكتيبة العظيمة من الجند.
(219) الفيحاء: دمشق. والجنان (جمع جنة) البساتين. والوردةُ إشارة إلى المرثيّ الغزي التي قُطفت!
(220) ندَّ (ندّاً وندوداً) نَفر وشردَ.
(221) محمد بن محمود البزم (1305؟هـ - 1981م / 1375هـ - 1955م) من أعضاء مجمع اللغة العربية – شاعر أديب حسن الترسل في إنشائه – طبع ديوانه بعد وفاته. (الأعلام للزركلي).
(222) محمد البزم – تأليف: محمد رضوان الداية – تحت الطّبع في مجمع اللّغة العربية بدمشق – وقد استنتجت شخصية المقصود بقصيدة (مصرع الحق). وأطلعتُ على ذلك صاحِبَيْ شُعبة البحث العلمي في مجمع الفتح الإسلامي: د. نزار أباظة ود. إياد الطباع.
(223) المثالث والمثاني – حليم دموس – الجزء الثاني منه نشر بعناية إدارة (العرفان) في صيدا – 1930 – ص: 229-231.
(224) المقصود: «الكتلة الوطنية» في سورية.

خُلاصة وخاتمة

-١-

اختار الدكتور شوقي ضيف عنواناً لكتابه عن أحمد شوقي: «شوقي شاعر العصر الحديث» وهي عبارة موصولة باللقب الذي اجتمع له العرب المسلمون ومشاركون من أقطار أُخرى في القاهرة ١٩٢٧ لإعلان شوقي أميراً للشعراء.

وقد أخبَرَنا شيخُ العروبة: أحمد زكي باشا أنّ «لقب (أمير الشعراء) كان يخاطَبُ شوقي به قبل بيعته بزمان طويل»[٢٢٥].

ولم يكن شوقي شاعر مصر وحدها، بل كان من أيام نبوغه الشعري الأولى موصولاً – على درجات – بأحوال الأمّة على امتداد أرضها، ذاكراً لأيّامها الخالية على امتداد تاريخها.

وعاصر شوقي في حياته بَين القرنين التاسع عشر والعشرين (١٨٦٨- ١٩٣٢) أحداثاً تاريخية (بعضها أحداث فاصلة) أثّرت في حياة العرب والمُسلمين. عاصر أواخر ثَبات الدّولة العثمانية، وشهد انفصال بعض أجزائها في أوربة، وعايَن تكالب الدول الأوروبية على (وراثَة) الرجل المريض، وعَرف ما اتفق عليه الشريف حسين مع الإنجليز من تبادل المنافع[٢٢٦]:

- يُعينُ العرب الإنجليز (والحلفاء) ويطرحون ولاء الدولة العثمانية، ويسعون في إخراجها من البلاد.
- ويسمحُ الإنجليز (والحلفاء معهم) للعرب بإقامة دولتهم الموحّدة.

وعايَن مع العرب (وأمم الأرض شاهدة) نكوص الإنجليز عن وعدهم، وأظهروا المخبَّأ من اتفاق (سايكس بيكو).

وانهارت الدولة العثمانية (وألمانية) في الحرب الأولى، وآل الأمر في بلاد الشام والعراق إلى مأساة، وظهرت خمس دول: سورية، ولبنان، وفلسطين (التي كانوا يهيِّئونها لتقع في أيدي اليهود) والأردن، والعراق.

وصارت سورية من نصيب فرنسا. ودخلنا في دوّامة تقطيع أوصال المُقَسَّم (سورية) إلى تقسيمات داخليّة!..

وبدأت حركة الاستقلال حرباً ومفاوضة معاً.

-٢-

تعرّض شوقي لنكبة أثّرت في حياته، وأثرت في شعره، تلك هي ترحيله (نفيه) إلى خارج مصر. قضى في الأندلس (إسبانية) نحو خمس سنوات. وفي الأندلس، رجع، وهو يزور القسم الجنوبي من البلاد، إلى عصور الزّهو العربي، ورأسُها العصرُ الأمويُّ المروانيُّ. والتفت شوقي التفاتة جديدة قوية إلى الأمويين في الأندلس، في نظرة موصولة بالأمويين في دمشق.

وأُتيح لشوقي من شباب سورية (فتيانٌ)[٢٢٧] عروبيّون طلبوا من شوقي أن يضيفَ إلى عنايته العامة بالعرب عناية خاصّة بدمشق والشام... وانفتح بابٌ جديدٌ في ديوان شوقي مثلما انفتح في حياته أيضاً.

---

(225) ذكرى الشاعرين: شاعر النيل وأمير الشعراء: دراسات ومراثٍ ومقارنات مدبجة بيراع أئمة البيان وأعلام الكلام في البلاد العربية – جمعها ورتّبها أحمد عبيد - ج2 – ص338. من بحث لشيخ العروبة عنوانه «ذكرياتي عن شوقي».

(226) انظر: تاريخ سورية (1908- 1918) د. علي سلطان – (الفصلان الثامن والتاسع) وفيهما كلام مفصّل.
- والفصلين العاشر والحادي عشر من: مرآة الشام لعبد العزيز العظمة.

(227) كما سمّاهم شوقي في شعره (وقد مرّ ذلك).

-٣-

لبّى شوقي دعوة المجمع العلمي العربي في دمشق ١٩٢٥ ، واختلط «بالشّوام» أهل دمشق والشام، وجال في دمشق، وفي الغوطة، وربَط الحاضر بالتاريخ المُشرق الماضي، وتَوَّجَ دمشقَ وأهل دمشق بتاج من الشّعر العالي الطبقة الذي لا يجاريه شعرٌ آخر، وإن كان حسناً جداً.

أنشدَ شوقي في مَحبّة دمشق وأهلها، وفي ذكريات تاريخها، وفي حلاوة حاضرها (قم ناج جلّق). وحين اعتدى الفرنسيون على دمشق عدوان الهمجِ والفرنجة: مجرمي الحرب أنشدَ قصيدةً أخرى من روائعه (سلامٌ من صبا بردى)، وأنشد ثالثة (حيَاة لا نريد لها زيالا) مَجّد فيها يوسف العظمة. وتعاطفَ مع أحوال سورية، ولـمّا اغتيل فوزي الغَزّي (أبو الدَستور) أنشد قصيدةً لا تقلّ جودةً وانتماءً وحميميّةً عن سابقاتها.

وظهر لأهل دمشق (والشام) وللأدباء والنّقاد والمؤرّخين أن حصّةَ هذه المدينة، وهذه البلاد من شوقي تفوقَ ما جاد به على الأقطار الأخرى، وأنَّ عاطفَته فيها كانت كعاطفته في بلده وأهله مصر.

-٤-

ومن المؤثّرات التي اجتمعت لشوقي، وكانت وراء تَرْك قصيدته التي كان أعدّها لتُنْشَدَ في المجمع بدمشق، وإنشاد قصيدة جديدة مُرتجلة دخولُه ذلك البناء العظيم: المسجد الجامع الأموي، ووقوعُه تحت تأثير روعتهِ العمرانيّة، وروعَته الإيمانية، ورَجعت به الذاكرة إلى أعوام سابقة وقَف فيها في أحد أيّامها عند مسجد أمويّ جامعٍ عظيم آخر، هو المسجد الجامع الأموي في قُرطبة. ونقرأ في هذا المعرض لحسين شَوقي واصفاً زيارة أبيه لدمشق[٢٢٨]: «ثم زار في دمشق مَسْجدها الأمويّ التاريخي، وقد بَكى هناك كما بكى من قبل في جامعِ قرطبة بني أمية الأمجاد الذين شيّدوا المسجدين، فقال:

مررتُ بالمسجد المحزون أسأله ... هل في المصلى أو المحراب مروانُ؟

الأبيات...».

-٥-

ولشوقي مع دمشق أُفقٌ آخر، ذلك بأنّه أكْبَرَ في أشعاره وتصريحاته مكانة صلاح الدين الأيوبي في شخصه، وذكائه، وتضحيته وجهاده، ونَصْره العربَ والمُسلمين؛ ذكرَ شوقي صلاح الدين أكثر من مرّة في أشعاره، ونظم قصيدةً خاطب بهَا إمبراطور ألمانية غليوم الثاني حين وقف عند ضريحه، وذكرَه بالإشارة في قصيدته: «قم ناج جلّق..».

- وهناك خبران جديران بالتّنبيه عليهما:

١- كتب أحمد عبد الوهاب أبو العز في كتابه عن صُحبة شوقي[٢٢٩]:

« ... منذ بضع سنين زار [شوقي] قبر صلاح الدين بدمشق، وعاد إلى دُمَّر فأخذ ينظم، وكان معه الأستاذ محمد عبد الوهاب[٢٣٠]، والأستاذ نجيب الريّس[٢٣١]. فلم يمضِ أكثر من ساعة حتى انتهت القصيدة التي مطلعها:

قم ناج جلّق وانشُدْ رَسْمَ مَن بانوا ... مشتْ على الرّسْم أحداثٌ وأزمانُ

(228) القذائف كأنها النيران.
(229) اثني عشر عاماً في صحبة أمير الشعراء: 21.
(230) هو الموسيقي، والمغني المعروف (وقد غنى كثيراً من قصائد شوقي ومنظوماته).
(231) هو الصحفي المشهور (1900-1953).

فتكلّموا معه عن سُرعته في نظم القصيدة مع مكانتها من الجودة فقال: هي رُوح صلاح الدين»!
٢- قال أمين سرّ شوقي في كتابه، وهو يصف موقفاً لشوقي حين كان في دمشق سنة ١٩٢٥ :
« ... وفي الصّباح المبكّر طلب سيّارةً وقال لسائقها : إلى صلاح الدين! ثم التفتَ إليَّ قائلاً: ألم تقرأ أو تسمع شيئاً عن صلاح الدّين؟ فقلت: نعم! قال: إذن تفخر بهذه الزيارة، أليس كذلك؟ قلت: بلى! قال: هذا هو الخُلود في الحياة، فقد مرّت قرون على صلاح الدين ولا زالت الأجيالُ تتوارثُ ذكره!».
قال: «وعندما وصلنا إلى هناك ووقف أمام ضريحه، همس لي قائلاً: هذا همَّةٌ! هذا أمَّةٌ، هذا مَجْدٌ! هذا فخرٌ!
انظرْ! طوته الأرض، وهي أبداً تطوي، ولكنّ ذكره باقٍ حتّى تطوي السَّماءُ الأرض!».
قال الراوي: «ثم وقف برهةً يتنقّل ببصره حول الضَّريح، وينظر إلى ما سُطّر بالحائط، ثم أخَذَ يُتَمْتِمُ بكلمات لم أسمعها، واغرورقَتْ عيناهُ، وخرجنا، ولكنه لم يتكلّم طول الطريق حتى الفُندق. وبعد ساعة قمنا إلى بيروت....»[٢٣٢].
وفي دمشقيات شوقي وشامياته هاجسٌ يتكرر في كل قصيدة، وهو دعوة السوريين إلى الاتفاق، ووحدة الصف مع وحدة الهدف، ووضع مصلحة الوطن فوق كل مصلحة. وهذه النصائح تصدر عن قلب شوقي المحبّ، المنتمي، العروبي المخلص.
وكان السياسيّون في سورية يقعون أحياناً تحت تأثير سياسة فرنسا «فرِّق تسد»، وقسمتهم بين متطرفين ومُعتدلين، وقطع الصِّلات فيما بينهم بتقسيم سورية أقساماً متباعدة[٢٣٣].
ونصح شوقي أهله في مصر أيضاً، في مواقف كثيرة، ومن شعره في هذا الجانب؛ في قصيدة (شهيد الحق) التي أنشدها في ١٠ شباط (فبراير) ١٩٢٥ في الذكرى السابعة عشرة لوفاة مصطفى كامل[٢٣٤]:

إلامَ الخُلْفُ بينكم إلاما ... وهذي الضجّة الكبرى علاما؟
وفيمَ يكيدُ بعضكمُ لبعضٍ ... وتُبدون العداوةَ والخصاما؟

-٦-
كانت قصائد شوقي في دمشق:
- تأريخاً يدخل في صفحات التاريخ، حين يكون الشعر مصدراً ثانوياً (أي ثانياً) يفيد المؤرخ ويكشف له عن الحقائق.
- وكان وصفاً لأحوالها الثقافية والاجتماعيّة، وقد تنقّل في العاصمة والغُوطة، وعايشَ الناس، واستمعَ إليهم يُنشدون من شعره، وعَجِب، وأعْجَبَهُ أنّ مدينة الشُّعراء دمشق تفضِّلُ أوّلاً أن تنشد من شعره!
- قال الدكتور محمد أسعد طلس[٢٣٥]: «وأمّا شوقي فقد فُتنَ الشاميون بشعره، وأجَلّوه إجلالاً ما بعده إجلال، ولا عَجب، فإنّ فوق مكانته الشعرية التي أهَّلتهَ إمارةَ الشعر كثيرُ الذِّكر لبلاد الشام، وشعره سجلٌ لكبارِ حوادثها».

(232) اثني عشر عاماً في صحبة أمير الشعراء: 55.
(233) في (لطفي الحفّار: 150) أن السُّلطات الفرنسية اعتقلت الثلاثة المتطرفين: الحفار وأرسلان (أمين) والخوري (فارس) ومعهم: سعد الله الجابري وفوزي الغزي وبدر الدين الصفدي وأديب الصفدي ونفَتْهُم وسَجَنتهم في حزيران 1926.
وسمّى فيليب خوري الخلاف بين رسلان والشهبندر (شقاقاً) وقال إن كل واحدٍ منهما كان يشكل تياراً (سوريا والانتداب الفرنسي: 278-279).
وسجّل أمين سعيد في (الثورة السورية الكبرى ص535 في سرد أنشطة الحركة السياسية ظهور تيار مؤيد للملكيّة وآخر مؤيّد للجمهورية. «أحداث حزيران 1928»)... الخ.
(234) ديوان شوقي 2: 538.
(235) مصر والشام في الغابر والحاضر: د. محمد أسعد طلس — ص 64.

– وكان شعر شوقي في دمشق والغوطة وصفاً رائعاً لأحوالها الطبيعية من جمال المكان، ونضرته، وخُضرته، وجريانِ مياهه... الخ.

–٧–

إذن كان لدمشق والشام أثر في حياة شوقي ووجدانه، وشعره؛ ونذكر خبرين لهما أهمية في هذا الجانب، فقد نقل كاتبه وأمين سرّه قوله: «أهل الشام أقارب كل غريب»[٢٣٦].

وفي مقام آخر: وبعد زيارة معروف الأرناؤوط لشوقي في القاهرة قال شوقي لكاتبه وأمين سره، بعد أن خرج الزائر: «صدري ينشرحُ وقلبي يفرحُ بلقاء إخواننا السُّوريّين واللبنانيّين، وأراهُ كلقائي أهلي بعد سفر»![٢٣٧] قلت: ما ألطف هذا الكلام وأعذَبه.

وكان الأمير شكيب أرسلان قد وقف عند قصيدة شوقي[٢٣٨]:

سلامٌ من صَبا بردى أرقُّ ودمعٌ لا يكفكفُ يا دمشق

وفي جملة ما ورد في ذكرياته مع شوقي أنه «قيل إن هذه القصيدة كانت سبباً في غضب الفرنسيّين على شوقي، وحرمانه من زيارة المغرب» قال: «سمعت أنه استأذنَ الحكومة الفرنسية في هذه الزيارة (طلب تأشيرة دخول) فأبَتْ عليه الإذن مُعْتَلَّةً بهذه القصيدة»[٢٣٩].

–٨–

تعدّ دمشقيات شوقي وشامياته في أرفع درجات الشعر العربي وأعلاه، وقصائده هذه من غرر قصائده، صياغةً وأسلوباً، وأعذبها لغةً وإيقاعاً ورَوِيّاً، وأشفّها دلالة على خصائص الشوقيّات من التعبير والتصوير، وإسباغ روح الشعر على مقاصدِه...

وفي شعره الدمشقي الشامي نزعة عاطفيّةٌ جليلةٌ: أتمّ فيها ما كان معروفاً عنه من التعاطف مع قضايا العرب في أقطارهم، ولَكنّ التفاته إلى دمشق والشام كان مميّزاً؛ لقد أوغل شوقي فيها في نزعته العروبية، وحلّى دمشق وأهلها بهذه النفائس التي لا نظير لها. وأختمُ بما قاله الدكتور شوقي ضيف وهو يرصدُ ملامح شعره في دمشق والشام:

« ... وشعر شوقي في شاميّاته عزّز نزعة العروبة عنده» ثم قال بعد سَرْد شيء من شعره في سورية ولبنان «وكل ذلك ثمرةُ نزعة العروبة التي انطوتْ عليها نفسُ شوقي، وهو يشارك العربَ في ثوراتهم...»[٢٤٠].

وقال د. ضيف في مجال آخر من كتابه: «وربما لم يظفر قُطْرٌ من شوقي بما ظفرت به سورية؛ فقد راح يرتِّل عَصْرها الذّهبيّ أيام الأمويّين، ويشيد بأبنائها في قصيدته التي أنشدها في المجمع العلمي العربي يوم ١٠ أغسطس (آب) ١٩٢٥ ....»[٢٤١].

لقد استحقَّ شوقي عن جَدارةٍ لقب: مُواطن دمشقي، وإن كانت بلاد العرب جَميعاً تفخر بأن يكون شوقي مواطناً فيها.

(236) اثني عشر عاماً في صحبة أمير الشعراء: 53.
(237) اثني عشر عاماً في صحبة أمير الشعراء: 64.
(238) ديوان شوقي 1: 348.
(239) شوقي أو صداقة أربعين سنة: 258.
(240) شوقي شاعر العصر الحديث: 148.
(241) شوقي شاعر العصر الحديث: 192.

مصادر البحث ومراجعه

- الآثار الأندلسية الباقية في إسبانيا والبرتغال – محمد عبد الله عنان – مكتبة الخانجي – القاهرة – ط١ .
- أبي شوقي – حسين شوقي – مكتبة النهضة المصرية – القاهرة – ١٩٤٧ .
- اثني عشر عاماً في صحبة أمير الشعراء – أحمد عبد الوهاب أبو العزّ – القاهرة – الطبعة الأولى.
- أحداث الثورة العربية – ميسلون نهاية عهد – صبحي العمر – رياض الريس للكتب والنّشر – لندن.
- الأعلام – خير الدين الزركلي – دار العلم للملايين – بيروت – الطبعة الثانية عشرة – ١٩٩٧ .
- أندلسيات شوقي – د . صالح الأشتر – جامعة دمشق – ١٩٥٩ – الطبعة الأولى.
- أهداف الثورة العربية – ميسلون نهاية عهد – صبحي العمري – دار رياض الريّس للكتب والنشر – لندن، قبرص – ١٩٩١ .
- البحر المحيط (تفسير أبي حيان الأندلسي) تحقيق محمد رضوان عرقسوسي ومحمد معدّ كريم الدين ومحمد أنس الخنّ – الرّسالة العالميّة – دمشق – ١٤٣٦هـ - ط١ .
- التاريخ الإسلامي – العصر العثماني – محمود شاكر – المكتب الإسلامي – بيروت – ١٤٢٠هـ - ٢٠٠٠م.
- تاريخ الدولة العثمانية – يلماز أوزتونا – ترجمة عدنان محمود سلمان – مراجعة وتنقيح د . محمود الأنصاري – منشورات شليل للتمويل – تركيا – إستانبول – ١٩٩٠ .
- تاريخ سورية (١٩٠٨- ١٩١٨) (نهاية الحكم التركي) – د . علي سلطان – دار طلاس – الطبعة الأولى – ١٩٨٧ .
- تاريخ علماء دمشق في القرن الرابع عشر – د . نزار أباظة ود . مطيع الحافظ – دار الفكر – دمشق – ١٤٠٦هـ - ١٩٨٦م.

- تاريخ نشر التراث العربي – د . محمود الطناحي – مكتبة الخانجي – القاهرة – ط١ .

- ثورة سورية الكبرى: أسرارها وحوادثها ونتائجها – تنبّؤات خطيرة عن كارثة فلسطين الحاضرة – مذكرات الزعيم الشهيد عبد الرحمن الشهبندر – دار الجزيرة للصحافة والنشر – عمّان – المملكة الأردنية الهاشميّة – ط١ .
- الثورة العربية الكبرى – تاريخ مفصل للقضية العربية – أمين سعيد – مكتبة مدبولي – القاهرة – الطبعة الأولى.
- خطط الشام – محمد كرد علي – مكتبة النوري – دمشق.
- دمشق – (صور من جمالها، وصور من نضالها) – علي الطنطاوي – دار المنارة – جدّة – الطبعة السّابعة – ٢٠١٤م.
- دمشق في مطلع القرن العشرين – أحمد علي العلاّف – حققه وقدّم له: علي جميل نعيسه – دار دمشق – لا تاريخ.
- دولة الإسلام في الأندلس: الخلافة الأموية والدولة العامرية – محمد عبد الله عنان – العصر الأول – القسم الثاني – الطبعة الرابعة – مكتبة الخانجي – القاهرة – ١٣٨٩هـ - ١٩٦٩م.
- ديوان إبراهيم (أعمال شاعر فلسطين إبراهيم طوقان) – دار القدس – بيروت – ط١ .
- ديوان أبي الطيب المتنبي – عبد الوهاب عزام – لجنة التأليف والترجمة والنشر – القاهرة – ١٣٦٣هـ - ١٩٤٤م.
- ديوان أبي الطيب المتنبي – بشرح أبي البقاء العكبري المسمّى بالتبيان في شرح الديوان – ضبطه وصححه ووضع فهارسه مصطفى السقّا وإبراهيم الإبياري وعبد الحفيظ شلبي (طبعة دار المعرفة بلبنان المأخوذة من الطبعة المصرية). [وصحّح بعض المعاصرين نسبة الكتاب، وردّه بأدلة ساقها إلى ابن عدلان].
انظر: مجلة المجمع العلمي العربي (دمشق) – المجلد ٢ – الصفحة ٣٧و ١١٠ .
- ديوان البزم – ضبطه وشرحه: سليم الزركلي وعدنان مردم بك – المجلس الأعلى لرعاية الفنون والآداب والعلوم الاجتماعية – دمشق – ١٣٨١هـ - ١٩٦٢م.
- ديوان تذكار الصبا – بقلم نجيب بن سليمان الحدّاد اللبناني – طبع مدينة الإسكندرية – مطبعة جرجي غرزوزي ملتزم طبعه – ١٩٠٥ .
- ديوان حافظ إبراهيم – وزارة المعارف – القاهرة – الطبعة الأولى.

- ديوان حسان بن ثابت الأنصاري – عبد الرحمن البرقوقي – دار الأندلس – بيروت – ١٤١٦هـ – ١٩٩٦ .
- ديوان الخليل (خليل مطران) – دار مارون عبود – بيروت – ط١ .
- ديوان شوقي – تحقيق د . أحمد الحوفي – القاهرة – الطبعة الأولى.
- ديوان عزيز أباظة – دار الكتاب المصري، دار الكتاب اللبناني – بيروت – ط١ .
- ذكرى الشاعرين: شاعر النيل وأمير الشعراء – دراسات ومراث ومقارنات مدبجة بيراع أئمة البيان وأعلام الكلام في البلاد العربية – جمعها ورتّبها أحمد عبيد – المكتبة العربية – دمشق – مطبعة الترقّي – ١٣٥١هـ.
- رحلة الإمبراطور غليوم = الشام قبل مئة عام.
- رواية اسمها سورية (مئة شخصية أسهمت في تشكيل وعي السوريين في القرن العشرين) نبيل صالح: تحرير وإشراف عام – الطبعة الثانية – ١٤٢٨هـ – ٢٠٠٧م.
- الروض المعطار في خبر الأقطار – محمد بن عبد المنعم الحميري – تحقيق د . إحسان عباس – مؤسسة ناصر للثقافة – ١٩٨٠م.
- سوريا والانتداب الفرنسي – سياسة القومية العربية – (فيليب خوري) – ترجمة مؤسسة الأبحاث العربية – الطبعة الأولى – بيروت – ١٩٩٧م.
- الشام قبل مئة عام – عناية حسن السماحي – دار القادري – دمشق – ١٤١٧هـ – ١٩٩٧م.
- شرح ديوان حسّان = ديوان حسان.
- شوقي أو صحبة أربعين سنة – بقلم أمير البيان شكيب أرسلان – أضواء السّلف.
- شوقي شاعر العصر الحديث – د . شوقي ضيف – دار المعارف بمصر – ط١ – ١٩٥٣م.
- شوقي: شعره الإسلامي – د . ماهر حسن فهمي – دار المعارف بالقاهرة – ط١ .
- غبار السّنين – د . عمر فرّوخ – دار الأندلس للطباعة والنشر والتوزيع – الطبعة الأولى – بيروت.
- غوطة دمشق – د . صفوح خير – وزارة الثقافة والإرشاد القومي – دمشق – ١٩٦٦ .

- الفجر الأول – خليل شيبوب – تحقيق محمد رضوان الداية – وزارة الثقافة – دمشق – ٢٠١٩ .
- لطفي الحفار – ١٨٨٥-١٩٦٨ مذكراته، حياته، وعصره – سلمى الحفار الكزبري – منشورات رياض الريّس للكتب والنشر – ط١ – ١٩٩٧م.
- المثالث والمثاني – حليم دمّوس – الجزء الثاني – نشر بعناية دار العرفان في صيدا – مطبعة الفرقان – صيدا (لبنان) – ١٩٣٠ .
- مجلة المجمع العلمي العربي – دمشق (أعداد متفرّقة).
- مذكرات غليوم الثاني – اشترك في نقلها إلى العربية: أسعد داغر ومحبّ الدين الخطيب – المطبعة السلفية بالقاهرة – ١٩٣١ .
- معجم البلدان – ياقوت الحموي – دار صادر – بيروت – ط١ .
- المعجم الوسيط – مجموعة من العلماء – مجمع اللغة العربية – القاهرة – الطبعة الأولى.
- مجمع الأمثال – أبو الفضل الميداني – تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم – (طبعة مصورة عن طبعة القاهرة).
- المثالث والمثاني – حليم دمّوس – ج٢ – نُشر بعناية إدارة (العرفان) – صيدا – ١٩٣٠ .
- مرآة الشام: تاريخ دمشق وأهلها – عبد العزيز العظمة – تحقيق نجدة خمّاش – دار الفكر – دمشق – ١٤٠٣هـ - ٢٠٠٢م.
- مصر والشام في الغابر والحاضر – محمّد أسعد طلس – مؤسسة هنداوي – المملكة المتحدة – ط١ – ١٩٤٥ .
- المعجم الجغرافي للقطر العربي السّوري – مركز الدراسات العسكرية – دمشق – الطبعة الأولى – ١٩٩٢ .
- موسوعة المورد – دار العلم للملايين – بيروت – الطبعة الأولى – ١٩٨٣ .
- نهج البردة لأمير الشعراء أحمد شوقي، وعليه وضح النهج لشيخ الأزهر الإمام الأكبر الشيخ سليم البشري – أعادت طباعته مكتبة الآداب بالقاهرة – ١٩٨٧ .
- الوطن (جريدة دمشقية) ٢٣/٧/٢٠٠٩ .

الصَّدى الوجداني في شعر أنور العطَّار(١٩١٣-١٩٧٢)

قصيدته «بردى» نموذجًا

الدكتورة ناجية سليمان إبراهيم سليمان[1]

(1) أستاذ مساعد في الأدب والنقد، جامعة بنغازي، ليبيا.

ملخَّص البحث

يتناول هذا البحث خصائص التجربة الشعرية عند الشاعر الدمشقي أنور العطار، من خلال قصيدته «بردى»، ويُركِّز على دراسة الصدى الوجداني في شعره، الذي يظهر واضحًا في طبيعة الموضوع، والتفاعل بينه وبين الذات المبدعة، وفي الألفاظ والصور، وأخيرًا في موسيقا الحروف والكلمات والقافية والبحر الشعري.

ـ المقدمة:

تُعَدُّ الظلال الوجدانية من أهم مزايا الإبداع في التجربة الشعرية، وقد أشار إليها قدماء النقاد، وأشادوا بأهميتها، ودَعَوا الأدباء والشعراء إلى التركيز عليها في نتاجهم، قال أبو هلال العسكري موضِّحًا أهميّة العاطفة في الشعر: «وينبغي أن يكون التشبيب دالاً على شدة الصبابة، وإفراط الوجد، والتهالك في الصبوة، ويكون بريًّا من دلائل الخشونة والجَلادة، وأمارات الإباء والعزة، ومن أمثلة ذلك قول أبي الشيص:

وقف الهوى بي حيثُ أنتَ فليسَ لي ... مُتَقدَّمٌ عنه ولا مُتأخَّرُ

أجِدُ المَلامةَ في هواكَ لذيذةً ... حُبًّا لذكرِكَ، فَلْيَلُمْني اللُّوَّمُ

أشبَهتَ أعدائي فصرتُ أُحبُّهم ... إذ كانَ حظِّي منكَ حَظِّي منهمُ

وأهَنتَني فأهنتُ نفسي صاغِرًا ... ما مَن يُهونُ عليكَ ممَّن أُكرِمُ

فهذه غاية التهالُك في الحبّ، ونهاية الطاعة للمحبوب»[٢].

ومن الواضح أن أبا هلال العسكري قد جعل مدار إعجابه بالأبيات على ما فيها من ظلال وجدانية، وعاطفة صادقة، إضافة إلى جوانب أخرى لا تتصل بالبحث.

وهذا البحث يتناول الجانب العاطفي في شعر أنور العطار، ويسعى لدراسة الظلال العاطفية في الموضوع والألفاظ والصور وإيقاع الحروف والكلمات والقافية والبحر، وقد اخترت قصيدة «بردى» للشاعر للعطار ليكون التطبيق والدراسة عليها، باعتبارها تمثِّل نموذجًا عاليًا من شعره العاطفي، بسبب ارتباط نهر بردى بحياة الشاعر وذكرياته، كما سيظهر في البحث.

تتألف قصيدة بردى من ستين بيتًا، تحدَّث فيها الشاعر عن مكانة بردى في وجدانه، ورمزيته التاريخية، وقصة الحب الخالد التي تربط هذا النهر بمدينة دمشق، فجاءت القصيدة لوحة رائعة يلتقي فيها الفكرُ والوجدان والذكريات والجمال.

والشاعر أنور العطار وُلد في مدينة دمشق عام ١٩١٣، وكان يسكن في حي المهاجرين المُطلّ على المدينة من الجهة الشمالية الغربية، عمل مدرِّسًا للأدب واللغة العربية في بلده سورية، ثم سافر إلى العراق عام ١٩٣٦ ودرَّس الأدب واللغة لمدة أربع سنوات، ثم عاد إلى بلده سورية، واستمرَّ في التدريس، وتولى رئاسة ديوان الإنشاء في وزارة المعارف السورية، ثم سافر إلى المملكة العربية السعودية ودرَّس الأدب في جامعة الرياض بين عامي ١٩٦٤ - ١٩٦٦، ثم عاد إلى سورية

(2) الصناعتين، لأبي هلال العسكري، ص-129 130.

أنور العطار

حيث توفي عام ١٩٧٢، عن عمر بلغ تسعًا وخمسين عامًا.

يُعدُّ أنور العطار من شعراء الطبقة الأولى في القرن العشرين، وله عشرة دواوين شعرية، منها ديوانه: في ظلال الأيام، الذي اخترتُ منه قصيدة بردى. وقد تولَّى جمع شعره في مجموعة كامله ابنُه هاني أنور العطار، ونشره في دار الفكر بدمشق.

يتألف البحث من مقدمة وخاتمة وأربعة مباحث، تحدَّثتُ في المبحث الأول عن خصوصية الموضوع وصداه العاطفي، وفي المبحث الثاني عن التفاعل العاطفي بين الذات والموضوع، وفي المبحث الثالث عن الصدى العاطفي في الألفاظ والصور، وفي المبحث الرابع عن الإيقاع الموسيقي في الحروف والكلمات والقافية والبحر، وصداه الوجداني، ودوَّنتُ في الخاتمة أهمَّ النتائج التي توصَّل إليها البحث.

وقد رأيت أن ألحق البحثَ بقصيدة بردى كاملة، ليتسنَّى للقرّاء الاطلاع عليها، والوقوف على تفاصيلها وجمالياتها.

والله المُوفِّق وبه أستعين.

المبحث الأول
خصوصية الموضوع وصداه العاطفي

اختار الشاعر نهر بردى موضوعًا لقصيدته، وهو النهر الذي ارتبط اسمه بتاريخ دمشق وحضاراتها المتعاقبة، فمدينة دمشق وما يحيط بها من حقول وبساتين، ولا سيّما في الغوطتين الغربية والشرقية، ترتوي من هذا النهر، حيث تتدفَّق فروعه السبعة في أحياء المدينة، ويجري ماؤُه العذب في بيوتها وعماراتها، حتى ينتهي إلى الغوطة الشرقية، فيتخفَّى تحت ظلالها، ويسري بين أشجارها وزروعها، يرسم الحياة سطورًا وجداولَ، ويحمل في ضميره وفؤاده أسرارًا وحكايات، لا تقرؤها إلا عيون المتأمِّلين، ولا تفهمها إلا قلوب العاشقين[٣].

«بردى» النهر الخالد، الذي وُلد مع ولادة الزمن، وشهد على مرِّ الأيام أحداثَ التاريخ، ورحلةَ الإنسانية، وبزوغَ الحضاراتَ وتألُّقها، ولو أُتيح له أن يتكلَّم لَسمعنا منه قصصًا وعِبَرًا

(3) للتوسُّع في الحديث عن نهر بردى ومجراه في مدينة دمشق والغوطة يُنظر: نزهة المشتاق في اختراق الآفاق، للشريف الإدريسي، عالم الكتب، بيروت 1409هـ، 1/ 367، ومسالك الأبصار في ممالك الأمصار، لابن فضل الله العمري، 3/ 521.

ومواعظَ، ربَّما نسيها الدهر المُتعَب من الهَرم والشيخوخة، ولكن لم ينسها هذا النَّهر الذي يفيض قوةً وشبابًا.

«بردى» هو عنوان أعظم قصّة حبٍّ في التاريخ، فمنذ غابر الأزمان إلى اليوم ما نزال نرى بردى ودمشق عاشقين متعانقين، لا يصبر أحدهما عن حبيبه.. ويستمرُّ اللقاء، ويطول العناق، وتزدهر دمشق، ويترقرق ماء بردى، ونسمع من هذين العاشقين ما لا يعرفه قيسٌ وليلى، من فصول المعاناة والسرور، وحكايات الحبّ والجنون، ولحظات التلاقي والوصل، وخفقات القلوب المشتاقة، وأسرار الضمائر والوجدان.

يقول أنور العطار مصوِّرًا هذا الحبّ الخالد بين بردى ودمشق، في قصيدته «بردى»[٤]:

تنتحي جِلَّقَ الحَبيبةَ لَهفا ... نَ وتَجري في مَهدها مطمئنّا

وهي في فرحةِ المَشوقِ تلاقيـ ... ـكَ وتَحنو عليكَ صدرًا وحُضنا

وشاعرنا أنور العطار هو ابن مدينة دمشق، وأحد عشّاقها المخلصين، وحكايته مع بردى حكاية عشق طويلة، امتدت على امتداد حياته، منذ فتح عينيه على الدنيا، حتى أغمضهما في رقدته الأبدية، فلا عجب أن نجد نهر بردى بالنسبة إليه نهرًا مقدَّسًا، يختزن ماؤُه المتدفِّقُ ذكريات الطفولة، ونزقَ الشباب، وتأمُّلات الكهولة، ولا عجبَ أن نجد كلَّ وردة في ضفاف بردى، وكلَّ شجَرة، وكلَّ ذرة تراب، وكلَّ قطرة ماءَ، هي بمثابة صفحة دوَّن عليها ذكرىً غالية، وبثَّها من أحاديث النجوى ما لا تسَّعه السطورَ، ولا تقرؤه العيون، ولا تحظى به الأسماع.

إن كلَّ مشهد من مشاهد بردى يخترق وجدان شاعرنا وأحلامَه، ويتناغم مع أحاسيسه وآماله، ويتوارد مع تطلُّعات روحه الحالمة، وتأملات فكره الشاعريّ، وهو يمضي في رحلة الحياة باحثًا عن الحبّ والجمال.

ومن هنا نُدرك أن الموضوع الذي يطرقه الشاعر العطار ليس مجرَّد لوحة يتجلَّى فيها جمالُ الطبيعة وجلالُها، وليس مجرَّد ماء يجري وخضرة وارفة، نعم.. إنه ماءٌ يجري، ولكنْ في عروق الشاعر وعالمه النفسيّ، ومنظرٌ ساحر، لكنْ يزاحم الصور في ذاكرة الشاعر ويستولي عليها، ولوحةٌ فاتنة، لكنْ لا يروق للشاعر أن يحلم بعيدًا عن تفاصيلها، يقول[٥]:

بردايَ الحَبيبُ يا فَرحةَ الرُّو ... حِ ويا مُنيةَ الهَوى ما تمنَّى

أنتَ نَجوايَ إن أظلَّني الشَّجـ ... ـو وأنحى عليّ سُقمًا ووَهْنا

وردُكَ العذبُ من أمانيِّ أحلى ... جَرْسُك الحلوُ من أغانيَّ أغنَى

أنتَ تَجري في خاطري وضُلوعي ... وتُعيدُ الحياةَ روضًا أغنّا

وتُثيرُ الهَوى فيَهمي دُموعًا ... وتَهُزُّ الفُؤادَ رُكنًا فرُكنا

فبردى في وجدان الشاعر هو الحبيب المعشوق، الذي تقف عنده كلُّ أماني الحبّ والشوق،

(4) أنور العطار- الأعمال الشعرية الكاملة، ص616.
(5) أنور العطار- الأعمال الشعرية الكاملة، ص615.

وأحلام السعادة والسرور، وهو الملاذ الذي ينزع إليه قلبُ الشاعر في لحظات الحزن والمرارة والألم، فيبثُّه حرارةَ شكواه، ويُضمِّنُه صادق عبراته، ثم يمضي وقد اطمأنَّ أن شكواه لاقت أذنًا صاغية، وعينًا باكية، وصدرًا يحفظُ الأسرار ويفيض بالحنان.

فموضوع «بردى» بالنسبة إلى الشاعر لا يقتصر على كونه لوحة فنيّة رائعة، تجتذب المواهب الشاعرية لوصفها والحديث عن جمالها، بل هو روح الشاعر وفؤادُه، ومُختزَن أسراره وذكرياته، وملاذه اللطيف الآمن، ومرآة نفسه وأحلامه، وصدى إحساسه ووجدانه، وعنوان السعادة والجمال، يقول[٦]:

جوُّكَ السمح من شذا المسك أندى ... نفسًا عابقًا وأشهى وأهنا
أنت للشعرِ مُلهِمٌ يَغمرُ الشِّعـ ... ـرَ لُحونًا ويُكسِبُ الفَنَّ وَزنا
يتغنَّى بك الهوى مستهامًا ... ليس يختارُ غيرَكَ الدهرَ خِدنا
يَدرجُ الحبَّ في حماكَ شهيًّا ... كل دوحٍ يُظِلُّ قيسًا ولبنى

فشاعرنا لا يريد صديقًا إلا بردى، ولا يروق له السمر إلا على ضفافه، ولا يستطيب التنزُّهَ إلا بين أشجاره وورود، وما ذاك إلا لأنه عشق هذا النهرَ، واختارَه من بين الوجود، وانتقاه من مشاهد الطبيعة، ليكون له الإلفَ الذي لا يُمَلُّ، والحبيبَ الذي لا يصبرُ لحظةً عن منادمته ولقياه.

وفوق هذا الحب والعشق يرى شاعرنا في بردى قوةَ السحر والإلهام، فيستمدُّ منه الألحانَ والقوافي، ويستلهم منه الجمالَ والمعاني، ثم يبوح بالشِّعر مُعبِّرًا عمَّا في أعماق نفسه من حبٍّ وإجلال لهذا النهر، ومنتشيًا مع نهره المحبوب بالموسيقا والألحان، ومحلِّقًا معه في فضاء التأمُّل والحياة، يقول[٧]:

برادي الذي حببتُ على الدهـ ... ـرِ وأحللتُهُ فؤادي سُكنى
أنتَ مني الحلمُ الذي أتَشَهَّى ... أَنتَ مني الشعرُ الذي أتغنَّى

فموضوع «بردى» تتجلَّى خصوصيتُه في ارتباطه المباشر بطفولة الشاعر وشبابه وكهولته، وبأحلامه وذكرياته، ولحظات الشكوى والسعادة، ومرارة الهزيمة أمام الحياة، وحلاوة الانتصار، ولهذا كان له صدًى وجدانيٌّ، لم يتوقَّف عند حياة الشاعر وحاضره، بل شمل الاعتزاز بالماضي المجيد، والحضارات التي عاصرها بردى في رحلته عبر التاريخ، يقول[٨]:

قصَّ أسطورةَ الليالي الخوالي ... بخيالاتِ شاعرٍ ما تَجنَّى

(6) أنور العطار- الأعمال الشعرية الكاملة، ص616.
(7) أنور العطار- الأعمال الشعرية الكاملة، ص616.
(8) أنور العطار- الأعمال الشعرية الكاملة، ص613.

وروى قصَّةَ الغَساسنة الغُـ ـرِّ وعَهداً من بَهجَةِ الفَجْرِ أسنَى
وحكى إمرةَ الغَطارفة الصِّيـ ـدِ ومَن أشرقُوا على المُلكِ يُمنا
الحُماةُ الأُباةُ من عَبدِ شَمسٍ شَرُفُوا مَغرسًا كريمًا ومَجنَى
ملكوا الأرضَ فاستقادَت لهم طَو عًا ودانَ الوُجودُ سَهلاً وحَزْنا

فبردى في نظر الشاعر نهرٌ خالدٌ، عاصر عدّةَ حضارات ازدهرت على ضفافه، وسمَتْ عزًّا ومجدًا وخلودًا.. إنه النهر الذي كان يتدفَّق وأمجادُ الغساسنة بازغة الضياء في سماء دمشَق، وهو النهر الذي كان يجري وخلفاءُ بني أميّةَ يُديرون من دمشق مُلكَهم الذي بلغ مشارق الأرض ومغاربَها.. فهذا النهر هو سجلُّ التاريخ، الذي يحتفظ في ذاكرته بأحداث وصُوَر، ويجري في الحاضر ليُؤنسَ الشاعرَ، ويستقبلَ ما يبثّه من النجوى والشكوى.

ممّا تقدَّم يظهر أن موضوع «بردى»، في شعر أنور العطار، كان له صدًى وجدانيٌّ، وتأثير عاطفيٌّ، لارتباطه بحياة الشاعر وذكرياته، فكأنه لا يجري أمام عيونه فحسب، بل يجري في خاطره وضلوعه، ويترقرق عذبًا في ذاكرته وأحلامه، ويتوزّع قوافيَ وألحانًا في شعره وإبداعه.

المبحث الثاني
التفاعل بين الذات والموضوع في قصيدة «بردى»

ذكرتُ في المبحث السابق أن موضوع القصيدة «بردى» ذو صدًى وجداني عميق، لعلاقته المباشرة بشخصية الشاعر وحياته وعالَمه النفسي، وهذا الصدى أكسَب القصيدةَ قيمةً فكرية، وصبغة تأمُّلية، وفَيضًا من المشاعر والأحاسيس، وكلُّ ذلك أضفى على القصيدة جمالاً فنيًّا، وجعلها من القصائد المتميّزة في ديوان ظلال الأيام، للشاعر الدمشقي أنور العطار.

ومن الطبيعيّ أن يكون للمواضيع المتَّصلة بالعالم النفسي والفكري للشاعر تفاعلٌ مع ذاته المُبدعة، بحيث يُصبح الموضوع مرآةً للذات، وتُصبح الذاتُ جزءًا أساسيًّا من الموضوع، فكلٌّ منهما يُؤثّر في الآخر، ويكتسب منه بعضًا من صفاته، فنرى الموضوعَ يتحوَّل إلى إنسان شاعر، كما نرى الشاعرَ يلتصق بالموضوع وكأنه جزء من عالَمه وكيانه.

وفي قصيدة «بردى» بلغ الإبداع درجةً لم نعد نُميِّز فيها بين النهر والشاعر، أي بين الموضوع والذات، فكلٌّ منهما حاضر في نفس الدرجة، ومؤثّر ومتأثّر بالآخر على حدٍّ سواء، فيخلع الشاعرُ على النهر عالَمَه النفسي، كما يستلهم من النهر المواعظ والمواقف والشاعرية والجمال.

ومن ثمرات التفاعل بين الذات والموضوع في القصيدة أن بردى في المقطع الأول ظهر بثوبه الحقيقي، وهو يسير بين الروض، ترسمه ريشةٌ مُبدعة، وفنٌّ عبقريٌّ، يقول أنور العطار[9]:

بردى سَلسَلُ البقاءِ ولحنٌ عبقريٌّ على المَدى يتغنَّى
رفَّ بين الحقولِ نشوانَ هيما نَ وغنَّى الربا فجُنَّت وجُنّا

(9) أنور العطار- الأعمال الشعرية الكاملة، ص613.

مـرَّ كالعاشـقِ المُتيَّـم بالـرَّو ضِ وكالطَّيرِ يَسكبُ الرُّوحَ لَحنا

ففي هذه الأبيات يظهر بردى في ثوبه الحقيقي، فهو نهر خالد، يتدفَّق ماؤُه على امتداد الزمن، تنبعث من مائه نغماتٌ تُداعب الأرواح، وتُصافح النسيم، وتُجاري حفيف الأوراق، وتغريد الطيور، إنّه عالَم بردى المليء بالجَمال والروعة والموسيقا والحياة، يُصوِّره شاعرُنا المُبدع، فيُضفي عليه مسحةً من التأمُّل والشاعرية، فإذا بالنهر يبدو كعاشقٍ أسكره الحبُّ، يرتمي في أحضان النشوة والفتون.

ثم إن الشاعر يُخرجُ النهرَ من غمرة السُّكر والفتون، ويخلع عليه رداء الفخر والكبرياء، فإذا به يقصُّ أساطير الزمن الخالي، ويتحدَّث عن حضارات الغساسنة والأمويِّين، وهنا يتأثَّر الشاعرُ بالنهر، فيُقارن بين الماضي المجيد والحاضر البليد، فيَغصُّ بما يرى، وينقل إحساسه لنهره الخالد، يقول[10]:

غبرَ النـاسُ في رُؤى الدَّهـرِ لَفظًا وانطـوَوا في الغيـوب لفظًا ومعنـى
زيَّنـوا الكـونَ بالهدايـا والنُّـو رِ وأضفَـوا عليـه علمًا وفَنّـا
ذكريـاتٌ يحيـا بهـا ونجـاوى تركتـه مُشـتَّتَ النَّفسِ مُضنَـى

ويصل التفاعل بين الذات والموضوع قمّتَه في المقطع الثالث، حيث يُلقي الشاعر على النهر جملةً من أحاسيسه، ثم ينطوي تحت معطفه، ويُنشد معه أنشودة البؤساء، بصوت واحد، ولحن شجيٍّ، يُعبِّر عن المعاناة والألم، فالنهر تَعبٌ من تعاقب الأزمان والعصور، والشاعر مرهَقٌ من رحلة الحياة، يقول[11]:

مُتعَـبُ الـرُّوحِ إن تذكَّـرَ أنّـا موجَـعُ القلـبِ إن تلفَّـتَ حنّـا
مـا عليـه إن جـرى كالـحَ الوَجْـ ـهِ كَئيبًـا جـمَّ الهمـومِ مُرنّـا
بـينَ جَنبَيـه مـن صـراع اللَّيـالي مـا يُعَنِّـي ومـا يَهيـجُ المُعنَّـى
سـاربٌ في الفجـاجِ مـا يَتروَّى راكـضٌ في الوِهـادِ مـا يتأنَّـى
مـا لنهـرِ الخلـود يجـري مُغيظًـا مُحنقًـا مُتَـرعَ الجَوانـحِ ضغنـا
أتـراهُ اجتَـوَى الذيـنَ أضاعُـو هُ فولَّـى غضبـانَ يُعـرضُ عنّـا

في هذا المقطع تنحرف مسيرةُ النهر، وتتغيَّر ملامحه، ويتعكَّر صفاؤه، فبعد أن كان هيمانَ يستخفُّه الطربُ والعشق، ويجري سكرانَ في أودية الجنون، وبعد أن صحا ثمّةَ من سُكره وارتدى ثوب وقاره، وقصَّ الحكايات والأساطير، وقف هنا لحظة مع الذات والذكرى، وتأمَّل في صفحات العصور الخالية، التي طُويَت أمام عيونه، وشهد مصارعَ أهلها، فداخَله العبوسُ والأشجانُ،

(10) أنور العطار- الأعمال الشعرية الكاملة، ص614.
(11) أنور العطار- الأعمال الشعرية الكاملة، ص614.

وغابت بسمته الحالمة تحت رماد السنين.

وفي المقابل وقفَ الشاعرُ وقفةَ المتأمِّل، يسترجع المواقف والذكريات، ويستحضر من ذاكرته صورًا ومشاهدَ، مزَّقتها الأيام والسنون، وقطَّعتها يدُ الدهر والمنون، فيلوذ بنهره المتدفِّق ويضمُّه، ويغني معه أنشودة العذاب والمعاناة، في جوٍّ مكفهرٍّ كئيب.

في غمرة هذا الاتحاد بين الذات والموضوع يَتَّحد صوت الشاعر والنهر في الشكوى، وتتوافق القلوب في النجوى، ويسير النهر والشاعر في أرضٍ موحشة، وأحلام مُريبة، ورحلةٍ عنوانها التشرُّد والضياع.

فكلاهما مُتعَب الروح، مُوجَعُ القلب، يُمزِّقُه الأنين والحنين..

وكلاهما يسير كئيبًا، كالحَ الوجه، عظيمَ الهموم، شديد البكاء..

وكلاهما يحمل في صدره جراحَ الزمن، وطعنات السِّنين، وصراع الأيام..

وكلاهما يسير مُسرعًا تائهًا، على غير هدًى، يَحدوه الضَّياع..

وكلاهما يفيضُ صدرُه بالأسى والغيظ، وتخنقُه العَبراتُ والنَّشيج..

وكلاهما يشعر أن أحبَّتَه أضاعوه، فعانقَ خيباته وجراحَه، وانزوى في عزلته..

يتجلَّى واضحًا، فيما عرضتُه، نهجٌ راسخٌ في شعر أنور العطار، يقوم على التفاعل بين الذات والموضوع، فالشائع أن الأديب هو الذي ينثر مشاعرَه على الموضوع، فيُكسبُه بعضًا من إحساسه، وألوانًا من عالمه النفسي[١٢]، لكنّ أنور العطار يُقدِّم في شعره نموذجًا جَديدًا، مختلفًا عن المعهود، فهو يخلع على الموضوع ألوانًا من العاطفة، فينمو الموضوعُ ويُصبح خَلقًا جديدًا، فيستوحيه الشاعر ويتأثَّر به، وتظهر علامات التأثُّر في نشوء مشاعر ومواقف جديدة لدى العطار، يعود فيخلعها على موضوعه.

وهكذا يستمر التفاعل والتأثُّر بين الذات والموضوع، وينتج عن هذا التفاعل عالَمٌ واسعٌ من الأحاسيس الشاعرية، وألوانٌ مبتكرة من الوصف الدقيق، وغالبًا ما ينتهي المطاف إلى الاتحاد بين الذات والموضوع، ولا سيّما في الموضوعات ذات الصدى الوجداني، التي تتداخَلُ مع ذكريات الشاعر وحياته، فإذا بالذات والموضوع موجةٌ واحدة من صدق المشاعر وحرارتها، وصفحةٌ واحدة من المواقف والأحلام والأمنيات.

المبحث الثالث
الصَّدى الوجداني في الألفاظ والصُّوَر

مما لا شكَّ فيه أن كلَّ لفظ له دلالة معجمية تُميِّزه عن غيره، كالجبل والنهر والعشب وغيرها، ولكن الدلالة المعجمية وحدها لا تكفي للحكم على اللفظ بالجمال أو القُبْح، وإنما هناك مزايا أخرى، من أهمها الإيحاء العاطفي، الذي يُكسب اللفظ دلالة إضافية، ويُرشِّحه للاستعمال في الشعر، قال ابن المعتزّ معلِّقًا على بيت للأعشى: «وممّا استُضعف من معانيه قوله[١٣]:

(12) يُنظر: قضايا الشعر العربي الحديث، للدكتور عبد الله خضر حمد، ص43.

(13) أراد بالشاة: المرأة. ومعنى البيت أنه استغلَّ غفلةَ الرجل عن امرأته، فرماها بسهم الحبّ، فأصاب به قلبها وطحالها، أي أنها وَقَعَت في حبّه. يُنظر: ديوان الأعشى، ص27.

ـتُ غفلةَ عَينِه عَن شاته فأصَبتُ حَبّةَ قَلبِ

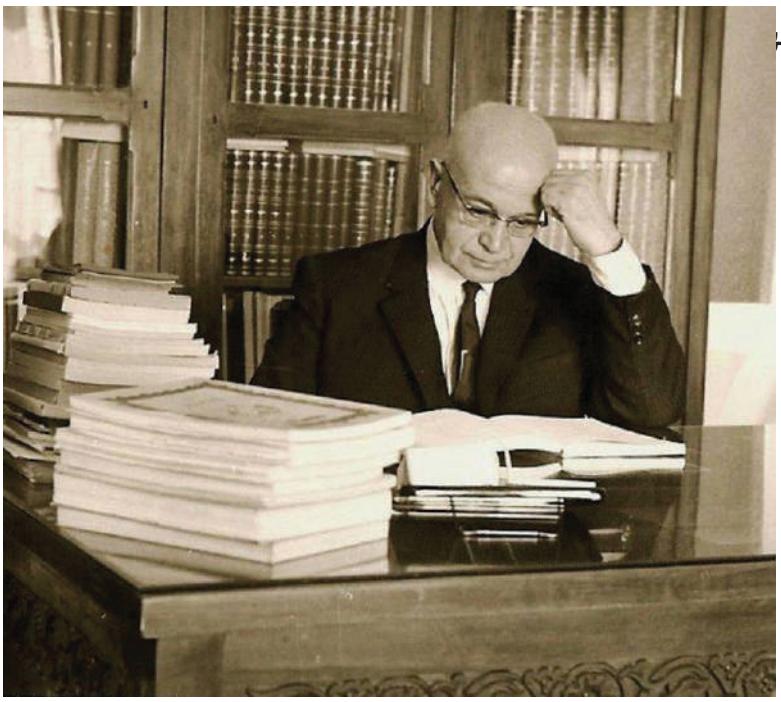

أنور العطار في مكتبته

وقد عابَه قومٌ بذلك، لأنهم رأوا ذكر القلب والفؤاد والكبد يتردَّد كثيراً في الشعر، عند ذكر الهوى والمحبة والشوق، وما يجده المُغرَم في هذه الأعضاء من الحرارة والكرب، ولم يَجدُوا الطِّحالَ استُعمل في هذه الحَال، إذ لا صُنعَ له فيَها، ولا هو ممّا يَكتَسبُ حَرارةً وحركةً في حُزن ولا عشق، ولا بَرداً وسُكوناً في فرح أو ظفَرَ؛ فاستهجنوا ذكرَهُ»[١٤].

فابن المعتزّ هنَا يُشير إلى أن بعض الألفاظ تكتسب من الاستعمال والعُرف شيئًا من الأحاسيس والعواطف، فتتجاوز دلالتها المعجمية، بما تحمله من صدًى وجدانيٍّ، يلامس العالَم الداخليّ للإنسان، ويتناغم مع ما في نفسه من مشاعر الألم والسعادة، والحزن والفرح، والخيبة والأمل، ومثل هذه الألفاظ تمنحُ الشعرَ جمالاً فنيًّا إضافيًّا، على حين أن الألفاظ التي لا تحمل هذا الصدى الوجداني لا تكون مستساغة في الشعر، أو على الأقل تكون سببًا في هبوط المستوى الفني للقصيدة.

وقد أدرك علماء البلاغة والنقد تلك المزايا التي تختص بها بعض الألفاظ، ولكنهم لم يتعمَّقوا في دراستها وتحديد طبيعتها، وإنما اكتفوا بتوجيه الناشئة من الأدباء والشعراء إلى الاقتداء بفحول الشعر، وحفظ نتاجهم الأدبي، ومحاكاتهم في الألفاظ والمعاني والأساليب، لأن ذلك يؤدي إلى تربية الذوق اللغوي لدى الأديب الناشئ، ويُغني عن الدراسات في هذا المجال، قال الأصمعي: «لا يصير الشاعر في قريض الشعر فحلاً حتى يروي أشعار العرب، ويسمع الأخبار، ويعرف المعاني، وتدور في مسامعه الألفاظ»[١٥].

ومن يتصفَّح نتاجَ شاعرنا أنور العطار يُدرك أنه كانَ مُلمًّا بالدلالات الدقيقة للألفاظ، مُتبصِّرًا بكل ما فيها من مزايا إيحائية وشعورية، وما ذاك إلّا لكثرة اطلاعه على هذا الفنّ، وتمرُّسه فيه، فجاءت ألفاظه في منتهى الدقة والعذوبة، من حيث الدلالة والإيقاع، وفي منتهى التأثير، من حيث الصدى الوجداني الذي تختزنه بين حروفها.

ولنأخذ مثالاً على الألفاظ ذات الإيحاء العاطفي قوله يصف حال النهر، وقد أتعبته الحياة، وأضناه المسير عبر العصور، يقول[١٦]:

(14) الموشح في مآخذ العلماء على الشعراء، للمرزباني (ت 384هـ)، ص-71 72.
(15) العمدة في محاسن الشعر وآدابه، لابن رشيق القيرواني (ت 463هـ)، 1: 197.
(16) أنور العطار- الأعمال الشعرية الكاملة ص614.

الـرُّوحِ إن تذكَّـرَ أنّـا موجَـعُ القلـبِ إن

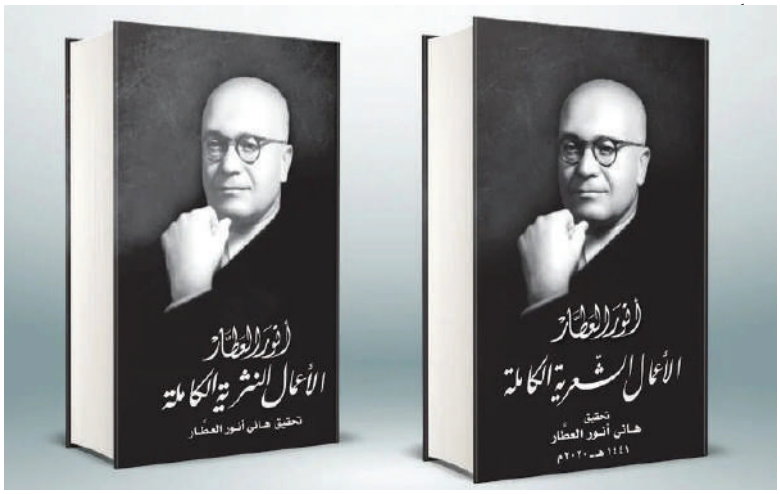

من مؤلفات أنور العطار

ففي هذا البيت تظهر شاعرية العطار في كامل ألقها وتوهُّجها، بدءًا بالوزن الشعري والقافية، مرورًا بالصور البيانية الرائعة، وانتهاء بالألفاظ العذبة الجرس، الدقيقة الدلالة، ذات الإيحاء الوجداني، الذي عليه مدار الكلام في هذا المبحث.

فموضوع الأبيات، كما ظهر في المبحث السابق، هو الحديث عمّا يُحسُّه النهر والشاعر من التعب والألم في رحلة الحياة، وقد أجاد الشاعر في التعبير عن هذا الموضوع، باعتماد عدّة تقنيات فنية، من بينها حُسنُ اختيار الألفاظ.

فلفظ «الروح» ذو محتوى عاطفي، لارتباطه بحياة الإنسان وعمره وأشواقه وأمنياته، فاستعماله يلامس العالَم الداخلي للقارئ، ويُوقظ فيه الكثير من المشاعر والذكريات، فيجد القارئ النصَّ قريبًا من نفسه وميولها وأحلامها، فينجذب إليه، ويفتح له فكره ووجدانه.

ولفظ «القلب» هو كالروح أيضًا، يُفضي التلفُّظ به إلى استحضار الكثير من الذكريات والمواقف، وإثارة المشاعر حولها، فيُحِسُّ القارئ بأن النصَّ قد كُتِبَ له، فيتفاعَل معه ويميل إليه.

وألفاظ التعب والأنين والوجع والحنين تدلُّ على أحوال عصفت بكلِّ الناس، وتركت آثارها في نفوسهم، فاستعمالها يؤدي إلى استحضار تلك الأحوال، وإثارة المشاعر المرتبطة بها، وهذا كله يستميل القارئ، ويجعله يتفاعل مع النص بروحه ووجدانه.

ولفظا التذكُّر والتلفُّت، في موضوع الألم والتعب، يُوحيان بالخيبة والضياع والخوف، واستعمالهما يُوقظ هذه المشاعر، ويستحضر مواقف مشابهة عانى منها القارئ، فيلتصق بالنص عند سماعهما، لأن تأثير النص تجاوز الأذن عنده، ودخل عالَم القلب.

يتَّضح من هذا العرض الموجز أن بيتًا واحدًا من قصيدة «بردى» يحتوي كثيرًا من الإيحاءات الوجدانية، المرتبطة بحُسن اختيار الألفاظ، والتي تدلُّ على تمرُّس الشاعر بفن الشعر، وتمكُّنه منه، وخبرته العميقة بالطاقات الشعورية التي تختزنها الألفاظ، وتُرشِّحها للتعبير الدقيق عن الموضوع.

وأنتقل الآن إلى الحديث عن الإيحاء العاطفي في الصور البيانية، فمن المعلوم أن الصور البيانية الأكثر استعمالاً هي التشبيه والاستعارة، ولهما أغراض دلالية وجمالية كثيرة، ذكرها علماء البلاغة في مصنفاتهم[١٧].

(17) يُنظر في أغراض التشبيه مثلًا: أسرار البلاغة، لعبد القاهر الجرجاني، ص180، والمفصَّل في علوم البلاغة العربية، للدكتور عيسى العاكوب، ص429.

وما أريد الحديث عنه في هذا الموضع أن بعض الصور البيانية، شأنها شأن الألفاظ، تحمل إيحاءات عاطفية، تجعلها تفوق نظائرها من الصور الأخرى، مهما بلغت من الجمال وحُسن الصنعة، وقد أتقن شاعرنا العطار هذا الجانب من جوانب التعبير الفني، فاختار المشبَّه به، سواء في التشبيه أو الاستعارة، ممّا يرتبط بالمشاعر والأحاسيس، فضلاً عن جمال الصورة.

ومن أمثلة ذلك قوله في قصيدة «بردى»، يصف النهر في حال زهوه وفرحه[١٨]:

بـردى سَلسَـلُ البقـاءِ ولحـنٌ عبقـريٌ على المَدى يتغنَّـى

رفَّ بـين الحقـولِ نشـوانَ هيمـا نَ وغنَّـى الربُـا فجُنَّـت وجُنّـا

مـرَّ كالعاشـقِ المُتيَّـم بالـرَّو ضِ وكالطَّيرِ يَسكبُ الـرُوحَ لَحنا

ففي البيت الأول شبَّه نهر بردى بسَلسَل البقاء، وباللحن العبقري، والسَّلسَل: الماء العذب الذي داعبَت متنَه الريح، فرسمت عليه ما يُشبه السِّلسلة[١٩]. والعَبقَري: الذي لا يُشبهه شيء، فهو وصفٌ لكل ما بُولغ في صفته، نسبة إلى وادي عبقر، الذي تسكنه الجنُّ بحسب الأسطورة المعروفة[٢٠].

وفي تشبيه بردى بسلسلِ البقاء استحضار لروح التأمُّل والتفكُّر في الحياة وما وراءَها، حيث يجد القارئ نفسَه غارقًا في ذكريات كثيرة، متأمِّلاً في الطبيعة والكون، متفكِّرًا في الوجود والعدم، وحكمة الموت والحياة، متخيِّلاً مشاهدَ من عالم السماء والآخرة، وهذه التأمُّلات تُثير في وجدانه الكثير من المشاعر والأحاسيس، مبعثُها تشبيه بردى بسلسل البقاء. أما تشبيه بردى باللحن العبقري ففيه استحضار لمشاعر الهيبة والجلال، والإعجاب بالجمال والإبداع.

وفي البيت الثاني شبَّه بردى بالإنسان النشوان الفرح، ثم حذف المشبَّه به وهو الإنسان، وأبقى شيئًا من لوازمه، وهو النشوة والهيام والغناء والجنون، على سبيل الاستعارة المكنية، وهذه الاستعارة مدعاةٌ للتخيُّل والتأمُّل، حيث ترتسم في ذهن القارئ صورة إنسان لطيف، غارق في الحبّ والأحلام، يرقص طربًا، ويُغني للطبيعة والحياة أجمل المقاطع والأناشيد، وهذه الصورة تُثير في وجدان القارئ مشاعر الإعجاب بالنهر والطبيعة والحياة.

وفي البيت الثالث شبَّه بردى بالعاشق، ثم بالطير، كما شبَّه الروضَ بالمعشوق، وهذه التشبيهات مدعاةٌ لاستحضار صور من عالم الإنسان والطبيعة، وذكريات محبَّبة، تأنس بها النفس، وتتفاعل معها، بمشاعر الإعجاب والشوق والحب.

مما سبق يتَّضح أن الشاعر أنور العطار كان بارعًا في التصوير، دقيقًا في اختيار الألفاظ، وأهم ما تتميَّز به ألفاظه وصوره، من الناحية الفنية والشاعرية، هو ذاك الصدى الوجداني، الذي تُثيره في نفس القارئ، فيلتصق بالنصّ، ويُفرِّغ له فكرَه وقلبَه، ويسير مع المعاني والصور والموسيقا، وقد انطلقَ فكره في عالم الخيال، وانغمست روحه في بحرٍ من المشاعر والأحاسيس.

(18) أنور العطار- الأعمال الشعرية الكاملة، ص613.
(19) المعجم الوسيط، مادة (سلسل).
(20) لسان العرب، لابن منظور، مادة (عبقر).

المبحث الرابع
الإيقاع الموسيقي وصداه الوجداني

يتألف الإيقاع الموسيقي في الشعر من الوزن العروضي والقافية في الدرجة الأولى، ثم من إيقاع الحروف وجرس الألفاظ في الدرجة الثانية. وبين الشعراء تفاوت كبير في القدرة على توظيف أنواع الإيقاع في نتاجهم الأدبي، كما يُعَدُّ إتقان الإيقاع، وملاءمتُه للمعاني والدلالات، وتناغمه مع المشاعر والأحاسيس، من علامات الإبداع والتمكن من الفن الشعري.

وللحديث عن الإيقاع الموسيقي، عند أنور العطار، أتناول مقطعًا من قصيدته بردى، وهو قوله يصف جمال النهر ومكانته في فؤاده[٢١]:

أنت للشعرِ مُلهِمٌ يَغمرُ الشِّعـ ـرَ لُحونًا ويُكسِبُ الفَنَّ وَزنا
يتغنَّى بك الهوى مستهامًا ليس يختارُ غيرَكَ الدهرَ خِدنا
يَدرجُ الحبُّ في حماكَ شهيًّا كل دوحٍ يُظِلُّ قيسًا ولبنى
وتطلُّ الطيورُ هيما تُغادي ـك فُرادى وتنثني عنك مَثنى
ملء أرواحها حنينٌ وشوق وضلوعٌ على ودادكَ تَحنى

يُلاحَظ على هذا المقطع أنه يسوده جوٌّ من الحب الهادئ، الممزوج بالذكريات والتأمُّل، فالشاعر يعشق نهر بردى، ولكنّ هذا العشق له خصوصية، فهو مدعاة إلى التأمُّل واستحضار الذكريات، ويُضفي على نفسية الشاعر مسحة من الحزن، لارتباطه بتفاصيل حياته، وأيام عمره، ولغز الحياة والموت.

ومثل هذا الجوّ لا يلائمه إلا إيقاعات خاصّة، تُتيح للقارئ أن يعيش إحساس الشاعر ذاته، بما ينطوي عليه من الشَّجى والشوق، والإعجاب والاعتبار.

وقد أتقنَ الشاعر الإيقاعات الموسيقية في قصيدته، بدءًا بإيقاع البحر الخفيف، مرورًا بإيقاع القافية، وانتهاء بإيقاع الحروف والكلمات.

فالشاعر اختار نظمَ قصيدته على البحر الخفيف، وهو من البحور المتوسطة من حيث عدد الحركات والسكنات، ويتألف من ثلاث تفعيلات، هي[٢٢]: فاعلاتن مستفعلن فاعلاتن، وهذه التفعيلات إن جاءت تامّةً ففيها موسيقا تُلائم الحبَّ الهادئ وجوَّ التأمُّل المُصاحب له، لتوزُّع الحركات والسكنات بصورة منتظمة تقريبًا، ففي كل تفعيلة وتد مجموع واحد (//٥)، على حين يتألف باقي التفعيلة من تعاقب متحرّك وساكن مرتين (/٥)، وهو ما يُسمَّى في العروض بالسبب الخفيف.

ودخول مستفعلن بين التفعيلتين المتشابهتَين فاعلاتن يُؤدي إلى تنوُّع الإيقاع، فيبدأ بطيئًا هادئًا مع فاعلاتن الأولى، ثم يشتدّ قليلاً مع مستفعلن، ثم يعود إلى الهدوء والبطء مع فاعلاتن الثانية، وهذا الإيقاع يُحاكي بهدوئه وبُطئه حالة التأمُّل والذكريات، كما يُحاكي باشتداده في

(21) أنور العطار- الأعمال الشعرية الكاملة، ص616.
(22) يُنظر في تفعيلات البحر الخفيف وجوازاته: موسيقا الشعر العربي، لمحمود فاخوري، ص43.

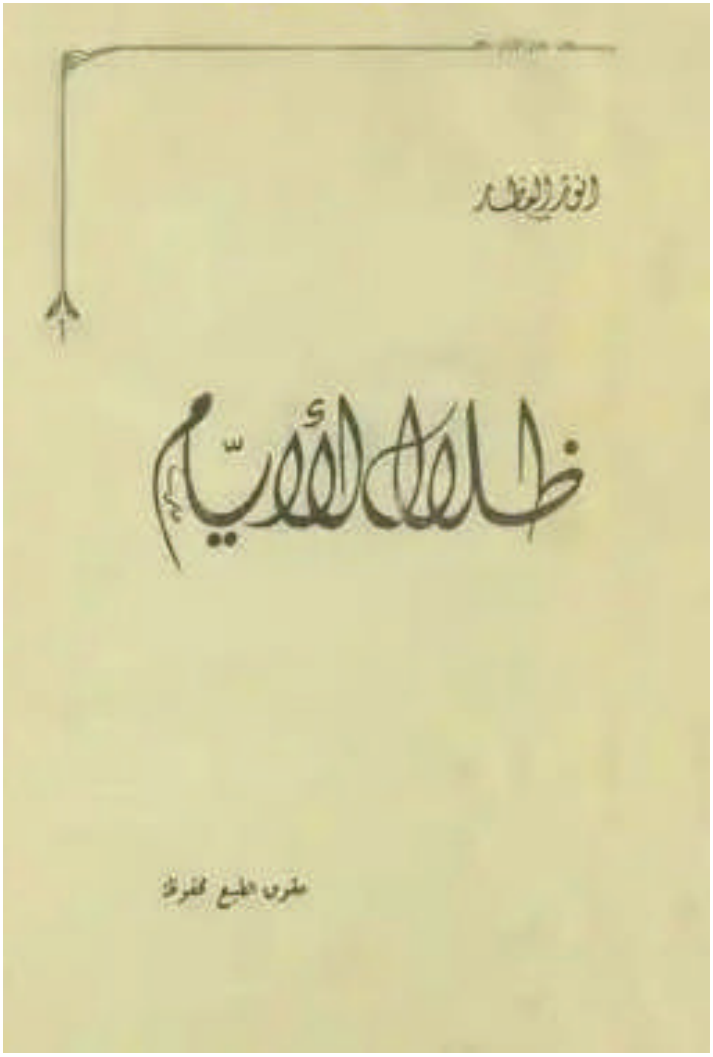

من مؤلفات أنور العطار

مستفعلن صورة جريان النهر.

ويجوز في التفعيلات السابقة حذف الثاني الساكن على النحو: فَعلاتُن مُتَفعلُن فَعلاتُن، وفي هذه الحالة تتعَاقب في كلِّ تفعَيلة ثلاث حركات، ويُصبح الإيقاع سريعًا يُلائم حركة النهر وسرعة الزمن(٢٣).

فالبحر الخفيف، الذي نظم عليه الشاعرُ قصيدتَه، يُناسب في تنوُّعه الموسيقي مشاهدَ بردى وجريان مائه وتغريد أطياره، ومناظر الرياض والورود والأشجار حوله، ومشاهد السكون والحركة، وأحاسيس الشاعر الموزَّعة بين الفرح والإعجاب، والشوق والحنين والأحزان.

أما إيقاع القافية فأهم ما فيه الروي، وهو النون المفتوحة، التي يَعقبها الألف، والنون من الأحرف اللسانية، المصحوبة بغنّة تخرج من الأنف عند النطق بها، وهو حرف مجهور، مُنفتح، وبين الشِّدة والرخاوة، أي أن النون من الحروف السهلة النطق، وإيقاعه يُعبِّر عن العفوية والبساطة في تناول الموضوع، كما أن غُنَّتَه أضفَت على الإيقاع العام نغمة لطيفة، واتّصاله بالألف أكسب الإيقاع امتدادًا يُحاكي حالات التأمُّل والحب ورحلة النهر الخالدة عبر الزمن.

وأما إيقاع الحروف فيظهر في الأحرف الأكثر استعمالاً في هذا المقطع، وهي: الشين والسين والراء والحاء والهاء والثاء، إضافة إلى أحرف المدّ الألف والواو والياء.

فالشين والسين والحاء والثاء أحرف مهموسة، على حين أن الهاء والراء مجهورة، وهذا يعني أن الهَمْس هو الإيقاع الغالب على الحروف، وهو يُلائم الحبَّ الهادئَ وحالة التأمُّل والذكريات(٢٤).

يُضاف إلى ذلك أن صفة التَّفشي في الشين، وهي انتشار الصوت في الفم عند النطق به، تُحاكي جريان النهر وامتداد الظلال ومرور النسيم، كما أن صفير السين يُلائم جوَّ الهدوء والعزلة والتأمُّل، أما صفة التكرار في الراء فتُناسب جريان الماء وحفيف الأوراق، وأما حروف

(23) يرى العروضيُّون أن إيقاع البحر الخفيف فيه بطءٌ وخِفّة، وأنه بحر مزدوج اجتمعت فيه نبرة الرجز الترنُّمية «مستفعلن»، وبطءُ الرَّمَل ووقاره «فاعلاتن فاعلاتن»، وهو من أكثر البحور ملاءَمةً للتعبير عن المشاعر. يُنظر: دراسات نقدية لظواهر في الشعر العربي، الدكتور حسين علي الدخيلي، ص74.

(24) يُنظر في مخارج الحروف وصفاتها: الكتاب لسيبويه، 4: 433، والنشر في القراءات العشر لابن الجزري، 1: 198، ودراسات في فقه اللغة للدكتور صبحي الصالح، ص275.

المد الألف والواو والياء فإيقاعها يأتي من توزُّعها على مسافات متساوية داخل البيت الشعري، وهذا الأمر تحقَّق في كامل القصيدة، وفي المقطع الذي بين أيدينا، وهذا التوزع يُضيف إلى الإيقاع امتدادات صوتية تُناسب الجو العام والدلالات الغالبة على المقطع.

وأما إيقاع الألفاظ فإنه يتكون من استعمال ألفاظ متساوية في العدد في كل شطر، ويزداد الإيقاع جمالاً إذا كانت الألفاظ المستعملة متفقة، كلها أو بعضها، في الوزن الصرفي، والملاحظ على المقطع المختار أن كل شطر فيه يتألف من أربع كلمات تقريبًا، وفي البيت الأخير حقَّق الشاعر التوافق في الوزن العروضي بين كلمتي: حنين وضلوع، وهذا التقسيم الموسيقي للألفاظ يُكسب الأبيات إيقاعًا، يُضاف إلى إيقاعات البحر والقافية والحروف.

وتجدر الإشارة إلى أن الشاعر استعمل في موضوع الفخر بالتراث العربي والتاريخ، في هذه القصيدة، إيقاعًا صاخبًا يُناسب الجوَّ العام والدلالات، ففي التعبير عن اعتزازه ببني أمية قال[٢٥]:

وحكى إمرةَ الغَطارفةِ الصِّيـ ـدِ ومَن أشرقُوا على المُلكِ يُمنا

فقد استعمل في هذا البيت الغين والطاء في «الغطارفة»، وكلاهما من أحرف الجهر والاستعلاء، وللطاء صفتا الإطباق والقلقلة، كما استعمل الصاد والدال في «الصِّيد»، والدال من أحرف القلقلة، على حين أن الصاد من أحرف الإطباق والصفير، ومن الواضح أن الإيقاع الغالب على البيت هو إيقاع الشِّدة والصَّخَب، وهو يناسب الاعتزاز بأمجاد الأمويين الذين فتحوا مشارق الأرض ومغاربها.

مما تقدَّم يتَّضح أن الشاعر أنور العطار كان دقيقًا في توظيف الإيقاع الموسيقي في شعره عامةً، وفي قصيدته بردى على وجه الخصوص، وتجلَّى هذا الإيقاع في الحروف والألفاظ والبحر والقافية، بحيث جاءت النغمات الموسيقية مناسبةً تمامًا للموضوع وما يسوده من أجواء الذكريات والتأمُّل، ومشاعر الحبّ والإعجاب.

(25) أنور العطار- الأعمال الشعرية الكاملة، ص613.

أنور العطار والشيخ الأديب علي الطنطاوي

_ الخاتمة والنتائج:

تحدَّثتُ في المبحث الأول عن خصوصية بعض المواضيع وعلاقتها بالعاطفة، وفي المبحث الثاني عن التفاعل بين الذات والموضوع وأثر كلٍ منهما في الآخر، وفي المبحث الثالث عن الصدى العاطفي في الألفاظ والصور، وفي المبحث الرابع عن الإيقاع الموسيقي وصداه الوجداني، ودرستُ هذه القضايا دراسةً تطبيقية على قصيدة «بردى» للشاعر الدمشقي أنور العطار. وانتهى البحث إلى النتائج التالية:

١- الظلال العاطفية من أهم عناصر الإبداع في النصّ الشعري، وهي تظهر بوضوح في الألفاظ والصور والموسيقا، وترتبط ارتباطًا وثيقًا ببعض الموضوعات المتّصلة بحياة الشاعر وذكرياته.

٢- تمثِّل قصيدة بردى نموذجًا للشعر العاطفي عند أنور العطار، لما لموضوعها من ارتباط وثيق بحياة الشاعر وذكرياته وتاريخ مدينته دمشق.

٣- من الشائع عند النقاد أن الشاعر المبدع يُلقي على موضوعه ما في نفسه وذاته من مشاعر وأحاسيس، لكن الشاعر العطار تجاوز ذلك إلى نوع من التفاعل بين الذات والموضوع، بحيث يُؤثِّر كلٌ منهما في الآخر باستمرار، حتى تنتهي القصيدة، وهذه التقنية تُسهم في نموّ الذات والموضوع على حد سواء.

٤- ظهر في قصيدة بردى للشاعر العطار أنه كان دقيقًا في اختيار الألفاظ وعناصر الصورة البيانية، فكانت ألفاظه وصوره من النوع الذي يحمل صدًى عاطفيًّا، وظلالاً وجدانية.

٥- اهتمَّ الشاعر العطار بالإيقاع الموسيقي اهتمامًا بالغًا، فجاء متناغمًا مع موضوعه ومشاعره، وظهر هذا الإيقاع واضحًا في الحروف والكلمات والقافية والوزن الشعري.

٦- يندرج هذا البحث ضمن الدراسات الأدبية والنقدية، التي تتناول العمل الأدبي بالتحليل والوقوف على المزايا، وتُسهم في تنمية التجربة الشعرية لدى الأدباء.

ملحَق يتضمن القصيدة المدروسة
بردى نهر دمشق الخالد

بـردى سَلسَـلُ البقـاءِ ولحـنٌ ... عبقـريٌّ علـى المَـدى يتغنَّـى
رفَّ بـين الحقـولِ نشـوانَ هيمـا ... نَ وغنَّـى الرُّبـا فجُنَّـت وجُنّـا
مـرَّ كالعاشـقِ المُتيَّـم بالـرَّو ... ضِ وكالطَّـيرِ يَسـكبُ الـرُّوحَ لَحنـا
قـصَّ أسـطورةَ الليـالي الخـوالي ... بخيـالاتِ شـاعرٍ مـا تَجنَّـى
وروى قِصَّـةَ الغَساسِـنةِ الغُـ ... ـرِّ وعَهـدًا مـن بَهجَـةِ الفَجْـرِ أسـنَى
الألى سَـطَّرُوا المَحامِـدَ في الأر ... ضِ وعاشـوا كَرْمًـا وكأسًـا ومُزنـا
واسـتطابوا الهَـوى ولَـذُّوا الهَنـاءا ... تِ وعَبُّـوا النَّعيـمَ دَنًّـا فدَنّـا
سَـكِرُوا رافِهـينَ سَـكرةَ عـانٍ ... لم يُفِـقْ مُهجـةً ولَـم يَصـحُ جَفنـا

☆☆☆

وحكـى إمـرةَ الغَطارفـةِ الصِّيـ ... ـدِ ومَـن أشـرقُوا علـى المُلكِ يُمنـا
الحُمـاةُ الأُبـاةُ مِـن عَبـدِ شَـمسٍ ... شَـرُفُوا مَغرسًـا كريمًـا ومَجنَـى
أوسـعوا جانـبَ الحضـارةِ حُسـنًا ... ورَعَـوا أمرَهـا وأعلَـوهُ شَـأنا
وغَذوهـا نَباهـةً وائتِلاقًـا ... فانجلَـتْ خاطـرًا ورأيًـا وذهنـا
ولقـد طافَـتِ العصـورُ عليهـا ... وهـي عشـواءُ تـذرعُ الفكـرَ ظَنّـا
خلَصَـت مـن عمايـةٍ وضَـلالٍ ... وعقـولٍ تَعـجُّ جَهـلاً وأفنـا
ملكوا الأرضَ فاستقادَت لهم طَو ... عًـا ودانَ الوُجـودُ سَـهلاً وحَزْنـا
فتَحوهـا مراحمًـا وسماحًـا ... غـيرَ مـا فاتحـينَ ضَربًـا وطَعنـا
وبَنَوهـا علـى المكـارمِ دارًا ... فزكَـتْ بالأخايـرِ البيـضِ سُـكنا
غبرَ النـاسُ في رُؤى الدَّهـرِ لَفظًـا ... وانطـوَوا في الغيـوبِ لفظًـا ومعنـى
زيَّنـوا الكـونَ بالهدايـا والنُّـو ... رِ وأضفَـوا عليـه علمًـا وفَنّـا
ذكريـاتٌ يحيـا بهـا ونجـاوى ... تركتـه مُشـتَّتَ النَّفـسِ مُضنَـى

☆☆☆

مُتعَبُ الـرُّوحِ إن تذكَّرَ أنّـا ... موجَـعُ القلـبِ إن تلفَّـتَ حنّـا
مـا عليـه إن جـرى كالـحَ الوَجْـ ... ـهِ كَئيبًـا جـمَّ الهمـومِ مُرنّـا
بـينَ جَنبَيـهِ مـن صـراعِ اللَّيـالي ... مـا يُعَنِّـي ومـا يَهيـجُ المُعنَّـى
سـاربٌ في الفجـاجِ مـا يَـتروَّى ... راكـضٌ في الوهـادِ مـا يتأنَّـى
مـا لنهـرِ الخلـود يجـري مُغيظًـا ... مُحنقًـا مُتَـرعَ الجَوانـحِ ضغنـا
أتـراهُ اجتَـوَى الذيـنَ أضاعُـو ... هُ فولَّـى غضبـانَ يُعـرضُ عنّـا

☆☆☆

مَفزعي في الخُطوبِ إنْ شفَّني الهَـ ... ـمُّ ومَـرَّ النَّهـارُ يطفـحُ حُزنـا
يجـدُ القلـبُ في حواشـيه دُنيـا ... مـن فنـونٍ، ومتعـةٍ ليـس تَفنـى
مـن نسـيمٍ يظـلُّ يَنفـحُ عِطـرًا ... وندًى كالغَمـامِ يَهتـنُ هَتنـا
ورياضٍ غنيـةٍ بالغـوالي ... حانيـاتٍ علـيَّ غصنًـا فغُصنـا
وعيـونٍ سَـحّاحةٍ باللآلي ... سـاكباتٍ تُغالـبُ النَّـومَ ضَنّـا
يستحمُّ الصَّفصافُ في ضفَّتَيـهِ ... ويُناجيـهِ ناعـمَ الفَـرعِ لَدْنـا
مُستهامًا يُسلسـلُ الـرُّوحَ دَمعًـا ... ويُصاديـهِ عَبقريًّـا مُفنّـا
بـينَ أفيائـهِ تَمَـرَّغُ روحًـا ... بـين أمواهـهِ تبلَّـلُ ردنـا
يَترامـى عليـه شـوقًا وحُبًّـا ... وهـو أصبـى إليـه نفسًـا وأحنـا
يقـفُ الدلـبُ منهمـا مُستريبًـا ... شـاخصًا مقلـةً وقلبًـا وأُذنـا
وهمـا في تـلازمٍ وعنـاقٍ ... يطويـانِ الزمـانَ قرنًـا فقرنـا
لا يُحِسَّـانِ للحيـاةِ مـلالًا ... تَخذاهـا حمًـى حبيبًـا ومَغنـى
رَشَـفاها رغـادةً وصفـاءً ... كرَعَاهـا خمـرًا وصفـوًا وأمنـا
وهـي وردٌ يشـوي الضُّلـوعَ أُجـاجٌ ... مُستَسِـرٌّ يَفيـضُ رَنْقًـا وأجنـا

☆☆☆

بـردايَ الحَبيـبُ يـا فَرحـةَ الـرُّو ... حِ ويـا مُنيـةَ الهَـوى مـا تمنَّـى

يا شفاءَ القلوبِ يا كوثرَ الخُلـ ـدِ ويا مَنهلاً يُناسِمُ عَدْنا
أنتَ نَجوايَ إن أظلَّنيَ الشَّجـ ـو وأنحى عليّ سُقمًا ووَهْنا
وردُكَ العذبُ من أمانيِّ أحلى جَرْسُك الحلوُ من أغانيَّ أغنَى
أنتَ تَجري في خاطري وضُلوعي وتُعيدُ الحياةَ روضًا أغنّا
وتُثيرُ الهَوى فيَهمي دُموعًا وتَهُزُّ الفُؤادَ رُكنًا فرُكنا
تنتحي جِلَّقَ الحَبيبةَ لَهفا نَ وتَجري في مَهدها مطمئنّا
وهي في فرحةِ المَشوقِ تلاقيـ ـكَ وتَحنو عليكَ صدرًا وحُضنا
وتُحيِّيك بالموائس لُدنًا وتُناجيكَ بالصَّوادحِ لُسنا
وتُغنِّي فيَخفقُ النهرُ قاعًا وضفافًا خضرًا نطافًا ومَتنا
تتراءى في السَّهلِ تَنسابُ فيه تتثنَّى ما شئتَ أن تتثنَّى
كشريطٍ من فضةٍ في وشاحٍ سُندسيٍّ يَسبي النَّواظرَ حُسنا
جوُّكَ السمح من شذا المسك أندى نفسًا عابقًا وأشهى وأهنا
أنت للشعرِ مُلهِمٌ يَغمرُ الشِّعـ ـرَ لُحونًا ويُكسبُ الفَنَّ وَزنا
يتغنَّى بك الهوى مستهامًا ليس يختارُ غيرَكَ الدهرَ خِدنا
يَدرجُ الحبُّ في حماكَ شهيًّا كل دوحٍ يُظِلُّ قيسًا ولبنى
وتطلُّ الطيورُ هيما تُغادي ـك فُرادى وتنثني عنك مَثنى
ملء أرواحها حنينٌ وشوق وضلوعٌ على ودادكَ تَحنى

☆☆☆

برادي الذي حببتُ على الدهـ ـرِ وأحللتُهُ فؤادي سُكنى
أنتَ مني الحلمُ الذي أتَشَهَّى أَنتَ مني الشعرُ الذي أتغنَّى

مصادر البحث ومراجعه

- أسرار البلاغة، لعبد القاهر الجرجاني، تحقيق: محمود محمد شاكر، مطبعة المدني، جدة والقاهرة.
- أنور العطار- الأعمال الشعرية الكاملة، جمع وإعداد: هاني أنور العطار، دار الفكر، دمشق ٢٠٢٠.
- دراسات في فقه اللغة، للدكتور صبحي الصالح، ط٢، دار العلم للملايين، بيروت ٢٠٠٩.
- دراسات نقدية لظواهر في الشعر العربي، الدكتور حسين علي الدخيلي، دار الحامد للنشر والتوزيع.
- ديوان الأعشى، دار الكتب العلمية، بيروت ٢٠٠٩.
- الصناعتين، لأبي هلال العسكري، تحقيق: علي محمد البجاوي ومحمد أبي الفضل إبراهيم، المكتبة العصرية، صيدا وبيروت ١٤١٩هـ، ص١٢٩- ١٣٠.
- العمدة في محاسن الشعر وآدابه، لابن رشيق القيرواني (ت ٤٦٣هـ)، تحقيق: محمد محيي الدين عبد الحميد، ط٥، دار الجيل، بيروت ١٩٨١.
- قضايا الشعر العربي الحديث، للدكتور عبد الله خضر حمد، دار القلم، دمشق ٢٠١٧.
- الكتاب، لسيبويه، تحقيق: عبد السلام هارون، ط٣، مكتبة الخانجي، القاهرة ١٩٨٨.
- لسان العرب، لابن منظور، ط١، دار صادر، بيروت ١٩٩٢.
- مسالك الأبصار في ممالك الأمصار، لابن فضل الله العمري، ط١، المجمع الثقافي، أبو ظبي ١٤٢٣هـ.
- المعجم الوسيط، ط٤، مجمع اللغة العربية بالقاهرة ٢٠٠٤.
- المفصَّل في علوم البلاغة العربية، للدكتور عيسى العاكوب، جامعة حلب ٢٠٠٠.
- موسيقا الشعر العربي، لمحمود فاخوري، مطبوعات جامعة حلب ١٩٩٦.
- الموشح في مآخذ العلماء على الشعراء، للمرزباني (ت ٣٨٤هـ)، تحقيق: محمد حسين شمس الدين، دار الكتب العلمية، بيروت.
- نزهة المشتاق في اختراق الآفاق، للشريف الإدريسي، عالم الكتب، بيروت ١٤٠٩هـ.
- النشر في القراءات العشر لابن الجزري، دار الكتب العلمية، بيروت.

المُعَلَّقاتُ الشَّامِيَّةُ السَّبْعُ
سَعيد عَقل - فَيروز - الرَّحابنة

الدكتور شَوقي المَعرّي[1]

(1) الأستاذ في جامعة دمشق سابقاً، والباحث في علوم اللغة العربية وآدابها.

ملخَّص البحث

يتناول هذا البحث دراسة للقصائد التي غنَّتها فيروز، للشاعر سعيد عقل، وسميتها مجازًا «المعلقات»، لما فيها من معان وألفاظ وصور جميلة قد تتفرد بها، وقد تناولتُ بالتحليل والدراسة كلَّ قصيدة منها على حدة.

وقد أبرزتُ أهم ما ورد في تلك القصائد مثل «الشام» أو «دمشق»، و«الغوطة» تلك البقعة التي عدَّها القدماء من جنان الدنيا الأربع، و«ضفاف بردى»، وما جمعه بين «لبنان وسوريا» في أغنية واحدة، لأنهما الأكثرَ ارتباطًا والتصاقًا، كما تطرق في إحدى قصائده لمصر.

لقد تميزت تلك القصائد باللغة العالية، والأسلوب الرفيع، والصورة الساحرة. وهذا كله يتفرد به سعيد عقل في كل شعره لا هنا فحسب.

يُعدُّ هذا البحث رحلة شعرية شآمية، كتبها واحد من أبرز شعراء العصر الحديث، ولحَّنها أشهر المُلحِّنين، وغنتها فيروز التي تعد المطربة الأولى، وكنتُ فيها محلِّلاً متذوقًا، قرأت تلك الأغنيات، وسمعتها كثيرًا قبل تحليلها، ولم أشأ أن أثبت حاشية واحدة؛ لأنني لم أشأ أن أُزيح بصري عن النص، وأتمنى أن يستمتع كل من يقرأ كما استمتعت.

مقدمة:

١

كم صعب عليَّ أن أكتب مقدمة مناسبة لهذا الموضوع الذي كل ما فيه ساحر، كما صَعُبَت عليَّ مقدمة الكتاب الذي كتبته عن السيدة فيروز، فكل واحد من سعيد عقل وفيروز والرحابنة يستحق كتابًا مستقلاً، ولكن لما كان لا بد من تقديم لهذا البحث فقد ارتأيت أن أقدم ببعض الأسطر تعريفًا بما ضمَّه البحث، وإن كان كل من سيقرؤه يعرف معظم ما سأكتب.

سَمَّيت الأغاني التي غنتها فيروز للشاعر سعيد عقل «**المعلقات**» مجازًا، لما فيها من معان وألفاظ وصور جميلة، وهذا ما يميز لغة سعيد عقل. وحلّلت كل أغنية وحدَها معتمدًا التذوق الفني، الذي عندي والذي لا أراه بعيدًا عن أذواق الجميع، أو أذواق من يسمع لفيروز، ومعظم المجتمع يمع لها، ويطرب لصوتها.

حاولتُ أن أكتب البحث بطريقة أخرى، بأن أُوزِّع الأفكار وأضعها في عناوين مشتركة، جربت هذا لكنني وجدت أنني سأسيء للنص متكاملاً؛ لأن ثمة أبياتًا ارتبط بعضها ببعض ارتباطًا وثيقًا وعضويًا، فتراجعت إلى تحليل كل قصيدة على حدة.

لكنني في هذه المقدمة سأذكر تلك العناوين المشتركة بين كل الأغنيات، ليطلع القارئ عليها، وأقول مقدمًا على الرغم من اشتراك القصائد بتلك العناوين، إلا أن الشاعر لم يقع في التكرار، كيف يقع وهو الذي يملك معجمًا لغويًا زاخرًا غير معجم الصور التي تفرَّد بها، فكانت علامة مسجلة باسم «**سعيد عقل**».

سعيد عقل

٢

وهذا أبرز ما ورد..

كما يحلو لكل منا أن ينادي مرة «**الشام**» ومرة «**دمشق**» كذلك حلا لسعيد عقل أن يذكر اللفظين، وقد ضمَّن أغانيه **تاريخ دمشق ومجدها**، وتكلم على ماضيها المجيد العظيم ووقوفها في وجه المعتدين الذين احتلوها، والتضحيات التي قدمها شهداؤها حتى حقَّقت جلاء المستعمر الفرنسي، ومن أبرز الألفاظ التي ذكرها هنا كلمة «**السَّيف**»، لما في رمزيته من بطولة حتى بات شعاراً في العاصمة يحتل مكانًا يراه كل من يمرُّ من ساحة الأمويين، **الأمويون** الذين ورد ذكرهم في بعض هذه الأغاني.

وما من شاعر ذكر دمشق إلا عرَّج على «**الغوطة**»، تلك البقعة التي عدَّها القدماء من جِنان الدنيا الأربع، فأنت تشعر برائحة كل أنواع الورود وعطرها، وترفع رأسك نحو أشجار الحَور العالية، التي تعلق عليها علم البلاد، في الغوطة تسمع شدو كل الطيور والعنادل، وتسمع خرير المياه، وتشمّ ثرى الوطن أحمرَ، وتشتهي كل أنواع الثِّمار، باختصار أنت تُحرِّك، بل هي الغوطة تحرِّك حواسَّك الخمس.

وما من شاعر وصف دمشق نسي أن يمرَّ على «**ضفاف بردى**»، من منبعه في سهل الزبداني حتى مصبه في الغوطة مع أفرعه السبعة، يسير معها ويتغنّى بها، ويجعل بردى يشاركه رحلته والوصف.

وما يلاحظ كثيراً أو في معظم تلك الأغاني أن سعيد عقل جمع «**لبنان وسوريا**» في أغنية واحدة، وهما البلدان الأكثر ارتباطًا والتصاقًا، بل كانا بلداً واحداً، وما زالت الحدود بينهما مشتركة. لقد كان مصيرهما واحداً ولا يزال، كما تطرق في إحدى قصائده لمصر، وهذا وقف عليه معظم شعراء العصر الحديث الذين يؤمنون بالقومية العربية.

وبعد فإن ما قدَّمه سعيد عقل في هذه الأغنيات لم يصله أحد من حيث اللغة المتميزة، والأسلوب الرفيع والصورة الساحرة. لقد تفرَّد سعيد عقل في كل شعره لا هنا فحسب، وليس المجال هنا لدراسة شعره، بل أُقدِّم عنه ترجمة موجزة، رأيت من الواجب إثباتها.

٣ - الشاعر:

سعيد عقل من أشهر شعراء لبنان وكُتَّابه، وكان وزيراً وصحافيًّا، من أبرز نوابغ لبنان في القرنين التاسع عشر والعشرين، يُصنَّف مع جبران خليل جبران، وأمين الريحاني، وميخائيل

نعيمه، والأخطل الصغير.

ولد في عام ١٩٠٢ في مدينة زحلة، عُرف بالطيبة، ورقة الإحساس، ورهافة الذوق، وحب الشعر، وتقديس وطنه.

تلقى دراسته في «**الكلية الشرقية**» بزحلة، حتى أتمَّ قسمًا من المرحلة الثانوية، وكان ينوي التخصص في الهندسة، وفي الخامسة عشرة من عمره اضطر إلى أن ينصرف عن الدراسة، ليتحمل مسؤولية ضخمة، وأعباء بيت غريق بعد أن أُصيبت العائلة بانتكاسة مالية كبرى، فمارس الصحافة والتعليم في زحلة، لكنّه استقر في بيروت منذ مطلع الثلاثينيات، وكتب بجرأة وصراحة في عدة جرائد أشهرها: الشراع، والمكشوف، والبشير، والبرق، ومجلات: المشرق، والصيّاد، والأسبوع العربي، والكفاح..

درَّس بعض المواد في المدارس، كما درَّس في دار المعلمين، والجامعة اللبنانية، وجامعة الروح القدس بالكسليك، وألقى دروسًا لاهوتية في معهد اللاهوت بالأشرفية، كل ذلك كان يتميز فيه، لأنه كان يقدمه بلغة متقنة، وبراعة لفظية كبيرة، وعمق في المعرفة والعلوم وفكر نيّر..

أسس عام ١٩٦٢ «**جائزة سعيد عقل**» للأدب من أجل القضية اللبنانية، التي كان منحها من ماله الخاص «لأفضل صاحب أثر يزيد لبنان والعالم حبًّا وجمالاً».

عاش سعيد عقل أكثر من مئة عام، إذ توفي عام ٢٠١٤ ويُعرَف عنه أنه كان زاهدًا في المناصب السياسية الرفيعة، منصرفًا إلى الإبداع ونظم الشعر المترف الجميل الأنيق المبتكر، المتخم الصور الرائعة والخيال المجنّح الذي يرقى به إلى مستوى أكبر شعراء العالم المعاصرين.

تأثر سعيد عقل بشعراء الغرب الرمزيين، وأخذ عنهم كلامهم، واستعار صورهم، وغرق في مفردات رموزهم وإغرابهم أحيانًا، وابتكر الكثير من الأسماء التي أدخلها في عناوين شعره..وكان من دعاة الإيحاء واللاوعي في الشعر والأدب والفن.

أما أهم أعماله الشعرية فهي: بنت يفتاح (مأساة شعرية)، قدموس (مأساة شعرية بخلاصة لبنانية) المجدلية، رندلى، أجمل منك؟ لا؟ لبنان إن حكى، كأسٌ لخَمر، سر الأصابع، أجراس الياسمين، كتاب الورء (نثر شعري)، دلزي، قصائد من دفترها، كماَ الأعمدة، خماسيات (بالحرف القومي اللبناني)، الذهب (قصائد بالفرنسية)..

كان أكثر شعر سعيد عقل عموديًّا، وإن نوَّع في أوزانه وتفعيلاته، ودار حول الغزل الشفاف الأنيق المترف، وقد نظم في دمشق والشام عددًا من القصائد الرائعة التي غنتها «فيروز» على خشبة مسرح معرض دمشق الدولي منذ مطلع الستينيات مثل: سائليني يا شآم، نَسَمت من صوت سوريا الجنوب، قرأت مجدك، يا شام عاد الصيف، شآم يا ذا السيف لم يغب..كما نظم قصائد في القدس (زهرة المدائن)، القدس في البال، سيف فليشهر، وفي مكة (غنيت مكة أهلها الصيد)..

٤

فيروز وزوجها عاصي الرحباني في لقاء صحفي

وبعد فهذه رحلة شعرية شآمية كتبها واحد من أبرز شعراء العصر الحديث، ولحنها أشهر ملحني العصر، وغنّتها مَن لا تصنيف لها بين من يُغنّي، وكنتُ فيها محلِّلاً متذوقًا، وأنا الذي يطرب كما يطرب الحجر، قرأتُ تلك الأغنيات كثيرًا قبل تحليلها، وأنا من سمعها كثيرًا مذ كنت صغيرًا، لم أشأ أن أُثبت حاشية واحدة؛ لأنني لم أشأ أن أزيح بصري عن النص. وأتمنى أن يستمتع كلٌ من يقرأ كما استمتعت.

١ - سائليني يا شآم

«أَنا حَسْبِي أَنَّنِي مِنْ جَبَلٍ هُوَ بَيْنَ اللهِ وَالأَرْضِ كَلاَمْ»

تعدُّ قصيدة الشاعر سعيد عقل من أجمل ما نظمه الشاعر، ومن أجمل ما قيل في دمشق، وجمال هذه القصيدة وغيرها نابع من أنها تصدر عن شاعر عُرف بالرومانسية والرقة في اللفظ الذي يعرف الشاعر رصْفه وضمَّ بعضه إلى بعض، كما عرف الغموض والرمز، إذ إننا نقرأ كثيرًا في الأبيات ذات الشاعر وأحاسيسه وعواطفه بين الكلمات والجمل.

تقع القصيدة في (٧٠) بيتًا وزَّعها الشاعر على ثمانية مقاطع، تفاوت عدد أبيات كل مقطع، اختار منها الرحابنة عددًا من أبياتها، مطلعها:

سَائِلِينِي حِينَ عَطَّرْتُ السَّلاَمْ كَيفَ غَارَ الوَرْدُ وَاعْتَلَّ الخُزَامْ

يبدأ الشاعر القصيدة بالسؤال المعبّر الذي أجاب عنه الشاعر بنفسه، فالسلام الذي أرسله

للشام فيه كل العبق والعطر، حتى إنَّ الورود غارت منه لجمال لفظه وما فاح منه من عبق، أما لبنان فقد انثنى عطرًا، وارتاح عند ضفتي المدينة التي ينتقل فيها الزهر وتُغرِّد العنادل، وكل هذا جعله يترنَّح سُكرًا وطربًا، فهي- دمشق- المدام والخمر.

وأنا لَوْ رُحْتُ أَسْتَرْضِي الشَّذَا لانْثَنَى لُبنانُ عطرًا يا شَآمْ

هي عبارة سعيد عقل، وتكتشف فيها جانبًا آخر من الصورة عند ضفاف الشام، ضفاف بردى. وكم يحلو للطير أن يبني عشه بأمان هناك؟

ضفَّتاك ارْتَاحَتَا في خَاطِري واحْتَمَى طَيْرُك في الظنِّ وَحَامْ

وتزداد الصورة جمالاً وأنت تراقب الزهور والورود تتسابق مع صوت العندليب والطيور واليمام الذي يصفق بجناحيه فرحًا، فتشعر بنفسك أنك معهم بين طبيعتها الساحرة، وهذا أول وظائف الشعر.

نَقْلَةٌ في الزهرِ أمْ عَنْدَلَةٌ أنتِ في الصَّحْوِ وتَصْفِيقُ يَمَامْ

هذا الشعور الذي يشعره كل من كان في الغوطة، حتى إنه يشعر أنه في سُكر، فيثمل من عطر الورد، فالشام هي السكب، هي من يسكب عطرها في كل مكان كما الخمرة، وكلاهما يجعل الإنسان في نشوة.

أنا إنْ أَوْدَعْتُ شعْرِي سَكْرَةً كُنْتِ أنْتِ السَّكْبَ أوْ كُنْتِ المُدَامْ

أما المقطع الثاني فيبدأ بالبيت السادس يخاطب فيه نهر بردى:

رُدَّ لي منْ صَبْوَتي، يَا بَرَدَى ذكْرَيَات زُرْنَ في لَيَّا قَوَامْ
لَيْلَةَ ارْتَاحَ لَنَا الحَوْرُ فَلاَ غُصُنٌ إلَّا شَجٍ أوْ مُسْتَهَامْ

يخاطب الشاعر بردى، ويطلب منه أن يُعيد له ذكريات الصّبا عندما كان يزور دمشق، فهو لن ينسى منظر بل سحر أشجارها التي كانت ترتاح عند قدمي نهر بردى، ففيها الغناء، وفيها الشجى، وهو وغيره المستهام، والعاشق كبردى الذي يغزل أغاني العشق وتشده صورة جميلة، عندما تهاوى الضوءُ إلا نجمة سهرت تطفئ كل ما حولها، ليحلو لها وللعاشقين الضياء..ومن الأبيات الجميلة جدًّا في هذا المقطع قوله:

وَجِعَتْ صَفْصَافَةٌ منْ حُسْنِهَا وَعَرَا أَغْصَانَهَا الخُضْرَ سَقَامْ

يُضفي سعيد عقل على الشجر روح الإنسان، ويستعير لها الصورة المعبرة، فالصفصاف تألَّم لحسنها، وأصاب أغصانها الخضرَ مرضٌ وسقام، فأبعد الشعر عن جبهتها يسأل عن الحسن أين أقام، وإن كان يعرف أنه لم يُقم إلا عندها..لم تترك دمشق للشاعر أي مجال للخوف أو الحزن، ودمشق هي الحنونة التيَ استقبلته بابتسامة تملأ المكان، فمحت كل تعب وإرهاق.. فيلتقي مع المحبوبة عندما:

تَقِفُ النَّجْمَةُ عَنْ دَوْرَتِهَا عِنْدَ ثَغْرَيْنِ وَيَنْهَارُ الظَّلاَمْ

أما المقطع الخامس فهو خمسة أبيات فقط، يخاطب فيها الشاعر دمشق، ويطلب منها أن تقدم للمحتاج ما يطلبه بعد أن افتقر الشرق وظمئ، وهذا ليس ببعيد عن أهل فهم التاريخ في عروة الدهر، ويعد هذا المقطع الأشهر في القصيدة، ربّما لأنَّ المطربة السيدة فيروز غنّت ثلاثة أبيات منه وهي:

ظَمِئَ الشَّرْقُ، فَيَا شَامُ اسْكُبِي وَامْلئِي الكَأْسَ لَه حَتَّى الجَمَامْ!
أَهْلُكِ التَّارِيخُ مِنْ فَضْلَتِهِمْ ذِكْرُهُمْ فِي عُرْوَةِ الدَّهْرِ وِسَامْ
أُمَوِيُّونَ فَإِن ضَقْتِ بِهِمْ أَلْحَقُوا الدُّنْيَا بِبُسْتَانِ هِشَامْ

ويعود الشاعر في المقطع السادس ليتحدث عن المجد العظيم الذي يُعدّ حلمًا لأي إنسان، وهذا الحلم هو المجد الذي جعلها محجًّا لكل من أراده، ويشير في هذا المقطع إلى حضارة الشام وعلمها وثقافتها التي تتمثل في كل جانب من جوانبها، وكل منحى من مناحي الحياة، وأهمها الدين السمح، ويتطرق في أحد أبيات هذا المقطع إلى بولس الرسول الذي كان وثنيًّا يحارب المسيحية، ولكن ما إن وطئ أرض الشام حتى صار الرسول الأول للمسيحية، وأكثر من ذلك فإنّ العقل يُصرع عند عتبات دمشق إذا ما أراد أن يصطدم بالحقّ.

أما المقطع الأخير فهو في ثلاثة أبيات فقط، هي من البديع جدًّا، فهو الفرد، وما أعظم أن يتفرد الإنسان بشيء جميل عظيم، هو الشجو والفرح، هو البسمة والسعادة التي جناها كلها من جَبَل، ربما لم يبدع شاعر في وصفه، هو جبل بين الله والأرض، هي القمم التي يحلم كل منا أن يرتقيها ويسمو ويعلو ويشمخ، وإلى أين؟ هل هناك أبعد من الشمس؟ لا..

أَنا لَسْتُ الغَرِدَ الفَرْدَ إِذَا قَالَ طَابَ الجُرحُ فِي شَجْوِ الحَمَامْ
أَنا حَسْبِي أَنَّنِي مِنْ جَبَلٍ هُوَ بَيْنَ اللهِ وَالأَرْضِ كَلاَمْ
قِمَمٌ كَالشَّمْسِ فِي قِسْمَتِهَا تَلِدُ النُّورَ وَتُعْطِيهِ الأَنَامْ

٢ - قرأتُ مَجدَك

«شآمُ لفظُ الشآمِ اهتزَّ في خَلَدي»

كثيرًا ما ترك الشاعر لنا حرية التفكير في قراءة ما يبدأ به إن لم يكن واضحًا، وهذا ليس بغريب عن سعيد عقل، الذي يتركك في معظم شعره حائرًا تبحث عما يريد، ينثر لك الجمال بل السحر، وما عليك أنت إلا الغوص، تقرأ:

«**قرأت مجدك**»..والمجد لا يحسن إلا للأوطان، لكنه لا يقول لك مباشرة من يخاطب؟! بل يضيف شبهي جملة قصيرتين جميلتين معبرتين، تتعلقان بالفعل قرأت، قرأت «في قلبي» وهل

أجمل من أن يقرأ الإنسان في قلبه، ولكن شبه الجملة الثانية هي الأبلغ، وقرأت «في الكتب».. ربما قصد الشاعر المساواة بين قلبه وبين ما ورد في كتب التاريخ عن الشام. ويتخيل الشاعر أن الشام غارت من خطاب الشاعر للمجد، فأسرع إلى خطاب الشام:

«**شآم ما المجد**» يقول لها: لا تغاري فمن هو المجد هو أنت. ما المجد؟ لن يكون إلا أنت.. يخاطبها بالجملة الاسمية التي تعني الإثبات والتقرير والتحقيق فيقول: «أنت المجد»..ولو اكتفينا بالجملة الاسمية لكان لنا وللشام ما نفخر به، ولكن لا بأس من أن نقرأ جملة فعلية منفية، لكن النفي الذي فيها مستمر إلى المستقبل «**لم يَغِبِ**»..نعم فالمجد لن يغيب.

إن عبارة سعيد عقل غريبة تحتاج منا القراءة المتأنية، حتى في الطبيعة التي يفترض أنها صورة معروفة للإنسان، لكنه قد يجمعها مع غيرها، فتأتيك صورة ساحرة تثير خيالك وترمي بك بعيداً، كهذه الصورة التي في البيت التالي:

«إذا على بردى حَوْرٌ تأهّلَ بي أحسَسْتُ أعلامَك اختالَتْ على الشُهُبِ»

أنت لا تستطيع فهم ما أراده الشاعر من القراءة الأولى ولا الثانية ولا السماع العاشر لها، فقد بدأ البيت بأداة الشرط «**إذا**» التي فيها معنى الظرفية الغالبة، وأتبعه بشبه الجملة «**على بردى**» وهذا من القليل في الكلام شعراً ونثراً قديمه وحديثه، أما وقوع الاسم بعد أداة الشرط فهو مستعمل بكثرة في الشعر القديم والحديث، وما من شك في أن استعمال شبه الجملة قبل الاسم «**حورٌ**» له دلالة، فكل تقديم جائز في اللغة إنما الهدف منه إبراز أهميته، فالشاعر قدم «**على بردى**» على حوره، ولو لمْ يذكرْ كلمة «**حورٌ**» مباشرة لتركنا نفكر ماذا على بردى، وعلى بردى أشياء جميلة كثيرة.!

ومن يتابع البيت حتى آخره يكتشف السبب الذي جعلِ سعيد عقل يذكر الحور، وقبل أن نعرف علينا قراءة الجملة التي تلت «**حورٌ**» قال: «**تأهّل بي**»..هل كان سعيد يقصد زيارة بردى فتأهّل به؟ بالتأكيد، وقد اختار الحور لأنه أعلى الشجر، وأعلى الشجر يجعلك تنظر إليه فيَصلُ نظرك حدود السماء. إذ لا تستطيع حجب السماء عن نظرك وأنت تتطلع إلى أعلى شجر الحَور.

وأي سماء هذه التي ننظر إليها؟

أتريد أن تعرف؟ اقرأ بقية البيت: «**أحسَسْتُ أعلامَك اختالَتْ على الشُهُبِ**»

هل تخيَّل أحدنا أنه إذا ما نظر إلى أعلى الحور شعر أن أعلام دمشق تختال على الشهب والنجوم؟!

أيكون لمعانُ وَرَقِ الحَور كلمعان الشهب والنجوم؟

نعم..

«**أيّامَ**»..

يترك لك الشاعر أن تتوقع ما سيلي الظرف فيأتيك بجملة اسمية، وهذا من القليل في الشعر لكنه بليغ جميل قوي..

«عاصمةُ الدنيا هنا ربطت»..

الجملة من المبتدأ «**عاصمة**» المضاف إلى كلمة هي الأوسع مدى «**الدنيا**» فلا أوسع من الدنيا! ثم يليها «**هنا**» التي تدل على المكان بقوة تعبيرها.. هنا..أي هنا في الشام عاصمة الدنيا.. العاصمة الأبية القوية ذات العزم الأموي، الذي يعادل عزم الحقب كلها، عزم العصورِ كلها. «**بعزمتَيِ أمويٍّ عزمة الحِقبِ**».

هذه العاصمة عاصمة القوة وعاصمة الدنيا، يذكرها كل إنسان في كل زمان ومكان، هذه العاصمة: «**نادَتْ**»..

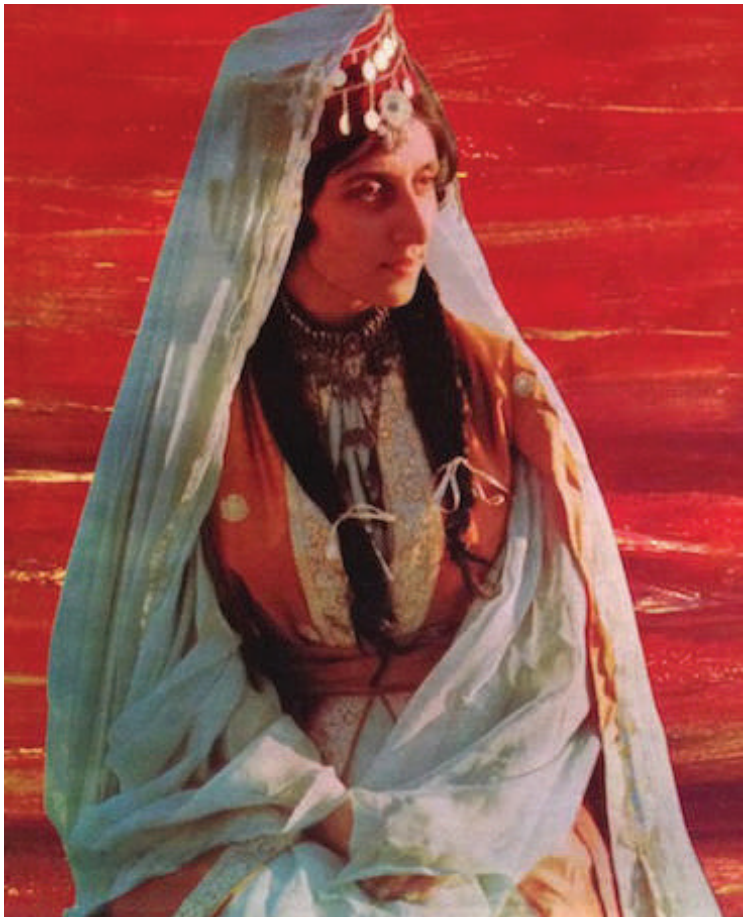

فيروز باللباس التراثي السوري

مَن نادت؟ من خاطبت؟ أهي نادت مستنجدة؟ لا كيف وهي عاصمة الدنيا؟

ما إن تُذكَر دمشق حتى يُذكر التاريخ ممثلاً باسم «**هند**» رمزًا للإنسان، ويُذكَر الأندلس التي وصلها العرب، يتذكر غوطتها، وغوطة دمشق رمز دمشق، رمز الطبيعة الساحرة، رمز الربيع والخير، في الغوطة أطيب الثمار وأعرق الشذا من أعواد النبت الذي يفوح عطرًا في كل الأرجاء.

«نادت فهبَّ إلى هندٍ وأندلسٍ كغوطةٍ من شبا المُرّان والقُضُبِ»

واستعمال «**الشبا والمران**» هنا دقيق جدًّا؛ إذ إن لكل كلمة غير معنى، لكن الشاعر استعمل اللفظ الذي ربما جمع بين معنيين، الشبا النار والرائحة، والمران الشجر أو الرماح، وكل الألفاظ تجوز هنا، ولكن الأنسب أن تكون الأشجار ورائحتها ماداما وردا في سياق الغوطة.

«عاصمة الدنيا»..

«خلّت على قمم التاريخ طابعها»..فدمشق تركت بصمتها على قمم التاريخ، وهذا لفظ غريب ومعبر، أن يجعل سعيد للتاريخ قمة، والقمة تكون غالبًا للجبل العالي، فلا أعلى من قمم التاريخ التي وصلت إليها الشام، وتركت فيها علامات تدل عليها، وأكثر من ذلك فإن عاصمة الدنيا «**علّمتَ أنّه بالفَتْكةِ العَجَبِ**»..وكتابة التاريخ أجملها وأبلغها ما كتب

بالسيف يفتك بالأعداء.

على بساطة ألفاظ سعيد عقل وعذوبتها ورومانسيتها في الغزل، فأنت تقف أحيانًا أمام ألفاظ جزلة قوية لا تتركك تسير، بل كل كلمة توقفك أن أعد قراءة البيت..وهذا ما لاحظته واضحًا في البيت التالي:

«وإنّما الشعر شرط الفَتْكَة ارتُجِلتْ على العُلا وتَمَلّتْ رِفْعَةَ القبَبِ»..

يحصر سعيد الشعر بالفتكة، والفتكة تكون للسيف، فبدأ بـ «**إنما**» التي تدل على الحصر في تركيب جزل، والمعلوم أن الجملة لا تبدأ بها، بل تكون في سياق الجملة، وهنا نستطيع إعادتها قليلاً إلى البيت السابق عندما قال: «**بالفتكة العجب**»..وتمثلت البلاغة في ربط الفتكة بالشعر، فكما الشعر يُرتجل فإن الفتكة تُرتَجل، وكما الشعر يعلو بعيداً وينتشر فإن الفتكة تعلو وتصل إلى أماكن عليا من الرفعة التي أضافها إلى كلمة «**القبب**»..ومن الكلمات الجزلة القوية في هذا البيت الفعل «**تَملّت**»..وكأنها ملأت المكان العالي والقبب.

هذه الفتكة التي حقَّقت الانتصار للإنسان يحق لها أن تفرح بالنصر: «**هذي لها النصرُ**»..وهل أبهى من النصر للأوطان؟ «**لا أبهى**»..والبهاء الذي حقَّقه الانتصار هُزم، ولا يهزم من حقَّقه «**فما هُزِمَتْ**»..إنها الفتكة البكر العَجَب، «**وإن تهدَّدها دهرٌ منَ النُّوَب**»..لاحظ العبارة الأخيرة التي تدل على كثرة من احتل بلادنا، ولكنهم هُزموا دونَ أن يُحقِّقوا مآربهم وأهدافهم.

لقد انتصرت الأوطان على الدهور التي تمثل المحتلين الذين ظلوا في أرضنا دهورًا وعصورًا. وقد أخبر الشاعر عن هذا الانتصار بقوله: «**والانتصارُ لعالي الرأس مُنْحَتَمٌ**» فالنصر مُحتَّم لكل وطن دافع، والانهزام محتم لكل محتل. واقرأ الربط البليغ العَالي المستَوى: «**حلوًا كما الموت**»..الانتصار حلو، والموت حلو، وقد نسأل: وكيف يكون الموت حلواً؟ ونُجيب: عندما يكون تضحية، لأن ما بعد التضحية انتصار، والانتصار حياة وقيامة وطن، فمن ضحَّى لا يهاب الموت، وهو من قال فيه: «**جِئْتَ الموتَ لم تَهَبِ**»..

وجزالة الألفاظ وقوة تعبيرها تأتيك في كل الأبيات، ولاسيما ما سيلي هذا الكلام، يقول:

«شآمُ أرضَ الشهامات التي اصطبغت بعندميٍّ نَمَتْهُ الشمسُ مُنْسَكِبِ»

ينادي الشآم مرتين مرة باسمها وأخرى بمرادف كبير وعظيم يعادل الأرض، فهي «**أرض الشهامات**» ألا يكفي الأرض لنعرف عظمة الشام؟ بلى، ولكن زادت الجملة قوة في إضافة كلمة «**الشهامات**» إلى كلمة «**أرض**»..هذه الأرض التي اصطبغ كل ثراها بدم الأبطال الزكي النقي الطاهر المقدس الذي سفكه الأبطال لتتحرر.

أما استعمال لفظ «**عندمي**» للدم فهو الأبلغ، علمًا بأن القليل استعمَله. والأبلغ تتمة العبارة، فهذا الدم ينسكب من الشمس التي نمته وزادته وضوحًا، ليكون دليلاً لكل من أراد أن يصدق فعل الأبطال.

أما جواب النداء في البيت فكان في البيت التالي:

«ذكَّرتُك الخَمسَ والعشرين ثورتها ذاك النفيرُ إلى الدنيا أنِ اضطربي»

يتذكر لا يُذَكّر الشآم بالثورة التي قامت ضد المحتل في العام ١٩٢٥، وكيف هب الشعب كله بحالة نفير لتَحرير الوطن من المحتلين، وكأن الشعب جعل الدنيا كلها تضطرب و«**قاسيون يميد**»..

لم تغب جزالة الألفاظ عنِ أبيات القصيدة، بل إنها أجزل ما كتب سعيد عقل، فأنت تشعر بالقوة وأنت تقرأ كلمة «**الحديد**»، وتشعر بأن السلاسل تقطعت وأنت تقرأ الفعل «**فُكّي**».. وأن عندك القدرة على كسر القيود التي حاول المحتل أن يُقيِّد بها «متن الشعوب»..والأبلغ هذا الفعل الذي ربما لم نقرؤه إلا نادرًا أو لم نقرأه، اقرأ «**جَبهوا**» تشمخ برأسك وتشعر أن جبهتك وصلت السماء، ولمن رفع هؤلاء جباههم؟ رفعوها للقوة والكبرياء والأنفة والعَظَمة، جبهوها «**لدولة السيف**»، وهنا عبارة مميزة أخرى أن أضاف الشاعر السيف لكلمة الدولة ليرتبط الوَطن بالقوة، ويزيد في الجزالة والقوة إعادة كلمة «**سيفًا**» تربَّى على القتال..لكن تبقى كلمة «**يُواعدُك**» الرقيقة التي إن كانت لينة لكنها أدت الوعد الذي وعد به السيفُ الشامَ. بيت لا يغادركَ إلا بَعد أن يمنحك القوة، ولا تغادره إلا بعد أن تسرقه. أعد قراءته كاملاً:

فُكّي الحديد يُواعدُك الأُلى جَبَهوا لدولة السيف سيفًا في القتال رَبي

كثيرًا ما ربط الشعراء بين سوريا ومصر، وجعلوهما توءَمين في المصائب والشدائد والأفراح والمسرات، أما لبنان فكانت الشام، وفي البيت التالي ربط سعيد عقل بين أشهر ما يمنح دمشق العزة والإباء «**قاسيون**» وبين أشهر ما يدل على الثقافة القديمة والقداسة في مصر «**طور سيناء**»..وقال: إن من جبهوا لدولة السيف «**خلّفوا قاسيونًا للأنام غدًا طورًا**».. لقد جعلوا قاسيون بعظمته مكانًا للتاريخ العظيم الدِيني والثقافي الذي عُرف في جزيرة سيناء المصرية..جعلوا قاسيون « **كسيناءَ ذاتَ اللوحِ والغَلَبِ**»..

قلنا قبل قليل إن لبنان كانت الشام، ولم تكن تنفصل عنها بأي شيء، وكل اللبنانيين الذين تغنَّوا بالشام ربطوا بين البلدين. بل إن من كتب للسيدة فيروز كان لبنانيًا ..! وما من أحد إلا يهتز طربًا مع سعيد عقل وهو ينادي: «**شآمُ**»..ويعترف أنّ «**لفظُ الشآم اهتزَّ في خَلَدي**».. في عقله وفكره فإذا كان اهتزاز العقل أو الفكر لكلمة فالقلب سيسبقه إلَى الاهتزاز..لأن القلب أضعف.

وقد عبر سعيد عقل عن نفسه عندما شبه اهتزاز لفظ الشام «**كما اهتزازُ غصون الأرز في الهُدُب**»..وكلماته الجملة الأخيرة تُعيدك من «**فكّي**» ومن «**السيف**» ومن «**جبهوا**» إلَى الطبيعة الساحرة في لبنان، وأشهر ما في طبيعة لبنان أرز لبنان، وأرق ما في الإنسان أهداب العين، وتعال نربط الأرز والأهداب ونتخيل كيف يهتز عقل الإنسان وقلبه.

ومن الصور الجميلة في هذه القصيدة البيت الأخير:

«أنزلتُ حُبَّك في آهي فشدّدها طَربْتُ آهًا فكُنْت المجدَ في طَرَبي»..

وكمال الصورة في التعبير عن آهات الطرب في صدر الشاعر، لكنها ليست أي آهات، بل الآهات التي تحولت من حب الشاعر الذي أنزله في الشام، فاستقبلتها الشام، وشدد عليها لتكون أكثر تعبيرًا عن حال الشاعر، وأعادتها له فكانت الطرب الجميل وكانت الشام المجد الذي تكوَّن من آهات الشاعر.

٣ - شامُ يا ذا السَّيْفُ لم يَغِبِ
«يومَ عيناها بساطُ السما»

عند سعيد عقل المجد والشام توءمان، لا ينفصل الواحد عن الآخر، هذا ما قرأناه في القصيدة السابقة، وهذا ما نقرؤه هنا، ولكن بلغة أخرى، رفعها وعلّاها لحن ذو ارتفاع سام شامخ، زادهما جمالاً وقوةً صوتُ السيدة فيروز، وكلنا عندما نسمع مطلع القصيدة نشعر أننا نتهيب لحمل ذاك السيف الذي لم يغب يومًا.

تسمع الشطر الأول من البيت الأول:

«شامُ يا ذا السَّيْفُ لم يَغِبِ»..

صحيح أن سعيد عقل نادى «شام» غير مُعَرَّفة بـ (ال) لكن لا شام إلا الشام التي يعرفها كل إنسان، ولاسيما أنه أضاف النداء الذي منحها القوة والتعريف الإضافي لا ليعرفنا بها، بل ليمنحها ما يليق بها. وكأنه أراد بقول الجملة الاسمية: شام أنت السيف الذي لم يغب.

وصحيح أن سعيد عقل استعمل حرف النفي (لم) الذي فيه يقلب الزمن إلى الماضي إلا أنه قصد (لن)..قد يجوز أنه في الماضي لم يغب، لكن قصد الشاعر لن..

وجميل أن يُربَط السيف بالمجد، فقد أضاف الشاعر نداء آخرَ:

«يا كلامَ المجدِ في الكُتُبِ»

لا يقصد الشاعر بكلمة «الكتب» أي كتاب، بل الكتب التي خطتها السيوف مجدًا وسطرتها السيوف كبرياء، فارتبطت كلمات المجد والسيف والشام، فكانت ثلاثة الأقانيم التي يصعب بل يستحيل أن تُفَكّ عراها.

كثيرًا ما كانت الأضداد السبيل الأجمل للتعبير عن بعض ما نفكّر به، لأن «**الضدّ يُظهِرُ حسنَهُ الضّدُّ**»، وكم أجاد الكثيرون في استعمال الضد، وسعيد عقل أكثرهم إجادة، ولاسيما إذا استعمل عبارة أو صورة فيها تلخيص لأحداث عظام، وكأنك تقرأ صفحات اختصرتها عبارة واحدة، اقرأ البيت التالي:

قَبْلَكَ التاريخُ في ظُلْمَةٍ بَعْدَكَ استولى على الشُّهُبِ

الكاف في «**قَبْلَكَ**» تعود على الشام التي ناداها في ثلاث جمل، والكاف تؤكد أن «**شَامُ**» هي

تكريم سعيد عقل

منادى، لاحظْ تقديم شبه الجملة على الكلام كلهَ، الكلام الذي شكل جملة اسمية «**التاريخُ في ظُلَمَة**»، وأنت ستبحث عن الكلمة المناسبةً لتعليق شبه الجملة، وأسمح لنفسي أن أتجاوز قواعد النحو قليلاً، وأعلق شبه الجملة بكلمة «**التاريخ**» نفسها، لا بحالٍ منها، لأن التاريخ قبل الشام كان «**في ظُلَمَة**»، والشام منها ابتدأ الإشعاع ومنها ابتدَأ مولد الدهر، فهي للتأريخ لمن أراد أن يؤرخ، ولما دخل التاريخ من بوابات الشام «**استولى على الشُهُب**»..كان التضاد البليغ بين «**قَبلك**» وبَين «**بَعدك**»، وللضد في الزمن معنى كبير وبليغ جدًّا. والتضاد الأجمل صورةً هو في كلمتي «**ظُلَمَة**» و«**الشُّهُب**» أن يخرج التاريخ من الظلام إلى النور، بل من الظلمة إلى النور، وأي نور؟ هو نور الشهب الذي يوصلك إلى أعلى أو أسمى ما يدل على الضياء..نجوم السماء.

ويتابع سعيد عقل خطابه الشام فيقول:

«لي ربيعٌ فيك خَبَّأتُهُ»

يعرف الشاعر أن للشام ربيعًا لا أحلى منه ولا أغلى، ولا أكثر خضرة وحياةً، مع هذا قدم للعبارة بالجار والمجرور «**لي**» فهو كغيره يتمنى ربيعًا كربيع الشام، ربيعًا خاصًّا به..لا يحمله الآن بل خبَّأه فيها، وكيف يُخبّئ إنسان ربيعًا في الربيع في غوطة هي الربيع إن لم نضف إليه كلمة، أظنه أراد أن الربيع الذَي خبَّأه هو نفسه الربيع الذي في الغوطة، فهي قد خبَّأت له ربيعًا..ولكن ما إن نسمع العبارة التالية:

«ملْءَ دنيا قلبيَ التَّعب»

حتى نعرف ما رمى إليه الشاعر، لقد خبَّأ الشاعر ربيعًا كبيرًا جدًّا مساحته لا حدود لها، وقد عبر عن هذه المساحة غير المحدودة بهذه العبارة: «**ملءَ دنيا قلبيَ التَّعب**» فكم هو متعب؟ وكم قلبه متعب؟ متعب كثيرًا لأنه قدّر هذا الحجم بمَلء دنيا..والدنيا ما كانَت مرة إلا للاتساع، بل أكبر من أي شيء.

كثيرًا ما تفرد سعيد عقل بالأسلوب واللغة حتى باتت تعرف أي جملة أنه هو من نظمها، من هذا إضافة الظرف إلى الجملة الاسمية، قال:

«**يومَ عيناها بساطُ السما**»..لاحظْ جمال الصورة عندما أراد أن يصف اتساع العينين،

فشبههما ببساط السما، وكلنا يستعمل السماء للاتساع أما هو فأضاف البساط إلى السما ليضيف إلى الاتساع اتساعًا..وزاد من جمال الصورة، أنه شبه الجفون بالرماح السود في الهدب: «**والرماحُ السودُ في الهُدُبِ**»..وزاد العبارة سحرًا صوت فيروز عندما تمد كلمة السود بصوتها، فتتبعها إلى لا حدود لها.

هي صورة الفتاة الجميلة، والشام أجمل العرائس، ولم يكتف الشاعر بصورة الجمال البصري، بل أضاف إليها الحركة المتناغمة في تلوي الخصر: «**تلتوي خصرًا**».. ويتابع في عبارة لا أبدع ولا أجمل ولا أبلغ..! لما رأى تثنّي الخصر طلب من نغمة الناي أن تبكي، أن تنتحب، أن تتنحّى جانبًا بعد أن سمع التثني من خصر، «**فأومي إلى نغمة الناي ألا انتحبي**»..

ونتابع مع سحر العبارة في تتمة الأغنية، ويبدع أكثر في مناجاة الشام وهو يعيش فيها، في طبيعتها، في جمالها، ولا نكاد نقرأ أي عبارة تضاهي عبارات سعيد في هذه الأغنية وغيرها، اقرأ:

«**أنا في ظلِّكَ يا هُدْبَهَا**»..أنت تتخيل نفسك والشاعر كيف يسكن في هدب العروس، والعروس هي الشامَ، والهدب رقيق، فأنت تسكن هانئ البال، مرتاحًا، ترفق بك الأهداب، تابع تتمة العبارة:

«**أحسبُ الأنجُمَ في لُعَبي**»..هذه عبارة ساحرة أخرى، لما سكن الهدب رقيقةً، صار يشعر أن كل الأشياء الجميلة بينَ يديه حتى النجوم، بل صارت النجوم لعبًا يلهو بها كما يلهو الطفل بألعابه.

وحنين الشاعر وذكرياته للشام تطيب، ويتمنى لو ترجع، ليتذكر الأيام الجميلة التي شبهها بطرب العود الذي يشتاق إلى الطرب:

«**طابَت الذّكرى فَمَنْ راجعٌ بِي كَمَا العودُ إلى الطّرَبِ**»..

كل ما تقدم من جمال وسحر الطبيعة لم يُغن عن عيش الشاعر هموم أهل الشام ونوائبها ومصائبها وأحزانها، فما يصيبها يصيبه وقلبَه:

«**شامُ أهلوكِ إذا هُمّ على نُوَبٍ قلبي على نُوَبِ**»

إن ارتباط الشاعر بأهلِ الشام ومشاركتهم همومهم ومصائبهم جعله يشاركهم كل شي جميل، فهو يقدم لهم شعره حروفًا وكلمات وتعابيرَ وجملاً، ومن يقدم لهم هم أحبابه، والحبيب كل من يحبه الإنسان، «**أنا أحبابي شعري لهم**»..

قدم لهم حبه وشعره كما السيف وسيف آبائه، لقد اجتمع الحب والشعر والسيف في إنسان يعشق الشام، فكانت هذه الكلمات قصيدة كما بقية القصائد، تفوّقت على غيرها: «**مثلما سيفي وسيفُ أبي**»..

ثم كرَّر الضمير «**أنا**»..ولكن اختلف ما بعده نحو الأبلغ والأجمل، عندما تماهى الشاعر صوته

ورقرقة مياه بردى: «**صوتي منك يا بردى**»..والأعلى بلاغة عندما قال: «**مثلما نَبْعُكَ من سُحُبي**»..

هذه العبارة تتفوق على نفسها كيف جعل الشاعر نفسه أرضًا تعلو منها السحب لتشكل المطر، فيهطل المطر غزيرًا فيشكل الينابيع الثرَّة.

لم يَدّع الشاعر أن نبع المياه منه أو بسببه، ولا أن السحب هو من صنعها، إنما كل هذا الخير إنما هو من:

«**ثَلْجُ حرمون غَذَانا معًا**»..

فثلج حرمون وجبل الشيخ وجبال صنين هي الجبال التي لا يرحل عنها الثلج كل أيام السنة، ولكن الذي يذوب من هذا الثلج هو من يشكل الينابيع تتفجر، والبحيرات أنبعًا، وترفد الأنهار ماء سلسبيلاً عذبًا نقيًّا نقاء الثلج.

فيروز على المسرح عام ١٩٥٤

وهذا الجبل وكل الجبال تقف شامخة، والشموخ رمز العزة والإباء والكبرياء، وكل ما يفتخر به الإنسان، فإذا كانت الجبال شامخة فبالحري أن تشمخ نفوس من يسكنها أو يسكن بينها . قال:

«**شامخًا كالعزِّ في القُبَبِ**»

ويُنهي سعيد عقل قصيدته ببيت جميل يدل على أنه له، اقرأ:

«**وَحَّدَ الدنيا غدًا جَبَلٌ**»

«**وَحَّدَ**» فعل ماض، من الذي وحَّد؟ وماذا وحَّد؟ تأتيك كلمة «**الدنيا**»..لا ليست فاعلاً فهي مؤنث، والفعل يدل على المذكّر، تلقاك كلمة «**جَبَلٌ**» فتعود إلى كلمة «**حرمون**» هو المقصود هو الفاعل، جبل وحد الدنيا، وأي جبل يوحد الدنيا كلها؟ إلا إذا قصد أن لبنان وسوريا هما الدنيا!! وأقول: هما الدنيا مادام يقع بينهما ويشتركان بمياهه وثلجه..ولا ننسَ الظرف «**غدًا**» الذي أضفى على العبارة عمقًا آخر، كيف استعمل الفعل الماضي والظرف الذي يدل على المستقبل! هي لغة سعيد عقل. ثم وصف الجبل بأنه:

«**لاعبٌ بالرّيح والحقَب**»..

هذا الجبل يهزأ بكل قوة لأنه الأقوى، فلا يقف في وجهه لا ريح، والريح دائمًا قوية هائجة، ولا أي زمن أو عصر أو حقبة..

٤ - نَسَمَتْ من صَوب سوريا

«هو سمّاني أنا أغنيةً»

بلغة سعيد عقل يجوز كل شيء، وكل شيء بلغة سعيد مميز، لا تكرار فيه، وإن ذكر المكان مرّتين، ففي كل مرة يتفوق فيها على المرة السابقة، في هذه الأغنية أجاز لنفسه استعمال الفعل من «**النّسمة**» فقال: «**نَسَمَتْ**» والنسمة غير المفردات كلها التي تدل على المعنى أو تقترب منها، يكفيها غنًى أنها تحتل النفس، فالنسمة هي الإنسان، ولا أغلى على الإنسان من النفس، والنفس نسمة.

وما أجمل أن تصلك النسمة «**من صَوب سوريا**»..

فهي التي لا بعدها كما لم يكن قبلها، ثم أضاف الشاعر إلى ذكر النسمة أشياء وضّحها وسمّاها «**الجنوب**»، وريح الجنوب معروفة برقتها ونعومتها كالنّسَمة اللطيفة التي تلامس وجنتيك، كقبلة طفل على وجنة أمه أو العكس.

هذه الريح اللطيفة كيف لا تكون جميلة وهي تحمل بين رقتها الحبيب المُشتَهى، الحبيب الأمل، الحبيب الذي ينتظره العاشق، والأبلغ في العبارة استعمال الشاعر الفعلين «**هلّ**» و«**وافى**»، فهذان الفعلان فيهما من الرقة واللطف ما في النسمة، ما في الجنوب، ما في الحبيب: «**قلتُ: هلّ المشتهى وافى الحبيبُ**»..

هذا الحبيب «**أشقر**»، هذا الحبيب «**أجمل ما شعَّثت الشمس**»..وماذا تعني شعَّثت الشمس؟

شعَّثَت: نشرت فرَّقت أبعدت..يؤيد أن يقول إن هذا الحبيب الأشقر قد نشرت لونه الشمس بل هو أجمل ما نثرته، ولون شعاع الشمس ذهبي أشقر، وغالبًا كل أشقر جميل..لقد أراد سعيد عقل أن يقول لنا: إن هذا الإنسان الذي اختصره بالحبيب هو من أرض بلاد الشمس، أو من البلاد التي لا تغرب عنها الشمس..ثم أضاف صفة جميلة للحبيب لا يأتي بها إلا سعيد عقل قال «**أو طيّرت الريح اللعوبُ**»..

غالبًا ما تدل كلمة الرياح على القوة والهيجان لا على الرقة واللطافة، لكن الشاعر منحها صفة الرقة واللطافة عندما وصفها بكلمة «**اللعوب**». واللعوب تطلق على الفتاة التي تلعب بقلب عاشقها أو تلهو بمشاعره، لكن هذه الرياح اشتركت مع الشمس في خلق صورة هذا الأشقر الحبيب.

لا أظن أن شاعرًا نوَّع في التركيب والأسلوب بقدر ما نوَّع سعيد وأجاد في هذا التنويع، وهذا دليل امتلاكه معجمًا لغويًا زاخرًا، هذا غير الصورة وتأليفها والإبداع في تشكيلها، ففي البيت

من مؤلفات سعيد عقل

التالي كل كلمة لها أثر في البيت، فالتعبير فالمعنى، وأنت تقرأ كل كلمة على حدة، ولكن لا تقرر أن تقف بل تلزمك الكلمة أن تقرأ تاليتها حتى ينتهي البيت:

«**شعر**» والشعر عند الإنسان تعبير يشترك فيه عدد من الحواس السمع والتذوق المعنوي والنظر إن قرأناه..

«**أغنية**» والأغنية رفيقة الشعر وقد يتآلفان مع الصوت واللحن، فتكون الأغنية شعراً ويكون الشعر أغنية.. «قلبي»..تعود إلى أول البيت وتقرأ مَن قصد بـ «**قلبي**» وما إعرابه؟ بل تسأل نفسك: ما إعرب «**شعر**» وما إعراب «أغنية»، حتى لتشعر أن كل كلمة تؤدي وحدها معنى واسعاً، وكذلك كلمة قلبي إن لم تقرأ «له»، وتعرف على من تعود الهاء في «له»، لا سبقها كلمتان شعر وأغنية والهاء هنا للمذكر، فالضمير يعود على الشعر لأنه مذكر، لكنك تستطيع أن تجعل الأغنية في ضمن الشعر، فيكون القلب لهما معًا. ويؤيد الشعر كلمة «**وجبين**» التي عطفها عليه، ثم وصف هذا الجبين بأنه «**كالسنا عال رحيبُ**»..وقد استعمل ثلاث صفات للجبين كل واحدة تعطيه صفة أجمل، فهو كالسنا في ضيائه، وهو عال سام شامخ وهو رحيب، ورحابة الجبين دليل الذكاء والمعرفة، لقد أراد بكل هذه الصفات أن يمنّح الوطن أجمل الصفات.

ويتابع في البيت التالي هذا الأسلوب المتفرد، فيبدأ بضمير المتكلم «**أنا**»، ولكنه لا يعطيه الخبر مباشرة، بل كانت تتمة البيت كله هو الخبر، والتتمة هي أسلوب شرط كامل، من الأداة «**إن**» وفعل الشرط «**سألت**» وجوابه «قالت»..لكن مفعول سألت هو جملة بدأت بالاسم «**أيٌّ**» الذي يضاف، لكن سعيداً نوّنه ليترك كل الكلمات التي يمكن أن نتوقعها بعده تناسبه. ولكننا ما إن نقرأ الفعل «**مضّني**» حتى نعرف أن المضاف المحذوف يتصل بمعنى الفعل «**مضّني**».. الذي يعني المرض والألم. وتجيبه «**القامة**» بأن لا تخف فلا شيء سيمضك، لأن حبيبك جميل عجيب، فمن كان يقصد بقوله «**حُبّيك عجيبُ**»؟.هو كل من سيخفف عنه ألمه، وأظن أن كلمة عجيب التي نظنها غير دقيقة هي التي منحت المعنى ما أراده الشاعر.

ومثلما في كل قصيدة تتميز بعض الألفاظ وتُستَغرَب، وهذا ما لاحظته في كلمة «**يَندري**» حتى

إننا نظنها من لفظ العامة، وإن كان من يقرأ البيت يشعر أن اللفظ يفيد الاتساع، لأننا نشعر أن سعيداً يقارن بين السهل والقمة، فاللفظ نعم يدل على الاتساع، لكنه مخفف من المهموز يندرئ..قال:

«مثلما السّهلُ حبيبي يندري مثلما القمّة يعلو ويغيب»..

ولكن تعجب من قوله إن السهل يعلو ويغيب، ولكن يزول عجبك عندما تشعر أن الشاعر يتحدث عن سهل واسع، وأظنه قصد سهل الزبداني الخيّر المعطاء، وكأنه الوطن كله، ففيه العلو وفيه الانبساط، فالعلو يصبح قمة، والانبساط سهلاً.

هذا السهل تتدفق بين جنباته مياه بردى على الدوام، تمنحه الخير العميم والعطاء الكثير، **«وبه من بردى تَدَفّاقُهُ»**..كما يأخذ من جبال الحرمون العالية المكللة بالثلج إشراقاً دائماً، كناية عن سمو تلك الجبال وارتفاعها، ويأخذ الطِّيبَ، والطيب كلمة تُغني عن كل جميل ذكره الشاعر. **«ومن الحرمون إشراقٌ وطيب»**

لا تكتمل الصورة الجميلة للطبيعة إن لم تضمَّ الناس بين أحضانها، ولا يحلو لمن يسكن دمشق أو يزورها إلا سندس الغوطة ليكون المكان الأجمل للقاء، وسعيد عقل ممن زار الغوطة في شعره كثيراً كما زار دمشق/الشام، وفي هذا البيت الذي يبدؤه بـ **«ويحه»** تسرع إلى البحث عمن قصده من الهاء، وعلى من تعود هذه الهاء؟ تكمل قراءة البيت فلا تجده، فالتتمة هي تتمة مؤلفة من ظرف وَلِيَه كلماتٌ تدل على المكان الذي يجلس فيه، ومما يشتهر به أسلوب الشاعر عندما يضيف الظرف إلى الفعل، وحقه أن يضاف إلى المفرد، قال **«ذاتَ تلاقينا»** ثم حدد مكان التلاقي **«على سُندسِ الغوطة»** وزمانه **«والدنيا غروب»**.

فيأتيك جزء من السؤال من هو الذي قال فيه **«ويحه»**..يتركك في حالة اشتياق عندما يقول:

«قال لي أشياء لا أعرفها»، من هذا الذي قال؟ وما هي الأشياء التي قالها ولم يعرفها؟

أيكون الحبيب الذي شبهه **«كالعصافير تُنائي وتَؤوبُ»؟**

أيكون ذاك الأشقر الذي ذكره في أول القصيدة؟

والأشقر هو الحبيب؟

يجيب عن كل الأسئلة في البيت التالي:

«هو سمّاني أنا أغنيةً ليت يدري أنّه العودُ الطروب»..

من قال هو من سمى الشاعر أغنية، لكن هذه الأغنية تحتاج إلى لحن، واللحن إلى آلة موسيقية، ومن أحن من العود الطروب؟ ويتمنى لو يعلم الحبيب أنه هو العود الذي يطربه ويكمله، فيُكوِّنان مجتمعَين تلك اللوحة الجميلة.

ويكاد سعيد عقل يجمع كل المفردات في بيت واحد، يضم بعضها إلى بعض، لا يريد الإطالة،

فالكلمة الواحدة تُغْني، اقرأ البيت التالي:

«من بلادٍ سكرةٍ قال لها تربةٌ نايٌ ونهرٌ عندليبُ»..

يبدأ البيت بشبه الجملة «**من بلادٍ**»..ولك الحرية في اختيار المبتدأ المحذوف، أشقر أغنية عود؟!

وكلها وغيرها تناسب المعنى، وتصلح أن تكون كلها مبتدآت..ولكن الشاعر لم يكتف بل أضاف إليها عدداً من المفردات التي تجعلك تشعر في روضة من رياض الجنة، ألم يصَف القدماء الغوطة بأنها إحدى جنان الدنيا الأربع؟

لك أن تتخيل وأنت في أي مكان من غوطة دمشق، بالتربة الحمراء الخيرة المعطاء في ثمرها وشجرها وزهرها ووردها، وأن تُصغي إلى «**ناي**» يعرف أن لحنه عذب، إلى نهر هو بالتأكيد أحد فروع بردى السبعة، عندليب يرمي في أذنيك أجمل الأصوات وأعذبها وأحلاها.

وينهي سعيد عقل أغنيته بالبيت الذي ربط فيه بين الجمال والقوة، وهذا ما تتمز به الشام، وهذا ما ذكره معظم من كتب عن الشام. فالحب في هاتيك الربا يطيب، كيف لا وهو يشبه السيف الذي يطيب في يد من يحمله، والربا كناية عن الوطن كله.

«ويطيب الحبّ في تلك الربا مثلما السيف إذا مُسَّتْ يطيب»

٥ - أحب دمشق

«دمشقُ وأنتِ الثّرى الطيبُ»

يمكننا القول: إن هذه الأغنية تتألف من مقطعين أو جزأين، نشعر بهما إن كنا نقرأ القصيدة قراءة أو نسمعها، الأول ينقلنا إلى الطبيعة الجميلة الساحرة الآسرة، وخاصة أننا كثيراً ما سمعناها في أيام معرض دمشق الدولي، ونوافير دمشق تصدح مياهها، ونسائم الغوطة تصل وجنات الكبار قبل الأطفال، وسماء دمشق لا يعكر لونها إلا القمر!! وهل يعكر القمر سماءه؟ لا بل هو يزين قطعة من تلك الزرقاء من ذاك الأفق الأزرق الملأ الأزرق..

تبدأ الأغنية على غير عادة سعيد عقل، فقد بدأها بوضوح، بجملة فعلية لا لبس فيها ولا التباس، لا غموض فيها أو ما يحتاج إلى تفسير، فهل أبسط من عبارة:

«أحبُّ دمشقَ»..

على بساطة التعبير الذي يناسب كل من يحب دمشق نشعر بقوة الجملة وقوة الفعل..قد تستغني عن التتمة وتكتفي بها، فتكون كما المثل الذي يصح لكل زمان، ولكن لا يصلح لكل مكان ما عدا دمشق.

وإن قرأت الكلمة التالية وَصِفَتَها:

«هوايَ الأرقّا»..

فأنت تحار في إعراب الكلمة «**هوايَ**»..

هل قصد بدل دمشق، فتكون بدل كل من كل؟

أم أن الشاعر قصد هوى/حب دمشق، فتكون بدل بعض من كل؟

وإن شئت كانت بدل اشتمال، لأن دمشق تشتمل على الحب؟

أم هي بدل النسيان، فقد نادى دمشق ونسي لأنه ينادي الحب الرقيق؟

هي عبارة سعيد عقل التي عجبنا في مقدمة التحليل من أنه بدأ بعبارة واضحة مباشرة لا تحتمل اللبس؟ فتركنا مع هذا النداء الجميل المعبر؟

في كل الحالات أنت أمام عبارة أدت ما طلب منها الشاعر.

ما من شك في أن لغة سعيد متميزة، ولكن التميُّز الأكبر كان في عباراته وجمله وصوره وتركيب الجملة من حيث التقديم والتأخير، فهو يجعلك تحار ماذا سيكتب، هو غير الآخرين الذين ما إن تقرأ كلمة حتى تتوقع التالية من الكلمات، فكأنها صارت تراكيب جاهزة، لا ..عند سعيد عقل أنت أمام احتمالات كثيرة واختيارات أكثر، إن أنت انتظرت ولم تكمل العبارة. قلت هذا بعد أن قرأت:

«**أحبُّ جِوار بلادي**»

ولا أظن أن غير سعيد قال مثل هذه العبارة، وهو العاشق دمشق العاشق الشام، فلماذا لم يذكرها بالاسم كما في كل الأغنيات والقصائد؟ سؤال طبيعي ومنطقي أن نسأله.

ولا أظن أن ثمة أمرًا سلبيًّا قصده الشاعر، بل هو يريد أن يجمع وطنه الأم ووطنه الذي هو كالأم، وكلنا يعلم أننا «**سوا ربينا**» كعربة بياعة البندورة.!

ولا شك في أن لكلمة الجوار معنى جميلاً بل حميميًّا، تشعر بها أن الشاعر يريد أن يقول هما توءمان.

والعبارة التالية من العبارات الغريبة في جمالها:

«**ثَرى من صبًا ووداد**»

كيف صار التراب من الصّبا والشباب والوداد، صورة تجعلنا ندور حولها غير مرة، كيف عُجن التراب من الصبا الذي يحَملك إلى العمر الفتي الجميل الذي بدأ يتفتح..والثرى غالبًا ما يكون للتراب الذي قدّسته دماء الشهداء الذين ضحوا بدمائهم الزكية الطاهرة. هذا التراب:

«**رَعَتْهُ العُيُونُ الجَميلة**»..

ورعاية التراب تكون بكل الحواس، أما عندما يكون بالعينين فيكون الأغلى، فكيف إذا كانت العيون جميلة، سيكون الأجمل، والرعاية غالبًا ما تكون من الأب أو الأم أو من له الحق في رعاية

الناس، وهل أغلى من تراب الوطن؟ لا ..

مرة أخرى يحملك سعيد عقل إلى عبارة غريبة عندما يقول: «**وقامة كحيلة**»..فلا أظن أحداً سمع بوصف القامة بالكحيلة، فالكحل للعينين يمنحهما سحراً وجمالاً، ولكن سعيداً لما منح هذه القامة اختصر الجمال كله بأن أطلقه على القامة، والمعروف أن القامة دليل شهامة وعنفوان وقوة، وهذا يزيد في الصورة عمقًا غير الجمال.

وينهي المقطع بما أنهى به المقطع الأول: «**أحبّ أحبّ دمشقَ**».أظنه من باب التأكيد على الأمر.

هذه الأغنية من الأغنيات التي جاء فيها الشعراء على ذكر الغوطة، والغوطة التي تعد إحدى الجنان الأربع في العالم القديم، ما إن تلفظ مفردة حتى تنقلنا إلى المضاف إليه وهو «**دمشق**»، ومن لم يزر الغوطة لم يعرف ما تعنيه، ولن يفهم كل عبارات الغزل والوصف الجميل لأجمل المناطق الطبيعية في الشرق، وسعيد وصفها بكلمة قد لا تخطر ببال أحدنا، هو اختصر كل الصفات الجميلة الحلوة للطبيعة:

«**دمشقُ بغوطتك الوادعة**»

الوادعة..كلمة واحدة اختصرت الطبيعة بتربتها وثراها، بحصاها وأحجارها الصغيرة، بأشجارها بأزهارها وورودها، بثمارها وخضارها، بندى عطرها الصباحي، بوداعة أهلها وناسها، برقرقة مياهها وعذوبتها ونقائها.

بدأ سعيد المقطع بالنداء «**دمشقُ**»، وأردفه بالعبارة الجميلة، وكأنه أراد تخصيص الكلام أكثر بذكر الغوطة الوادعة. ولا يجوز الإخبار عنها؛ لأنه خاطبها بكاف الخطاب في «**غوطتك**».

أما جواب النداء فكان في البيت التالي:

«**حَنينٌ إلى الحبِّ لا يَنْتهي**»

عبارة أخرى جميلة، كيف يكون الحنين إلى الحب؟ بدأت باسم هو خبر لمبتدأ محذوف، أنا حنين، أو إذا أردنا أن يكون «**دمشقُ**» مبتدأ فتكون حنين خبراً..وإن سألنا لمن يعود الفاعل في جملة «**لا ينتهي**»؟ أهو للحب أم للحنين؟ والجواب واحد للاثنين، فالإنسان حنينه لا ينتهي وكذلك حبه لا ينتهي.

كان استعمال الشعراء المجاز ولايزال يقصد به الحقيقة، ولكن الشعراء استعملوا المجاز لجماله من جهة وجعل القارئ/المستمع يسافر بين كلمات العبارة، وسعيد عقل من أوائل هؤلاء الشعراء، وسعيد عقل هنا لا يقصد بـ «**كأنّك**» التشبيه! بل دمشق هي حلم الشاعر وغيره، ألم يقل قبل قليل:«**حَنينٌ إلى الحبِّ لا يَنْتهي**»، فكيف يشبه حلمه؟ هي الحلم كما الحنين كما الحب الذي لا ينتهي.

«**كأنّك حُلمي الذي أشتهي**»..

هذا الحلم هو الحب هو الهوى الذي ملأ قلب العاشق، وصاغ قصة من غرام، لكن لماذا وصفها بالدامعة؟

«**هوًى ملءُ قصّتك الدّامعة**»..ربما كانت دموعًا من ندى، ليس ربما بل حقيقة، فمن يفخر لا يبكي، أهي كالدموع التي تنشّفها عروس النور عند الشابي، أم هي التي تحمم بها جبران خليل جبران؟

هي صورة جميلة غير مستغربة من سعيد عقل الذي لا يتركنا نتوقع جمالها بل يفاجئنا بها. هي خمرة الفجر، هي الندى الذي إن حطّ على الورد تمايلت غصونه سَكرى: «**تمايَل سكرى به**»..

وفي بيت لاحق يشبه سعيد عقل «**دمشق كشمس الضحى الطالعة**»..وشمس الضحى ليست بالضعيفة ولا الحادة، بل هي التي تعلن وضوح النهار، كما دمشق التي لا يستطيع أحد نكران ما هي؟! شمس الضحى هي التي تتضح عندها الأشكال والأشياء، فلا ينكر ضوءها أحدٌ، ولا يخشى ضوءها أحدٌ.

أما المقطع الأخير من الأغنية فيتحدث عن بطولات الشعب في سوريا، ويبدؤه بكلمة «**هُنا**» التي تشير إلى المكان بقوة، هنا لا في أي مكان آخر، هنا في الشام منبت الأبطال، ومهوى البطولات، هنا منبع الأبطال والنبع لا ينضب: «**هنا والبطولات لا تنضبُ**»..

من يقرأ أو يسمع هذه الكلمات لا شك يشعر بالفخر والعنفوان اللذين يتمثلان في اللحن والكلمة، يزيدهما قوة وشموخًا صوت لا يمكن لغيره أن يتمثلهما..أنت تقرأ «**تطلّع**» بقوة كل حرف من حروف الكلمة، وتقرأ كلمة «**شعب**» التي لا يجوز لكلمة أن تكون أقوى منها، وتقرأ كلمة «**حبيب**» التي لا يمكن لأي كلمة أن تكون أعذب على قلب الإنسان العاشق وطنه منها، وتقرأ كلمة «**العُلا**» فتشعر أنك حلّقت مع الكلمة إلى العلا إلى حيث يتمنى كل منا أن يصل، ومن أراد الوصول عليه أن يشمخ أن يرفع رأسه نحو العلا. والعلا هو المجد الذي تتكلل دائمًا به رؤوس الأبطال بأكليل الغار والانتصار، وهذا ما أكمله الشاعر في البيت التالي:

«**إلى المجد بالمشتهى كُلِّلا**»..

ومن جمال الاستعمال عند الشعراء عامة استعمال الأضداد، أو ما يشبهها، لأن هذا الاستعمال يُضفي على العبارة جمالاً، ويقربها من عقله، وقد يثير الخيال، فتتكون في مخيلته تلك الصورة، وجدت هذا في الأبيات الأخيرة من القصيدة التي يبدؤها بنداء دمشق: «**دمشقُ**»..ويلحق النداء عبارة أو جملة حالية، اسمية من «**وأنت**» المبتدأ، ودمشق دائمًا المبتدأ، أما الخبر فهو التراب الذي إذا أردناه مقدسًا طاهرًا قلناه نطقناه لفظناه «**الثّرى**»، وما كان الثرى في شعر الشعراء إلا ما تندّى بدماء الأبطال الشهداء الذين سَقوا أرض الوطن حتى حقّقوا الانتصار فالجلاء، والثّرى له صفات كثيرة وكلها جميل، لأنه ثمين كما المهر، ولكن سعيدًا قرر صِفة واحدة اختصرت كل الصفات «**الطيبُ**»..

وبعد الجملة الحالية يأتي جواب النداء في الفعل «**غضبت**»..هذا الفعل القوي في معناه يدل على القوة والشجاعة والبطولة، ولاسيما إن كانت في وجه المحتل، وأضاف إلى الفعل أسلوب التعجب «**وما أجملا**» وترك لنا أن نضع المفعول به المناسب لأنه ترك الأسلوب مفتوحًا على كل الكلمات، والأقرب أن نقول: وما أجمل أن تَغضبي..

يا دمشق..أناديها أنا هذه المرة وأربط العبارات السابقة وأقول: «غضبت «**فكنت السلام إذا يغضبُ**»..ما أبلغ العبارة إن كان الغضب في السلام أو العكس. فالسلام هو المدينة الآمنة التي حلّ بها الفرح بعد الانتصار.

٦ - بالغار كُلّلت

«غير أنّي لو..

«توجّع الشّامُ تَغدو حبّيَ الشّام»

هذه الأغنية من أكثر الأغنيات التي قيلت في الشام حماسيةً، ربما لأننا نسمع مطلعها بصوت فيه العنفوان الكبير الذي يناسب العبارة الأولى: «**بالغار كُلِّلت أم بالنّار**»..وفيروز بها تخاطب دمشق بأحد أسمائها التي يحلو للكثيرين أن ينادوها به «**يا شَام**».

أن تتكلل مدينة أو بلد «**بالغار**» فهو دليل انتصار، أما أن تُضاف عبارة «**بالنّار**» فهذا يجعلك تقرن الأمرين، ولا يجوز التفريق بينهما، فالنار هي التي أوصلت إلى الغار، فلولا الحرب ونار السلاح لما تكلّل رأس قائد أو وطن بالغار.

أما استعمال الأداة «**أم**» فهي ليست للتخيير بل للتحقيق، كأنها الواو التي تجمع بين الأمرين، وأظن أن سعيد عقل أراد هذا وقصد إليه، فالشام تكللت بالغار الذي سببه النار.

والدليل على ما ذهبنا إليه أن الشاعر خاطب الشام فقال لها :

«**أنت الأميرة**»..

ومَن أجمل من الأميرة، وقد نسأل: لماذا قال الأميرة ولم يقل الملكة؟

سؤال منطقي، وإن أجزت لنفسي الجواب فإنني أقول: الأميرة جميلة، لأنها بنت أو صبية صغيرة، وهي الخارجة من الحرب، أي التي وُلدت من جديد، أما المليكة فهي الكبيرة سنًّا، وهي التي تكون قد حكمت سنوات وأعوامًا طويلة، إنه أراد أن يعطيها صفة الحياة الجديدة لولادة وطن جديد تبدأ معه البطولات وتسمو به الهامات وترتفع. فأضاف إلى العبارة:

«**تعلو بِاسْمك الْهَامُ**»

إن الهامات تعلو وتسمو وتشمخ عاليًا مادامت تنتسب إلى الأميرة/الشام، ومَنْ مِنَ الشام لا يفخر بأنه إليها ينتسب؟ لا أحد إلا الجاحد ومن يحب وطنه لا يكون جاحدًا .

وبعبارة «**أوّاهُ**» يبدأ سعيد عقل البيت التالي، وكأنك تسمع الكلمة بحزن وهي بفرح، وكأن

الشاعر يتألم وهو مسرورٌ، لمَ الحزن والأميرة يعلو رأسَها الغارُ؟!

هي كالآه الجميلة في مطلع أغنية شعبية، كالأوف، كالعتابا، كالميجنا..

ومن الصور الجميلة التي تصبح لصاحبها علامة مسجلة الصورة الساحرة:

«**بِضعُ غَمامات مُشَرَّدة**»..

ونسأل، أو نتخيل الصورة: بضعٌ أي قليلٌ، غمامات أعطاها الجمع المؤنث الذي يدل على الرقة، وكأنك تراها بيضاء ناصعة، مُشَرَّدةٌ: تشعر أنها شاردة هاربة ولكن بهدوء، فالغيم الأبيض ماكان مسرعًا كالغيم الممطر الذي يحمل الدفق فيهطل ويغادر مسرعًا، ترى أمامك قطعانًا من غيوم بيضاء لم تغطِّ السماء كلها..بل تركت للسماء المساحة الأوسع، وهي احتلت مساحات بحسب حجمها..وهذا مَا يظهر في الشطر التالي المتمم للصورة الجميلة:

«**في الأفق بعضُ رؤًى والبعضُ أحلام**»

وزّع سعيد عقل الغمامات بعضين اثنين، بعضًا كان رؤى، والثاني أحلامًا، وما الفرق بين الرؤيا والحلم؟ لا فرق، ولكننا نشعر بالفَرق بينَهما عندما حدد لنا «**في الأفق**» هي أمامنا إذن، أما الأحلام فلا..

ولكن لماذا اعتبر الغمامات التي في الأفق رؤى؟ أكان يحلم بها؟ أم أنه تمنى أن تكون رؤى المستقبل؟ والجمال في استعمال المترادفين «الرؤى والأحلام»..اللذين نشعر بأنهما متضادان.

سأل سعيد تلك الغيوم إن كانت قد ظللت الشام في الصبح،

«**سألتُهُنَّ أظلَّلْتُنَّها صُبْحًا**»

ولماذا صبحًا، والظل ظهرًا أفضل أو يخفف عن الإنسان حرَّ الظهيرة، لكن اللافت استعمال الفعل «**أظلَّلْتُنَّها**» المؤلف من همزة الاستفهام والفعل ظلل، والتاء المتحركة ونون النسوة المضعفة والضمير ها، وهذا لعمري تركيب كامل ندر وقوعه في الكلام، وهو من دون شك يُظهر تميز سعيد باللغة.

نعود إلى الصبح ونعيد القراءة، فنتخيَّل الغمامات في الصبح، وقد ظللت الشام بالأحلام والرؤى، فتحملنا الصورة إلى نقاء الصبح، ولو تظلل بالغيم ما دامت رؤى وما دامت أحلام.

وفي كلمة لافتة جدًا تفرَّد بها ربما، قال:

«**شامي**» لقد أضاف شام إلى ياء المتكلم، وكأنه يريد أن يستقل بها من دون غيرها، وإن شئنا ألا نبالغ فيها نقول:

لقد أجبر كل من يقرؤها أو يسمعها أن تكون الشام له عندما سيقرأ «**شامي**»..

«**التي**» تخيل نفسك تقرأ الاسم الموصول «**التي**» وتقف عنده!!فأنت أمام مئات بل آلاف

الكلمات التي يمكن أن تقع صلة الاسم الموصول، لكن سعيداً يفاجئك بجملة اسمية، والمعروف أنها غالبًا ما وقع الفعل صلة، بل إن الشاعر قدم الحال «**وحدَها**» ثم الجملة الاسمية قدم فيها الخبر (شبه الجملة للعود) على المبتدأ (أنغام).

«**وَحدَها للعُود أنغام**»

فقد خصص العود دون غيره للحن الموسيقي، أو النغم الذي أراد أن يسمعه، ويسمعه الآخرون.

هذه الأنغام ألهمت الشاعر كثيراً لما وصلت أذنيه، فصوتها خالد كما كل شيء يخلد على مر الزمان، ويلاحظ أن هذا المعنى جديد، إذ إنه جعل الصوت يخلد، ونحن نعلم أن الصوت يتلاشى ويندثر في الجو ما إن يخرج من فم الإنسان أو من أي آلة موسيقية:

«**ما ألهمتنيَ من صوتٍ خلدْتُ به**»..

لكن هذا الاستغراب والعجب يزولان عندما نقرأ/نسمع:

«**كذا يخلّدُ شكَّ السيف مقدامُ**»..

لقد منح الأنغام خلوداً كما يمنح السيف الخلود بأثر فعله الذي يصله إلى أي مكان. ولكن شرط أن يكون من يحمل السيف رجلاً مقداماً، وإلا نبا السيف في يده، وما أسوأ أن ينبو سيف بيد حامله، كما ما أسوأ أن يكبو جواد في ساحة الحرب.

ما تقدم مهَّد للحديث عن بطولات الإنسان في الشام في كل الأوقات، وسعيد حددها هنا في الليالي، وهذه إضافة جميلة أن تكون الانتصارات في الليالي؛ لأن من ينتصر ليلاً هو قادر على الانتصار في أي زمان.

«**وطالعتني ليالٍ من بطولتها**»..

واللون الأحمر غالبًا ما كان للدم في ساحات المعارك، كما يرمز للعنفوان والشجاعة والقوة، لذلك نجد ما استعمله الشاعر للون الأحمر صورة أخرى من صور ربما لم تمر معنا في الشعر:

«**حمرٌ تغاوَتْ لها في الريحِ أعلامُ**»..

كل الصفات التي ذكرناها للأحمر صالحة هنا، ولكن الأبلغ هو في أن الأعلام والرايات قد تغاوت وتمايلت لها كلما هبت الأرياح.

وفي صورة لافتة واستعارة جميلة يستعمل سعيد عقل الألوان والأحداث ويقرنها بالطبيعة والمواسم، فمن انتصر بالدم عليه أن يجني هو ثمر المواسم، وهو يجني من هذا مواسمه التي تتشكل من الحب في أغانيه، ومن الحب في كلماته، فالأشعار تتداول تلك الأحداث وتُدوِّنها وتؤرخ لماض ومستقبل خطه أهل الوطن.

«**كأنّما نضجَتْ خُضْرُ المواسمِ من..**

«هوى أغانيَّ والأشعارُ أيّامُ»..

ويتابع في مواسم الحصاد ويسأل وهو يعلم أن ختام تشرين لا ينسى أوائله، وأرى أن في هذا الشطر بلاغة ما بعدها بلاغة، أرى أن الشاعر قصد أن من سيجني في آخر المواسم هو من زرع في أوائلها ..ومن يزرع لا ينسى الحصاد، وقد ركز للوقت بشهر تشرين لأنه أراد أمرًا آخر خاصًّا بالعنب، إذ إن قطف العنب ثم عصره خمرة يكون في تشرين، وإن كان الشاعر حدد العنب فلأنه رمز كبير ولاسيما في بلاد الشام.

«ختامُ تَشرينَ هل ناسٍ أوائلَه

«إذَ هَبّ يَعتصرُ العنقودَ كرّامُ»..

نصل إلى المقطع الأخير إن جاز لنا تقسيم النص إلى أجزاء، وهو قسم يتحدث عن البطولات يذكر بماضي العرب المجيد، ويحاول استثارة النفوس في الناس، وتحريضهم إذا ما أرادوا بناء الوطن من جديد، كأنه يريد قول الشاعر:

واذكر قديمك إذ تبني الجديد تفُزْ..

يبدأ المقطع بالنداء «**يا شامُ**»..ولك أن تتخيل كل الأساليب التي يمكن أن يقولها الشاعر جوابًا للنداء، لكنه يفاجئك بعبارة جميلة «**سكبُك مجدٌ**»..وتستطيع أن تقف على هذه الجملة البليغة جدًّا، ولكن سعيدًا يأخذك إلى الأجمل، فيسأل كعادة الشعراء، فهم جميعًا يضمنون السؤال جوابًا . يسأل: «**ما يكون**»..ولك أن تكتفي وتقول لا يكون سكب كسكب الشام، لكنه يضيف أسلوب شرط كان السؤال جوابًا عنه، فقال:

«إذا بملْءِ كفّك دفقًا أُفرغ الجامُ»

هذه الجملة البليغة إذا أردت أن تعطيها حقها فإنها تفرض عليك قراءتها مرة ثانية وثالثة وعاشرة، هي شرط تقدم عليه جوابه، لتتخيل كيف أن الكأس أفرغت بيدك بملء كفك وهي متدفقة، إنه السكب الذي لا يعادله أي سكب آخر. والمجد إن ملأ الكأس فكل إنسان يتمنى لو يملأ كفه به فيملأ نفسه منتشيًا كأنه حقَّق النصر.

ومن يسمع الأغنية يسمع «**أقول خالدٌ**»..وتكرر العبارة فيروز أكثر من مرة حتى لتشعر أنها جملة مستقلة، ولكن العبارة ليست مكتملة فـ«خالد» مبتدأ خبَّرت عنه جملة الخبر «**شجّ الشعر مندفعًا**»..وقد استعمل سعيد عقل الفعل «**شَجَّ**» لغير ما نعرفه، فنحن نعرف أن الشج هو الشق وخاصة للرأس، أما سعيد فقد استعمله للشعر، فأراد منه أمرًا آخرَ..كأن الشعر صخر، أو كأنه الأرض، فكان مندفعًا متدفقًا منسابًا، ولم يقصد البحر وإن جاز الفعل فيه؛ لأنه خبَّأ ما يتصل بالبحر إلى «**طارق**»، وهو لا شك طارق بن زياد، وخالد هو خالد بن الوليد الذي ببطولاته فتّق الشعر في الشاعر، وقد رمز سعيد إلى هاتين الشخصيتين اللتين تمثلان دائمًا البطولة والانتصار العظيم. ويلاحظ أن الشاعر ترك لنا أن نحدد المفعول به في الجملة الأخيرة، وهي مفتوحة على كل الاحتمالات، لكن يبقى «**الطريق**» هو المفعول الأنسب. «**وخَطّ**

طارقٌ فوقَ البَحرِ رَسّامُ».

كثيرًا ما ربط الرحابنة وسعيد وكل من كتب عن الشام بين الشام ولبنان، إذ إن أشياء كثيرة تربط بينهما، ومن أجمل الأبيات في هذا بيت سعيد عقل الذي ختم به قصيدته/أغنيته، فقال:

«يا شام لبنان حبّي غَيرَ أنّي لو

«توجّع الشّامُ تَغدو حبّيَ الشام»..

من منطق الأشياء ألا يحب إنسان وطنًا غير وطنه، اللهم إلا إن كان ناكرًا جاحدًا، وسعيد في هذا البيت يخاطب دمشق «**يا شامُ**»، كيلا تلومه أو تعاتبه إن هو قال إنه يحب لبنان أكثر عندما قال: «**لبنان حبّي**»..ومن يعرف من سعيد ومدى حبه الشام يعلم أنه لم يُرد الإخبار بجملة وهو يخاطب الشام، لذلك كان الاستثناء الذي أتم المعنى ومنح الجملة بلاغة بعَيدة الأثر، فالشاعر سيُحوِّل حبه إلى الشام إن هي توجعت، أو تعرضت للأذى والعدوان.

٧ - مُرَّ بي

«أجمَلُ التّاريخِ كانَ..غَدا»

تُعَدُ أغنية «**مُرَّ بي**» لسعيد عقل من الأغنيات القصيرة قياسًا على الأغنيات الأخرى التي نظمها الشاعر في الشام، كما أنها تتميز عن بقية الأغنيات بأنها تجمع الطبيعة بألفاظ الشاعر المتميزة، حتى تشعر أنك تسير في طرقات حل فيها ربيع الغوطة، تبدأ بفعل الأمر الجميل في نطقه: «**مُرَّ بي**»..وفعل الأمر فاعله مستتر إن لم يخاطبه الشاعر بعد النداء، أي يصلح لكل من يسمعه، أما سعيد فقد نادى «**يا واعدًا وعدًا**» يطلب ممن وعده وعدًا أن يمر به، ولكن بشرط «**مثلما النّسمةُ من بَردى**».

وهل أرق من نسمات بردى، ولكن السؤال مرة أخرى من هذا الذي ناداه؟ ومن هذا الذي يريده أن يكون طيفًا رقيقًا كنسمة من بردى؟

صحيح أن الشاعر يعيد نداءه «**واعدي**» غير مرة في القصيدة، إلا أنه لا يُعرِّفنا به، ويتركنا نفكر به، لكنني أراه كل إنسان يحب الشام وعد الشاعر فذكّره بالوعد.

ويتابع في البيت الثاني خطابه، هل أراد من وعده أو أراد النسمة عندما قال: «**تحملُ العُمرَ**» لما كنا لم نعرف من يخاطب فإنه يحق لنا أن نترك الباب مفتوحًا على الواعد وعلى النسمة، والطريف أن الفعل يناسب التذكير والتأنيث.! ولكن بشرط أن يكون الواعد هو الحبيب! لأن من سيمر به سيُبدِّد له العمر الجميل، وللمرة الأولى ربما نرى أن التبديد يكون جميلاً، وطيِّبًا، لا لن نستغرب ما دام القائل سعيد عقل: «**تبدّده آه ما أطيَبَهُ بددا**»

وإذا أردنا أن نتخيل الواعد/المار والنسمة فإننا نصبح بين أشجار الربيع وأزهاره في الغوطة. تحمله مع عطرها إلى كل الأماكن الجميلة.

اقرأ البيت التالي:

«رُبَّ أرضٍ من شذًا وندًى، وجراحاتٍ بقلبِ عدى»..

يبدأ البيت بحرف الجر شبيه بالزائد، «رُبَّ» وكل حرف زائد أو شبيه يعطي المعنى قوة ويزيد في توكيده، ويكون المجرور بعده نكرة، ونطق النكرة قوي في نطق التنوين نونًا ساكنة. فكيف إذا كان الاسم هذا «**أرضٍ**»؟!

يصبح المعنى أكثر قوة، ولفظ «**رُبَّ**» الذي يدل على القلة أو الكثرة يجعلك تفكر بكلمة «**أرض**» علامَ تدلُّ؟ على القلة أو الكثرة؟ إنها تدل على الأمرين معًا، هي أرضٌ لكنها بوسع الأرض اتساعًا، بوسع الأرض تاريخًا، هي الأرض التي تضم النقيضين: الجمال لأهلها والسلاح للعدو؛ الجمال الذي يلمُّه الإنسان من «**شذى وندى**»، الشذى الذي يفوح من عطر الورد، الورد الذي تتميز به الغوطة. أما الندى فهو دليل الرقة واللطافة التي يقطفها الإنسان من على الورود والأزهار.

أما السلاح فقد رمز إليه بعبارة: «**وجراحاتٍ بقلبِ عدى**»

وبلاغة العبارة في قول الشاعر أن الجراحات بقلب العدا، لماذا؟ لأن القلب يكفيه جرح واحد ليموت صاحبه، فكيف إذا كان جراحات بالجمع؟ هذه الأرض كانت أرض الذين قُتلوا عليها من الأعداء.

ولو أعدنا قراءة البيت السابق لاكتشفنا أن المعنى لم يتم، لا لم يتم هو يقول: إن هذه الأرض التي فيها الشذى والندى وجراحات العدى:

«**سكتت**»..جملة «**سكتت**» هي خبر «**أرض**» لكن ما معنى سكتت؟ ولماذا سكتت؟ وعمَّ سكتت؟ أسئلة كثيرة يمكن أن تطرحها هذه الجملة. وقبل أن نبحث عن الجملة نقرأ الكلمة التي بعدها «**يومًا**»، وكأن هذه الكلمة تُقرِّب إلينا قصد الشاعر، هي سكتت يومًا واليوم في التاريخ لا يساوي شيئًا، ويجيب الشاعر عن هذا بعبارة «**فهل سكتت؟**» وترك الفعل المتعدي إلى معناه يجوز فيه كل فاعل.

حتى في عبارة «**فهل سكتت؟**» تشتمُّ منها السؤال المتضمن جوابًا، هي لم تسكت، وتأتيك العبارة التي لم يُسبَق إليها سعيد عقل «**أجمل التاريخ كان غدا**»..العبارة التي لا أبلغ منها .!

ربما كان معظمنا يسمع هذه العبارة مجردة عما قبلها، منزوعة عما قبلها، ويترنم بها مع السيدة فيروز، بل إن العبارة صارت كالمثل كالحكمة التي تصلح لكل زمان ومكان، وصارت مناسبة لكثير من المواقف.

في هذه العبارة إجابة عن كل الأسئلة التي شعرنا بها قبلها، إجابة عمَّ سكتت؟ لماذا سكتت؟ الجواب من يسكت يومًا لا يعني أنه سكت، فالتاريخ لا يرحم والتاريخ ليس قبل يومك فحسب، التاريخ ماض عشته والتاريخ اليوم تعيشه والتاريخ غد تتمنى أن تعيشه كما رسمته أنت لا كما رسمه لك الآخرون، لذلك لما قال: «**أجمل التاريخ كان غدا**» كان يعني التاريخ الذي نرسمه نحن، التاريخ الذي ستخطه «**أرض من شذى وندى**» أرض كانت «**جراحات بقلب عدا**»

فيروز ومسرحية الليل والقنديل

التاريخ الذي يخطه الغد هو المستقبل.

يعود الشاعر للنداء «**واعدي**»..

ويستعمل الفعل الماضي «**كان**» مسبوقًا بـ «**لا**» التي تفيد الدعاء «**لا كنْتَ**» والفعل هنا استعماله بليغ جدًا، فهو من جهة أفاد الدعاء، ومن جهة ثانية استُعمل تامًّا، أي اكتفى بالتاء وهي فاعل، لا يحتاج اسمًا وخبرًا.

يدعو الشاعر واعده ألا يكون «**من غضب**»..بل خلاف ذلك، لأن الذي وعد به جميل، وكل ما في دمشق/الشام جميل، فالشاعر كما كل الناس يعرفون أن الحب سنا وضياء لمن أراد السير، بل هو الهدى، والهدى أبلغ من السنا والضياء، به يهتدي من أراد، «**أعرِفُ الحبَّ سَنًى وهُدى**»..

كثيرًا ما قلنا «**اللّه**» تعبيرًا عن شدة إعجابنا بما نشاهد أو نسمع أو نقرأ، وكثيرًا ما قلنا «**اللّه**» لإعجابنا بعبارة أو جملة أو صورة أو تركيب، بل كلمة من كلمات ولغة سعيد عقل، ولا أظن أن ثمة عبارة أجدر بـ «**اللّه**» من عبارة سعيد عقل التالية:

«**الهوى لَحْظُ شآميَّة رَقّ حتّى خلْتَه نَفَذا**»

تخيل: الحب لحظٌ من عيني شآمية، أكان يقصد فتاة شامية امرأة شامية عاشقة شامية؟ أم

كان يقصد الشام نفسها؟ أظنه كان يقصد امرأة شآمية، فهو أضاف اللحظ إلى عينيها اللتين لم يذكرهما صراحة، ولكن أي لحظ يكون إلا في العين.

ومن قوة الأضداد ما ورد في هذه العبارة، فقد استعمل سعيد عقل اللحظ الرقيق، لحظ الحب، ولجماله يشعر الإنسان بأنها قوة استطاعت أن تنفذ وتخترق قلب من نحب. وهذه الصورة الغريبة الجميلة تتوضح أكثر عندما نقرأ البيت التالي:

«هكذا السّيفُ»..

أراد بالتشبيه السيف الذي شُبّه به اللحظ، ولكن إن انغمدت ضربته كما اللحظ، إلا أن السيف لم ينغمد، لقد أراد أن يقول: إنّ اللحظ لا يخترق حسيًّا بل معنويًّا، وإلى هذا أشار في الجملة الأخيرة:

«ألا انغَمَدَتْ ضَربةٌ، والسيفُ ما انْغَمَدا».

يعود سعيد عقل إلى نداء واعده مرة أخرى:

«**واعدي**»..وقد يقول أحدنا ألم يخبر الشاعر هذا الواعد بكل ما يريد؟ فينتظر منه طلبًا آخرَ، لكنه لا يلقى الطلب، بل يقرر أمرًا في استعمال الجملة الاسمية:

«الشّمْسُ لنا كُرةٌ»..

وأي جملة اسمية هذه التي لم نقرأ مثلها؟! كيف تكون الشمس كرة؟ لقد اختصر سعيد عقل كل صفات الشمس بهذا التشبيه أن تكون الشمس كالكرة، والكرة صُنعَت للعب واللهو بين الأقدام كثيرًا وبين الأيادي قليلاً، تتقاذفها الأقدام، وترمي بها الأياديَ بعيدًا، حتى الأطفال يلهون بالكرة!

لكن البلاغة الأعمق هي في أن الجار والمجرور «**لنا**» التي يحق لك أن تعلقها بحال من الشمس أو بحال من كرة..المهم أنها «**لنا**». ومن نحن؟ نحن من استطعنا أن نجعل الشمس بين أيدينا وبين أقدامنا كرة للهو.

لا يكفي هذا بل نكمل ما أضاف الشاعر، اقرأ:

«**إنْ يَدٌ تَتْعَبْ فَنَاد يَدا**»

هذه الجملة تؤكد أن الشمس دمية بين أيدينا، فإن تعبت يد نادت أختها، وهذه صورة لا نقرؤها إلا عند سعيد عقل.

ويختتم الشاعر القصيدة/الأغنية ببيت جميل ينافس الأبيات السابقة وغيرها، يبدأ بضمير الرفع المنفصل: «**أنا**»..ولا ننتظر طويلاً حتى نقرأ/نسمع كلمة تظنها هي الخبر للمبتدأ «**حبي**»، فتستعجلك كلمة أخرى تنفي عنها الخبر، وهي كلمة «**دمعة**»، فشكلت مع «**حبي**» خبراً للضمير. صورة جميلة أن يخبر الشاعر عن الحب بالدمعة، ولكن دمع الحب لا يؤذي ولا يدل على حزن، بل على فرح، ومع هذا فإن هذه الدمعة «**هجرت**»..ولا يتوقع أحد أن تكون صفة الهجران حزينة، لأن هذه الدمعة ستعود و..

«**إن تعد لي أشعلت بردى**»..

العبارة الأخيرة تحتاج منا قراءتها عشرات المرات، كيف ستشعل الدمعة بردى؟! ألهذا الحد غزارة الدمع؟ وبردى عُرف أنه الدفّاق المنهمر.

إنه الحنين إلى الوطن إلى بردى الرمز لدمشق الرمز للخير والعطاء..

دمشق منارةٌ علميَّةٌ تتألَّقُ في رحابِ مكتبةِ الأسدِ الوطنيَّة (الجزء الأول)

إياد فايز مرشد[1]

(1) المدير العام لمكتبة الأسد الوطنية في دمشق.

ملخَّص البحث

يتحدث هذا البحث ـ من خلال قسمين ـ عن تاريخ دمشق، ويُركِّز على احتضان مكتبة الأسد الوطنية لأعمال دمشقية متنوعة، إذ مرَّ البحث على تأسيس هذه المكتبة، وأبان أهميتها ودورها الثقافي والعلمي، وأتى على ما تحتويه من مخطوطات دمشقية ثمينة لم تُحقَّق، وأُخرى تمَّ تحقيقها، ثم أشهر المؤرخين الدمشقيين الحديثين الذين كتبوا عن دمشق وتحتضن مكتبة الأسد مؤلَّفاتهم، والشعراء الدمشقيين الذين تغنَّوا بدمشق وتحتضن مكتبة الأسد أعمالهم، ثم خُتم البحث بمختارات من الدوريَّات (الصُحف) الدمشقية ذات الأهمية التراثية الكبيرة.

وسيكون الحديث، في العدد القادم، في الجزء الثاني من البحث، عن الأديبات الدمشقيات القاصَّات، اللواتي أبدعن في الحديث عن دمشق، وتحتضن مكتبة الأسد أعمالهن، والعلماء الدمشقيين المبدعين في مختلف العصور، ثم الحديث عن مواد ثقافية تأليفية دمشقية كثيرة ومهمة تحتضنها المكتبة، في مختلف العلوم: التاريخ، الآثار، الجغرافية، العلوم الاجتماعية، الأديرة والكنائس، الأسواق، الأمثال الشعبية، الفلكلور، الأنساب، التراجم، السياحة، الصناعة والاقتصاد، الطبخ، العادات والتقاليد، العمارة، الفنون، وأعمال أخرى متنوعة.

ـ تقديم:

ليست دمشقُ عاصمةً طارئةً على التاريخ أو الأحداث، إنها المدينةُ الأيقونة، صانعةُ الحياة، كانت لعهود من الزمن مركزًا أساسيًّا في صياغة الأحداث، وفي يومٍ ما كانتْ عاصمةَ العالم إبّان الدولة الأمويّة، إنها روحٌ وثّابة تنثر عبرَ العصورَ الأصالةَ والإبداع.

وهي دائمةُ التجدُّد كتجدُّد الماء في نهرها الخالدَ «بردى».

إنها المدينةُ التي تَجمعُ أبوَابُها أسماءَ كواكب المَجموعة الشمسيّة السبعة المعروفة سابقًا، وهي المدينة التي تمكّنت من أنْ تكونَ الماضيَ والحاضرَ والمستقبلَ في آنٍ واحد.

هي في موقع القلب لكل باحث عن الدفء والحبِّ، وهي نارٌ وسيفٌ فولاذيٌّ مصقولٌ بالكرامة في وجه كلِّ معتَد غادر، أو طامعٍ متجبّر، ومن دمشقَ بدأت المدنيةُ رحلتَها، وما تزالُ تقدّمُ للإنسانيَة الدرسَ تلوَ الدرس بعظَمة تكوينها ودورها، فهي ملتقى الديانات السماويّة ومهدها، وملتقى الحضارات وينبوعها، وكما زَهتْ فيها آرَامُ وكنعانُ فقد أشرقت على مرابعِها شمسُ العروبة، إنها اختصارٌ للتاريخ في مدينة، وهي بوصلةٌ لكلِّ نظام عالميٍّ جديد.

هي عروسُ المدائن، ونبضُ الجمال الخلّاق، وألقٌ متجدد، وشمسٌ متوهجةٌ بالعنفوان، وهي نسيجٌ فسيفسائيٌّ ملحميٌّ متفرّدٌ أمامَ التزاحُم العالميِّ لامتلاك الألق، سرمديّةُ الوجود، دُرّةُ الشرق، وضّاءةٌ كصباحات الياسمين الموصوفة به.

وقد وَصف المقري التلمساني دمشق بقوله:

دمشق الشام ذاتُ الحسن والبهاء، والحياء والاحتشام، والأدواح المتنوعة، والأرواح المتضوّعة، حيث المشاهدُ المكرّمة، والمعاهدُ المحترمة، والغوطةُ الغنّاء والحديقة، والمكارمُ التي يباري فيها المرءُ شانئَه وصديقه، والأظلالُ الوريفة، والأفنانُ الوريقة.

دمشقُ أقدمُ مدينة مأهولة في العالم.. عاصرتْ أهمَّ الحضارات وكانت مركزًا للقرار في فترات متتابعة، تميَّزت بأوابدها الأثريَّة، ومدارسها التعليميَّة المختلفة، قصدَها كلُّ باحثٍ عن العلم

مكتبة الأسد في دمشق

والمعرفة في مختلف العصور، اختيرت عاصمةً للثقافة العربيَّة في عام (٢٠٠٨م).

أُطلقَ على مدينةَ دمشقَ على مرِّ العصور التاريخيَّة أسماءٌ وألقابٌ عديدة، يدلُّ بعضُها على صفات دمشق الطبَيعيَّة، وينسبُها البعضُ الآخرُ إلى بُناتها، أو إلى حوادثَ تاريخيَّةٍ تتعلَّق بها، يتّصلُ بَعضُها بتقسيمات إداريَّة أو إقليميَّة أو بروايات دينيَّة، فمن ذلك:

١ ـ ورد اسمُها دمشقاً في الوثَّائق المتضمنة المدن الَّتي فتحها (تحوتمس الثالث) في القرن الخامس عشر قبل الميلاد، وهو اَسمٌ لا يختَلف عمّا وردَ في الوثائقِ الآشوريَّة والتاريخية.

٢ ـ دار ميسيق وتعني: الأرضُ المسقيَّة، أو الدارُ المسقيَّة.

٣ ـ حوَّر اليونانُ والرومان اسمَ دمشق إلى داماسكس.

٤ ـ بيت رمُّون: نسبة إلى هيكلها الذي يُنسبُ إلى رمّون اللودي.

٥ ـ إرم ذات العماد: مذكورةٌ في القرآن الكريم «سورة الفجر» آية ٧، وقيل: إنها تعني دمشق.

٦ ـ مدينة العازر: خادم إبراهيم الخليل.

٧ ـ جلَّق معناها ألف وردة، جُلّ تعني وردة.

٨ ـ جَيرون، أو حصن جيرون، وقيل: إنَّ الذي بنى دمشق جيرون بن سعد بن عاد بن إرم بن سام بن نوح.

٩ ـ حاضرة الروم: من أسماء دمشقَ في عصر الجاهليَّة.

١٠ ـ شام شريف: لقبٌ أطلقَه التركُ العثمانيون على المدينة.

١١ ـ جنَّة الأرض: لقبٌ أُطلق على المدينة في عدَّة عصور.
١٢ ـ قصبة الشّام: لقبٌ استعملَه عددٌ مِنَ المؤرخين والجغرافيين المسلمين.
١٣ ـ الفيحاء: من أشهر ألقاب دمشق، أطلق عليها لسعة سهلها.
١٤ ـ الغنّاء: لُقِّبت بذلكَ لخضَرتها، والتفاف غوطتها بالأشجَار.
١٥ ـ الشّام: الاسمُ المرادفُ لدمشقَ على مرِّ العصوَر.
احتفظ العربُ بالتسمية الأولى، فأطلقوا عليها اسمَ دمشق[٢].

دمشق الشام: بكسر أوَله، وفتح ثانيه، هكذا رواه الجمهور، والكسر لغةٌ فيه، وشين معجمة، وآخره قاف: البلدة المشهورةُ قصبة الشام، وهي جنة الأرض بلا خلاف؛ لحسن عمارة، ونضارة بقعة، وكثرة فاكهة، ونزاهة رقعة، وكثرة مياه، ووجود مآرب.

قيل: سُمِّيت بذلك؛ لأنهم دمشقوا في بنائها؛ أي: أسرعوا.

وقيل: بُنيت دمشقُ على رأس ثلاثة آلاف ومئة وخمس وأربعين سنة من جملة الدهر الذي يقولون: إنه سبعة آلاف سنة، وولد إبراهيم الخليل بعد بنائها بخمس سنين[٣].

إنَّ اسمَ دمشق كما يبدو مؤلَّفٌ من مقطعَين: الأول: «دو» أو دا وتعني: اسم الإشارة ذو أو ذا، أو «دار» وتعني: موقعًا حصينًا.

والمقطع الثاني (ميسيك) وهي كما يبدو مشتقة من (سقي) كما يقول هوبت، وهكذا تعني التسمية داراميسك: الأرض المسقيّة.

ويرى «أولبرايت» أنَّ كلمة ميسيك هي أصل الكلمة العربية (مشق) وتعني: الحجر الجصيّ، وأنَّ التسمية دومشق تعني: ذا الحجر الجصيّ، ويؤكد «سوفاجيه» هذا الرأي[٤].

احتلّت مدينة دمشق مكانةً مرموقةً في المجالات كافة منذ الألف الثالث ق.م.

وردَ ذكرُها في أغلب مخطوطات الحضارات القديمة التي تعود إلى القرن الخامس عشر ق.م، وهذا ما دلّت عليه الكتاباتُ المكتشَفةُ في تل العمارنة، تعرّضت معالم الأوابد والأسواق في دمشق القديمة للتدمير بفعل الزلازل والحرائق والحروب، فقام معماروها وقاطنوها بترميمها، فبقيت محافظةً على قدر كبير من عبق التاريخ.

يقعُ جزءٌ منها على سفوح جبل قاسيون، أما القسمُ الأكبرُ من دمشق بما فيه المدينة القديمة فيقعُ على الضفة الجنوبيَّة لنهر بردى، على حين تنتشرُ الأحياءُ الحديثةُ على الضّفة الشماليَّة والغربيَّة، وتحيطُ بمدينة دمشق بساتينُ الغوطة، وجبلُ قاسيون، والربوة.

تراجعت المدينةُ مع بداية الفترة العباسيَّة، إذ توالت الحروبُ والاضطراباتُ والغزواتُ، ثم جاءَ السلاجقةُ وأتابكتهم مؤسسو الدولة الأيوبيَّة، ثم المماليك، وأخيرًا العثمانيون الذين انتهى حكمُهم عام ١٩١٨م.

إنَّ تسمية دمشق القديمة تُطلَقُ على الجزء الواقع داخلَ السور التاريخيّ، كانت بيضويَّةَ الشكل، محاطةً بسور يرجع إلى عهد الرومان، ثمَّ تجدّد ورُمّمَ لاحقًا في عهد الأمويين، وكانت المدينةُ تحظى بأهميَّة جيوسياسية بالنسبة لكلِّ مَنْ حكمها، كونها تقعُ في منطقة استراتيجية بين الدول المتصارعة المحيطة، وازدادت أهميتُها في الفترة العثمانية لكونها معبرًا لقافلة حجيج مسلمي أوروبا المتّجهة

(2) دمشق، رجال وأحداث وأماكن وصور: عزة آقبيق، ص13، 14.
(3) معجم البلدان: ياقوت الحموي، (463/2).
(4) عنوان الفيحاء (دراسة في تكوين مدينة دمشق): عفيف البهنسي، ص21.

إلى مكة، وقد احتفظت المدينةُ في القرن التاسع عشر بأجزاء كبيرة من أسواقها القديمة، وضمَّت منطقة العقيبة، ومنطقةَ العمارة البرانيّة، والشاغور، ومنطقة باب سريجة والميدان.

ضمَّتْ دمشقُ عدداً لا بأسَ به من المعالم التاريخيَّة والأثريَّة، كالأسواق، والخانَات، والمَساجد، والكنائسَ، والحمّامات، والأضرحَة، والشوارِع المرصوفة، والأزقّة الضيّقَة التي يحملَ بعضُها أسماءَ العائلات الدَمشقيّة التي سكنتها، إضافةً إلى القلعَة، والسورَ الذي يشهدُ على تعاقب العصورَ التاريخيةَ، ليُعَدَّ من أهمِّ معالمها، ويضمّ بَين جنباته كَثيراً من الأوابد التاريخية مثل: قلعة دمشق، وأبواب المدينَة، وهناكَ الكثير من الشواهد على تاريخ المدينة وعظمتها.

يعودُ تارَيخُ إنشاء هذا السور إلى العهد الآراميّ، ثمَ اليونانيّ، وبَعده الرومانيّ خلال القرن الثاني الميلادي عهد الإمبراطور الروماني «سبتيموس سيفيروس» والإمبراطور «كاراكلا»، ويحتوي على مساحة تُقدّرُ بمئة هكتار، مقسّمة إلى جزر مستطيلة، مفصولة بشوارع تتّجه بكلِّ الاتجاهات، يختلف السورُ الرومانيّ عن السور الحالي الذي رُمّم عدّة مرات على مرِّ العصور[٥].

وصفَها ياقوت الحموي بقوله: «هي جنّةُ الأرض بلا خلاف؛ لحسنِ عمارتها، ونضارة بقعتها، وكثرة فاكهتها، ونزاهة رقعتها، وغزارة مياهها»[٦].

ووصَفها ابن جبير بقَوله: «وأما دمشَق فهي جنة المشرق، ومطلع نورها المشرق.. وتشرَّفَت بأن أوى المسيح عليه السلام وأمُّه منها إلى ربوة ذات قرار ومعين»[٧].

«دمشقُ ديارُ المجد وديارُ الوجد، جمعتْ عظمةَ الماضي، وروعةَ الحاضر ... لها لينُ الماء الذي يضحكُ به بردى، وشَدّةُ الصخر الذي يشمخُ به قاسيون»[٨].

أولاً_ إحداث مكتبة الأسدَ الوطنية، وأهميتها:

ولِمَا لدمشقَ من أهميّةٍ كبيرةٍ فقد أصدرَ القائدُ الراحلُ «حافظ الأسد» مرسومًا تشريعيًا

(5) دمشق، رجال وأحداث وأماكن وصور: عزة آقبيق، ص14، 15.
(6) معجم البلدان: ياقوت الحموي، (463/2).
(7) في ربوع الشام دمشق: مطبع الحافظ، ص43.
(8) دمشق صور من جمالها وعبر من نضالها: علي الطنطاوي، ص22.

رقم /١٧/ بتاريخ ١٩٨٣/٧/٢٦م يقضي بإحداث مكتبة وطنيّة في دمشق، وكان قد وُضعَ حجرُ الأساس لبدء العمل بإنشائها منذ عام ١٩٧٨م، وفي ١٦ /تشرينَ الثاني/ عام ١٩٨٤ دُشّنَت مكتبةُ الأسد، وأصبحَت صرحًا حضاريًّا مهمًّا في سورية.

تقعَ في الطرف الغربي من مدينة دمشق، وتُطلّ على ساحة الأمويين، وقد أُريدَ لها أن تكونَ المكتبةَ الوطنيةَ للجمهوريّة العربيّة السوريّة، وذلك ضمنَ إطار نظرة وطنيّة صادقة مع تاريخ دمشق، ورؤية عميقة لحضورها العلميّ والثقافيّ والحضاريّ عبرَ التاريخ، وقدً عرّفت «اليونسكو» المكتبةَ الوطنيةَ بأنّها: المكتبةُ المسؤولةُ عن جمعِ وحفظِ المطبوعاتِ القوميّة من أجلِ خدمةِ الأجيالِ الصّاعدة.

ومكتبةُ الأسد الوطنيّة هي صرحٌ حضاريٌّ شامخ، ومنارةٌ علميّةٌ وحضاريّة.

للمكتبة قبتانَ تعلوانَ درجين حلزونيَّين في كلٍّ من البهوَين الرئيسين، لهما نقشٌ مزخرف، كُتبت داخلَ كلِّ قبّة أبياتٌ غاية في الجمال للشاعر العراقي (محمد مهدي الجواهري) في مدحِ القائدِ الخالد (حافظ الأسد) من قصيدة عنوانها (دمشق يا جبهة المجد):

يا حاضنَ الفكرِ خلّاقًا كأنَّ به
من نسج زهر الرُّبا موشيةً أنقا
يُطري أياديكَ سفرٌ رحْتَ تجمعَه
إلى الشتائت من أترابه نسقا
أحللْتَه حرمًا تهفو العقولُ له
يا سادةَ الفكرِ زدْ في نوره ألَقا
يا ديدبانَ الحمى حيِّ الصباحَ به
ويا حفيظَ النُّهى شَعْشِعْ به الأُفُقا

ومكتبةُ الأسد قبلةٌ للباحثينَ والمهتمين.

ولعلَّ منْ أهمِّ مهامِّها جمعَ التراث الثقافيِّ، واقتناءَ شتّى أشكال الإنتاج الفكريِّ المحليِّ والعالميّ؛ لتزويد الباحثين والمختصين به، ولإفادة كلِّ مَنْ يريدُ إشباعَ نَهَمَه للمعرفة والعلم.

تشمَتل المكتبةُ على موادّ ثقافية كثيرة تحدثت عن دمشق، ألّفها باحثون ومهتمون بعراقتها، وذلك خلالَ زيارتهم لها أو إقامتهم فيها، وبالتالي نقلوا عنها وصفًا يتّسمُ بالحركيّة والشفافيّة، وغطّوا جوانبَ مختلفة من فتراتَ عاشوا بأحضانها.

ومنْ أهمِّ ما تحتويه المكتبةُ «المخطوطات»، التي هي عراقةُ الماضي، وإشراقةُ المستقبل.

والمخطوطُ هو كتابُ الأمسِ، وذاكرةُ الأمّة، نتاجُ العقلِ والفكر، وهو ثروةٌ وطنيّةٌ، وجزءٌ مهمٌ من هُويّتنا.

وهو كلُّ ما كُتبَ باليد، وله قيمةٌ علميّة.

وقد نُقلت المخطوطاتُ إلى مكتبة الأسد بناءً على المرسوم رقم /١٧/ تاريخ ١٩٨٣/٧/٢٦م.

وكانتَ المخطوطاتُ محفوظةً في المكتبةَ الظاهريّة التي تقع في حيِّ العمارة، في موقع متوسط بين الجامع الأمويِّ، وقلعة دمشق، وسوق الحميدية، وبيوت المدينة، وجُمعتْ فيها المكتباتُ الوقفيّةُ كالعمريّة، وعبد الله باشا، وسليمان باشا العظم، والملاّ عثمان الكرديَ، والمراديّة، والسُّميساطيّة، والياغوشية، والخياطين، والأوقاف، وبيت الخطابة، وغيرها.

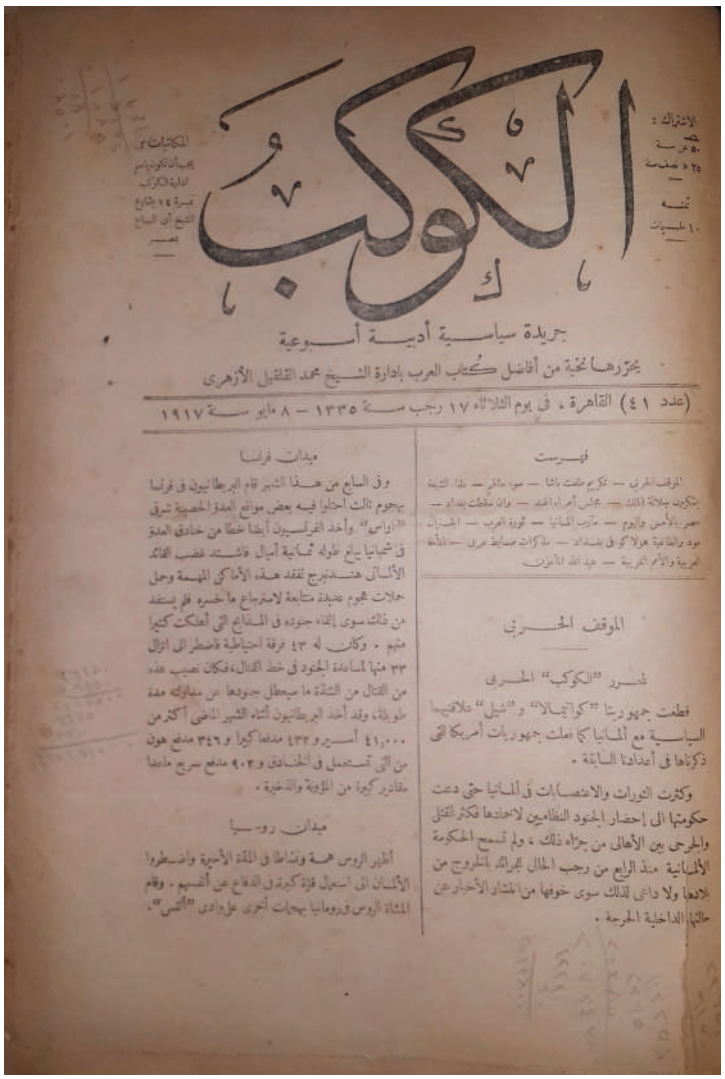

الكوكب

جريدة سياسية أدبية أسبوعية

يحررها نخبة من أفاضل كتاب العرب بإدارة الشيخ محمد الفقيل الأزهري

(عدد ٤١) القاهرة، في يوم الثلاثاء ١٧ رجب سنة ١٣٣٥ – ٨ مايو سنة ١٩١٧

فهرست

الموقف الحربي

ميدان فرنسا

ميدان روسيا

كما وردتْ إلى المكتبة أيضًا مخطوطاتٌ من وقفيّات حلبَ، وحمَاة، وبعض المراكز الثقافيّة في المحافظات، وعمدتَ المكتبةُ بعد تسلّمها إلى تأمين مستودعاتَ مناسبة لحفظها، وهي مستَودعاتٌ تتوفّر فيها شروطٌ مناسبةٌ من حرارة ورطوبة، وتُعقّم بشكل دوريّ، وتُرمّمُ وتُجلّدُ لحمايتها.

وليسهل على الباحثين دراستُها أصدرت المكتبةُ إلى وقتنا هذا أكثرَ من /٤٣/ فَهرسًا للمخطوطات الأصلية و/٧/ فهارس للمصغرات الفيلميّة، وقد ضمّت فيها وصفًا لمخطوطات المكتبة الظاهريّة، وللمخطوطات التي وَردتْ منَ حلبَ، والمراكز الثقافيّةَ، ومن الأفراد الذين أغنوا المكتبةَ بهداياهم القيّمة، وقدَ أقامت المكتبةُ حفلَ تكريم لهؤلاء الأفرادِ في ٢٠١٨/١١/٣٠م.

كما أصدرت المكتبة سجل العمومية (دراسة منهجية حديثة) إسهامًا منها في إفادة الباحثين.

تأسَّست المكتبةُ العموميةُ في نهاية القرن التاسع عشر بفضل نشاط كلٍّ من الشيخ «طاهر الجزائري» والشَيخ «سليم البخاري»، ومجموعة من العلماء الدمشقيين الذين رغبوا أن تُحفظَ المخطوطاتُ في مكانٍ واحد خوفًا عليها من الضياع، وقد جُمعت المخطوطاتُ من المكتبات العشر الآنفة الذكر، كما أُضيفتْ لها ثماني عشرة مكتبة. وكتب (علاء الدين عابدين) كتابًا للوالي (مدحت باشا) جاء فيه:

(لما كانت الكتبُ الموقوفةُ والمشروطةُ لاستفادة العموم حُصرَت بأيدي المتولين، وحُرمَت النّاسُ من مطالعتها كان من اللازم جمعُها، وجعلُها في مكانَ مخصوص ليكونَ الانتفاعُ بها عامًّا).

إنَّ سجلّ العموميةِ هو سجلٌ فريدٌ ونادرٌ، طُبع عامَ ١٢٩٩هـ/١٨٨٢م في مطبعة الجمعيّة الخيرية.

قام فريقُ العمل في مديرية المخطوطات بترتيبه ترتيبًا جديدًا، يُتيح للباحث الحصولَ على معلومات قيّمة، مرتبة ترتيبًا جَديدًا، كلٌ مكتبةٍ علىَ حدة، رُتِّبت عناوينُ المخطوطاتِ فيها ترتيبًا هجائيًا.

ونشير إلى أنَّ السجلَ السابقَ كان فيه الكثيرُ من الأخطاءِ الطباعيةِ والمنهجيّة العلميّة، في

العناوين أو المؤلفين أو في تحديد الأرقام الصّحيحة[9].

ثانيًا _ المخطوطات الدمشقيّة في مكتبة الأسد الوطنية:

وتزخر مكتبةُ الأسدِ الوطنيّة بالكثير من المخطوطات التي تتحدّثُ عن دمشقَ، وتنبعُ أهميّتها كونها:

١ ـ متنوعة فهي ذات أشكال متعددة منها: الكناشات، الكراريس، اللفافات (الطومارات).

٢ ـ تغطّي فتراتٍ زمنيّة، وحقبًا مختلفة، وتوثّق لتاريخ المدينة، وأحداثها المهمّة والمفصليّة.

٣ ـ تحيطُ بكلِّ جوانب الحياة في دمشق: التاريخيّة، والعمرانيّة، وَالتراثيّة، والدينيّة، والأدبيّة، والثقافيّة، والصّناعيّة، وَالزراعيّة، وتوزيع المياه في بيوتها وحدائقها وغوطتها.

٤ـ تشمل مواد ثقافية عبّر عنها مؤلفوها ومبدعوها من خلال زيارتهم لها أو إقامتهم فيها، ونقلوا عنها وصفًا يتسم بالحركيّة والشفافيّة، وغطّوا جوانبَ مختلفة من فترات عاشوا بأحضانها.

ومن هذه المخطوطاتِ القيّمة:

مخطوطة تاريخ بناء مدينة دمشق

تأليف: ابن قاضي شهبة، أحمد بن محمد الدمشقيّ ـ المتوفى ٧٩٠هـ/١٣٨٨م.

تاريخ النسخ: (١٠٠٠ ـ ١١٠٠هـ).

يتحدّث الكتابُ عن أبوابِ دمشقَ السّبعة، ويقول: إنّ مَنْ بنى دمشقَ بناها على الكواكبِ السّبعة فمثلاً:

باب شَرقي للشمس، وباب توما للزهرة، وباب الصغير للمشتري، باب الجابية للمريخ، وباب الفراديسِ لعطارد، وباب الفراديس الآخر المسدود للقمر، وباب كيسان لزحل، كما ذكرَ أسبابَ تسمية كل باب.

وتحدّث عن اشتقاق تسمية دمشق، وذكر روايات عدّة في دمشق.

وذكر المعاني اللغويّةَ للفظةِ دمشق، وتكلّم بشكلٍ مستفيض على بناءِ الجامعِ الأمويّ، والكنائسِ الموجودة في دمشق.

كما ذكر مقابرَ أهل دمشق، وخيرَ مَنْ دُفنَ فيها من الصَّحابة والتَّابعين.

وذهبَ المؤلفُ إلى ذكرِ عدّة روايات عن بَناء مدينة دمشق[10].

مخطوطة روضَة الأنام في فضائل الشام

تأليف: ياسين البقاعي المتوفى ١٠٩٥هـ/١٦٨٣م جمع من خلالِه الآياتِ القرآنيّة، والأحاديثِ الشّريفة التي تتحدّثُ عن فضائل الشام وأهلها.

من أمثلة الآيات القرآنية التي ذكرها قولهَ تعالى: ﴿ والتين والزيتون وطور سينين.. ﴾ قال البيضاوي في تفسيرها: مسجد دمشق، وبيت المقدس..

ومن أمثلة الأحاديث: ما رواه عبد الله بن حوالة أنه قال:

قال رسول الله ﷺ: «إنّ الله تعالى يقول: يا شام، أنتِ صفوتي من بلادي، أُدخل فيك خيرتي من عبادي، إنَّ الله تكفَّل لي بالشام وأهله»[11].

(9) سجل المكتبة العمومية في مكتبة الأسد الوطنية: دراسة منهجية حديثة، مكتبة الأسد، مديرية المخطوطات.

(10) تاريخ بناء مدينة دمشق: ابن قاضي شهبة، مخطوط، [1 _ 61].

(11) روضة الأنام في فضائل الشام: ياسين البقاعي، مخطوطة، 144 ورقة. والحديث أخرجه الهيثمي في مجمع الزوائد ومنبع الفوائد، (59/10)، الحديث رجاله ثقات. وانظر المعجم الكبير: الطبراني.

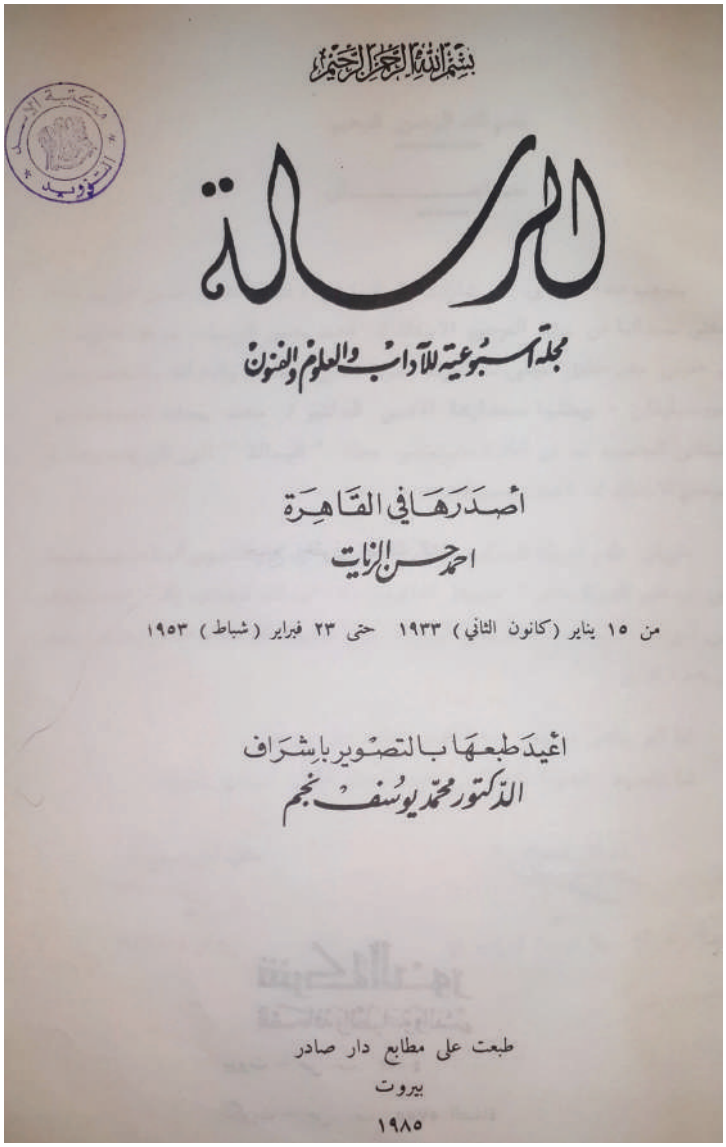

مخطوطة محاورة بين المدن

تأليف: مصطفى بن أحمد، التونسيّ، الطرابلسيّ ـ ؟

كُتبت سنة ١٢٨٢هـ.

هي حواريّة تجلّت فيها روحُ التنافس بين كلٍّ من حمصَ، وحماةَ، ودمشقَ، وطرابلسَ، والقدس، أخذتْ كلُّ مدينة تُبدي محاسنَها لتكونَ الفائزةَ باستقرار الوَزير عندها.

فقالتْ دمشقُ ذات الحَسنِ التّامِ والحياء والاحتشام:

«ما لهم يزيدون ويُنقصون، ويُطمعون ويحرصون ﴿إن يتّبعون إلا الظنّ وإن هم إلا يخرصون﴾.. أنا جنّةُ المشرق التي تحلّتْ بأزهار الرّياحين، وتزيّنتْ في منصّتها أجملَ تَزيين، وسئمت أرضُها لكثرة المَاء، حتى اشتاقتْ إلى الظمأ، فتكادُ تنَاديك بها الصمُّ الصّلاب: (اركضْ برجلك هذا مغتسلٌ باردٌ وشراب)، وأحدقت البساتينُ بها إحداقَ الهالة بالقمر، واكتنفتْها اكتنافَ الكمامة للزهرِ، وتكاثرتْ فيها الفواكهُ الحسانَ، وقد اختلفتْ منها الأطعمةُ والألوان، وامتدّتْ بشرقيِّها الغوطةُ الخضراء)[12].

مخطوطة حساب المياه الجارية في مدينة دمشق

تأليف: محمّد العطار ـ ؟

يتحدّثُ الكتابُ عن مياه دمشقَ، وعظمة الشعب الذي أحدثَ قنواتِ المياه، مشكّلاً الغوطة، ويتناولُ علمَ توزيع المياه، وهندسةَ هذا التوزيع وطرقه.

ويدرسُ الأنهارَ والقنوات: ما خُصّص منها للسقاية، وما خُصِّص للشرب.

كما عمدَ المؤلفُ إلى دراسة نهر بردى وفروعه، والفيجة وتمديدها إلى دمشق.

يجمعُ الكتابُ المفردات المستعملة في المياه بدمشق، وهو أوّلُ جمع وشرح لتلك المفردات[13].

ثالثا _ المؤلّفات الدمشقية المطبوعة في مكتبة الأسد الوطنية:

أمّا منْ أهمِّ الكتب التي أُلّفتْ وحُقّقت عن دمشقَ فهي:

(12) محاورة بين المدن: مصطفى الطرابلسي، 9 ورقات.

(13) حساب المياه الجارية في مدينة دمشق: محمد بن حسين العطار، مخطوطة، 20 ورقة.

تاريخ دمشق لابن عساكر

يُعَدُّ «ابنُ عساكر» من كبار المؤرخين العرب، وهو عليُّ بن الحسن بن هبة الله، الدمشقيّ المولد والأصل، المؤرِّخ، الحافظ، الرحّالة، وُلد سنة ٤٩٩هـ/١١٥٠م، وتُوفِّي سنة ٥٧١هـ/١١٧٦م، نشأ في بيت علم ودين، وتلقّى العلمَ منذ صغره على كبار مشايخ دمشق، كان للسلطان «نور الدين الزنكيَ» أثرٌ كبيرٌ في حياته العلميّة، ففي عهده وبتشجيع منه أنجز «تاريخَ دمشق» الذي يُعَدُّ من أهم كتب التاريخ؛ لشمَوليته، ودقة معلوماته، وهو ثروةٌ ضخمةٌ في التراث العربي.

شرعَ في تأليفه وهو في الثلاثين من عمره، واستغرقَ العملُ فيه نحو عشرين عامًا، وفي كتابه هذا ذكر فضلَ دمشق، وتسمية مَنْ حلَّها من الأماثل، وتوسّع كثيرًا في ترجماته، واتّبعَ في كتابه نهجَ المحدِّثين متأثرًا بعلماء الحديث، بدأ بذكر السّند ثم الخبر، ورتّب التراجم حسبَ حروف الهجاء بدقّة.

نجدُ في انتقائه للأخبار والحوادث ما يدلُّ على مهارته وتفوُّقه وعلمه.

أعطى «ابن عساكر» تاريخَ دمشق شكلاً واضحًا ومركّزًا، والصفةُ الغالبةُ على كتابه هذا الجمعُ، أما الملاحظاتُ الشخصيّةُ فقليلة.

أخذ عن عدد كبير من المصادر المكتوبة، وقد ضاع قسمٌ من هذه التآليف، وبقيت النصوصُ التي نقلها منها، وهذا ما يزيدُ من قيمة الكتاب التاريخيّة.

يقومُ مجمعُ اللغة العربيّة في دمشق بتحقيق هذا الكتاب تحقيقًا علميًّا، وكان قد طُبِعَ سابقًا في دار الفكر ببيروت في ثمانين مجلدًا، ولكن لوجود بعض الهنات والسقطات أعاد المجمعُ طباعتَه[١٤].

حوادث دمشقَ اليوميّة

جمعها: الشيخ أحمد البديري الحلاق (١٧٤١ ـ ١٧٦٢م).

يصوّر الكتابُ الحياةَ في دمشقَ خلال إحدى وعشرين سنة، من أواسط القرن الثاني عشر الهجري / الثامن عشر الميلادي.

سجّل فيه «البديريّ» ما كان يصلُ إلى علمه من أحداث تجري في دمشق أو قريب منها، وذكرَ مَنْ تولّى الباشوات، وكبارَ أصحاب المناصب، والفتنَ التي جرَّت بين طوائف الجند، ونهوضَ الأسعار، وفسادَ الأخلاق، وانتشارَ الأمراض، وغزوَ الجراد، وحدوثَ ظواهر طبيعيّة من كسوف، وخسوف، وزلازل، كما تحدّثَ عن الحجِّ الشاميّ، وما كان يجري في الطريق من مشاقّ للحجاج، فذكر الكثيرَ من اعتداءات العشائر البدويّة على الحجّاج[١٥].

الدّارس في تاريخ المدارس

عبد القادر بن محمد النُّعيمي، الدّمشقيّ أبو المفاخر المتوفى ٩٢٧ هـ.

هو مؤرخُ دمشقَ في عصره، وأفضلُ مَنْ كتبَ عن خطط دمشق، تحدّثَ فيه عن دور القرآن منها: الرشائية، والسنجارية، ودور الحديث منها: الأشرفيّة، والنوريّة، والمدارس الفقهيّة والطبيّة: كالعادليّة، والمعظميّة، واليغموريّة، وما يلحقُ بذلك من الرُّبُط كرباط البياني، والتكريتي، والخوانق: كالسُّميساطيّة، والنّجيبية، والترب ومنها: الأسديّة، والقيمرية، والزوايا ومنها: السّعدية، والسّراجية، وبيانِ أماكنها، وتناول أوقافَ إنشائها، وتراجمَ واقفيها، وذكرَ أوقافهم وشروطهم.

(14) تاريخ مدينة دمشق: ابن عساكر.
(15) حوادث دمشق اليومية: أحمد البديري الحلاق.

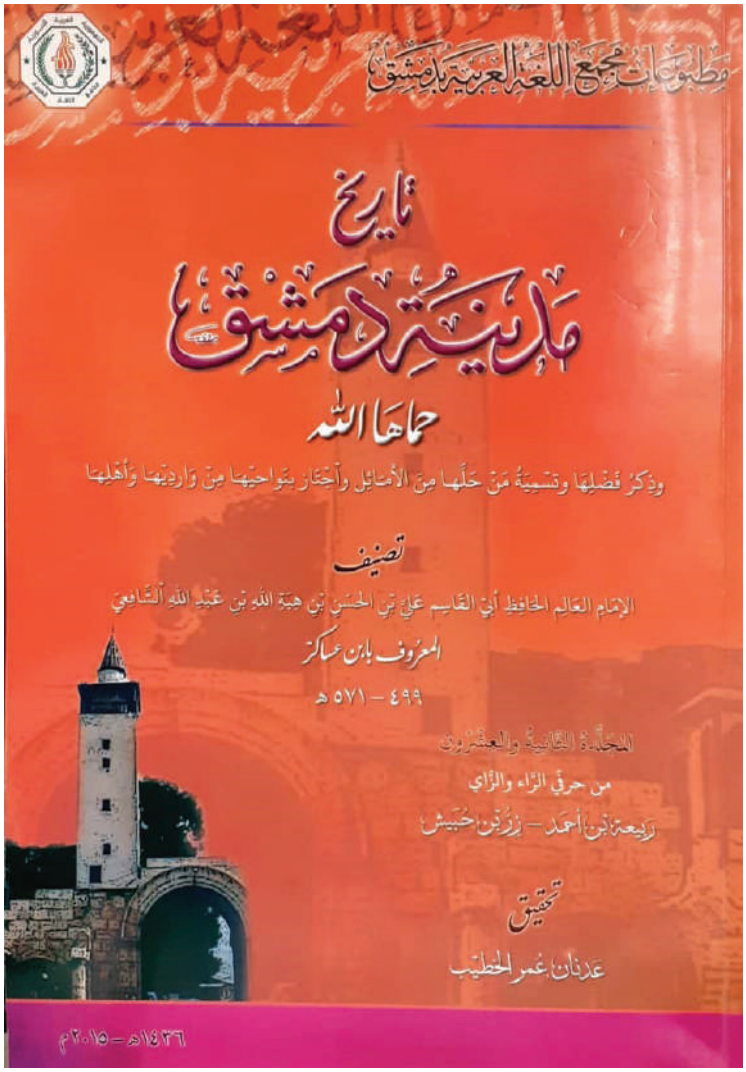

واعتمدَ في كتابه هذا على مشاهداته ومسموعاته، إضافةً إلى كتب الأسديّ، وابن كثير، والبرزاليّ، والذهبيّ، وغيرهم.

يُعَدُّ كتابُه أنموذجًا كاملاً للكتب الموسوعيّة ذات النفع العميم، وهو أفضلُ كتاب رصَدَ الحياةَ العلميّةَ في دمشقَ خلالَ خمسة قرونٍ أو تزيد[16].

دمشق تطوُّر وبنيان مدينة مشرقيَّة إسلاميَّة

تأليف: دوروتيه زاك نقله من الألمانية للعربية قاسم طوير.

صدرت الترجمة بالتعاون بين المعهد الفرنسيّ للشرق الأدنى ومَعهد الآثارَ الألماني بدمشق.

يتحدّث الكتابُ عن الوضع الجغرافيِّ لمدينة دمشق، وتطوُّرها التاريخيّ والعمرانيّ عبرَ العصور.

في آخره مخططاتٌ وملاحقُ لمدينة دمشق ملحقة بالكتاب، وطرقها الرئيسةَ، ومدارس دمشق، وجوامعها، وزواياها، وكنائسها، وأديرتها، ومعابدها، وأسواقها، وأسماء حاراتها[17].

دمشق الشام في نصوص الرحّالين والجغرافيين والبلدانيين العرب والمسلمين من القرن الثالث إلى القرن الثالث عشر للهجرة.

تأليف: أحمد الإيبش ـ د. قتيبة الشهابي.

يتناولُ الكتابُ كلَّ ما أورده الرحّالون والجغرافيون والبلدانيون العرب والمسلمون من أوصافٍ لمدينة دمشقَ العتيدة العريقة الخالدة، أول عاصمة لهذه الدولة العظيمة.

وتُعَدُّ هذه الدراسةُ مصدراً مَهمًّا وأساسيًّا لكلِّ مَنْ يتصدّى للبحث في التاريخ المدنيِّ والعمرانيِّ والاجتماعيِّ لأيِّ قطر أو مدينة في العالم العربيّ والإسلاميّ، وتمتازُ نظرةُ الرَّحَّالة بشموليتها، واستجلائها خصائصَ المكان، وتَفحّصها لكلِّ ما هو جديدٌ وغريبٌ ممّا يغفله أبناءُ القطر ذاته.

في هذا الكتاب فوائدُ جُلّى تُجتنى للمهتمين بالطبوغرافيا التاريخيّة لمدينة دمشق، وتبيان بعض أسماء الأماكن القديمة وأوصافها.

(16) الدارس في تاريخ المدارس: عبد القادر النُّعيمي.
(17) دمشق تطور وبنيان مدينة مشرقيّة إسلامية: دوروتيه زاك.

إنَّ هذا الكتاب يُغني مكتبةَ التراث الأدبيِّ الجغرافيِّ بالنصوص، أما الأسلوبُ في سرد الرحلة والأحداث ففيه السلاسة والجاذبيّةُ التي قد لا نجدُها في تواريخ البلدانِ وفضائلِ المدنَ[18].

قاموس الصِّناعات الشامية

محمد سعيد القاسمي ١٨٤٣ ـ ١٩٠٠، حققه: ظافر القاسمي.

يُعَدُّ الكتابُ وثيقةً تاريخيةً مهمّة تتضمن تصويرًا للصناعات الشّامية في أواخر القرن التاسع عشر وأوائل القرن العشرين، فحفظ ما كان يمكن أن يندثرَ من أسمَاء وأوصاف كثير من الصناعات.

ومن أهمِّ ما تضمنه الكتابُ أنه وصف الحياةَ الاجتماعيَّة والاقتصاديّة في البلاد، وفيه فوائدُ بيتيّة من عادات وتقاليد أهل الشام، وفوائدُ تاريخيّة نادرة، وقصصٌ ظريفة وأشعار.

ويتضمّنُ إحصَاءً للصنَاعاتَ المعروفة في ذلك العصر، وطريقة مزاولتها، وما تحتاج إليه من الآلات والأدوات، وما كان هذا مَتيسرًا إلَا من خلالِ الاجتماعِ بأهلِ تلكَ الصّناعات، والتعرّف إلى طرائقَ صناعتهم.

ونجد في الكتاب أسعارَ بعض السلع بالعملة المتداولة في ذلك العصر، كما نجد أجورَ بعض الأعمال، فهو مصَدرٌ تاريخيٌ لَلحياة الاقتصادَية في البَلاد.

كما يتضمن الاصطلاحات الأعجميّةَ التي تدلُّ على سرعة الاقتباس لشؤون المدينة الحديثة[19].

معجم المؤرخين الدمشقيين وآثارهم المخطوطة والمطبوعة

د. صلاح الدين المنجد ١٩٢٠ ـ ٢٠١٠م

يتحدّثُ الكتابُ عن المؤرّخين الذين ألّفوا تاريخًا عامًّا أو خاصًّا عن دمشق، أو عن غيرها، ومَن ألّف في طبقاتِ الرجال، ومن ألّف في الوفيات، وكذلك في فضائلِ الأشخاص أو البلدان أو الخطط.

وقدّم لكلِّ مؤرخ بترجمة موجزة عنه، وأردفَها بالمصادر التي ذكرتْه، أو ذكرتْ مؤلفات من مخطوطات ومطبوعات، وذَكر أماكنَ وجود المخطوطات مَعتمدًا على كتاب بروكلمان.

فمن ذلكَ ما ذكره في ترجمته للمؤرخ (**أبي شَامة**):

عبد الرحمن بن إسماعيل، أبو شامة الدمشقي، المجتهد المؤرخ، سُمّي أبو شامة لشامة كبيرة كانت فوق حاجبه الأيسر، وليَ التدريسَ في مدارسِ دمشق الكبار، توفي بدمشقَ مقتولاً سنة (٦٦٥هـ/١٢٦٦م)[20].

موسوعة الأسر الدمشقيّة

تاريخها، أنسابها، أعلامها

د. محمد شريف عدنان الصّواف

يُعَدُّ هذا الكتابُ موسوعةً رائدةً وفريدةً في دراسة المجتمع الدمشقّي.

جمع فيه المؤلفُ أخبارَ عدد من الأسر الدمشقيّة الشهيرة، والتي بلغ عددُها نحو (٤٠٠) أسرة، تنتمي إلى عدد من القوميّاتَ والمذاهبَ الفكريّة، وَترجم لأعلامِها الذين كان لهم أثرٌ كبيرٌ في مختلفِ الميادينَ الاجتماعيّة والحضاريّةَ والعلميّة.

(18) دمشق الشام في نصوص الرحالين والجغرافيين والبلدانيين العرب والمسلمين من القرن الثالث إلى القرن الثالث عشر للهجرة: أحمد إيبش، وقتيبة الشهابي.

(19) قاموس الصناعات الشاميّة: محمد سعيد القاسمي.

(20) معجم المؤرخين الدمشقيين وآثارهم المخطوطة والمطبوعة: صلاح الدين المنجد.

يتميّزُ الكتابُ بمنهجه العلميّ، واتّخَذ هذا العملُ صفةَ المعجَميّة المفهرسة ممّا يتيحُ للباحث دراسةَ النسَيج الاجتمَاعيّ الدمشقيّ العَربيّ السوريّ بمَا فيه من علماءَ وأطباء وأدباء وتجار، ولمَنْ أراد أن يتعرّفَ إلى تاريخ أسرته وأجدَاده.

ذكرَ المؤلفُ في بدايتَه فضلَ مدينة دمشق، وبلاد الشام، كما أوردَ لمحةً عنَ مجتمع مدينة دمشق، وذكرَ خصائصَ الشخصيّة الدمشقيّة[٢١].

رابعًا ـ أشهر المؤرخين الدمشقيين الحديثين الذين كتبوا عن دمشق، وتحتضن مكتبة الأسد مؤلّفاتهم:

من الباحثينَ والمؤرِّخين والمحققين الذين كتبوا عن دمشق سأورد نبذة عنهم مراعيًا الترتيب الهجائي لأسمائهم، وهذه الأسماء على سبيل الذكر لا الحصر:

الأستاذ أكرم العلبي ١٩٤١ ـ ٢٠١٣م

مؤرخٌ ومحققٌ في كتب التراث، وباحثٌ أكاديمي، وُلدَ في دمشقَ في حيّ «القيمرية» أحد أعرقَ أحياء دمشق القديمة.

نالَ الشَهادةَ الثانوية سنة ١٩٦٠م، والتحق بكلية الآداب قسم التاريخ، وتخرّج فيها سنة ١٩٦٤م.

عمل مدرِّسًا لمادة التاريخ في ثانويات الحسكة وثانويات دمشق، ثم أصبحَ مفتشًا للمادة في وقت لاحق، ثم عُيِّنَ عضوًا في المجمع العالي لِلعلوم الإسلامية بدمشق.

حصل على دبلوم من معهد البحوث والدراسات العربية/قسم الدراساتِ والبحوث التاريخية والجغرافيّة في القاهَرة سنة ١٩٦٩م.

حصل على درجة الماجستير من المعهد المذكور سنة ١٩٧٨م بدرجة امتياز، وموضوع رسالته: (نيابة دمشق في نهايَة عهد المماليك عهدَ سيباي)، ثم عملَ في السعودية موجّهًا لمادّة الاجتماعيات مدة ست سنوات، عاد بعدها إلى سورية، وانكبَّ على دراسة التاريخ ومَطالعة الكتب، حيث عرفه روّادُ مكتبة الأسد الوطنية، والمكتبة الظاهرية، ومركز الوَثائق التاريخية، إذ استطاع التعاملَ مع المخطوطِ والكتَابِ والوثيقة، وترجمَ النادرَ منها، وتَعامل معها بحرفيّةٍ وجديّةٍ قلّ نظيرُها،

(21) موسوعة الأسر الدمشقيّة (تاريخها، أنسابها، أعلامها): محمد شريف عدنان الصواف.

فقصده الطلابُ والباحثون لفكِّ رموز بعض الوثائق العثمانية وغيرها.
قصدَه طلابُ العلم لينهلوا من علمه، وكان يعطيهم الكثيرَ من وَقته.
تحدّث الدكتور محمد غسان عبيد مدير مركز الوثائق التاريخية عنه قائلاً:
«كان مجدًّا في عمله، يتعاملُ مع الوثيقة بكفاءة عالية وأمانة».
تنوّعَ نتاجُه العلميّ، وله مؤلفات كثيرة، منها ما عرِّف باسمه، ومنها ما لم يعرف به، تجاوزت مؤلفاته العشرين.
قال في حبه للشام:
«أنا لستُ عنصريًا، ولا متحيّزًا، ولا متعصبًا، ولكن كل الجنسيات التي قابلتها في أسفاري وحلّي وترحالي في غربتي أشعرتني بأنني عنصريّ متحيّز للشام»[٢٢].

من مؤلفاته المتوفرة في مكتبة الأسد:

١ ـ خالد العظم آخر حكام دمشق من آل العظم، دمشق: دار شهر زاد، ٢٠٠٥م.
٢ ـ خطط دمشق، دمشق: دار الطباع، ١٩٨٩م.
٣ ـ دمشق الشام: تأليف: جان سوفاجه، تحقيق: أكرم العلبي، ١٩٨٩م.
٤ ـ ظرفاء من دمشق: ١٩٩٦م.
٥ ـ يوميّات شامية، تأليف: محمد بن كنان، تحقيق: أكرم العلبي، دمشق: دار الطباع، ١٩٩٣م.

الدكتور شاكر مصطفى
المؤرخ والأديب
١٩٢١ _ ١٩٩٧م

شاكر مصطفى مؤرخٌ، وناقدٌ، وسياسيٌّ، ودبلوماسيٌّ، تفرَّدَ بين المؤرخين القدماءِ والمحدثين في نظرته وحياديته وأحكامه.
وُلِدَ شاكر مَصطفى سَنة ١٩٢١ في دمشقَ، وكان رجلاً موسوعيًّا، ظهرت موهبتُه الأدبيّةُ منذ طفولته، وكان وهو في المدرسة يلتهمُ الكتبَ الشائعة، ويحفظُ من روائع الشعر العربيّ، وبخاصّة شعر النضال في وجه الانتداب الفرنسيّ على سورية، الذي كان ينظمهَ في مختلف المناسبات.
بعد نيله شهادة الدَراسة الثانويّة سنة ١٩٣٩م انتسب إلى مدرسةِ المعلمينَ بدمَشقَ، وتخرّج فيها سنةَ ١٩٤٢م.
أوفدته وزارةُ التربية السورية، وكان اسمُها آنذاك وزارة المعارف، ببعثةٍ دراسيّةٍ إلى كلية الآداب قسم التاريخ بجامعة القاهرة سنة ١٩٤٥م.
بين سنتي ١٩٤٥ ـ ١٩٥٥ عمل مدرسًا، ثم مديرًا لمدرسة المعلمين، ثم أمينًا عامًّا لجامعة دمشق في أوائل الأربعينيات.
وبين سنتي ١٩٥٦ ـ ١٩٦٣ عمل في السلك الدبلوماسيّ ممثلاً لسورية في السودان، وكولومبيا، والبرازيل، ثم أصبح مديرًا عامًّا في وزارة الخارجية، وفي سنة ١٩٦٥م سُمّي وزيرًا للإعلام.
استقر في الكويت، ومارسَ التدريسَ لمادة التاريخ في جامعتها الناشئة سنة ١٩٦٦م، وفي أثناء تدريسه أعدَّ أطروحةً أكاديميةً موضوعها «مؤرخو العصر السلجوقي الأيوبي» نالَ بها شهادةَ دكتوراه في التاريخ من جامعة جنيف (سويسرا) سنة ١٩٧٠م.

(22) دمشق سجل الإبداع الفكري: محمد مروان مراد، ص101. أعلام في ذاكرة الشام: عزة آقبيق، ص290.

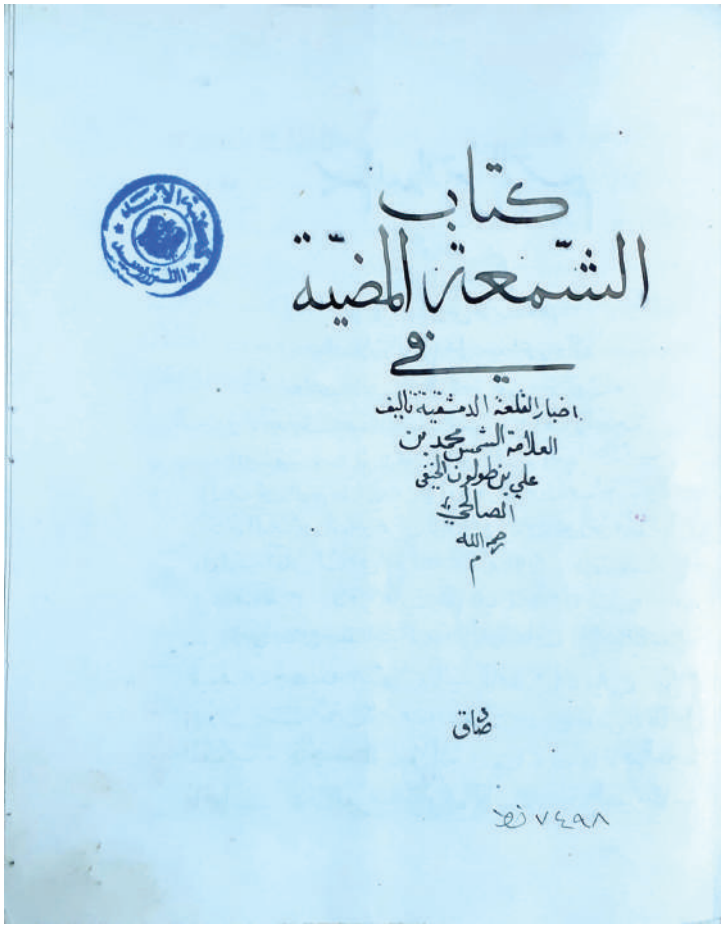

وفي سنة ١٩٨٢م عهدت المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم إلى لجنة تضمُّ مجموعةً من أعلام الثقافة العربيةً، وكان «شاكر مصطفى» أمينًا عامًّا لها.

استمرَّ نشاطُه الفكريُّ والأدبيُّ متميزًا على مدى خمسة وعشرين عامًّا قضاها في الكويت حتى سَنة ١٩٩٠م، عاد بعدها إلى دمشقَ ليواصلَ التأليفَ والكتابة، حتى وافاه الأجل سنة ١٩٩٧م.

كان يتساءل في بعض ما كتب: «هل كان عملي طولَ حياتي في التاريخ أم في الأدب؟» ولكنه سرعانَ ما يجيب وَيقول: «التاريخ هو مهنتي، والأدب هو هواية عمري».

تناولت مؤلفاتُه تاريخَ العرب من جوانبَ متعددة، بعضُ هذه المؤلفاتَ موسوعيّة مثل: «موسوعة دول العالم الإسلامي ورجالها».

إنَّ مجموعَ هذه المؤلفات التاريخية يندرج تحت ما سمَّاه المؤلفُ «الملحمَةَ العربيّةَ الكبرى مع التاريخ».

من مؤلفاته:

خلّف حوالي ٧٠ عنوانًا، منها كتبٌ موسوعيّةٌ في مجلّدات، ومنها كتبٌ تاريخيةٌ وأدبية، وكتيبات، ومنها ما هو مشاركةٌ مع مؤلفين آخرين.

وكان يقدّسُ العلمَ والنقدَ العلميَّ في سبيلِ الوصولِ إلى معرفةِ الحق، أيًّا كانت الأدواتُ الموصلةُ له، وأيًّا كان الشخصُ الهادي إليه.

لعلَّ أكثرَ إنجازاته أهميةً هي مشروعُه الضخمُ المعنون بـ: (**التاريخ العربيِّ والمؤرخون**)، فقد بذل فيه جهداً كبيراً في كتابته، ودقّة معلوماته، ويكاد يكون هذا الكتابُ موسوعةً شاملة.

قدّمَتْ ابنتُه مكتبتَه هديةً لمكتبة الأسد الوطنيّة بعد وفاته، وهي مكتبةٌ غنيّةٌ بالكتب القيّمة، وإهداؤها يدلُّ على انتماء هذا الأديب المتفرّد لسوريةَ ودمشق[٢٣].

من مؤلفاته المتوفرة في مكتبة الأسد عَن دمشق:

١ ـ في التاريخ الشامي: دمشق، دار طلاس، ١٩٩٨م.

٢ ـ مدينة للعلم آل قدامة والصالحية، دمشق، دار طلاس، ١٩٩٧م.

(23) فارس الأدب والتاريخ: عصام الحلبي، ص17_22، ص230.

الدكتور عفيف البهنسي ١٩٢٨ ـ ٢٠١٧م

الدكتورُ «عفيف البهنسي» ولد عام ١٩٢٨م في حي الشعلان الدمشقي، وشهد تطوُّرَ مدينته من خلال الحيِّ الذي نشأ وترعرع فيه، واستطاع استيعابَ ثقافة قاطنيه من الجاليات الغربيّة لينفردَ مبكّرًا بابتكار مزيج فكري تميَّز بتنوُّع ثقافيٍّ لازمَه طيلةَ حياته، ليصبحَ متميّزًا بين أقرانه، ورمزًا لجميعِ تلامذته فيما بعد.

برَزَ اسمُه في مقدّمَة الكوكبة اللامعة التي جنّدتْ فكرَها وعملَها البحثيَّ الدائبَ للكشف عن كنوز التراث العربيِّ الإسلاميِّ، والتّصدَي لحملات التشويه، والحطِّ من الدّورِ الحضاريِّ المهمِّ للأمّة العربيّة[٢٤].

درسَ في دمشقَ جميعَ مراحلِ الدراسة، وحصل على شهادة الدكتوراه في تاريخ الفن من جامعة «السوربون» عام ١٩٤٦م.

كما حصلَ على دكتوراه الدولة بالحقوق من جامعة السوربون» عام ١٩٧٨م.

عمل أستاذًا في جامعة دمشق في كليات الفنون الجميلة، والهندسة المعمارية، والآداب والعلوم الإنسانية في قسمي الآثار والتاريخ.

المناصب:

ـ كان أوَّلَ مدير للفنون الجميلة «الفنون التشكيلية والتطبيّقية سابقًا «في وزارة الثقافة بين عامي ١٩٥٨ ـ ١٩٧١، وكان عضوًا ومؤسسًا لاتحاد الكتّاب العرب.

عُيّنَ مديرًا عامًّا للآثار والمتاحف في سورية عام ١٩٧٢م[٢٥].

نالَ تكريمَ المؤسسات العلميّة العربية والعالمية، وحملَ عشرات الميداليات والأوسمة، وله أكثرُ من خمسينَ مؤلف في الفنِّ والتاريخِ ومعاجمِ العمارة، والخطِّ والزخرفة، وقد تُرجم أكثرُها إلى اللغات الأجنبيّة[٢٦].

من مؤلفاته عن دمشق المتوافرة في المكتبة:

ـ دمشق، نشر في المكتبة العمومية سنة ١٩٨١م.

ـ القاشاني الدمشقي، ٢٠٠٠م.

ـ المدينة العربية الإسلامية ونموذجها دمشق القديمة، ٢٠٠٠م.

نشر مقالاتٍ وقصصًا في الصحف والمجلات السورية.

العلاّمة محمّد كرد علي: ١٨٧٦ ـ ١٩٥٣م

محمد بن عبد الرزاق كرد علي، وُصف بالباحث الذي سبقَ عصرَه.

أبصرَ النورَ بدمشق في العام ١٨٧٦م عندما كانت سوريةُ غارقةً في بحر من الظلم والظلام، وكان مَنْ يتقنُ القراءةَ والكتابةَ في ذلك العهد يشبهُ عالمَ الذرّة في عصرنا، إذ كانت الأميّةُ منتشرة، فلا مدارسَ بالمعنى الصحيح، بل كتاتيبَ صغيرة، تعلّق منذ صغرِه بالمطالعةَ، وجمع الكتب، كان يقرأ وهو في الثالثةَ عشرةَ من عمره، وكان يسهر إلى ما بعدَ منتصف اللّيل وهو يقرأُ على مصباحِ الزيت، إلى أن ضَعُفَ بصرُه، وساءَتْ صحّته، ونصحَ له مَنْ حولهَ من الأهل

(24) أعلام في ذاكرة الشام: عزة آقبيق، ص283.

(25) أعلام في ذاكرة الشام: عزة آقبيق، ص283.

(26) معجم المؤلفين السوريين في القرن العشرين: عبد القادر عياش، ص436، 437.

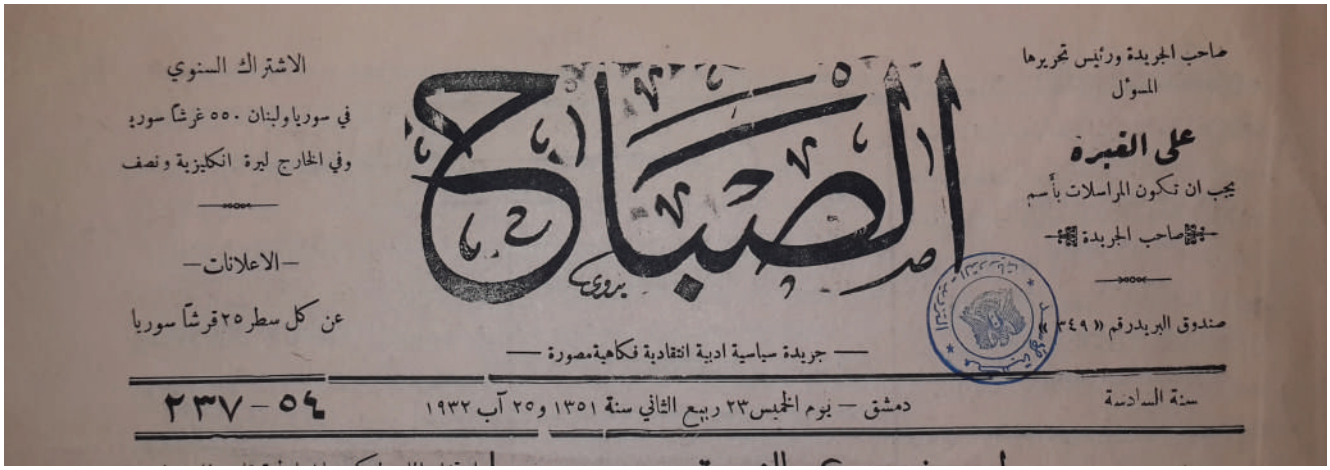
صاحب الجريدة ورئيس تحريرها المسؤل
على الفبرة
يجب ان تكون المراسلات بأسم صاحب الجريدة
صندوق البريد رقم «٣٤٩»
الصباح
جريدة سياسية ادبية انتقادية فكاهية مصورة
الاشتراك السنوي
في سوريا ولبنان ٥٥٠ غرشاً سوري
وفي الخارج ليرة انكليزية ونصف
الاعلانات
عن كل سطر ٢٥ قرشاً سوريا
سنة السادسة
دمشق — يوم الخميس ٢٣ ربيع الثاني سنة ١٣٥١ و ٢٥ آب ١٩٣٢
٢٣٧ - ٥٤

بالاعتدال، ولكنه لم يُصغِ إلى هذا النصح؛ لأنه لم ينسجمْ مع هوايته التي أحبَّها حتى العشق، كان منظرُ الكتب يفتنُه ويُغريه، ورؤيةُ الصُّحُف المنتشرة تسرُّه وتَسحرُه[٢٧].

ـ انتبه أبوه إلى شغفه بالمطالعة، وشجّعه على اقتناء الكتب وقراءتها، وحين اشتدّ ساعدُه بالعلم والمعرفة، أخذ يقرأ اللغتينَ الفرنسية والتركية، إضافةً إلى العربيّة، فزادته المطالعةُ تعلُّقًا بالعلم، وعشقًا للصِّحافة، وحين بلغ السادسةَ عشرةَ أخذ يكتبُ المقالات والأخبار، ويبعث بها إلى الصُّحُف، كذلك تعلّق (محمد كرد علي) بالشعر، والنثر، والسجع الأنيق، وانكبَّ يدرس الأدبَ على أيدي شيوخه ومدرِّسيه، وفي طليعتهم العَلاّمة (الشيخ طاهر الجزائري) المتوفّى ١٣٣٨هـ/١٩٢٠م.

زار (محمّد كرد علي) مصرَ، ومكث فيها شهورًا، تعرّف خلالَها إلى علماءِ مصرَ وأدبائها، وعمل في صحافتها، فاتّسع أفقُه، وذاعَ صيتُه.

عاد ثانيةً إليها، وشاركَ في تحرير بعض الصُّحُف.

اشتدّ الحنينُ بالمفكر الكبير لدمشقَ مَسقط رأسه، فعاد إليها ثانيةً، ثم ذهب إلى فرنسا، وفي باريس زار «الأكاديميّة الفرنسيّة» وهي المجمعَ العلميّ الفرنسيّ، ووقف في بهوه الرَّحْب، وأخذ يناجي نفسَه قائلاً: هل يقدَّرُ لنا في المستقبل أن ننشئَ في بلادنا مثلَ هذا المجمع؟

وكان هذا بدءُ تفكيره بإنشاء المجمع العلميِّ العربيّ بدمشق، ثم وجد العلاّمة (كرد علي) الفرصةَ سانحةً لتحقيقَ حلمهَ بتأسيس المجمع على غرار ما تفعله الأممُ المتحضرة لحفظ تراثها ولغتها، وقد تحقّقَ ذلكَ في اليومَ الثامنِ مَن حزيرانَ عام ١٩١٩م، وأصبح الأستاذ (كردَ علي) رئيسًا للمجمع إلى آخر عمره.

كان عمله في المجمعَ أبرز مَا قامَ به في حياته، وولي وزارة المعارف مرتين في عهد الاحتلال الفرنسي، كانِ من أصفى الناس سريرة، وأطيبهم لمن أحب عشرة، وأحفظهم ودًّا.

أحبَّ علاّمةُ الشّام غوطةَ دمشق، أحبَّها حتى العشق والهيام، وأقام فيها ستين سنة، في أرضه التي ورثها عن أبيه في قرية «جسرين»، ومن أجلِ هذا وضع كتابَه النفيس «غوطة دمشق» فأرّخ للغوطة، وتحدّث عنها[٢٨].

(27) الأعلام: خير الدين الزركلي، (203/6).
(28) دمشق سجل الإبداع الفكري: محمد مروان مراد، ص72 _74.

أهمُّ كتبه:

أما كتابهُ «خطط الشام» فهو أبرزُ آثاره، وأعظمُ أعماله، أنفقَ في تأليفه خمسةً وعشرين عامًا، ومنها أيضًا: «كنوز الأجداد» الذي تناول فيه سيرَة خمسين عالمًا، وأهداه إلى أستاذه الشيخ طاهر الجزائري، وذكر سيرته اعترافًا بفضله على الثقافة العربية[٢٩].

ـ وفي عام ١٩٥٣م ودّعت دمشقُ العلاّمةَ (كرد علي) إلى مثواه الأخير، ووقف (الأديبُ منير العجلاني) على قبره يومَ وفاته قائلاً:

«إنَّ ثمّة إمارتَين مَعقودتين في العالم العربيّ، إمارةُ الشعر، وكانت معقودةً للمرحوم أحمد شوقي، وإمارةُ العلم، وكانت معقودةَ اللواء للفقيد العلاّمة محمد كرد علي»[٣٠].

ومن أهمِّ مؤلفاته المتوفرة في المكتبة عن دمشق:

ـ دمشق مدينة السحر والشعر، القاهرة، مطبعة المعارف، ١٩٥٢، وهي ملخص لبعض فصول خطط الشام.

ـ غوطة دمشق، دمشق، ١٩٤٩م. مطبوعات المجمع.

الأستاذ منير الكيال ١٩٣١ ـ ٢٠٢١م

باحثٌ ومؤرخٌ، وُلد في حيّ الشاغور بدمشق عام ١٩٣١م، وتابع تحصيلَه العلميَّ في مدارسها، ثم نالَ الإجازةَ في الآداب، قسم الجغرافيا بجامعة دمشق عام ١٩٥٨، مارس رسم الخرائط وتأليف كتب جغرافية مدرسية، واهتمَّ بالتراث منذ حداثته، وتابع مؤلفاتِ المؤرّخين، ونقَّب فيها عن صور الجمال، وبالذات في مجال «الفولكلور» الدمشقيّ[٣١].

بدأ اهتمامه بتَوثيق تاريَخ دمشقَ منذ كان طالبًا في الجامعة، وكان من هواياته التصوير الفوتوغرافيّ، فكان يجوب شوارع وحارات وأسواق دمشق يلتقط الصور، ويدوّن حواراتِه مع الناس ليجد نفسه استغرق في البحث والتوثيق عن كلِّ ما يتعلّقُ بدمشق.

دافعُه إلى ذلك شعور عميق بالامتنانَ لمدينته دَمشق التي «أكلتُ من خيرها، وأصبحت متعلمًا بفضلَها».

عمل مديرًا في ثانويات دمشق، ومديرًا لتعادل الشهادات في وزارة التربية، وكان عضوًا في جمعية البحوث والدراسات باتحاد الكتّاب العرب، وكان يقول:

«كل ما أقدِّمه من أبحاث وكتب هو وفاء لمدينة دمشق التي كانت قبلةً علميّةً للعالم»[٣٢].

ـ ومن أهمِّ مؤلفاته المتوفرة في مكتبة الأسد عن دمشق:

ـ إيقاعات شاميّة في مكنون السلوك الدمشقي: دراسة أوراق من نشوة الماضي، دمشق: الهيئة العامة السورية للكتاب، ٢٠١٣م.

ـ حكايات دمشقيّة، مطابع ابن خلدون، ١٩٨٧م.

ـ الحمّامات الدمشقيّة، مطابع ابن خلدون، ١٩٨٦م.

ـ دمشق الشام ذاكرة الزمان، دمشق: الهيئة العامة السورية للكتاب، ٢٠١٠م.

ـ دمشق ياسمينة التاريخ، دار البشائر، ٢٠٠٤م.

(29) معجم المؤلفين السوريين في القرن العشرين: عبد القادر عياش، ص437.
(30) دمشق سجل الإبداع الفكري: محمد مروان مراد، ص75.
(31) معجم المؤلفين السوريين في القرن العشرين: عبد القادر عياش، ص448.
(32) رحيل منير كيّال موثّق تراث دمشق: الشرق الأوسط (جريدة العرب الدولية)، العدد: 15049، 10/شباط/2020م.

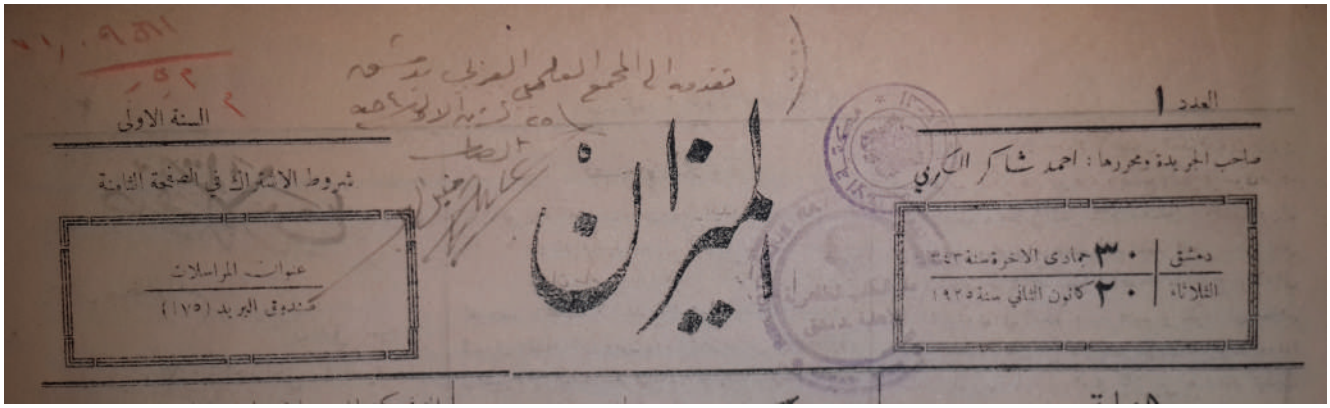

- دمشقيات مرابع الطفولة ومهوى الأفئدة، دمشق: الهيئة العامة السورية للكتاب، ٢٠١٨م.
- رمضان في الشام أيام زمان، مؤسسة النوري، ١٩٩٢م.
- سهرات النسوان في الشام أيام زمان، دمشق: الهيئة العامة السورية للكتاب، ٢٠٠٩م.
- صور دمشقيّة، دمشق: الهيئة العامة السورية للكتاب، ٢٠١١م.
- فنون وصناعات شاميّة، دمشق: وزارة الثقافة والإرشاد القومي، ١٩٨٥م.
- كنايات الشوام في الألقاب والتخاطب والنداء، دمشق: الهيئة العامة السورية للكتاب، ٢٠١٠م.
- مآثر شاميّة في الفنون والصناعات الدمشقيّة، دمشق: الهيئة العامة السورية للكتاب، ٢٠٠٧م.
- مآكل سيدة البيت الدمشقي من السلف إلى الخلف، دمشق: الهيئة العامة السورية للكتاب، ٢٠١٢م.
- محمل الحج الشامي، دمشق: وزارة الثقافة، ٢٠٠٦م.
- يا شام، مطبعة ابن خلدون، ١٩٨٤م.

أما كتاب «إيقاعات شامية في مكنون السلوك الدمشقي» فهو كتابٌ يسلّطُ الضَّوءَ على الحياة الاجتماعية والتقاليد التي عايَشَها أهلُ دمشقَ خلالَ أواخر القرن التاسع عشر وحتى أواسطَ القرن العشرين، في إطار تعامل أهل دمشقَ وتوادّهم، وتراحمهمَ، وصلاتهم في إطار الحرفةَ (الكارَ)، ويعرضُ المواقفَ، والطُّرَفَ، والأغاني الفلكلوريّة، والعبرَ، والحكاياتِ، والمقالبَ، والأمثالَ الشعبيّةَ التي تشدُّ القارئ، وتعبِّر عن الوجدان الشعبيّ الدمشقي[٣٣].

الدكتور سهيل زكّار

هو واحدٌ من المحققين والباحثين السوريين المعروفين، عميد المؤرخين العرب، وُلد في حماة سنة ١٩٣٦م (٣٥)، وتوفي في ٢٠٢٠/٣/١م عن عمر يناهز ٨٤ عامًا.

ومن أهمِّ مؤلفاته المتوفرة في المكتبة عن دمشق:

- تاريخ دمشق، لابن القلانسيَ تحقيق: د. سَهيل زكار، دار حسان، ١٩٨٣م.
- دمشق في العصر الأيوبي، تأليف: أحمد الأوتاني، تقديم: د. سهيل زكار، دمشق: دار التكوين، ٢٠٠٧م[٣٤].

(33) إيقاعات شامية في مكنون السلوك الدمشقي: منير كيال.
(34) معجم المؤلفين السوريين في القرن العشرين: عبد القادر عياش، ص228.

خامسًا _ من الشعراء الدمشقيين الذين تغنَّوا بدمشق وتحتضن مكتبة الأسد أعمالهم: الشاعر خليل مردم بك: ١٨٩٥ ـ ١٩٥٩م

شاعرٌ دمشقيٌ وطنيّ، ومؤلفُ النشيد الوطنيِّ للجمهورية العربيّة السورية «حماةَ الديار عليكم سلام»، خليل بن أحمد مختار بن عثمانَ مردم بك، وتُعَدُّ عائلة «مَردم بك» من أثرياء العَائلات الدمشقيّة، وجذورها ممتدَّة إلى الجدِّ العثمانيّ «لا لا مصطفى باشا» فاتح قبرص، الذي سُمّيَ باسمه مسجد في وسط دمشق.

درَس في مدرسة التجهيز، ثم اضطر إلى الانقطاع عن الدراسة بعد وفاة والديه، ثم تابع القراءة في الكتب، والأخذ عن علماء دمشق وأدبائها.

سافر إلى «لندن»، ودرس الأدب الإنكليزي في جامعة كامبردج، واستطاع أن يحصلَ في نهايتها على شهادة عليا تعادل الدكتوراه، ثم عاد إلى دمشق[٣٥].

شغل الأستاذُ «خليل»منصبَ وزير للخارجيّة، وكان رئيسًا لمجمعِ اللغةِ العربيّة بدمشقَ بين عامَي ١٩٥٣ ـ ١٩٥٩م.

انتُخب عضوًا عاملاً في المجمع العلميِّ العربيِّ بدمشق عام ١٩٢٠م، ولما قامت الثورةُ السوريّة عام ١٩٢٥، رحلَ إلى لندنَ بعد ملاحقة المحتلّين له، ثم عادَ إلى دمشقَ عام ١٩٢٩ وَأهداها قصيدةَ «سلامٌ على دمشق»:

دمشقُ ولست بالباغي بديلا وعن عهد الأحبّة لن أحولا

تلاقَوا بعدما افترقوا طويلاً فما ملكوا المدامعَ أن تسيلا

استقرَّ في دمشق، فعُيّن مساعدًا لرئيس الأدب العربيّ في «الكليّة العلميّة الوطنيّة».

أصدر في عام ١٩٣٣ مع د. جميل صلَيبا، د. كامل عيّاد، ود. كاظم الداغستاني، مجلةَ الثقافة، فعاشت عامًا واحدًا.

انتُخب عامَ ١٩٤١ أمينَ سرِّ «المجمع العلميّ العربي» فراح يعمل مع الرئيس «محمد كرد علي» بمنتهى الإخلاص، عُيّن وزيرًا لوزارتَي المعارف والصحّة، لكنّه لم يلبثْ أن عادَ إلى العملِ الذي أحبَّه ألا وهو البحثُ في كتب التراث العربيّ.

كتب خليل مردم بك مقدِّمة لمَختارات ماري عجمي عام ١٩٤٤م، وعن الرابطة الثقافيّة النسائيّة بدمشق، وشاركَ في إنشاء بعض المجلاَّت.

تُوفي تاركًا ثلاثة وعشرين كتابًا بينَ مؤلَّفَ ومُحقَّق، بعضُها طُبع في حياته، والبعضُ الآخر بقي محفوظا، إلى أن قام نجلُه الوحيدُ الشاعر «عدنان مردم بك» بإصدارها تباعًا بعد وفاته.

من مؤلفاته:

الشعراء الشاميون، دار صادر، بيروت عام ١٩٩٩م.

كان هنالك إجماعٌ على اختيار كلمات الشاعر خليل مردم بك للنشيد الوطنيّ، إذ أعلن «الخوري» أنَّ النشيدَ الوطنيَّ الرسميَّ لسورية سيكون «حماة الديار»، وفي أثناء العرض العسكري الذي أقيم احتفالاً بالجلاء لجيشنا الفتي عام ١٩٤٦م كانت مكبِّراتُ الصوتَ تذيعُ النشيدَ الوطنيَّ بلحنِ الأخوَين «فليفل».

(35) معجم المؤلفين السوريين في القرن العشرين: عبد القادر عياش، ص476.

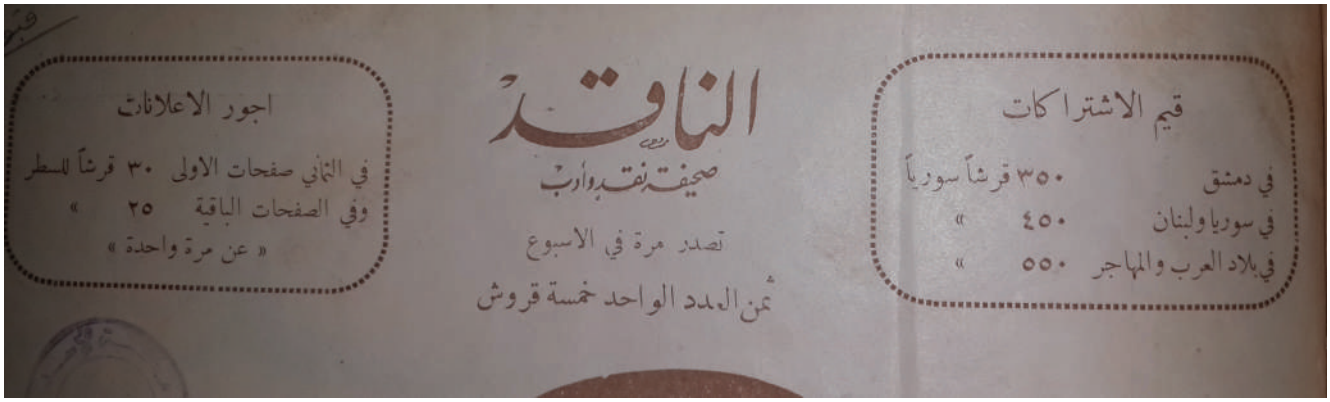

تأثَّر الشاعر خليل مردم بك بالبحتري إلى حدٍّ بعيد، لأنّه زعيم الطريقة الشاميّة التي تقوم على الوصف، والعناية بالموسيقا والديباجة، وإحكام الصنعة، والاهتمام باللفظ.

تُوفي خليل مردم بك، ودُفن في مقبرة باب الصغير، هو وجدُّه «لا لا مصطفى باشا» بجوار محمَّد كرد علي، ومعاوية بن أبي سفيان[٣٦].

الشاعر نزار قباني ١٩٢٣ ـ ١٩٩٨م

من أبرز الشعراء العرب في النصف الثاني من القرن العشرين الذين شغلوا الرأي العام.

وُلد الشاعر نزار قباني عام ١٩٢٣ ببيت دمشقيٍّ قديم واقع بين حيّ الشاغور وحي مئذنة الشحم، كان جدّه أبو خليل القباني مؤسسَ المسرح العربي في القرن الماضي، أما والدُه فهو توفيق القباني، الذي كان من رجالات الثورة السورية، دخل مدرستَه الأولى واسمها الكلية العلميّة الوطنيّة، في السابعة من عمره، وكانَ مدرِّسوها من صفوة رجال الفكر والأدب الذين أثّروا في بناء شخصيته، وصقل موهبته، وكان معلّمُ الأدب الأوّل الذي تتلمَذَ علىَ يديه الأستاذ الشاعر خليل مردم بك، ووفاءً لأستاذه قال فيه: «إنَّ خليلَ مردم بك كان له الفضلُ العظيمُ في زرعِ وردةِ الشعرِ تحتَ جلدي، وفي تهيئة الخمائر التي كوّنت خلاياي وأنسجتي الشعرية».

التحَقَ بكليّة الحقوق بالجامعة السورية (جامعة دمشق حاليًّا)، وتخرّج فيها عام ١٩٤٥م، وعمل فورَ تخرّجه بالسلك الدبلوماسيِّ بوزارة الخارجيّة السوريّة، وتنقّل في سفاراتها بين مدنٍ عديدة، منها: بكين، ولندن، وجنيف، وغيرها، وقد زادت هذه الأسفارُ من اطّلاعه، وظلَّ متمسّكًا بعمله الدبلوماسيِّ حتى استقال عام ١٩٦٦م.

أتقن اللغتين الفرنسيّةَ والإنكليزيةَ إلى جانبِ اللغة العربية، أقام في بيروت، وأنشأ دارَ نشرٍ فيها.

بدأ كتابةَ الشعر وهو في السنة السادسة عشرة من عمره، أثناء رحلة على باخرة إلى إيطاليا، وأصدر أوّلَ دواوينه عام ١٩٤٤م، وهو ديوان: (قالت لي السمراء)، وله خمسة وثلاثون ديوانًا شعريًا[٣٧].

وله كتاب: (قصتي مع الشعر) الذي أصدره في سبعينيات القرن الماضي، وقد قال في كتابه هذا: هذا الكتابُ نوعٌ من السيرة الذاتية، والسيرةُ الذاتيةُ تكاد تكون مجهولةً في تاريخ أدبنا.

(36) أعلام في ذاكرة الشام: عزة آقبيق، ص325، 326.
(37) إتمام الأعلام: نزار أباظة، رياض المالح، ص460، 461. معجم المؤلفين السوريين في القرن العشرين: عبد القادر عياش، ص410، 411.

«أريد أن أكتبَ قصتِّي مع الشعرِ قبلَ أن يكتبَها أحدٌ غيري، أريدُ أن أرسمُ وجهي بيدي، إذ لا أحدَ يستطيعُ أن يرسمَ وجهي أحسَنَ مني.

أريد أن أكشفَ الستائرَ عن نفسي بنفسي، قبل أن يقصَّني النقّادُ، ويفصّلوني على هواهم، قبل أن يخترعوني من جديد»[٣٨].

وقد كتب عن حبّه وشغفه بأبجديته الدمشقيّة: «هذه اللغةُ الشاميّةُ التي تتغلغل في مفاصل كلماتي، تعلّمتُها في البيت ـ المظلّة الذي حدثتكم عنه..

ولقد سافرتُ كثيرًا بعد ذلك، وابتعدتُ عن دمشقَ موظفًا في السلك الدبلوماسي نحو عشرين عامًا ظلّت متمسّكةً بأصابعي، وحَنجرتي، وثيابي، وظللتُ ذلك الطفلَ الذي يحملُ في حقيبته كلَّ ما في أحواض دمشق، من نعناع، وفلّ، وورد بلديّ..

إلى كلِّ فنادق العالم التي دخلتُها ...حملتُ معي دمشق، ونمتُ معها على سرير واحد»[٣٩].

تماهى نزار قبانيَ مع مدينةِ دمشق، واتّحد بها، واستقى لغتَه من أشيائها وتفاصيلها، فهو الذي قال:

«أنا محصولٌ دمشقيٌّ مئة في المئة، وأبجديتي تحتشد فيها كلُّ مآذن الشام، وحمائمها وياسمينها ونعناعها وخوخها وعنبها ووردها البلديّ ... وبين كلِّ فاصلةٍ وفاصلةٍ من قصائدي تَضيء عينَان دمشقيَتان».

كما قال في موضع آخر:

«إنّ جغرافيّة جسدي هي استمرارٌ لجغرافية الشام، حتى أنني لا أعرفُ أينَ تبدأ تضاريسُ جسدي، ولا أينَ تنتهي تضاريسُ قاسيون»[٤٠].

وقال كذلك: «هل تعرفونَ معنى أن يسكنَ الإنسانُ في قارورة عطر؟ بيتُنا كان في تلك القارورة».

ضمنَ هذا الحزامِ الأخضرِ ولدتُ، وحبوتُ، ونطقتُ كلماتي الأولى، كان اصطدامي بالجمالِ قدرًا يوميًّا»[٤١].

(38) قصتي مع الشعر: نزار قباني، ص9.
(39) قصتي مع الشعر: نزار قباني، ص36.
(40) نزار قباني: نزار بريك هنيدي، ص73، 74.
(41) معجم لغة نزار: محمد رضوان الداية، ص18، 19.

ومن شعره في دمشق قصيدة بعنوان:
«ترصيعٌ بالذَّهب على سيف دمشقيّ»:

ها هيَ الشَّامُ بعدَ فرقة دهرٍ ... أنهرٌ سبعةٌ وحورٌ عينُ
النوافيرُ في البيوت كلامٌ ... والعناقيدُ سكّرٌ مطحونُ
والسّماءُ الزرقاءُ دفترُ شعر ... والحروفُ التي عليه سنونو
هل دمشقٌ كما يقولونَ كانَت ... حين في الليل فكّر الياسمينُ
آه يا شامُ كيفَ أشرحُ ما بي ... وأنا فيك دائمًا مسكونُ
سامحيني إن لم أكاشفْكِ بالعشـ ... ـقِ فأحلى ما في الهوى التضمينُ(٤٢)

ومما قاله نثرًا عن مدينة دمشق التي أحبها:
«هذه المدينة تخضُّني، تشعلني، تضيئني، تكتبني، ترسمني باللون الورديّ، تزرعني قمحًا وشعرًا وحروفًا أبجديّة، تُغيِّر تقاطيعَ وجهي، تحدّد طولَ قامتي، تختار لونَ عيني، تؤكدني، تجدّدني.. كل حروف أبجديتي مقتلعةٌ حجرًا حجرًا من بيوت دمشق.. وأسوار بساتينها، وفسيفساءِ جوامعها.. وهكذا تستوطن دمشق كتابتي، وتشكّل جغرافيتُها جزءًا من جغرافية أدبي»[٤٣].

ومؤلفاته متوفرةٌ كلها في المكتبة، ومنها ما يتعلّق بدمشقَ مباشرةً نذكر منها:

- دمشق نزار قباني، ١٩٩٥م.
- القصيدة الدمشقية وقصائد أخرى، دمشق: اتحاد الكتاب العرب، ٢٠٠٨م.

سادسًا _ مختارات من الدوريّات (الصُّحف) الدمشقية:

(42) القصيدة الدمشقية وقصائد أخرى: نزار قباني، ص27، 28.
(43) دمشق نزار قباني: نزار قباني، ص49، 50.

ت	العنوان	النوع	مكان النشر	اللغة	التواتر	تاريخ الصدور	المسؤول	التصنيف
١	مجلة صوت التلميذ	مجلة	دمشق	عربية	نصف شهري	د.ت	زائدة جانا	تربوي تعليمي
٢	المقتبس	مجلة	دمشق	عربية	شهري	١٩٠٦	محمد كرد علي	أدبي علمي اجتماعي
٣	المقتبس	مجلة	دمشق	عربية	شهري	١٩٠٦	محمد كرد علي	أدبي علمي اجتماعي
٤	مارستان الأفكار والحياة الجديدة الحرة	مجلة	دمشق	عربية	شهري	[١٩٠٩]	حاتم نصري	أدبي فكاهي
٥	النعمة	مجلة	دمشق	عربية	مرتان بالشهر	١٩٠٩	بطريركية أنطاكيا وسائر المشرق للروم الأرثوذكس	منوع
٦	الحقائق	مجلة	دمشق	عربية	شهري	١٩١٠	عبد القادر الإسكندراني	اجتماعي
٧	الفلاح	مجلة	دمشق	عربية	شهري	١٩١٩	عمر شاكر	علمي زراعي
٨	نور الفيحاء	مجلة	دمشق	عربية	سنوي	١٩٢٠	د.ن	منوع
٩	الرابطة الأدبية	مجلة	دمشق	عربية	شهري	١٩٢١	جمعية الرابطة الأدبية في دمشق	أدبي
١٠	الشرطة	مجلة	دمشق	عربية	شهري	١٩٢١	وزارة الداخلية	سياسي، ثقافي، أمني
١١	المجمع العلمي العربي (مجمع اللغة العربية)	مجلة	دمشق	عربية	فصلي	١٩٢١	مجمع اللغة العربية	أدبي علوم اللغة
١٢	النجاح	مجلة	دمشق	عربية	شهري	١٩٢١	إلياس خليل ترتر	أدبي
١٣	مجلة الرابطة الأدبية	مجلة	دمشق	عربية	شهري	١٩٢١	جمعية الرابطة الأدبية في دمشق	أدبي
١٤	مجلة الشرطة	مجلة	دمشق	عربية	شهري	١٩٢١	وزارة الداخلية إدارة التوجيه المعنوي	سياسي
١٥	مجلة مجمع اللغة العربية	مجلة	دمشق	عربية	فصلي	١٩٢١	مجمع اللغة العربية	أدبي
١٦	مجلة اللطائف السورية	مجلة	دمشق	عربية	شهري	١٩٢٣	عبد القادر إنارة	منوع
١٧	معارف دمشق	مجلة	دمشق	عربية	شهري	١٩٢٣	دائرة معارف دمشق	معارف عامة
١٨	صدى سورية	مجلة	دمشق	عربية	نصف شهري	١٩٢٤	نسيب يوسف شاهين	إخباري
١٩	مجلة المعهد الطبي العربي	مجلة	دمشق	عربية	شهري	١٩٢٤	المعهد الطبي العربي	طبي
٢٠	الموازنة العامة	مجلة	دمشق	عربية	سنوي	١٩٢٥	وزارة المالية	مالي
٢١	الحياة الأدبية	مجلة	دمشق	عربية	أسبوعي	١٩٢٧	منير العجلاني	أدبي، علوم اجتماعية

٢٢	المصباح	مجلة	دمشق	عربية	شهري	١٩٢٧	محمد دهمان	اجتماعي، أدبي، علمي، تاريخي
٢٣	المجلة الحقوقية (الجريدة الحقوقية)	مجلة	دمشق	عربية	مرة كل شهر مؤقتاً	١٩٢٧	أحمد ناجي الزاغاتي	قانوني
٢٤	مجلة الإعلانات السورية	مجلة	دمشق	عربية	أسبوعي	١٩٢٨	جورج فارس	إعلامي
٢٥	مجلة الطب الحديث	مجلة	دمشق	عربية	سنوي	١٩٢٨	حسن سهيل العجلاني	طبي
٢٦	الآثار المفيدة	مجلة	دمشق	عربية	شهري	١٩٢٩	أنور فوق العادة	أدبي
٢٧	المضحك المبكي	مجلة	دمشق	عربية	أسبوعي	١٩٢٩	حبيب كحالة	سياسي فكاهي
٢٨	المناهج	مجلة	دمشق	عربية	شهري	١٩٢٩	محمد العمري	شامل
٢٩	جوبيتر	مجلة	دمشق	عربية	شهري	١٩٣٠	يوسف فضل الله سلامة	اقتصادي، أدبي
٣٠	مجلة الآثار المفيدة	مجلة	دمشق	عربية	شهري	١٩٣٠	أنور فوق العادة	أدبي
٣١	مجلة البعث	مجلة	دمشق	عربية	شهري	١٩٣٠	جمعية التهذيب والتعليم	تربوي
٣٢	BULLETIN ETUDES ORIENTALES	مجلة	سورية	فرنسية	.	١٩٣١	المعهد الفرنسي بدمشق	تراث
٣٣	الإنسانية	مجلة	دمشق	عربية	شهري	١٩٣١	وجيه بيضون	علوم إنسانية
٣٤	الآمال	مجلة	دمشق	عربية	غير منتظمة	١٩٣١	أنور فوق العادة	أدبي، روائي
٣٥	الرابطة الإسلامية	مجلة	دمشق	عربية	نصف شهري	١٩٣١	محمد أديب عبد العزيز	فكري إسلامي
٣٦	الشروق	مجلة	دمشق	عربية	شهري	١٩٣١	أحمد رشاد – فؤاد زكريا	اجتماعي
٣٧	المعلمون والمعلمات	مجلة	دمشق	عربية	شهري	١٩٣١	محمود مهدي	تربوي
٣٨	لسان الطلبة	مجلة	دمشق	عربية	غير منتظمة	١٩٣١	د ن	أدبي علمي أخلاقي
٣٩	الصرخة	مجلة	دمشق	عربية	أسبوعي	١٩٣٢	محمد بدوي قدامة	اجتماعي أدبي اقتصادي
٤٠	مجلة أعظم حاجة الإنسان	مجلة	دمشق	عربية	شهري	١٩٣٢	رامز هاشم	أدبي علمي رياضي
٤١	هاوار	مجلة	دمشق	عربية	نصف سنوي	١٩٣٢	د ن	منوع
٤٢	التمدن الإسلامي	مجلة	دمشق	عربية	شهري	١٩٣٣	جمعية التمدن الإسلامي	أدبي، تربوي، علمي اجتماعي

٤٣	الثقافة	مجلة	دمشق	عربية	شهري	١٩٣٣	خليل مردم بك	طبي ثقافي
٤٤	الثقافة الموسيقية	مجلة	دمشق	عربية	شهري	١٩٣٥	محمد محفوظ	ثقافي فني
٤٥	الشعلة	مجلة	دمشق	عربية	شهري	١٩٣٥	جميل سلطان	أدبي، علمي، تربوي
٤٦	الصدى الاقتصادي	مجلة	دمشق	عربية	أسبوعي	١٩٣٥	د. ن	اقتصادي
٤٧	المحامون	مجلة	دمشق	عربية	شهري	١٩٣٥	نقابة المحامين	حقوقي
٤٨	مجلة نقابة المحامين	مجلة	دمشق	عربية	شهري	١٩٣٥	مجلس نقابة المحامين	قانوني
٤٩	الأحداث	مجلة	دمشق	عربية	أسبوعي	١٩٣٦	خيري الصواف	منوع
٥٠	الجورنال الأسبوعي	مجلة	دمشق	عربية	أسبوعي	١٩٣٦	متري فارس	منوع
٥١	الطليعة	مجلة	دمشق	عربية	فصلي	١٩٣٦	الحزب الشيوعي السوري	أدبي فكري ثقافي
٥٢	مجلة التربية والتعليم	مجلة	دمشق	عربية	شهري	١٩٣٦	مطبعة الترقي	تربوي
٥٣	الحياة الزراعية	مجلة	دمشق	عربية	شهري	١٩٣٧	الجمعية الزراعية السورية	زراعي
٥٤	الزراعة السورية	مجلة	دمشق	عربية	شهري	١٩٣٨	وزارة الاقتصاد الوطني	زراعي
٥٥	الأحد	مجلة	دمشق	عربية	أسبوعي	١٩٣٩	إيليا شاغوري	منوع
٥٦	دمشق	مجلة	دمشق	عربية	شهري	١٩٤٠	مطبعة ابن زيدون	سياسي
٥٧	العالمان	مجلة	دمشق	عربية	شهري	١٩٤٤	أحمد طلس	ثقافي
٥٨	مجلة الأوقاف الإسلامية	مجلة	دمشق	عربية	شهري	١٩٤٤	مديرية الأوقاف الإسلامية العامة	ديني
٥٩	الدنيا (الدنيا الجديدة)	مجلة	دمشق	عربية	أسبوعي	١٩٤٥	عبد الغني العطري	منوع
٦٠	أصداء	مجلة	دمشق	عربية	أسبوعي	١٩٤٥	علي الغبرا	ثقافي
٦١	كل جديد	مجلة	دمشق	عربية	شهري	١٩٤٥	وجيه بيضون	جامع
٦٢	مجلة معهد الحقوق العربي	مجلة	دمشق	عربية	نصف سنوي	١٩٤٥	د. ن	حقوقي
٦٣	أنوار	مجلة	دمشق	عربية	أسبوعي	[١٩٤٥]	أحمد طلس	ثقافي
٦٤	الجندي (جيش الشعب)	مجلة	دمشق	عربية	مرتان بالشهر	١٩٤٦	الإدارة السياسية في الجيش العربي السوري	عسكري
٦٥	الفكر	مجلة	دمشق	عربية	شهري	١٩٤٦	نادي الشبيبة الكاثوليكية	ثقافي، علمي
٦٦	المعرفة	مجلة	دمشق	عربية	شهري	١٩٤٦	خالد قوطرش	ثقافي تربوي
٦٧	اليقظة العربية	مجلة	دمشق	عربية	ثلاث مرات بالسنة	١٩٤٦	دار اليقظة العربية	فكري
٦٨	العندليب	مجلة	دمشق	عربية	نصف شهري	١٩٤٧	سعاد مالك	مدرسي

٦٩	المعلم العربي	مجلة	دمشق	عربية	شهري	١٩٤٧	وزارة المعارف السورية	تربوي
٧٠	مجلة المرأة	مجلة	دمشق	عربية	غير منتظمة	١٩٤٧	نديمة المنقاري	أدبي
٧١	المعلم العربي	مجلة	دمشق	عربية	فصلي	١٩٤٨	وزارة التربية	تربوي تعليمي
٧٢	هنا دمشق (مجلة الإذاعة والتلفزيون)	مجلة	دمشق	عربية	نصف شهري	١٩٤٨	وزارة الإعلام الهيئة العامة للإذاعة والتلفزيون	ثقافي فني
٧٣	العمل والتقدم الاجتماعي	مجلة	دمشق	عربية	شهري	١٩٤٩	الإدارة السياسية في الجيش العربي السوري	عسكري
٧٤	صدى الندوة	مجلة	دمشق		غير منتظمة	١٩٤٩	الجامعة السورية، الندوة الثقافية	ثقافي
٧٥	المجلة العسكرية	مجلة	دمشق	عربية	شهري	١٩٥٠	الشعبة الثالثة للأركان العامة للجيش السوري	عسكري
٧٦	الندوة	مجلة	دمشق	عربية	سنوي	١٩٥٠	النادي الكاثوليكي	علم اجتماع
٧٧	رسالة الكيمياء	مجلة	دمشق	عربية	مرة كل شهرين	١٩٥٠	حسن السقا	علمي
٧٨	مجلة الصحة والتعليم	مجلة	دمشق	عربية	شهري	١٩٥٠	وزارة التربية والتعليم	تربوي
٧٩	مجلة القانون	مجلة	دمشق	عربية	شهري	١٩٥٠	وزارة العدل	قانوني
٨٠	الحوليات الأثرية السورية	مجلة	دمشق	عربية	مرتان بالعام	١٩٥١	وزارة الثقافة مديرية الآثار والمتاحف	آثار
٨١	السنابل	مجلة	دمشق	عربية	شهري	١٩٥٢	الاتحاد العام للكتاب والصحفيين الفلسطينيين	ثقافي
٨٢	صوت الطلبة	مجلة	دمشق	عربية	شهري	١٩٥٢	ريمون منكلو	أدبي، ثقافي اجتماعي
٨٣	صوت دار المعلمين	مجلة	دمشق	عربية	سنوي	١٩٥٣	دار المعلمين الابتدائية، الجمعية الأدبية	ثقافي، تربوي
٨٤	صوت سورية	مجلة	دمشق	عربية	شهري	١٩٥٣	د.ن	
٨٥	الجامعة	مجلة	دمشق	عربية	غير منتظمة	١٩٥٤	جامعة دمشق	علوم سياسية
٨٦	الإصلاح الاجتماعي	مجلة	دمشق	عربية	نصف شهري	١٩٥٤	محمد زهير خانكان	اجتماعي، ثقافي
٨٧	الإصلاح الاجتماعي	مجلة	دمشق	عربية	نصف شهري	١٩٥٤	محمد زهير خانكان	اجتماعي ثقافي
٨٨	الإيمان	مجلة	دمشق	عربية	شهري	١٩٥٤	ملاتيوس صويتي	ثقافي ديني
٨٩	الطالب العربي	مجلة	دمشق	عربية	شهري	١٩٥٥	أديب سعيد	اجتماعي، ثقافي، تربوي

٩٠	كلية التربية	مجلة	دمشق	عربية	شهري	١٩٥٥	الجامعة السورية، كلية التربية	تربوي
٩١	الأبطال	مجلة	دمشق	عربية	غير منتظمة	١٩٥٦	نور الدين الجزائري	رياضي
٩٢	السينما والفنون	مجلة	دمشق	عربية	غير منتظمة	١٩٥٦	د. ن	فني
٩٣	الوحدة	مجلة	دمشق	عربية	غير منتظمة	١٩٥٦	ثانوية دمشق الوطنية	أدبي، علمي، فني
٩٤	طبيبك	مجلة	دمشق	عربية	شهري	١٩٥٦	صبري القباني	اجتماعي، علمي، صحي
٩٥	الإرشاد الزراعي	مجلة	دمشق	عربية	شهري	١٩٥٧	وزارة الزراعة والإصلاح الزراعي، دائرة الإرشاد الزراعي	زراعي
٩٦	رسالة العلوم	مجلة	دمشق	عربية	كل ثلاثة أشهر	١٩٥٧	الاتحاد العلمي السوري	علمي
٩٧	مجلة التبغ	مجلة	دمشق	عربية	سنوي	١٩٥٧	وزارة المالية	ترفيهي
٩٨	الثقافة	مجلة	دمشق	عربية	شهري	١٩٥٨	مدحت عكاش	أدبي
٩٩	الوقائع الاقتصادية	مجلة	دمشق	عربية	شهري	١٩٥٨	غرفة تجارة دمشق، دائرة دراسات	تجاري
١٠٠	العمران	مجلة	دمشق	عربية	شهري	١٩٥٩	وزارة الشؤون البلدية والقروية	فكري اجتماعي علمي
١٠١	مجلة كلية ضباط الاحتياط	مجلة	دمشق	عربية	نصف سنوي	١٩٥٩	د. ن	ثقافي، عسكري
١٠٢	حضارة الإسلام	مجلة	دمشق	عربية	شهري	١٩٦٠	أديب صالح	فكري إسلامي
١٠٣	الثورة الزراعية	مجلة	دمشق	عربية	شهري	١٩٦١	وزارة الزراعة والإصلاح الزراعي، لجنة التوجيه والإرشاد	علوم زراعية
١٠٤	المجلة الطبية العربية	مجلة	دمشق	عربية	ثلاث مرات بالسنة	١٩٦١	نقابة الأطباء	طبي
١٠٥	أضواء المحسنية	مجلة	دمشق	عربية	فصلي	١٩٦١	الجمعية المحسنية	ثقافي، مدرسي
١٠٦	المجلة البطريركية	مجلة	دمشق	عربية	شهري	١٩٦٢	بطريركية أنطاكيا وسائر المشرق للروم الأرثوذكس	أدبي، ديني، تاريخي

١٠٧	المعرفة	مجلة	دمشق	عربية	شهري	١٩٦٢	وزارة الثقافة	ثقافي
١٠٨	الاقتصادي العربي	مجلة	دمشق	عربية	أسبوعي	١٩٦٣	مركز الدراسات الاقتصادية	اقتصادي
١٠٩	مجلة المهندس العربي	مجلة	دمشق	عربية	فصلي	١٩٦٣	نقابة المهندسين	هندسي
١١٠	الأجواء	مجلة	دمشق	عربية	شهري	١٩٦٤	شركة الطيران العربية السورية	ثقافي
١١١	الفتوة	مجلة	دمشق	عربية	غير منتظمة	١٩٦٤	مطابع التوجيه المعنوي في الجيش	سياسي
١١٢	الشرطة	مجلة	دمشق	عربية	شهري	١٩٦٥	وزارة الداخلية، إدارة التوجيه المعنوي	سياسي، ثقافي
١١٣	الموقف العربي	مجلة	دمشق	عربية	أسبوعي	١٩٦٥	مؤسسة الوحدة للطباعة والنشر والتوزيع	سياسي ثقافي
١١٤	سورية العربية	مجلة	دمشق	عربية	شهري	١٩٦٥	وزارة الإعلام	معارف عامة
١١٥	مجلة الطابع العربي	مجلة	دمشق	عربية	كل ثلاثة أشهر	١٩٦٦	د.ن	ثقافي تربوي
١١٦	مجلة طب الفم السورية	مجلة	دمشق	عربية	كل ثلاثة أشهر	١٩٦٦	نقابة الأطباء	طبي
١١٧	الاقتصاد	مجلة	دمشق	عربية	نصف شهري	١٩٦٧	وزارة الاقتصاد والتجارة	اقتصادي
١١٨	الطيران المدني	مجلة	دمشق	عربية	فصلي	١٩٦٧	وزارة الدفاع، المديرية العامة للطيران المدني	ثقافي، علمي، فني
١١٩	المجتمع العربي الاشتراكي	مجلة	دمشق	عربية	شهري	١٩٦٧	وزارة الشؤون الاجتماعية والعمل	شؤون عمالية
١٢٠	بناة الأجيال.	مجلة	دمشق	عربية	فصلي	١٩٦٧	نقابة المعلمين، المكتب التنفيذي	تربوي تعليمي
١٢١	المرأة العربية	مجلة	دمشق	عربية	شهري	١٩٦٨	الاتحاد العام النسائي	اجتماعي
١٢٢	الثورة الفلسطينية	مجلة	دمشق	عربية	أسبوعي	١٩٦٩	حركة التحرير الوطني الفلسطيني	سياسي فكري
١٢٣	المناضل	مجلة	دمشق	عربية	شهري	١٩٦٩	حزب البعث العربي الاشتراكي، القيادة القومية مكتب الإعلام و النشر	سياسي
١٢٤	مجلة أسامة	مجلة	دمشق	عربية	شهري	١٩٦٩	وزارة الثقافة الهيئة العامة السورية للكتاب	تربوي أطفال

ـ الخاتمة:

هكذا تظلُّ دمشقُ أمَّ العواصم، وجوهرةَ المدائن، ذاتَ المكانة التاريخيّة والحضاريّة، ولعلَّ من أهمِّ الدوافع التي جعلت الباحثين والمؤرخين يهتمون بالحديث عنها وعن فضائلها موقعُها المهمُ في بلاد الشَام، إضافةً إلى تاريخها الحافل بالأمجاد والبطولات في مختلف العهود.

ذكرتُ في هذه المقالة لمحةً تاريخيّةً عنَ دمشق، وَعرّفتُ بمكتبة الأسدَ، وأهم كتبها القيّمة التي تخصُّ دمشقَ، وفي معرض «دمشق في العيون» الذي أقيم في المكتبة عام ٢٠١٨م عُرضت فيه مخطوطاتٌ وكتبٌ ومجلاتٌ دمشقيّة ذكر أغلبها ضمن الجداول السابقة.

وسلَّطتُ الضوءَ في هذه المقالة على أعلام دمشقيين تركوا بصمةَ خير ونماء في المجتمع الدمشقيّ، إذ اقتحمت دمشقَ ذاكرةُ كلّ مؤرخ وَمبدع وشاعر لما لها من نكهةً وقدسيّة وعراقة.

إنَّ دمشقَ في أعزِّ ظروفها الصعبة خلالَ الفترةَ العثمانيَّة كانت مركزًا علميًّا وثقافيًّا، إذ بقيت مكتباتُها مشرّعةَ الأبواب أمام العلماء والدارسين، كما كانت دورُ القرآنِ والحديثِ موئلاً لطلاب أتَوا منْ كلِّ أنحاء العالَم الإسلاميّ.

كما كانت كنَائسُها وأديرتُها مركزَ إلهام للرهبان ودارسي اللاهوت.

هذا الجزءُ هو اليسير مما تكتنزه المكتبة، وما تحتويه.

ومن هنا تنبع الحاجةُ إلى وجود مركز للدراسات التاريخيّة يوثّق ما كُتب عن دمشق، ويفصِّلُ جوانبَ الحياة فيها، ويهتمُّ بشكلَ أساسيّ بتقديمِ هَذه المعلومَاتِ بطرقٍ علميّةٍ وتقنيةٍ تتناسبُ مع روح العصرَ وتطوّر التكنولوجيا عن دمَشق.

مثالَ: قناة يوتيوب، مَوقع نت ينشر التراثَ الدمشقيَّ والشاميّ، ويجعله قريبًا من الجمهور.

مصادر البحث ومراجعه

ـ المخطوطات:

ـ تاريخ بناء مدينة دمشق: ابن قاضي شهبة (ت ٨٥١هـ/١٤٤٨م)، مخطوط، رقم: ٦٦٩٢ت.

ـ حساب المياه الجارية في مدينة دمشق: محمد بن حسين العطار، (ت ١٢٤٣هـ/١٨٢٧م، مخطوطة، رقم: ٥١، ٢٠ ورقة.

ـ روضة الأنام في فضائل الشام: ياسين البقاعي (ت ١٠٩٥هـ/١٦٨٣م)، مخطوطة، رقم ١١٤٠٧، ١٤٤ ورقة.

ـ محاورة بين المدن: مصطفى الطرابلسي، برقم: ٤٤١٧، ٩ ورقات.

ـ المصادر:

ـ تاريخ مدينة دمشق: ابن عساكر، دمشق: مطبوعات مجمع اللغة العربية، تحقيق: عدنان عمر الخطيب، ج٢٢، ٢٠١٥م.

ـ حوادث دمشق اليومية: أحمد البديري الحلاق، نقحها: محمد سعيد القاسمي، حققها: أحمد عزت عبد الكريم، القاهرة: مطبوعات الجمعية المصرية للدراسات التاريخية، ط١، ١٩٥٩م.

ـ الدارس في تاريخ المدارس: عبد القادر النُعيمي، بيروت، دار الكتب العلميّة، ط١، ١٩٩٠م.

ـ المعجم الكبير: الطبراني، تحقيق: عبد المجيد السلفي، طبع بالعراق.

ـ مجمع الزوائد ومنبع الفوائد : الهيثمي، بيروت: دار الكتاب العربي.
ـ معجم البلدان: ياقوت الحموي، بيروت، دار صادر.

ـ المراجع:

ـ إتمام الأعلام: نزار أباظة، رياض المالح، دمشق، دار الفكر، ط٢، ٢٠٠٣م.
ـ أعلام في ذاكرة الشام: عزة آقبيق، دمشق، دار العرّاب.
ـ الأعلام: خير الدين الزركلي، بيروت، دار العلم للملايين، ط٥، ١٩٨٠م.
ـ إيقاعات شامية في مكنون السلوك الدمشقي: منير كيال، دمشق، منشورات الهيئة العامة السورية للكتاب، ٢٠١٣م.
ـ دمشق الشام في نصوص الرحالين والجغرافيين والبلدانيين العرب والمسلمين من القرن الثالث إلى القرن الثالث عشر للهجرة: أحمد إيبش، وقتيبة الشهابي، دمشق: منشورات وزارة الثقافة، ١٩٩٨م.
ـ دمشق تطوير وبنيان مدينة مشرقيّة إسلامية: دوروتيه زاك.
ـ دمشق سجل الإبداع الفكري: محمد مروان مراد، دار الشرق للطباعة والنشر، ط١، ٢٠٠٧م.
ـ دمشق صور من جمالها وعبر من نضالها : علي الطنطاوي، جدة، دار المنارة، ط٢، ١٩٨٧م.
ـ دمشق نزار قباني: نزار قباني، ط١، ١٩٩٥م.
ـ دمشق، رجال وأحداث وأماكن وصور: عزة آقبيق، دار العرّاب، ٢٠٢٠م.
ـ رحيل منير كيّال موثّق تراث دمشق: الشرق الأوسط (جريدة العرب الدولية)، العدد: ١٥٠٤٩، ١٠/شباط/٢٠٢٠م.
ـ سجل المكتبة العمومية في مكتبة الأسد الوطنية: دراسة منهجية حديثة، مكتبة الأسد، مديرية المخطوطات، دمشق، مكتبة الأسد، ٢٠٢١م.
ـ عنوان الفيحاء (دراسة في تكوين مدينة دمشق): عفيف البهنسي، دمشق، دار الفكر، ط١، ٢٠٠٢م.
ـ فارس الأدب والتاريخ: عصام الحلبي، بيروت، دار النفائس، ط١، ٢٠٢٠م.
ـ في ربوع الشام دمشق: مطيع الحافظ، دمشق، دار المكتبي، ٢٠٠٩م.
ـ قاموس الصناعات الشاميّة: محمد سعيد القاسمي، تحقيق: ظافر القاسمي.
ـ القصيدة الدمشقية وقصائد أخرى: نزار قباني، دمشق، اتحاد الكتاب العرب، ٢٠٠٨م.
ـ قصتّي مع الشعر: نزار قباني، منشورات نزار قباني، ١٩٧٣م.
ـ معجم المؤرخين الدمشقيين وآثارهم المخطوطة والمطبوعة: صلاح الدين المنجد، بيروت، دار الكتاب الجديد، ١٩٧٨م.
ـ معجم المؤلفين السوريين في القرن العشرين: عبد القادر عياش، دمشق، دار الفكر.
ـ معجم لغة نزار: محمد رضوان الداية، دمشق، منشورات الهيئة العامة السورية للكتاب، ٢٠٢١م.
ـ موسوعة الأسر الدمشقيّة (تاريخها، أنسابها، أعلامها): محمد شريف عدنان الصواف، دمشق، بيت الحكمة، ط٢، ٢٠١٠م.
ـ نزار قباني: نزار بريك هنيدي، دمشق، الهيئة العامة السورية للكتاب، ٢٠٢٠م.

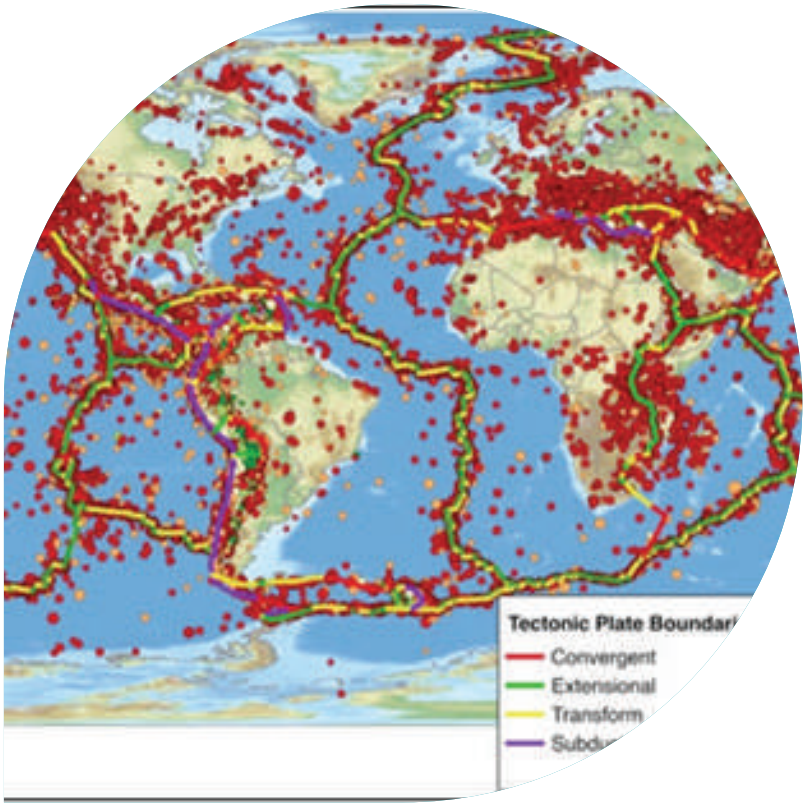
Tectonic Plate Boundar
Convergent
Extensional
Transform

الزِّلزال والزَّلازل التي ضربت مدينة دمشق عبر التَّاريخ

أ.د غزوان سلوم[1]

(1) أستاذ دكتور في كلية الآداب والعلوم الإنسانية، قسم الجغرافيا.

ملخَّص البحث

دمشق، مدينة المدائن، وسيدة العواصم، مدينة تاريخية، بل هي تاريخ المدن، أرشيف حضاري متراكم، يروي قصص شعوب توالت على هذه الأرض، شهدت أيام ازدهار وتألق وزهو، كما تعرضت للعديد من المحن والكوارث، فكان لها من الزلازل نصيب، فأتت على بعض أحيائها، أو نصفها، وربما أكثر من النصف، إلا انها استمرت، كأيقونة عمرانية حضارية. تدين دمشق بتاريخها العريق، إلى جغرافيتها بالدرجة الأولى، لكن هذه الميزة لم تكن على الدوام حاضرة لصالحها، فقد تأثرت أكثر من مرة، بنكبات طبيعية، جراء زلازل أصابت بلاد الشام عامة، فمع أنها لا تقع على خط زلزالي نشط، كإنطاكيا واللاذقية، إلا أنها تقع ضمن دائرة تأثير صدوع ذات تاريخ زلزالي غير آمن، كصدعي اليمونة في لبنان، وسرغايا، المسؤولين عن إحداث زلزالي ١٢٠٢م و١٧٥٩م، اللذان دمرا من دورها أغلبها، وقتلا من سكانها أكثرهم، وأتيا على مفاخر عمارتها، كالمسجد الأموي وقلعتها وبعض مدارسها.

يقف وراء هذه الأحداث المأساوية، عوامل عدة، لعل أهمها: قرب مصدر الزلزالين، حيث وقعا على خطيّ صدعي اليمونة في لبنان، وسرغايا في سورية، إلى الغرب من دمشق، على مسافة خط نظر (٧٢) (٣٥) كم على التوالي، كما أدى قدم دورها، ومواد بنائها (الطين والأخشاب والحجارة)، ومخططها العمراني، المكون من أزقةَ وحارات ضيقة، في زيادة حجم الخسائر.

أولاً- تمهيد:

تعد الزلازل الكبرى من الأحداث الكارثية، في حال ضربت مناطق كثيفة السكان، وذلك لاجتماع عدة عوامل فيها: كالقوة، والفجائية، والسرعة، والتي تحول دون توفير هامش زمني للنجاة. وترتفع حصيلة الخسائر من ضحايا وممتلكات، كلما كانت المدينة قديمة، أو ضمت أحياء عشوائية البناء، فيكون مخالفاً لمعايير السلامة من الزلازل، أو ما يعرف بالكود الزلزالي، بل إن كثرة الضحايا، قد تعود لأسباب بشرية، أكثر من الطبيعية، ويتضح ذلك من خلال مقارنة زلزالي طوكيو ٢٠١١م، ومدينة بم الإيرانية ٢٠٠٣م، فقد بلغت شدة الأول نحو ٨,٩ ريختر، وأسفر عن مقتل نحو ١٦,٠٠٠ شخص. في حين بلغت شدة الثاني ٦,٦ ريختر، لكنه أودى بحياة ٤٢,٠٠٠ إنسان. ولا يمكن تفسير هذا الفارق الشاسع في حجم الخسائر البشرية، إلا بالفارق الكبير في تقنيات البناء، ومواده، وأساليب الاستعداد للزلازل.

تعد منطقة بلاد الشام ومصر، من أكثر المناطق عرضة للزلازل في منطقة الشرق الأوسط، وذلك لوقوع معظم مدنها على خطوط ضعف بنائي، ونشاط زلزالي، تعرف بمنظومة صدوع البحر الميت Dead Sea Fault System (DSFS)، الممتد من العقبة إلى أقدام جبال طوروس في الزاوية الشمالية الغربية من سورية (لواء اسكندرون المحتل)، مروراً بلبنان، وهي جزء من الفالق الأفريقي – السوري العظيم. ولم تنجو مدينةٍ بدءً من حلب إلى انطاكية، فاللاذقية وجبلة، وحماة وحمص ودمشق، وطرابلس وبيروت، وصولاً إلى القاهرة، من خطر الزلازل. ويذكر المؤرخون، أن بعض هذه المدن قد دمر بالكامل بفعل زلازل عام ١٢٠٢م، و١١٥٧م و١٧٥٩م، ١٨٢٢م. وليس زلزال

قهرمان مرعش ٢٠٢٣م عنا ببعيد، فقد سُجل على أنه الأعلى تكلفة في تاريخ الزلازل حتى الآن، نجم عنه تدمير واسع لأحدى عشر محافظة تركية، وسقوط مئات المباني في حلب وإدلب واللاذقية وجبلة، بل إنه دمر نحو ثلثي بلدة جنديرس السورية، وأسفر عن ٤٦ ألف شهيد، وأكثر من مئة ألف جريح، وأربعة ملايين مبنى مدمر، وألحق الضرر بقرابة ١٣ مليون إنسان.

فالزلازل: ظاهرة جيوفيزيائية بالغة التعقيد، تظهر كحركات عشوائية للقشرة الأرضية، على شكل ارتعاش وتموج، بسبب إطلاق كميات من الطاقة المحتبسة تحت سطح الأرض، ومع تحررها، تتعرض الصخور للتكسر، وقد يترافق ذلك مع إزاحة عمودية أو أفقية لسطح الأرض[٢].

تنطلق هذه الطاقة على هيئة موجات اهتزازية، من منطقة تقع تحت سطح الأرض، تدعى البؤرة المركزية Hypocentre، يعلوها مباشرة المركز السطحي للزلزال Epicentre، وعنده تبلغ القوة التدميرية أوجها، وتتضاءل بالابتعاد عنه [٣]. شكل رقم (١)

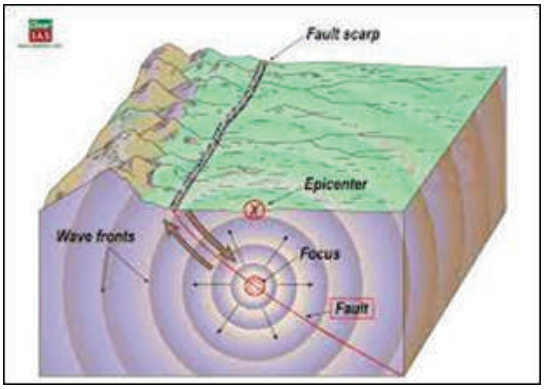

الشكل رقم (١) بؤر الزلزال، وانتشار الأمواج الزلزالية وكيفية.

تتعرض الأرض كحد أدنى لنحو ٥٠٠,٠٠٠ زلزال سنوياً، إلا أن معظمها يكون خفيفاً، أو يقع تحت سطح البحر، ولا يشعر البشر إلا بزلزال واحد من كل خمسة[٤]، وأقل من ذلك يكون مدمراً. ويظهر الشكل رقم (٢) أكثر الزلازل دموية في تاريخ البشرية منذ عام ١٩٠٠م، وفي رأس القائمة زلزال تانغشان، الذي ضرب الصين عام ١٩٧٦م، وأسفر عن مقتل ٢٤٢,٠٠٠ إنسان.

	YEAR	LOCATION	MAGNITUDE	ESTIMATED DEATH TOLL
1	1976	Tangshan, China	7.5	255,000
2	1920	Gansu, China	8.6	200,000
3	1927	Qinghai, China	7.9	200,000
4	1923	Kanto, Japan	7.9	143,000
5	1948	Turkmenistan	7.3	110,000
6	1908	Messina, Italy	7.2	70,000
7	1932	Gansu, China	7.6	70,000
8	1970	Peru	7.9	66,000
9	1990	Iran	7.7	40,000
10	1935	Quetta, Pakistan	7.5	30,000

الشكل رقم (٢) عدد ضحايا أكثر الزلازل فتكاً منذ عام ١٩٠٠م.

(2) الزلازل وتخفيف مخاطرها، جلال الدبيك، 3.
(3) الجيولوجيا الفيزيائية، سميرة الحصري، 285.
(4) الزلازل، كيث لاي، 6.

تتباين مساحة البؤرة السطحية - وبالتالي حجم الدمار- حسب عمق البؤرة وشدة الزلزال، ويطلق على المساحة المتأثرة به، منطقة التأثير الزلزالي seismic impact area، وهي متباينة في سعتها، فقد تكون محلية، صغيرة، كتلك التي نجمت عن زلزال أغادير ١٩٦٠م، وبلغت نحو ٥٠ كم٢ فقط، وكان عمق البؤرة ٣ كم. أو واسعة إقليمية، كما حصل عندما ضرب زلزال عنيف، بقوة ٧,٣ درجة على مقياس ريختر، منطقة عشق آباد، في تركمانستان عام ١٩٤٨م، وسبب دماراً كبيراً ضمن حدود البؤرة السطحية، التي بلغت مساحتها ١٥٠٠ كم٢، مع مساحة تأثير تجاوزت ١٠,٠٠٠كم٢. وعدد ضحايا شكّل ما نسبته ١٠٪ من السكان، وقد راوح عمق بؤرته الداخلية بين ١٥-٢٠ كم[٥].

ثانياً- أنواع الأمواج الزلزالية:

تُطلق الزلازل موجات ثلاثية الأبعاد، باتجاهات مختلفة، نميز منها [٦] .

١- الأمواج الطولية أو الأولية (p): تعرف بالأمواج الأولية Primary Waves، هي أسرع الأمواج، تراوح سرعتها بين (٥,٥-٨,١٣)كم/ثا، وتنخفض مع اجتيازها للأجسام الصلبة، كالصخور، فتراوح بين (٦-٧) كم/ ثا، تسبب تأرجح البنى والأبنية نحو الأمام والخلف، فتعرف بالأمواج التضاغطية Pressure waves. تشبه حركتها حركة الموجة الصوتية في الهواء، فتعمل على دفع (ضغط) الأجسام، وسحبها (توسعيها) بالتناوب، تكون حركة الجسيمات دائماً في اتجاه انتشارها، وبسبب الطبيعة الشبيهة بالصوت، فإنها عندما تنبثق من أعماق الأرض إلى السطح، ينتقل جزء منها إلى الغلاف الجوي على شكل موجات صوتية، وتكون هذه الأصوات - إذا كان التردد أكبر من ١٥ دورة في الثانية- مسموعة من قبل الحيوانات و/أو البشر. وتُعرف بـ (صوت الزلزال). الشكل رقم (٣).

٢- الأمواج العرضية أو الثانوية Secondary Waves (S): تصل إلى السجل الزلزالي بعد السابقة، تؤثر في شكل الوسط الذي تخترقه، فتسبب دفع المواد باتجاه متعامد مع حركتها، تشبه حركة اهتزاز حبل عند تحريكه رأسياً، تراوح سرعتها بين (٢,٣-٧) كم /ثا، وتدعى بموجة القص، كونها تضرب الصخور بشكل جانبي، من زاوية قائمة في اتجاه الانتشار، ونظراً لأن تشوه القص، لا يمكن أن يستمر في السائل، فإن هذه الموجات لا تنتشر عبر المواد السائلة، وإذا كانت حركة الموجة إلى الأعلى والأسفل في المستوى الرأسي، سميت موجة SV. ومع ذلك، قد تتلوى الموجة ضمن المستوى الأفقي.

(5) الزلازل حقيقتها وآثارها، شاهر جمال آغا، 93 بتصرف.
(6) الزلازل حقيقتها وآثارها، شاهر جمال آغا، 75-95.
4-seismic waves and earthquake location, Kayal. J.R. 1

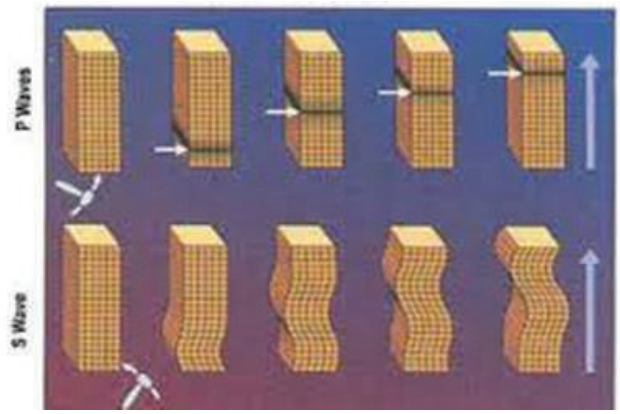

الشكل رقم (٣) تأثير موجتا **P** و **S** في الصخر

٣- الأمواج السطحية **surface waves**: تشبه حركة الأمواج على سطح الأرض، تقدر سرعتها بنحو (٤) كم/ ثا. ولما كان انتشارها قرب السطح، فإنها تحتفظ بمعظم قوتها - لعدم وجود عائق في مسارها - لذلك تكون مسؤولة عن معظم الدمار والتخريب. تقسم الأمواج السطحية إلى نوعين: أمواج لوف Love waves وأمواج ريلي Rayliegh waves.

أ/٣- أمواج لوف (LQ): حين يضرب شعاع أفقي، مترنح بالقرب من السطح، تنتشر موجات من خلال انعكاسات متعددة بين السطح العلوي والسفلي للطبقة، يُشار إليها بالرمز LQ أو G. حركتها هي نفس حركة الأمواج العرضية، لكنها تحرك الأرض من جانب إلى آخر في مستوى أفقي موازٍ لسطح الأرض، وبزاوية قائمة على اتجاه انتشارها، فهي حركة أفقية، عرضية. الشكل رقمً (٤)

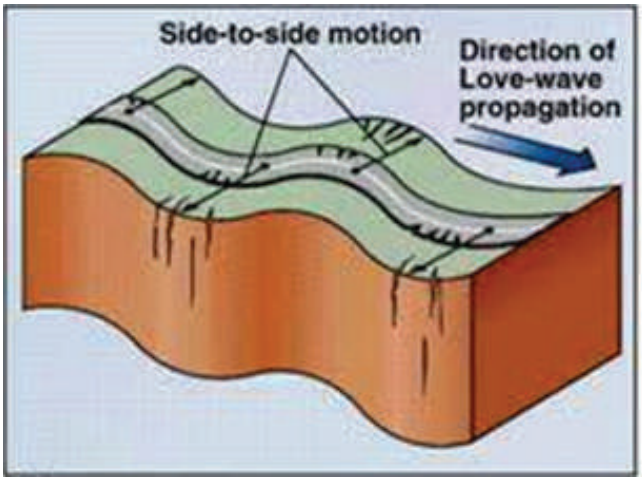

الشكل رقم (٤) موجة لوف.

ب/٣- أمواج ريلي: هي موجة طولية مع عرضية رأسية، تنتقل على طول السطح، بسرعة أقل من سرعة موجة القص. بشكل عام، يتم الإشارة إلى الأمواج السطحية ذات الفترات من ٣ إلى ٦٠ ثانية بالمز R أو LR. تسبب موجات رايلي، حركة الجسيمات رأسياً وأفقياً، في مستوى عمودي موافق لاتجاه انتشارها، نظراً تولد موجات P وSV معاً، فإن حركة الجسيمات تكون دائماً في مستوى عمودي، وبسبب تحول الطور بين P وSV، تكون حركة الجسيمات بيضاوية وعكسية (عكس اتجاه عقارب الساعة) بالنسبة لاتجاه الانتشار. الشكل رقم (٥)

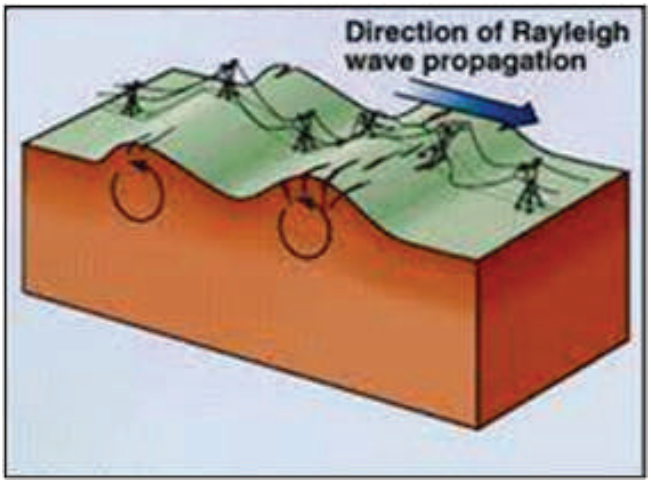

الشكل رقم (٥) موجة رايلي.

تجدر الإشارة إلى أن الأنواع الثلاثة من الأمواج تعمل معاً على تحريك الأجسام، وفق اتجاهات أفقية وعمودية ودورانية، ما يفسر ذلك الدمار الهائل الذي تسببه لقواعد المباني وهياكلها.

ثالثاً – مقياس شدة الزلازل:

وضع العالم الإيطالي جوسيب ميركالي ١٩٠٢م، مقياسه الخاص بوصف شدة ما تحدثه الزلازل من تأثيرات مختلفة على الإنسان والمنشآت والبيئة. وبالتالي فهو وصفي، يعتمد على مقدار الخراب والدمار الذي يحدثه الزلزال، ومدى شعور الناس به، ولا يعبّر عن قوة الزلزال، وليس له أي أساس رياضي. يقسم هذا المقياس إلى اثنتي عشرة درجة، بدءاً من اهتزاز غير محسوس، وانتهاءً بدمار شامل، ويرمز لهذه الدرجات بأرقام رومانية. مقياس ميركالي وضعه العالم الإيطالي جوسيب ميركالي عام ١٩٠٢ م، وتم تطويره فيما بعد. وهو يختلف عن مقياس ريختر الذي يقيس مقدار الطاقة المتحررة من الزلزال والتي تسمى بقدر الزلزال (Magnitude). الجدول رقم (١).

أما مقياس ريختر (ريشتر)، والذي طوره العالم الفيزيائي الأمريكي تشارلز فرانسيس ريشتر وسجل في باسمه عام ١٩٣٥ م، وهو مقياس كمي، عددي، لوغاريتمي، يعتمد على مبدأ، أن كل درجة تزيد على التي تسبقها بـ ٣٢ ضعف. إلا أنه وبسبب العيوب الكثيرة للمقياس، فإن معظم المؤسسات المعنية بالزلازل تستخدم مقاييس أخرى، لكن الكثير من وكالات الأنباء لا زالت تعتمده.

ويظهر الجدول رقم (٢) أن الإنسان لا يشعر إلا بنسبة قليلة من الهزات الأرضية، والأقل يكون مدمراً، والنادر يصبح كارثياً. وتتكرر الهزات التي تقل قوتها عن ٢ درجة، نحو ٨٠,٠٠٠ مرة يومياً. في حين تحدث التي تراوح قوتها بين (٨-٨,٩) مرة كل عام، والتي تقع قوتها بين (٩-٩,٩) مرة كل ٢٠ عاماً، أما الأشد، والتي تصل قوتها إلى ١٠ درجات، فلم تحدث حتى الآن.

أما مقياس درجة العزم أو مقياس العزم الزلزالي MMS أو Mw (moment magnitude scale)، فقد طوره العالم هيرو كانامووري، الأستاذ الفخري في معهد كاليفورنيا

للتكنولوجيا، ويقيس حجم الزلزال من حيث الطاقة التي صدرت عنه، يعتمد على أساس عزم الزلزال، والذي يساوي صلابة الأرض مضروبة في متوسط كمية الانزلاق على الفالق، وحجم المساحة التي انزلقت، وهو المقياس المستخدم حاليا لتقدير قيم جميع الزلازل الكبيرة الحديثة من قبل هيئة المسح الجيولوجي بالولايات المتحدة.

الشدة (Intensity)	الوصف nada	القدر على مقياس ريختر (Magnitude)
I	لا يشعر بها، إلا نادراً، وفي ظروف خاصة ومثالية.	3.0 - 1.0
II	يشعر بها الأشخاص فقط في حالة السكون خاصة في الطوابق العلوية من المباني، قد تتأرجح الأشياء الدقيقة المعلقة.	
III	يشعر بها من قبل العديد من الأشخاص و خاصة في الطوابق العلوية من المباني ويصعب معرفة أن سبب هذه الهزة هو الزلزال. وقد تهتز قليلاً السيارات الواقفة، ويمكن قياس أمد الزلزال عند هذه الدرجة.	3.9 - 3.0
IV	يشعر بها العديد من الأشخاص داخل المباني، والقليل منهم خارج المباني، اضطراب في الأبواب، والشبابيك، والزجاج، وطقطقة (أصوات تشققات) في الجدران، والإحساس بها يشبه اصطدام شاحنة كبيرة في المبنى. تتأرجح السيارات الواقفة بشكل ملحوظ.	
V	يشعر بها جميع الناس، والعديد يستيقظ من نومهم، تتهشم بعض الشبابيك الزجاجية والأطباق، قد تتشقق طبقة الطينة على الجدران، تتقلب الأشياء غير الثابتة، اضطراب أعمدة الكهرباء والهاتف والأشجار وغيرها من الأجسام العالية في بعض الأحيان، تتوقف بعض الساعات البندولية عن الحركة.	4.9 - 4.0
VI	يصاب الناس بالذعر ويهرعون إلى خارج المبنى. يتحرك الأساس الثقيل من مكانه وفي بعض الأحيان تتساقط طبقة الطينة، وتتقلب المداخن وتحدث أضرار بسيطة في المنشآت.	
VII	الجميع يركضون إلى خارج المبنى، ويكون حجم الأضرار مهملاً في المباني المصممة والمنفذة جيداً، وبسيط إلى متوسط في المباني العادية، أضرار ملحوظة في المباني الرخيصة أو ذات التصميم السيء، تتضرر المداخن، ويشعر بها في الأشخاص أثناء قيادتهم.	5.9 - 5.0
VIII	يحدث أضراراً حتى في المباني المصممة والمنفذة جيداً، أضراراً ملحوظة في المباني العادية، مع حدوث بعض الإنهيارات، أضرار كبيرة في المباني الرخيصة أو ذات التنفيذ السيء، تقذف قطع الجدران الإنشائية خارج المنشآت الهيكلية، تسقط العديد من المداخن، تتضرر الأشجار، يتناثر الطين والرمل بكميات قليلة نسبياً، اختلاف في منسوب مياه الآبار، إعاقة في قيادة السيارات.	6.9 - 6.0
IX	أضرار ملحوظة في المباني المصممة جيداً، خروج في المنشآت عن خطوط التماس مع الأساسات، تشكل الأرض بشكل واضح، تتضرر شبكات المياه الصحية أسفل منسوب الأرض.	
X	انهيار البيوت الخشبية ذات التصميم والتنفيذ الجيد، تدمير معظم منشآت البلوك والمنشآت الهيكلية مع أساساتها، تشقق الأرض بشكل يؤدي إلى حدوث أضرار عديدة، أثناء خطوط السكك الحديدية، انزلاق المنحدرات والحواجز الترابية، ارتفاع منسوب المياه السطحية.	7.0 فاعلى
XI	انهيار جميع منشآت البلوك وتدمير الجسور، تصدعات وتشققات تغطي سطح الأرض كلية، تدمير شبكات المياه الصحية أسفل منسوب الأرض وعدم صلاحيتها للخدمة، هبوط في سطح الأرض وانسياب العديد من الأراضي المكشوفة إلى أسفل التربة الطرية، انثناء والتواء خطوط السكك الحديدية بشكل واضح.	
XII	دمار شامل، تغير تام في شكل سطح الأرض بحيث تظهر على شكل أمواج انسيابية، اختلاف طبوغرافية الأرض، تناثر الأجسام والكتل الترابية وقطع المنشآت في الهواء.	

الجدول رقم (١) مقياس ميركلي للزلازل أسباب الزلازل

مقياس ريختر	الوصف	تأثير الزلزال	تكرر حدوثه
أقل من 2.0	دقيق	زلازل دقيقة لا يمكن أن يحس بها.	حوالي 8,000 يوميا
2.0-2.9	صغير جداً	لا يشعر به البشر ولكن الأجهزة ترصده.	حوالي 1,000 يوميا
3.0-3.9		يشعر به البشر، لكن قلما يسبب ضرراً.	49,000 سنويا (تقديري.)
4.0-4.9	خفيف	يشعر البشر بهزة مع تحرك الأشياء وظهور صوت للزلزال. لكنه لا يسبب ضرراً.	6,200 سنويا (تقديري.)
5.0-5.9	معتدل	المباني الضعيفة قد تتضرر بشكل كبير ولكن المباني القوية لا تتضرر كثيراً.	800 سنويا
6.0-6.9	قوي	يمكن أن يسبب ضرراً كبيراً حتى 160 كم عن نقطة حدوثه. (100 ميل).	120 سنويا
7.0-7.9	كبير	يمكن أن يسبب أضراراً كبيرة على مساحة كبيرة.	18 سنويا
8.0-8.9	عظيم	يمكن أن يسبب أضراراً كبيرة حتى مئات الأميال عن نقطة حدوثه.	1 سنويا
9.0-9.9		يمكن أن يسبب أضراراً كبيرة حتى آلاف الأميال عن نقطة حدوثه.	مرة لكل 20 سنة
+10.0	خارق	لم يحدث إلى الآن.	نادر (غير معروف)

الجدول رقم (٢) مقياس ريختر، وتكرارية الزلازل

رابعاً- أسباب الزلازل:

يرجع الفضل في فهم أسباب الزلازل إلى العالمين أولدهام (Oldham ١٩٠٠) وريد (Reid ١٩١٠)، والتي حددت لاحقا، بمجموعتين من الأسباب[٧]:

أ- أسباب طبيعية:

١- الزلازل البنائية (التكتونية): المرتبطة بحركة الصفائح الأرضي.
٢- الزلازل البركانية: التي تسبق الثورانات البركانية، وتواكبها .
٣- الزلازل الانهيارية: التي تتسبب بها الخسوف الأرضية.
٤- أسباب فلكية: لجاذبية القمر والشمس تأثير في قشرة الأرض، مستشهداً على ذلك، بظاهرة المد والجزر، التي تنتج عن جاذبية القمر لمياه البحار والمحيطات، حيث ترتفع قطرة ماء ما من مياه المحيطات، إذا تعامدت على سطح القمر، بين ٣٠ و٤٠ سم، وفي حال وجود الشمس والقمر على الخط نفسه، فإن هذه النقطة قد ترتفع إلى ١٥ متراً. ما يسبب انتفاخاً عالمياً، قد يخل بنفسه هي مثيرات للطاقة الأرضية، المخزنة في باطن الأرض، والمسؤولة عن حدوث الزلازل. وقد لوحظت هذه المنزلة بين الشمس والقمر، خاصة إبان وقوع زلزال منطقة الأصنام في ولاية الشلف يوم ١٠ أكتوبر ١٩٨٠م، فقد كانت الشمس والقمر في كبد السماء لحظة وقوع الزلزال عند

(7) الزلازل وتخفيف مخاطرها، جلال الدبيك،6.

الساعة ١٢ و٢٥ دقيقة بالتوقيت المحلي، ما فاقم قوة الزلزال التي بلغت ٧,٢ درجة على مقياس ريختر، إلا أنه، وفي غياب تخزين الطاقة الأرضية، لا يمكن لجاذبية الشمس والقمر أن تساعد في كسر الصخور، ولا يمكن حدوث الزلازل. وهو ما يؤكده عدم حدوث الزلازل في حال وجدت الشمس والقمر على الخط نفسه، دون توفر طاقة متراكمة في باطن الأرض[٨]. وهي نظرية بدأت مؤخراً تأخذ مساحة واسعة من اهتمام العلماء، وبالأخص بعد تصريحات العالم الهولندي، فرانك هوغربيتس Frank Hoogerbeets الذي حدد توقيت حدوث زلزال كهرمان مرعش ٢٠٢٣م، ومكانه، بشكل دقيق.

ب – أسباب بشرية:

١-التفجيرات النووية.
٢-البحيرات الصناعية خلف السدود: بسبب وزن كتلة المياه، والرواسب النهرية فيها.
٣-المحاجر: وما يتطلبه العمل بها من استخدام للمتفجرات.
٤-سحب كميات من السوائل الجوفية: كالمياه، والنفط.

تقسم الزلازل البنائية أو التكتونية Tectonic Earthquakes إلى نوعين:

١- زلازل تكتونية حدودية: الزلازل التي تقع على حدود الصفائح التكتونية. وهي مسؤولة عن ٩٠٪ من زلازل العالم، وترتبط بحركة الألواح الأرضية، وما ينجم عنها من اجهادات، والتي تتراكم، وتتجمع، وحين تصبح أكبر من قدرة الصخور على تحملها، تتشكل الصدوع والفوالق.
٢- زلازل تكتونية داخلية: وتحدث داخل القارات.
٣-

خامساً- مفهوم حركة الصفائح الأرضية:

قدمت نظرية حركة الصفائح Plate Tectonic theory في سبعينيات القرن الماضي، نموذجاً علمياً مقبولاً عن طبيعة القشرة الأرضية، وقد لاقت استحساناً كبيراً لدى العلماء من كافة التخصصات، كونها استطاعت تفسير العديد من الظاهرات السطحية والمظاهر الأرضية. وتعتمد على فكرة أن سطح الأرض مكون من قطع متجاورة، متحركة، تحمل فوقها القارات والمحيطات. الشكل رقم (٦). تدعى الصفائح البنائية Tectonic Plates، يبلغ عدد الرئيسة منها ستة، والثانوية أكثر من ذلك. وهي تطفو بسبب انخفاض كثافتها – كما السفن – فوق طبقة المعطف اللدنة، المكونة من الماغما (مهل باطن الأرض).

(8) سيناريو الكوارث الطبيعية والزلزالية وإدارتها في منطقة الشرق الأوسط، لوط بوناطيرو، ص ص 6-7.

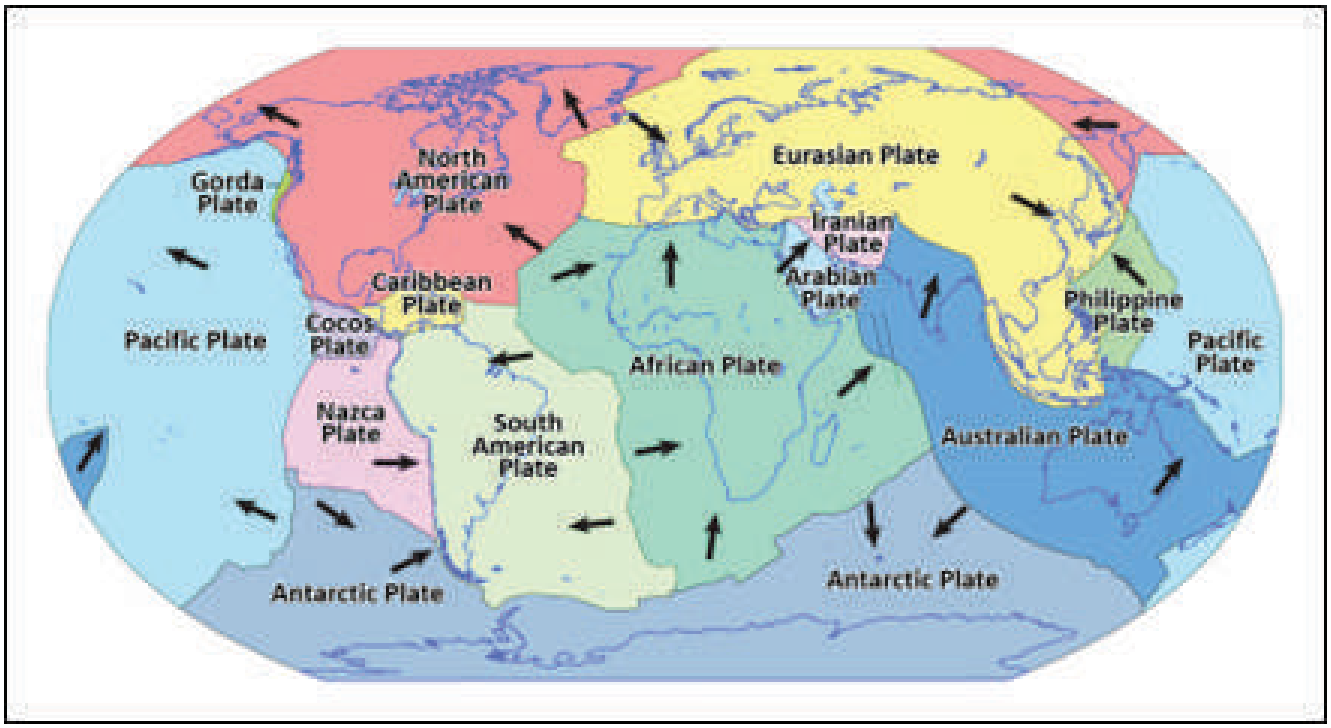

الشكل رقم (٦) الصفائح الأرضية وحركتها

وتفسر حركتها وفق مفاهيم فيزيائية، تتعلق بتأثير حرارة باطن الأرض، على ماغما المعطف، حيث تزداد درجة حرارتها كلما اتجهت نحو نواة الأرض ولبها، ما يسبب انخفاض كثافتها، فتتصعد ضمن المعطف نحو أعلاها، دافعة ما يعلوها من المِاغما نحو الأعلى، ومع وصولها إلى الأثينوسفير، وهي الطبقة العليا من المعطف، تتبرد نسبياً، فتزداد كثافتها، وتثقل، فتعود نحو الأعماق، وهكذا تتشكل حلقات أو حجرات من تيارات، تعرف بتيارات الحمل الحراري convection currents، والتي تصطدم في أعلى المعطف بقيعان الصفائح الأرضية، الأمر الذي يسبب دفعها باتجاهات مختلفة، ومع افتراق التيار المهلي الصاعد أسفل الصفيحة الأرضية، تتعرض هذه الأخيرة للتمزق، فتنشا فيها الفوالق والصدوعِ، وتتباعد أجزائها، كما يحدث بين صفيحة شبه الجزيرة العربية، وأفريقيا. فتتشكل الأغوارَ والمنخفضات الصدعية، كما حدث للبحر الأحمر، وهي ما يعرف بحدود التباعد، أما في حال تصادمت كتلتان قاريتان، فإن نطاقاً من الطبقات الملتوية سينشأ بينها، مشكلاً جبالاً، كجبال الهيمالايا، بين الهند وآسيا، وجبال زاغروس وطوروس بين كتلة الصفيحة الأناضولية، والصفيحة العربية. ومع عودة التيارات الماغماتية نحو الأعماق، ينغرس طرف الصفيحة التي تحملها على ظهرها، أسفل الصفيحة القارية الأخف منها، ليتشكل خندق عميق، في مناطق الغوص البنائي. الشكل رقم (٧)

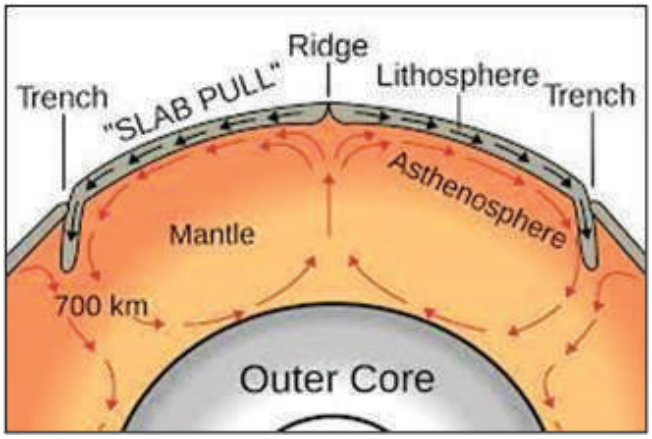

الشكل رقم (٧) حركة الماغما في المعطف، وحركة الصفائح فوقه.

يعد التوزيع العالمي للزلازل، كما هو موضح في الشكل (٨)، أحد الأفكار الرئيسة، في شكل ألواح الغلاف الصخري للأرض واتجاه حركتها. تتولد الغالبية العظمى من الزلازل عند الحدود، حيث تتقارب الصفائح أو تتباعد أو تتحرك بشكل جانبي مع بعضها البعض. تحدث أكبر نسبة من النشاط الزلزالي، وأكبر نسبة من إطلاق الطاقة الزلزالية، في المناطق التي تتلاقى فيها ألواح الغلاف الصخري مع بعضها البعض. قد تظهر هذه الحدود المتقاربة كمناطق اندساس، حيث يتم دفع صفيحة محيطية تحت صفيحة أقل كثافة، أي إما صفيحة محيطية قارية أو صفيحة محيطية أصغر في الحدود المتقاربة بين الصفائح القارية، قد ينتج عن الانضغاط التكتوني طي وتصدع وتقصير وسماكة الصفائح داخل منطقة الاصطدام (التكوّن أو بناء الجبل). سلسلة جبال الهيمالايا هي مثال على هذا النوع من الحدود المتقاربة. يتميز كلا النوعين من البيئات الإقليمية بمناطق ذات نشاط زلزالي عالي، وصدوع قادرة على توليد زلازل كبيرة جداً. ففي أوروبا، يؤدي التقارب بين الصفائح الأوروبية والأفريقية بشكل أساسي إلى حزام كبير من الانضغاط في غرب البحر الأبيض المتوسط والاندساس في أقواس كالابريا واليونانية والقبرصية في وسط وشرق البحر الأبيض المتوسط.

تمثل حدود الألواح المتباينة المناطق التي يتم فيها تفكك القشرة الضحلة. قد تظهر هذه على شكل مناطق صدع، مثل صدع شرق إفريقيا، حيث تخضع القشرة القارية الضحلة للتمدد، مما يؤدي إلى زلازل وبراكين متوسطة إلى عالية. الزلازل التي تكون قوتها أكبر من Mv٧ نادرة في مثل هذه البيئات. ومع ذلك، يمكن أن تكون المناطق الممتدة نشطة للغاية وقد شهدت العديد من المناطق، حتى تلك التي لا علاقة لها بالحدود المتباينة، مثل مناطق الأبينيني في وسط إيطاليا أو خليج كورينث، زلازل مدمرة متكررة على مر القرون. تظهر حدود لوحة التحويل والتيار العابر حيث تكون الحركة النسبية للوحات جانبية.

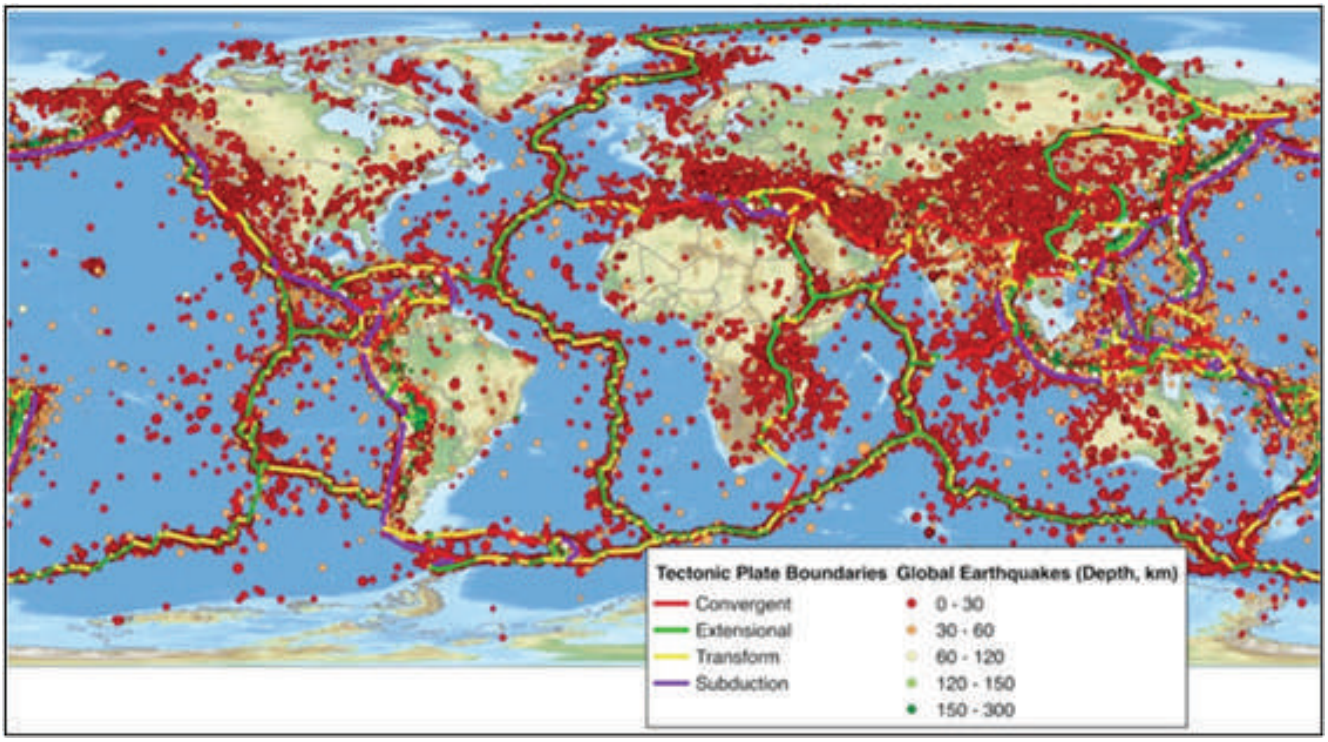

الشكل رقم (٨) توزع الزلازل وأنواع حركة الألواح الأرضية

ولنسأل: ماذا يحدث للموجات الزلزالية بعد وقوع الزلزال؟

تعرف العملية التي تضعف فيها الأمواج بعد تفريغ الطاقة عبر الضربة الرئيسة، بالتوهين الزلزالي Seismic attenuation، وتحدث بفعل، إما المرونة الذاتية intrinsic anelastici-ty، والتي تعني انخفاض طاقة الموجة المتنقلة أثناء انتشارها عبر وسط ما، أو تأثيرات التشتت scattering effects عبر الوسط نفسه، يضاف إلى ذلك عمليات الانعكاس الموجي، والتحول التي تشهده الأمواج عبر مرورها خلال أجسام صلبة وسائلة، والفراغات بين الطبقات الصخرية. ومع التشتت، يتم إعادة توزيع طاقة الموجة، كما يعمل الامتصاص absorption، وهو تحويل الطاقة الحركية إلى حرارة بالاحتكاك. على استهلاك جزء من الطاقة [٩].

سادساً- جغرافية دمشق:

يدين تاريخ دمشق الطويل، إلى جغرافيتها، وبالتحديد إلى عاملين مهمين، ضمنا لها الاستمرارية، الأول: موقعها الجغرافي، فهي تقع على سهل رسوبي واسع، مزود بالمياه بشكل دائم، أما العامل الثاني، فيعتمد على الأول، وهو (كيانها) كواحة حضارية على هامش الصحراء، ما جعلها مدينة تجارية مهمة، بين امبراطوريات وحضارات مختلفة تحيط بها [١٠].

دمشق مدينة داخلية، تبعد حوالي ٨٠كم عن البحر الأبيض المتوسط ، تقبع خلف جبل قاسيون، أحد جبال سلسلة جبال لبنان الشرقية، على سهل رسوبي يرتفع عن سطح البحر

(9) seismic waves and earthquake location, Kayal. J.R, p p 1617-.
(10) Damascus, the Oldest City in the World , Masterman. E. W.

٦٩٠م، تستمد مياهها، من نهر بردى، وغذائها من غوطتها، التي تحيط بها مع جبل قاسيون من كافة الجهات، وقد امتدت أذرعها العمرانية مؤخراً، كأصابع الكف نحو غوطتها، لتبتلع قرى وضواح كانت إلى عهد قريب خارجها، مثل الصالحية و المزة وكفر سوسة. تبلغ مساحة المدينة ١٠٥كم٢، الشكل رقم (٩).

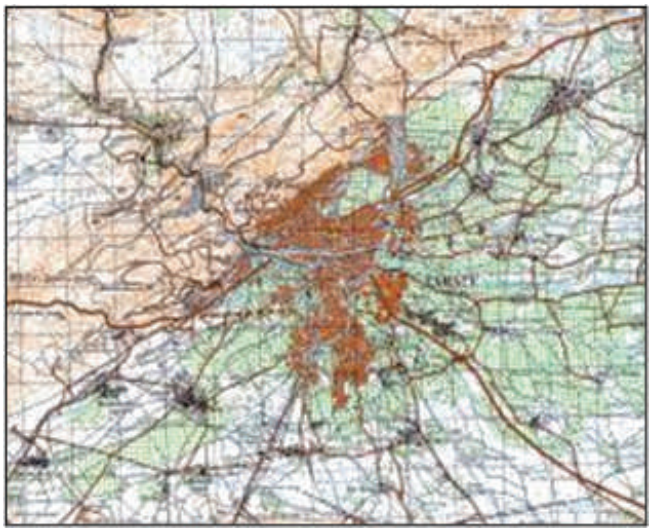

الشكل رقم (٩) الخارطة الطبوغرافية لمنطقة دمشق

جيولوجياً: يمثل جبل قاسيون، طية غير متناظرة، حيث تميل طبقاتها من جهة الجنوب الشرقي، بدرجات تراوح بين (٦٠-٨٠)، وعند السفح الشمالي الغربي بين (١٥-٢٠) درجة [١١] ذات طبقات صخرية كلسية دولومية، وكلسية غضارية، ومارلية، تعود لنهاية الزمن الجيولوجي الثاني، وبداية الثالث [١٢]، وتتوزع على شكل نطاقات متوازية، عند قسميه الأعلى والأوسط، في حين يختفي الثلث الأدنى من سفح الجبل، تحت مباني أحياء المهاجرين غرباً، وركن الدين في طرفه الشمالي الشرقي. الشكل رقم (١٠).

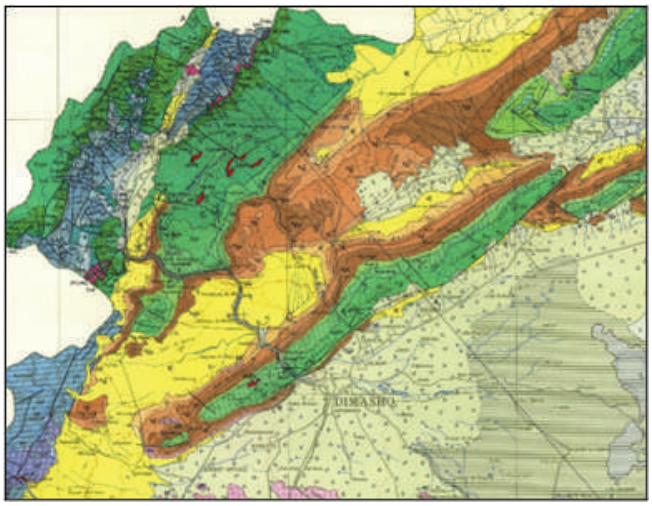

الشكل رقم (١٠): اللون الأخر والبني، صخور كلسية ومارلية ودولومية، والرمادي مع مثلثات، رواسب نهرية.

[11] سيل (2018/4/26) في منطقة سفيرة من حي ركن الدين، أسبابه ونتائجه وسبل مواجهته: غزوان سلوم، خنساء ملحم، المجلد 36، العدد الثاني، ص 96.

[12] المذكرة الإيضاحية لخارطة دمشق الجيولوجية، المؤسسة العامة للنفط والثروة المعدنية، ص 61.

يفصل صدع دمشق بين تكوينات الزمن الثاني والثالث شمالي القطاع الأدنى من سفحه الجنوبي الشرقي، كما أن هناك أربعة صدوع متعامدة مع صدع دمشق[١٣]، والمدينة محاطة بالعديد من خطوط الضعف التكتونية النشطة، مثل صدع قاسيون، وصدع سرغايا وبالقرب من نظام صدع البحر الميت الرئيس، الشكل رقم (١١). تشير الزلزالية التاريخية لهذه المنطقة إلى الدمار الشديد الذي لحق بمدينة دمشق ومحيطها جراء العديد من الزلازل المدمرة في الماضي. تشير السجلات التاريخية إلى أن منطقة صدع البحر الميت، التي لا تزال هادئة في الوقت الحاضر، قادرة على إنتاج زلازل كبيرة نسبياً. وقد تبين أن قيم الموجات تزداد من الغرب إلى الشرق من دمشق على طول الرواسب الرباعية ولوحظت القيم الأطول بشكل رئيس في منطقة الغوطة الشرقية. وإن لهذه التكوينات تأثير محلي، في شدة اهتزاز الأرض، وأضرار الزلزال، عبر ما يعرف بتضخيم الموجات الزلزالية seismic wave amplification بسبب تأثيرات الموقع المحلية[١٤].

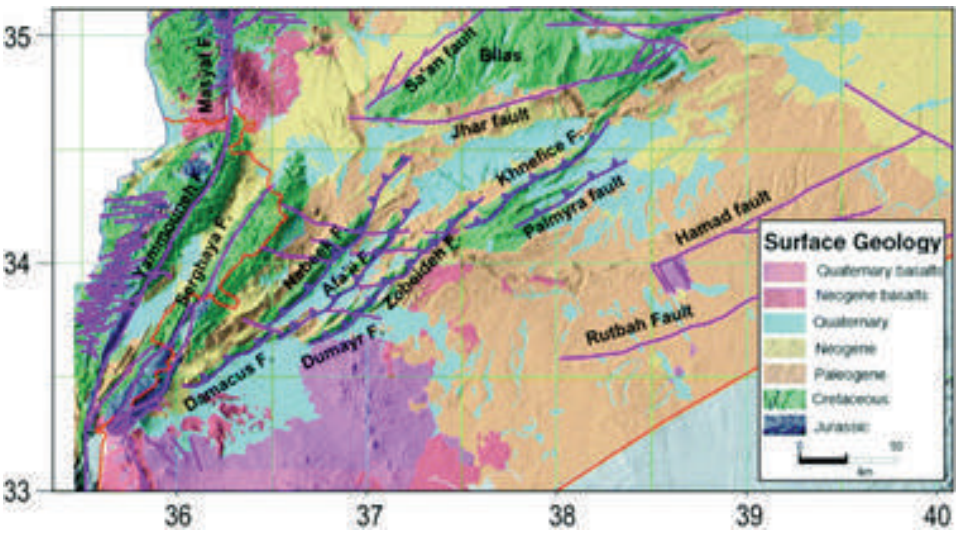

الشكل رقم (١١) صدوع منطقة دمشق، والتي تبعد عن صدع سرغايا ٣٥ كم.

وتعد المدينة المركز الإداري لمحافظة دمشق، بينما تتبع معظم الضواحي إدارياً لمحافظة ريف دمشق. وبلغ عدد سكانها حسب إحصاءات عام ٢٠١٣ نحو ١,٩ مليون نسمة، بينما يبلغ عدد سكان دمشق الكبرى -المدينة وجزء من ريفها- حسب إحصاء ٢٠١٠ ٤,٤ مليون نسمة.

تتميز المدينة بثلاث أنواع من العمارة: العمارة القديمة (التاريخية)، الصورة رقم (١). يتوزع أغلبها داخل السور، وأخرى حديثة منظمة، كأحياء المزة، والمهاجرين وأبو رمانية، وباب توما، تتوزع على مقربة من السابقة، وثالثة عشوائية في مناطق مكتظة بالسكان، تمثل قسم كبير من محيط دمشق، كما في أحياء مزة ٨٦، وعش الورور، والزاهرة الجديدة. كما يوضح الشكل رقم (١٢).

(13) الخصائص الطبيعية لواحة دمشق، عادل عبد السلام، 82.
(14) Preliminary Seismic Micro-Zoning Study for Damascus City by Using Microtremors. Zaineh & Others. P 1.

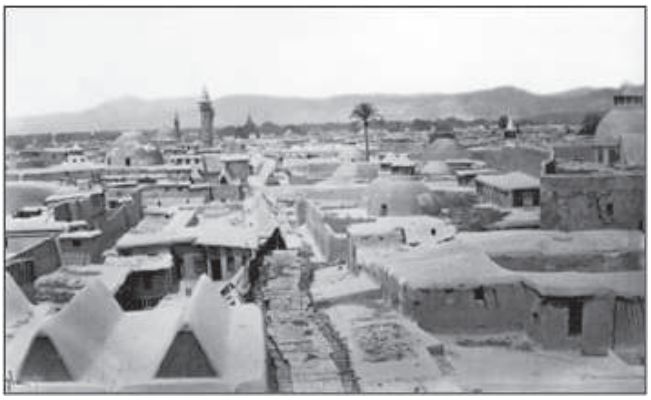

صورة رقم (١) الشارع المستقيم، في دمشق منتصف القرن التاسع عشر، لاحظ غلبة العمران الطيني على الدور.

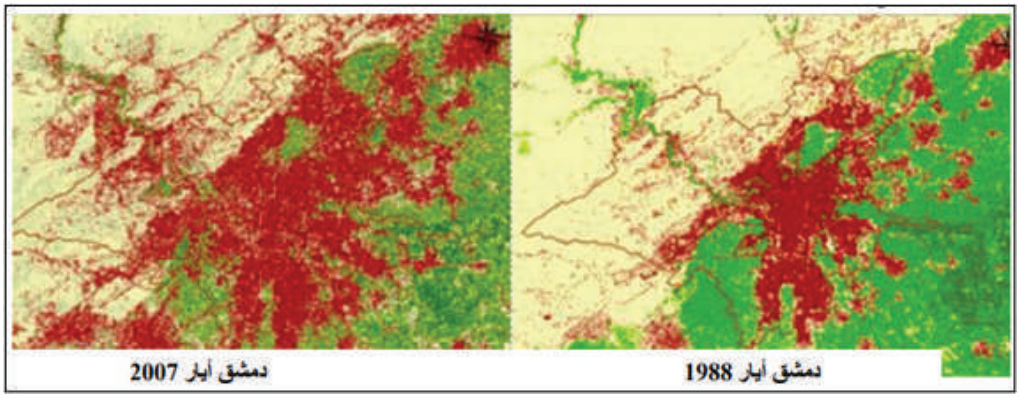

الشكل رقم (١٢) مقارنة التطور العمراني لمدينة دمشق بين عامي ١٩٨٨-٢٠٠٧م

عن ناتاليا عطفة ٢٠١٣

سابعاً- السجل الزلزالي لدمشق:

إن فهم الزلازل الماضية وتأثيرها على المجتمع هو الخطوة الأولى لتقييم مخاطر الزلازل والتخفيف منها في نهاية المطاف، ويمكن ملاحظة ذلك في العديد من أنظمة الصدوع النشطة الكبيرة، مثل صدع سان أندرياس (كاليفورنيا)، وصدع شمال الأناضول (تركيا)، وصدع تحويل البحر الميت. والتي تمتد على عدة مئات من الكيلومترات، وتتعرض لزلازل متكررة متوسطة إلى كبيرة من حجم (M٦ إلى M٧.٥). ونظراً لقربها من العديد من المراكز الحضرية الكبيرة، يمكن أن تشكل هذه الأنظمة تهديداً كبيراً للمجتمعات المدنية الكبرى[١٥].

السجل التاريخي: هو جميع الزلازل التي حدثت قبل بدء التسجيل الزلزالي الحديث بادية عام ١٩٠٠م، وبالتالي فهي مستقاة من روايات المؤرخين.

تعرضت مدينة دمشق، لنحو (٤٠) زلزالاً خلال الفترة بين (١٣٦٥ق.م- ١٩٠٠م)، ويبدأ سجلها المعروف وفق هذه الدراسة، منذ عام ١٣٠م، حيث ضرب زلزال عنيف مدينة بعلبك، شعر به أهالي دمشق، تلاه بعد نحو قرن، في ٢٣٣م زلزال أصاب المدينة بعدة أضرار. ولم تعاود

(15) Geophysical risk: earthquakes. Silva & Others.138.

الزلازل دمشق، إلا بعد خمسة قرون، في ١٣٠هـ = ٧٤٧م، وفيه تعرضت المدينة لزلزال عنيف، سقط على إثره سوق الدجاج، وانهارت جدران الجامع الكبير، ودمر ربعه، ومئذنته، والجسور، واستمر لقرابة ثلاث ساعات، تلاه زلزال عام ٧٤٨م، تسبب في تصدع المسجد الجامع، ثم وفي ١٨ كانون الثاني من عام ٧٤٩م تعرضت المدينة لهزات أرضية، استمرت عدة أيام، أودت بحياة نحو ٨٠٠ شخص، مع دمار كبير في القلعة، وصل تأثيره إلى بصري الشام[١٦].

يذكر المؤرخ الذهبي: وفي سنة (٢٣٣ هـ -٨٤٧م) جاءت زلزلة مهولة بدمشق، سقطت فيها شرفات الجامع، وتصدع حائط المحراب، وسقطت منارته، وهلك خلقٍ تحت الردم، وهرب الناس إلى المصلى، باكين متضرعين، وبقيت دمشق تنخفض وترتفع مراراً وتكراراً. وقال أحمد بن كامل في تاريخه: أن بعض أهالي دير مران رأى دمشق تنخفض وترتفع مراراً، فمات تحت الهدم معظم أهلها، وهرب الناس إلى المصلى. قال: وانكفأت قرية بالغوطة، فلم ينجو منها إلا رجل واحد، وكانت الحيطان تنفصل بحجارتها، مع كون الحائط عرضه سبعة أذرع، وامتدت إلى إنطاكيا والموصل والجزيرة، فهلك من أهل الأولى عشرون، ومن أهل الموصل خمسون ألفاً [١٧].

عن (السيوطي) (٢٣٣هـ): كانت زلزلة مهولة بدمشق، سقط منها دور، وهلك تحتها خلق، وامتدت إلى انطاكيا فهدمتها، وإلى الجزيرة فأخربتها، وإلى الموصل، فيقال هلك من أهلها خمسون ألفاً. وذكر الحافظ بن عساكر في كتابه (الزلازل) أن دمشق زلزلت ضحى يوم الخميس ١١ ربيع الآخر سنة ٢٣٣، فقطعت مربعاً من الجامع، وتزايلت الحجارة العظام، وقعت المنارة، وسقطت القناطر، والمنازل، امتدت في الغوطة، فأتت على داريا والمزة وبيت لهيا، وخرج الناس إلى المصلى يتضرعون إلى قريب نصف النهار، فسكنت الدنيا. وعن ابن العماد، وفي ثلاث وثلاثين ومائتين رجفت دمشق، رجفة شديدة من ارتفاع الضحى إلى ثلاث ساعات، فانتفض منها البيوت وزلزلت الحجارة العظيمة، وسقطت عدة طاقات في الأسواق على من فيها، فقتلت خلقاً كثيراً، وسقط بعض شرفات المسجد الجامع، ولنقطه ربع منارته، وانكفأت قرية من عمل الغوطة، فلم ينجو منها إلا رجل واحد [١٨].

وتذكر بعض المصادر، أن زلزال عام ٢٣٣هـ، قد سبقه زلزال مدمر، بعام، حيث حدثت زلزلة أثرت في دمشق وحمص وأنطاكية، فهدمت كثيراً من دورها وقتلت العديد من سكانها، وعظم تأثيرها في قرى أنطاكية. وفي شهر (ربيع الآخر من سنة ٢٣٣هـ= نوفمبر ٨٤٧م) "رجفت دمشق رجفة شديدة لارتفاع الضحى، وانتقضت منها البيوت وتزايلت العظيمة، وسقطت عدة منازل وطاقات في الأسواق على من فيها، فقتلت خلقاً كثيراً من الرجال والنساء والصبيان، وسقط بعض شرافات المسجد الجامع وتصدعت طاقات القبة في وسط الجامع مما يلي المحراب، وانقطع ربع منارة الجامع، فهرب الناس بالنساء، وهرب أهل الأسواق إلى مصلى العيد يبكون ويتضرعون ويصلون ويستغفرون إلى المغرب، ثم سكن ذلك فرجعوا، فأخذوا في إخراج الموتى من تحت الهدم. وذكر بعض من كان في دير مران أنه كان يرى مدينة دمشق وهي

(16) The historical earthquakes of Syria, an analysis of large and moderate earthquakes from 1365 B.C. to 1900 A.D, Sbeinati& Darawcheh & Mouty.

(17) تاريخ الإسلام ووفيات المشاهير والأعلام، الذهبي محمد بن أحمد، ج17، ص11.

(18) سجل الزلازل العربي، أحداث الزلازل وأثرها في المصادر العربية، عبد الله غنيم، 80.

ترتفع وتستقر مراراً، وقال أهل قرية من عمل الغوطة عن الرجفة أنها انكفأت عليهم، فلم ينج منهم إلا رجل على فرسه، فأتى أهل دمشق فأخبرهم، وأصاب أهل البلقاء مثل ما أصاب أهل دمشق من هدم المنازل في ذلك اليوم وذلك الوقت وسقطت الحجارة من سور مدينتها، وسقط حائط لها عرضه ذراع في ستة عشر ذراعاً وخرجوا بنسائهم وصبيانهم فلم يزالوا في دعاء وضجيج حتى كف الله عنهم برحمته، وعظمت الزلازل بأنطاكية ومات من أهلها خلق كثير وكذلك الموصل، ويقال إنه مات من أهلها عشرون ألفاً ويصف ابن تغري بردي (ت ٨٧٤هـ) هذه الزلزلة فيقول: "كانت زلزلة عظيمة بدمشق سقط منها شرفات الجامع الأموي وتصدع حائط المحراب، وسقطت منارته، وهلك خلق تحت الردم، وهرب الناس إلى المصلى باكين متضرعين إلى الله، وبقيت ثلاث ساعات ثم سكنت. وقال القاضي أحمد بن امل في تاريخه: رأى بعض أهل دير مران دمشق تنخفض وترتفع مراراً، فمات تحت الردم معظم أهلها. هكذا قال، ولم يقل بعض أهلها، ثم قال: وكانت الحيطان تنفصل حجارتها من بعضها مع كون الحائط عرض سبعة أذرع، ثم امتدت هذه الزلزلة إلى أنطاكية فهدمتها، ثم إلى الجزيرة، فأخربتها، ثم إلى الموصل، يقال أن الموصل هلك من أهله خمسون ألفاً، ومن أهل أنطاكيا عشرون ألفاً [١٩].

يروي أبو شامة أن زلازل عظيمة وقعت بدمشق في (ذي القعدة من سنة ٢٤٥هـ= فبراير ٨٦٠م) وقد تحدث العديد من المؤرخين عن زلازل وقعت في بلاد الشام في هذه السنة، لكنهم لم يشيروا إلى الشهر الذي وقعت فيه، ومن المحتمل أنه شهر ذي القعدة، وأنها تلك التي تحدث عنها أبو شامة، وعن هذه الزلازل يقول الطبري: "وفيها زلزلت بالس والرقة وحران ورأس عين وحمص ودمشق والرها وطرسوس والمصيصة وأذنه وسواحل الشام، ورجفت اللاذقية فما بقي منها منزل ولا أفلت من أهلها إلا اليسير، وذهبت جبلة بأهلها"[٢٠].

عن (الانطاكي) (ت ٤٥٨هـ) في سنة ٣٨١هـ (٩٩١م) حدثت بدمشق زلزلة عظيمة يوم السبت، سابع عشر المحرم، سنة إحدى وثمانين وثلاثمائة، وسقط منها زهاء ألف دار، ومات تحت الردم خلق كثير، وخسفت في تلك الليلة بقرية من بعلبك، وخرج الناس من دورهم إلى الصحراء والخيام، وأقامت الزلزال متتابعة إلى يوم الجمعة، السابع عشر من صفر من السنة[٢١].

وعن ابن أبي الطيب (٢٥٣-٢٥٤) قال: ولم تزل الزلازل متتابعة إلى يوم الجمعة، الرابع عشر من صفر، زلزلت دمشق زلزلة عظيمة، هدمت بها دور كثيرة على أهلها، وهلك منها خلق كثير، وسقطت بلدة بدومة على أهلها، فلم ينجو منهم أحد، لا صغير ولا كبير[٢٢].

وفي سنة (٣٣١هـ=٩٤٢م)، "حدث بدمشق زلزلة عظيمة سقط منها زهاء ألف دار، ومات تحت الردم خلق كثير، وخسفت قرية من قرى بعلبك، وخرج الناس من منازلهم إلى الصحاري. أعقبه تأثرها بعدة زلازل عامة، أعوام (٩٦٣-٩٧٢-٩٩١) م. سبب آخرها تدمير ١٠٠٠ منزل،

(19) النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة، يوسف بن تغري بردي بن عبد الله الظاهري، ج2، ص270. الزلازل في بلاد الشام (من القرن الأول إلى القرن الثالث عشر الهجري = القرن السابع إلى القرن التاسع عشر الميلادي)، خالد الخالدي، 71-75.
(20) تاريخ الطبري، وصلة تاريخ الطبري: محمد بن جرير الطبري، ج9، ص213.
(21) تاريخ الأنطاكي المعروف بصلة تاريخ أوتيخاء: يحيى بن سعيد بن يحيى الأنطاكي، 220.
(22) سجل الزلازل العربي، أحداث الزلازل وأثرها في المصادر العربية، عبد الله غنيم، 106.

ومقتل خلق كثير، واستمرت توابعه نحو سبعة أسابيع [٢٣].

وفي منتصف القرن الثاني عاشر، في عاميّ ١١٤٩ و١١٥١ ضربها زلزالين، الثاني أشد من الأول، ولكن لم يحدثا أضراراً كبيرة. ثم وفي عام ١١٥٦ عدة هزات وزلازل أصابت أهل المدينة بالرعب والزعر، واستمرت من شعبان إلى رمضان، قتلت عدداً من الأهالي [٢٤]. وقد ضربت ١٦ هزة المدينة بين شهري تشرين الأول و تشرين الثاني من هذا العام، واستمرت حتى كانون الثاني من عام (١١٥٧م)، وفيه أصابت المدينة زلزلة عظيمة، كما لم يحدث من قبل، وتضرر الجامع الكبير فيها، وانزعج أهلها وفروا من منازلهم ومن تحت الأسقف [٢٥].

وفي عام ١٠٢٩م، ضرب دمشق زلزال عنيف، دمر نصفها، وقتل العديد من الناس تحت الردم، قدّر (Sbeinati& Darawcheh & Mouty :٢٠٠٥. P ٣٦٧) بنحو ٧ درجات وفق مقياس ريختر، تلاه زلازل في أعوام ١٠٦٣م، ١٠٩٢م ضربت عموم بلاد الشام من انطاكيا إلى دمشق، ثم شهد عام ١١٥١م، تعرض دمشق لنحو ٦٣ هزة أرضية، من شعبان إلى جمادى الأول [٢٦].

يذكر أبو شامة (ت ٦٦٥ هـ)، أنه في ليلة الاثنين (٢٩ رجب ٥٥٢هـ= ٥ سبتمبر ١١٥٧م) ضربت دمشق زلزلة فقال: "وأما أهل دمشق فلما وافتهم الزلزلة في ليلة الاثنين التاسع والعشرين من رجب ارتاع الناس من هولها، وأجفلوا من منازلهم والمسقف إلى الجامع والأماكن الخالية من البنيان، خوفاً على أنفسهم، ووافت بعد ذلك أخرى، ففتح البلد وخرج الناس إلى ظاهره والبساتين والصحراء وأقاموا عدة ليال وأيام على الخوف والجزع يسبحون ويهللون ويرغبون إلى خالقهم ورازقهم في اللطف بهم والعفو عنه[٢٧].

كما تحدث عن زلزلة أخرى ضربت بلاد الشام في (٢٤ رمضان ٥٥٢هـ= ٣٠ أكتوبر ١١٥٧م) حيث قال: "وفي الرابع والعشرين من رمضان وافت دمشق زلزلة روعت الناس وأزعجتهم، لما وقع في نفوسهم مما قد جرى على بلاد الشام من تتابع الزلازل فيها، ووافت الأخبار من ناحية حلب بأن هذه الزلزلة جاءت فيها هائلة فقلقلت من دورها وجدرانها العدد الكثير، وأنها كانت بحماة أعظم مما كانت في غيرها، وأنها هدمت ما كان عمر فيها من بيوت يلتجأ إليها، وأنها دامت فيها أياماً كثيرة في كل يوم عدة وافرة من الرجفات الهائلة يتبعها صيحات مختلفات توفي على أصوات الرعود القاصفة المزعجة فسبحان من له الحكم والأمر، وتلا ذلك رجفات متوالية أخف غيرهن من ويواصل أبو شامة حديثه عن زلازل هذه السنة فيقول: "فلما كان ليلة السبت العاشر من شوال [١٤ نوفمبر ١١٥٧م] وافت زلزلة هائلة بعد صلاة عشاء الآخرة

(23) The historical earthquakes of Syria, an analysis of large and moderate earthquakes from 1365 B.C. to 1900 A.D, Sbeinati& Darawcheh & Mouty.388.

(24) الكوارث الطبيعية في بلاد الشام، في القرن السادس الهجري الكوارث الطبيعية في بلاد الشام، الثاني عشر الميلادي، وبعض أبعادها الاقتصادية والاجتماعية، سلطان جبر سلطان، 4.

(25) الكوارث الطبيعية في بلاد الشام ومصر 491-923 هـ = 1097-1517م، محمد حمزة صلاح، 58.

(26) The historical earthquakes of Syria, an analysis of large and moderate earthquakes from 1365 B.C. to 1900 A.D, Sbeinati& Darawcheh & Mouty. 367.

(27) الروضتين في أخبار الدولتين النورية والصلاحية، أبو القاسم شهاب الدين عبد الرحمن بن إسماعيل بن إبراهيم المقدسي الدمشقي المعروف بأبي شامة،ج1، ص334.

أزعجت وأقلقت وتلاها في إثرها هزة خفيفة وكذا ليلة العاشر من ذي القعدة [١٣ ديسمبر ١١٥٧م] وفي غدها زلازل وليلة الثالث والعشرين [٢٦ ديسمبر ١١٥٧م] والخامس والعشرين منه أيضاً [٢٨ ديسمبر ١١٥٧م] زلازل نفر الناس من هولها إلى الجامع والأماكن المنكشفة وضجوا بالتكبير والتهليل والتسبيح والدعاء والتضرع إلى االله تعالى. وفي يوم الجمعة انسلاخ ذي القعدة [٣ يناير ١١٥٦م] وافت زلزلة رجفت لها الأرض وانزعج لها الناس. وفي ليلة (الخامس والعشرين من ربيع الأول ٥٥٣هـ = ٢٥ إبريل ١١٥٩م) "وافت زلزلة في دمشق روعت وأقلقت ثم سكنت، وأدت إلى تدمير كثير من المباني، وسقوط شرفات من الجامع الأموي، وسقوف المنابر[٢٨].

وفي (١٢ شوال ٥٦٥هـ= ٢٨ يونيو ١١٧٠م)، ضربت الشام زلزلة، أسهب المؤرخون في وصفها، فقال ابن الأثير (ت ٦٣٠هـ): "في هذه السنة أيضاً (٥٦٥ هـ) ثاني عشر شوال كانت زلازل عظيمة متتابعة هائلة لم ير الناس مثلها، وعمت أكثر البلاد من الشام والجزيرة والموصل والعراق وغيرها من البلاد وأشدها كان بالشام فخربت كثيراً من دمشق"[٢٩].

وقال فيها الذهبي: "جاءت زلازل عظام بالشام، ودكت القلاع وأفنت خلقاً". وفي معرض ترجمته لسنان بن سلمان بن محمد البصري ذكر الذهبي أن سنان قد عرج من حجر وقع عليه في هذه الزلزلة، وذكر في كتاب العبر أن بعض من تحدثوا بالتفصيل عن هذه الزلزلة قالوا أنه " هلك بحلب تحت الهدم ثمانون ألفاً"[٣٠].

وقال ابن كثير (ت ٧٧٤هـ): "وفيها كانت زلزلة عظيمة بالشام والجزيرة وعمت أكثر الأرض، وتهدمت أسوار كثيرة بالشام، وسقطت دور كثيرة على أهلها، ولا سيما بدمشق وحمص وحلب. وبعلبك سقطت أسوارها وأكثر قلعتها، فجدد نور الدين عمارة أكثر ما وقع بهذه الأماكن"[٣١].

وقال ابن العماد الحنبلي (ت ١٠٨٩هـ): "في شوال منها كانت الزلزلة العظمى بالشام، ووقع معظم دمشق، وشرفات جامع بني أمية، ووقع نصف قلعة حلب والبلد وهلك من أهلها ثمانون ألفاً، ووقعت قلعة حصن الأكراد ولم يبق لسورها أثر" [٣٢].

ويذكر البعض أنها كانت عدة زلازل استمرت من ١١٦٩م حتى ١١٧٠م[٣٣] . في حين يذكر موقع (الموسوعة الحرة العالمية) أن الزلزال حدث في ٢٩ يونيه عام ١١٧٠م، وكان مصدره صدع مصياف Missyaf Fault ، البالغ طوله ٧٠ كم، وقدرت قوته بنحو ٧,٧ ريختر، اتسعت مساحة الأراضي المتضررة منه، لتشمل مساحة واسعة من أنطاكيا إلى حلب ثم جنوب سورية، مروراً

(28) الروضتين في أخبار الدولتين النورية والصلاحية، أبو القاسم شهاب الدين عبد الرحمن بن إسماعيل بن إبراهيم المقدسي الدمشقي المعروف بأبي شامة،ج1، ص334 - 336. الكوارث الطبيعية في بلاد الشام، في القرن السادس الهجري الكوارث الطبيعية في بلاد الشام، الثاني عشر الميلادي، وبعض أبعادها الاقتصادية والاجتماعية، سلطان جبر سلطان،11.

(29) الكامل في التاريخ، علي بن أبي الكرم محمد بن محمد، ابن الأثير، ج9، ص352، 353.

(30) العبر في خبر من غبر، الذهبي محمد بن أحمد، ج3، ص45.

(31) البداية والنهاية، أبو الفداء إسماعيل بن عمر بن كثير، ج12، ص324. سجل الزلازل العربي، أحداث الزلازل وأثرها في المصادر العربية، عبد الله غنيم، 83-84.

(32) شذرات الذهب في أخبار من ذهب، عبد الحي بن أحمد بن محمد، ابن العماد الحنبلي ، ج6، ص356. سجل الزلازل العربي، أحداث الزلازل وأثرها في المصادر العربية، عبد الله غنيم، 83-84.

(33) The historical earthquakes of Syria, an analysis of large and moderate earthquakes from 1365 B.C. to 1900 .374-A.D, Sbeinati& Darawcheh & Mouty. 373

بحماة ودمشق. وحُدد مركزه بين قلعة الحصن وقلعة مصياف، لكنهم خفضوا قدرته إلى ٥, ٧، وقد استمرت الهزات التابعة له ثلاثة أشهر [٣٤]. الشكل رقم (١٣).

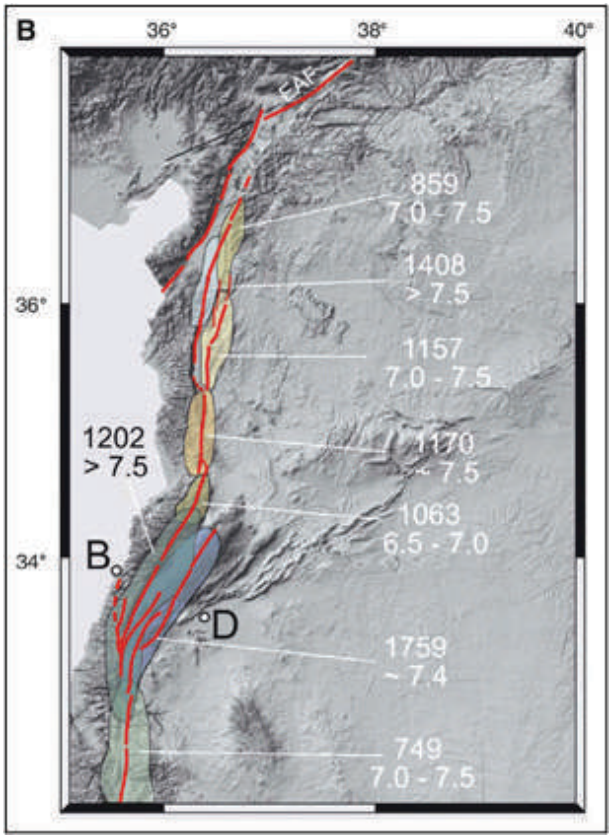

الشكل رقم (١٣) أهم الزلازل التي حدثت على صدع البحر الميت غربي سورية، ويشير خط زلزال ١١٧٠ م إلى صدع مصياف.

وهزت بلاد الشام زلزلة عظيمة في (شعبان من سنة ٥٩٧ هـ= مايو ١٢٠١م)، تحدث عنها العديد من المؤرخين.. وروى الذهبي عن أبي شامة قوله: "وفي شعبان جاءت زلزلة عمَّت الدنيا في ساعة واحدة، فهدمت نابلس فمات تحت الهدم ثلاثون ألفاً، وهدمت عكا، وصور وجميع قلاع الساحل ورمت بعض المنارة الشرقية وأكثر الكلاسة والمارستان وعامة دور دمشق وهرب الناس إلى الميادين، وسقط من الجامع ستة عشر شرفة. وتشققت قبة النسر- إلى أن قال والعهدة عليه – وأحصي من هلك في هذه السنة فكان ألف ألف ومائة ألف إنسان"، ثم قال: نقلت ذلك من تاريخ أبي المظفر الجوزي ابن سبط[٣٥].

وذكر ابن كثير هذه الزلزلة وأضاف بعض التفصيلات ، حيث يقول: "وفيها كانت زلزلة عظيمة ابتدأت من بلاد الشام إلى الجزيرة وبلاد الروم والعراق وكان جمهورها وعظمها بالشام تهدمت منها دور كثرة، وتخربت محال كثيرة ، وخسف بقرية من أرض بصرى، وأما سواحل الشام وغيرها فهلك فيها شيء كثير، وأخربت محال كثيرة من طرابلس وصور وعكا ونابلس،

(34) Evidence for 830 years of seismic quiescence from palaeoseismology, archaeoseismology, and historical seismicity along the Dead Sea Fault in Syria. Meghraoui& Others.

(35) تاريخ الإسلام ووفيات المشاهير والأعلام، الذهبي محمد بن أحمد، ج42، ص38.

ولم يبق بنابلس سوى حارة السامرة، ومات بها وبقراها ثلاثون ألفاً تحت الردم، وسقط طائفة كثيرة من المنارة الشرقية بدمشق بجامعها وأربع عشرة شرافة منه، وغالب الكلاسة والمارستان النوري، وخرج الناس إلى الميادين يستغيثون، وسقط غالب قلعة بعلبك، مع وثاقة بنيانها، وانفرق البحر إلى قبرص، وقد حذف بالمراكب منه إلى ساحله، وتعدى إلى ناحية الشرق، فسقط بسبب ذلك دور كثيرة، ومات أمم لا يحصون ولا يعدون، حتى قال صاحب مرآة الزمان إنه مات في هذه السنة بسبب الزلزلة نحو ألف ألف ومائة ألف إنسان قتلاً تحتها، وقيل إن أحداً لم يحص من مات منها واالله سبحانه أعلم "[٣٦].

أما ابن الأثير، فذكر، أنه وفي شعبان من سنة ٥٩٧هـ (١٢٠١م) تزلزلت الأرض بالموصل، وديار الجزيرة كلها، والشام ومصر، وغيرها، فأثرت في الشام آثاراً قبيحة، وخربت كثيراً من الدور بدمشق وحمص وحماه، وانخسفت قرية من قرى بصرى، وأثرت في الساحل الشامي أثراً كبيراً، فاستولى الخراب على طرابلس، وصور وعكا ونابلس، ووصلت إلى بلاد الروم"[٣٧].

ويذكر الدواداري: "وفيها – أي السنة- كانت الزلزلة العظيمة في شهر شعبان، أتت من نحو الصعيد، فعمت الدنيا في ساعة واحدة، وهدمت بنيان مصر، حتى عدم تحت العدم عالم عظيم، ثم وصلت بالشام والساحل، وهدمت نابلس، حتى لم بيق بها جدار قائم إلا حارة السامرة، وهلك تحت الردم ثلاثون ألف انسان، وكذلك هدمت عكا وصور، مع قلاع الساحل، وامتدت إلى دمشق، فهدمت بعض المنارة بجامع بني أمية، وأكثر الكلاسة، والبيمارستان النوري، وهرب الناس إلى الميادين، وسقط من الجامع ست عشر شرافة، وانشقت قبة النسر، وامتدت إلى بانياس وهونين، وخرج من أهل بعلبك سائرين في طريقهم، فسقط عليهم جبل، فهلكوا تحته، وهدم أكثر قلعة بعلبك مع عظيم بنيانها، وامتدت على حمص وحماه وحلب، وقطعت البحر إلى قبرص، وانفرق البحر فصار أطواراً، وقذف بالمراكب إلى الساحل، وتكسرت منه عدة مراكب، ثم وصلت إلى أخلاط وأرمينية وأذربيجان والجزيرة، ووصلت إلى العجم، فأحي من هلك في بلادها تحت الردم، فقيل كان ألف ألف ومائة أف، وكان قوة الزلزلة في مبتدأ أمرها، بقدر ما يقرأ الإنسان سورة الكهف، ثم عاودت بعد ذلك أياما" [٣٨].

ويذكر البعض ، أنه في عام ١٢٠٢ – ولعله ذات عام ١٢٠١م السابق[٣٩*]– ضربت بلاد الشام كافة، ودمشق خاصة زلزلة شديدة، انهار على إثرها مبان قرب القلعة، وفقد الجامع الأموي مئذنته الشرقية، وانقسمت القبة الرئيسة، وانهارت منه بوابة جيرون، فقتلت رجلاً، وتأثر الجدار الشرقي منه، ودمر مسجد الكلاسة، وقد سبقته هزات طفيفة لمدة أربعة أيام [٤٠]. قُدّرت قوته بـ (٧ ,٤) ريختر، وسرعة انزلاقه بنحو (٣م/ثا)، وأن طول صدعه بلغ نحو

(36) البداية والنهاية، أبو الفداء إسماعيل بن عمر بن كثير، ج13، ص34.
(37) الكامل في التاريخ، علي بن أبي الكرم محمد بن محمد، ابن الأثير، ج10، ص181.
(38) سجل الزلازل العربي، أحداث الزلازل وأثرها في المصادر العربية، عبد الله غنيم، 106.
39 * يرى البعض انهما زلزاليين منفصلين: حدث الأول وشدته (Ms 7.5) في 6/ حزيران – يونيو/ 1201م، وضرب الثاني وشدته (Ms 6.8) في 20/ أيار – مايو من عام 1202م.
(40) The historical earthquakes of Syria, an analysis of large and moderate earthquakes from 1365 B.C. to 1900 A.D, Sbeinati& Darawcheh & Mouty.292.

٢٠٠كم. مع انزلاق جانبي لنحو (١,٢٥) م، وقد حدث في ٥/ أيار، ١٢٠٢م[٤١]. في حين ذكر موقع (الموسوعة الحرة العالمية) شدته بنحو ٦,٧ ريختر، وقد نجم عن حركة جانبية لصدع اليمونة – الممتد في لبنان – وقد اتسعت دائرة تأثيره، من مركزها في لبنان، إلى القسطنطينية شمالاً، وحتى أسوان جنوباً، ومن غربي أيران شرقاً حتى قبرص غرباً، وكانت أكثر المدن تضرراً: صور وعكا وبعلبك ونابلس وبانياس ودمشق وحوران وطرابلس وحماة، بلغ عدد ضحاياه ٣٠,٠٠٠ ألف.

أما ابن كثير. فيقول: "وفيها كانت زلزلة عظيمة، ابتدأت من بلاد الشام إلى الجزيرة وبلاد الروم والعراق، وكان جمهورها وعظمها بالشام، تهدمت منها دور كثيرة، وتخربت محال كثيرة، وخسف بقرية من أرض بصري، وأما سواحل الشام وغيرها، فهلك فيها شيء كثير، وأخربت محال كثيرة في طرابلس وصور وعكا ونابلس، ولم يبق بنابلس سوى حارة السامرة، ومات بها وبقراها ثلاثون ألفاً تحت الردم، وسقطت طائفة كثيرة من المنارة الشرقية بدمشق بجامعها، وأربع عشر شرافة منه، وغالب الكلاسة، والبيمارستان النوري، وخرج الناس إلى الميادين يستغيثون. وسقط غالب قلعة بعلبك مع وثاقة بنيانها، وانفرق البحر إلى قبرص، وقد قذف بالمراكب منه إلى ساحله، وتعدى إلى ناحية الشرق، فسقط بذلك دور كثيرة، ومات أمم لا يحصون ولا يعدون حتى قال صاحب مرآة الزمان: أنه مات في هذه السنة بسبب الزلزلة من ألف ألف ومائة ألف إنسان قتيلاً تحتها، وقيل إن أحداً لم يحص من مات فيها، والله أعلم[٤٢].

ثم ضرب مصر زلزال عام ١٢٦١م اضطربت منها دمشق، ثم آخر بعد نحو عقدين، ففي عام ١٢٨٤م، ضربها زلزال دمر البيوت، وانطمت بسببه الأنهار وفي عام ١٣٢٢م، كانت زلزلة عظيمة في دمشق، حدثت ليلاً ثم هدأت. أعقبتها بعد خمس سنوات- ١٣٢٧م- هزات سرت في المدينة من شمالها إلى جنوبها [٤٣].

تحدث الذهبي: أنه في (١٥ شعبان ٧٤٤هـ= ٢ يناير ١٣٤٤م) ضربت الشام زلزلة: "في منتصف شعبان كانت الزلزلة العظمى العامة، فهدمت مدينة منبج"[٤٤]. وقال عنها ابن كثير: "وفي يوم السبت الخامس عشر من شعبان جاءت زلزلة بدمشق لم يشعر بها كثير من الناس لخفتها والله الحمد والمنة، ثم تواترت الأخبار بأنها شعثت في بلاد حلب شيئاً كثيراً. لم يبق منها إلا القليل، وأن عامة الساكنين بها هلكوا تحت الردم، رحمهم الله"[٤٥].

وقد شهد هذا القرن حدوث زلزالين في هذا القرن، وقعا عامي ١٣٢٣م، و١٣٩٩م[٤٦].

(41) Reconstructing the slip velocities of the 1202 and 1759 CE earthquakes based on faulted archaeological structures at Tell Ateret. Schweppe & Others. 102.

(42) البداية والنهاية، أبو الفداء إسماعيل بن عمر بن كثير، ج13، ص34. سجل الزلازل العربي، أحداث الزلازل وأثرها في المصادر العربية، عبد الله غنيم، 161-162.

(43) الكوارث الطبيعية في بلاد الشام ومصر 491-923 هـ = 1097-1517م، محمد حمزة صلاح، 73-74.

(44) العبر في خبر من غبر، علي بن أبي الكرم محمد بن محمد، ابن الأثير، ج4، ص130.

(45) البداية والنهاية، أبو الفداء إسماعيل بن عمر بن كثير، ج14، ص245. سجل الزلازل العربي، أحداث الزلازل وأثرها في المصادر العربية، عبد الله غنيم،200.

(46) The historical earthquakes of Syria, an analysis of large and moderate earthquakes from 1365 B.C. to 1900 A.D, Sbeinati& Darawcheh & Mouty.293.

في القرن الخامس عشر، ضربت المدينة عدة زلازل ضربت المدينة في أعوام ١٤٠٨-١٣٣٤-١٤٥٨-١٤٨١-١٤٩١م [٤٧]. كان قبل الأخير مدمراً، فقد أدى إلى سقوط شرافة جامع دمشق على قاضي الحنفية بمصر شرف الدين بن عبد، فمات منها. وفي عام ١٥٦٩م، ضربها زلزال مدمر، اهتزت من المدينة، وتضرر الجامع الكبير فيها [٤٨].

وكان القرن السادس عشر الميلادي، خفيف الوطأة على المدينة، فقد تعرضت لعدة زلازل خفيفة، أعوام (١٥٣٧م-١٥٣٧م-١٥٤٦-١٥٦٥) صاحب بعضها صوت مرعب من تحت الأرض، أعقبها بعد أقل من قرن، زلزال ١٦٤٠م، وتسبب في دمار بسيط للمدينة [٤٩].

وعن زلزال عام ١٧٠٥م، يذكر عبد الغني النابلسي: "رأينا في هذه السنة، وهي سنة سبع عشر ومائة وألف (١١١٧هـ) ما لم نره في غيرها من السنين من تتابع الزلازل في الليالي والأيام بدمشق الشام، وكان ابتداء ذلك ليلة سابع شعبان من السنة المذكورة، وكنا نحن وأولادنا تلك الليلة في بيتنا الذي بنيناه في جبل قاسيون وسفح الصالحية، فلما مضى من الليل عشر ساعات، حصلت الزلزلة الأولى، فأيقظتنا من النوم رجفة الأرض وحركتها. فقمنا واستغفرنا الله تعالي وسبحانه وهللنا وكبرنا، وبلغنا من أن الناس من أهل دمشق، لما رأوا السقوف تضطرب وتقعقع ظنوا أن فوق الأسطح سراقاً يعدون، فخرجوا بالأسلحة، فلم يجدوا احداً حتى تحققوا أن ذلك زلزلة، وكان غالبهم يعلم ذلك. ثم إنه في تلك الليلة بعد مضي ساعة، حصلت زلزلة أخرى أقوى من الأولى واشد منها، وكان الماضي من الليل إحدى عشرة ساعة بحيث اضطربت علينا السقوف ورجفت الأرض، فخرجنا جميعاً إلى صحراء البيت، وسمعنا لأهل الشام في بيوتهم ضجيجاً وصياحاً، وكانت هذه الزلزلة الثانية مقدار الدرجة أو الدرجتين، ثم سكنت الأرض. ثم إنه حصل عقيب تلك الزلزلة بعد درجتين أو ثلاث، زلزلة أخرى خفيفة، ثم استمر الأمر بعد ذلك إلى أن دخل شهر رمضان، يقع في كل يوم وكل ليلة زلزلة خفيفة يشعر بها بعض الناس، والبعض لا يشعر. فقيل:

زلازل في جلق الشام قد تتابعت تعجز توصيفكا
والله قد كررها آية يريد في التاريخ تخويفكا

وقد حصل من الزلزلة الثانية، بأن وقعت بيوت وتهدمت جدران، وتقلقلت سقوف في دمشق وخارجها، وانشق أعلى المنارة الشرقية في جامع بني أمية، وسقط حجران من أعلى المنارة الغربية، ولم يحصل من ذلك ضرر، وسقط في الصالحية أعلى منارة المرشدية، ومنارة جامع الأفرم، وحصة من البنيان في مغارة الدم أعلى جبل قاسيون، وبلغنا ان قلعة القسطل – من ريف دمشق في جبال القلمون- وقريتها انهدمت، وكذلك دير في يبرود، وبيوت كثيرة في القرى"[٥٠].

(47) الكوارث الطبيعية في بلاد الشام ومصر 491-923 هـ = 1097-1517م، محمد حمزة صلاح، 80-82.
(48) الكوارث الطبيعية في بلاد الشام، في القرن السادس الهجري الكوارث الطبيعية في بلاد الشام، الثاني عشر الميلادي، وبعض أبعادها الاقتصادية والاجتماعية، سلطان جبر سلطان،11.
(49) The historical earthquakes of Syria, an analysis of large and moderate earthquakes from 1365 B.C. to 1900 A.D, Sbeinati& Darawcheh & Mouty.375-392.
(50) سجل الزلازل العربي، أحداث الزلازل وأثرها في المصادر العربية، عبد الله غنيم، 261-292.

_ زلزال ١٧٥٩م المدمر:

يعرف هذا الزلزال باسم المنطقة التي تركزت فيها أكبر خسائره، وهي مدينة بعلبك اللبنانية، إلا أن تأثيره شمل جزء كبير من بلاد الشام. واعتبر ثاني أكبر زلزال بالمنطقة بعد زلزال ١٢٠٢، وقع الزلزال الأول يوم ٣٠ تشرين الأول من عام ١٧٥٩م، ومركزه وادي البقاع اللبناني، بلغت قوتها ٦ درجات بمقياس ريختر. وأسفر عن مصرع نحو ٤٠ ألف شخص في المنطقة المحيطة بالعاصمة بيروت لوحدها، ثم أعقبه، زلزال آخر في ٢٥ تشرين الثاني، من ذات العام، ضرب شمالي فلسطين وتركزت أبرز أضراره في منطقة بيسان، تلته أمواج مد من بحيرة طبريا، أدت إلى تدمير نحو ٢٠ قرية فلسطينية حول البحيرة ومقتل نحو٤٠,٠٠٠ شخص آخرين. وقدرت قوته بنحو ٧ درجات [٥١]، وقدّرت سرعته بنحو (١م / ثا)، مع إزاحة أفقية لنحو ٥,٠م. وبلغت شدته نحو (٦,٧) ريختر[٥٢]، وعلى الرغم من شدة قوته، إلا انه كان أقل بحوالي ٣٢ ضعف من زلزال ١٢٠٢م. وأبطأ من ه بنو الثلثين. مع طول رمية صدعية بلغت ٥٠ كم.

وعن تأثيره في دمشق، يُذكر أنه حدث في ليلة الثلاثاء ثاني ربيع الأول، الثاني من تشرين الثاني من سنة ١٧٥٩م، وفي الثلث الأخير من الليل، والمؤذنون في المآذن، صارت زلزلة خفيفة، وتبعها ثانية ثم ثالثة، زلزلت منها دمشق زلزالاً شديداً، حسبت أهل دمشق أن القيامة قد قامت، فتهدمت رؤوس غالب مآذن الشام، ودور كثيرة وجوامع وأماكن لا تحصى، حتى قبة النصر التي بأعلى جبل قاسيون زلزلتها وأرمت نصفها، وأما قرى الشام فكان فيها الهدم الكثير، والقتلى التي وجدت تحت الهدم لا تحصى عدداً.

وفي الليلة الثانية زلزلت أيضاً في الوقت الذي زلزلت فيه الأولى، ثم حصلت في وقت صلاة الصبح وبالنهار أيضاً، ولا زالت تتكرر مراراً لكنها أخف من الأولين، وقد زاد الخزف والبلاء، وهجرت الناس بيوتهم، ونامت في الأزقة والبساتين وفي المقابر والمرجة، وفي صحن الجامع الأموي. وفي هذه الزلزلة وقع خان القنيطرة على كل من كان فيه، فلم يسلم من الدواب والناس إلا القليل، وكذلك خان سعسع، وقد وردت الأخبار إلى دمشق الشام، أن بعض البلاد والقرايا انهدمت على أهلها، فلم يسلم منها ولا من دوابها أحد [٥٣]. صورتان رقم (١)(٢).

صورة رقم (١) توضح الدمار الذي لحق بحي من أحياء دمشق.

(51) The 1759 Earthquake in the Bekaa Valley: Implications for earthquake hazard assessment in the Eastern Mediterranean Region. Ambraseys & Barazangi.

(52) Reconstructing the slip velocities of the 1202 and 1759 CE earthquakes based on faulted archaeological structures at Tell Ateret, Schweppe & Others, 1022.

(53) سجل الزلازل العربي، أحداث الزلازل وأثرها في المصادر العربية، عبد الله غنيم، 273.

صورة رقم (٢) لوحة تعبر عن حالة دمشق عام ١٧٥٩م.

ثم في ليلة الثلاثاء الساعة العاشرة من الليل ثامن ربيع الأول، انشقت السماء وسمع منها صريخ ودمدمة ودوي وهول عظيم، حتى إن بعض لأهل الكشف، رأى أن السقوف ارتفعت وظهرت النجوم، وعادت السقوف كما كانت. ووردت أخبار أن في بعض البلاد انطبق جبلان على بعض القرى، فذهبت القرى ولم يظهر لها أثر. وفي ليلة الجمعة الثامن عشر من ربيع الأول في محل أذان العشاء خر نجم من السماء من جهة الغرب إلى جهة الشرق، فأضاءت منه الجبال والدور ثم سقطت فسمع له صوت عظيم أعلى من صوت المدافع والصواعق. وفي الزلزلة الأولى وقعت صخرة عظيمة في نهر القنوات، فسدت النهر، وانقطع الماء عن البلد أحد عشر يوما، وبقي قطاع الأحجار يقطعون فيها أحد عشر يوما، فصارت الناس في غمين: غم الزلزلة وغم قلة الماء.

وفي ليلة الاثنين سادس من ربيع الثاني في الساعة الخامسة، صارت زلزلة عظيمة أعظم من الأولى بدرجات، وقد صارت معها رجة كهولة أسقطت غالب بقية المآذن، وأرمت قبة الجامع الأموي الكبير والرواق الشمالي جميعه مع مدرسة الكلاسة، وباب البريد، وأبراج القلعة وغالب دور دمشق، والذي سلم من الوقوع تناثر من بعضه البعض، وقتل خلق كثير خصوصاً في القرايا، ورحلت الخلائق للبساتين وللجبال والترب وإلى المرجة، ونصبوا بها وبالبراري الخيام، وناموا بعيالهم وأولادهم، ومع ذلك، فلم تبطل الزلزلة ولرجفان لا ليلاً ولا نهاراً. ثم أمر عبد الله باشا الشتجي والي الشام وفقه الله تعالى، منادياً ينادي في الناس أن يصوموا ثلاثة أيام، وأن يخرجوا في اليوم الرابع إلى جامع المصلى، فإنه مشهور بإجابة الدعاء فيه، فخرجت الناس من كل فج عميق إلى المصلى، وحرد حضرة الوزير معهم، وجميع الأعيان والمفتي والقاضي، وخرجت العلماء وأهل الطرق الصوفية، والنساء والأولاد، ولازموا الدعاء في المصلى، ثلاثة أيام بضجيج وبكاء وخشوع كيوم عرفات، بل كموقف القيامة، فرحمهم أرحم الراحمين، وعاملهم باللطف والتخفيف، فصارت الأرض تختلج اختلاجاً خفيفاً، ولم تزل الناس بالبساتين والبراري خائفة حتى نزل عليهم الثلج والمطر، وصار الجليد إلى ان خفت (الزلزلة) ورجعت الناس خائفين [٥٤].

وفي ليلة الاثنين، الخامس والعشرين من جمادى الثانية، قبيل السحر، صارت في الشام أيضاً زلزلة خفيفة، أخف من الزلازل المتقدمة، ثم شاع الخبر بين الناس، أنه سيحدث زلزلة عظيمة، ففزعت الناس فزعاً شديداً، ورجعوا إلى ما كانوا عليه من الخوف والفزع والخروج للبساتين والمقابر.

(54) سجل الزلازل العربي، أحداث الزلازل وأثرها في المصادر العربية، عبد الله غنيم، 273--275

يقول القاري: وفي شهر ربيع الأول، ليلة سبعة خلت منه، ثلث الليل الأخير، جاءت زلزلة ربانية لم ير مثلها قصفت رؤوس المآذن وهدمت بعض البيوت، وقتلت من قد دنا أجله، وبعض المساجد واستمرت في كل ليلة تهتز هزة خفيفة إلى سبعة وعشرين ليلة، ثم ليلة الاثنين رابع يوم في ربيع الثاني بعد صلاة العشاء بنصف ساعة، جاءت هزة عظيمة، ما تركت مأذنة ولا جامعاً ولا قبة ولا بيتاً ولا حماماً إلا انهدم، والذي ثبت كان عادم النفع، ولا أحد يدخل تحته، وبعض الناس سقطت عليهم دورهم. وبعض منهم خرجوا من دورهم هاربين، فسقطت عليهم من الأزقة فهلكوا. وخرج الناس إلى البساتين والفلا. وأما جامع الأموي، فإن موادنه الثلاث سقطوا، والعواميد تكسرت، والخائط الشرقي سقط إلى الأرض، والمنارة الشرقية هدمت ثلث الحرم، وخرج الناس إلى البر، وبنوا بيوتاً من دف واستقاموا. والبعض منهم أخرجوا خياماً، وأما الذي فقد من الشام فخلق لا يعد ولا يحصى من الرجال والنساء والأولاد. وأما القرى فإنه قتل منها خلق كثير، ولما وصل خبر الشام إلى الدولة العلية، بأن الشام انهدمت، وما بقي منها شيء إلا عادم النفع، جهزوا قبجي باشي، ومعمار باشي، ومعهم بناؤون لعمارة جامع الأموي وعمارة القلعة [٥٥].

جاء في الجزء السابع من التذكرة الكمالية لكمال الدين محمد بن محمد الغزي، المتوفى سنة ١٢١٤هـ: (إنه في سنة ثلاث وسبعين ومئة وألف، سادس ربيع الأول، في الساعة العاشرة من الليل، قد رجفت الأرض رجفة مقلقله برياح عواصف، ورعود قواصف، فطاشت لها العقول، وحصل والعياذ بالله غاية الذهول، وتخلعت السقوف، وتشققت الجدران، وهدمت في الشام بيوت لا تحصى، وسقطت رؤوس مآذن دمشق، فمنها المآذن الغربية والشرقية في جامع بني أمية. وقع منها في تلك الساعة حصة، ومنارة العروس في الجامع ذهب منها شيء يسير، وبقية منارات جوامع دمشق، لم يسلم منها إلا القليل، وتلتها رجفات وزلازل[٥٦].

وفي ثاني يوم من تلك الليلة ضحوة نهار، رجفت الأرض، وتزلزلت زلزلة شديدة، فسقطت من منارة الجامع الشريف الأموي الشرقية جداره الشرقي والشمالي، وسمع لها صوت هائل ... حتى أن منارة السلمية المحيوية بصالحية دمشق طارت منها حصة وافية وسقطت، والجامع المظفري بها أيضاً، ومنارة جامع سيباي، والجامع المعلق، وجامع خسان، وجامع الأمير منجك بمحلة مسجد الأقصاب ومنارات الجامع بمحلة الميدان، وبقية منارات جوامع دمشق تقصفت، ولم يسلم منها إلا النزر القليل، وقبة النسر العظمى في الجامع الشريف الأموي تشققت ووهت، وتشقق الجدار الشرقي من هذا الجامع، ووهى وخرب أكثر دور دمشق. ووقعت تلك الليلة سقوف وبيوت لا تحصى، ووقعت شراريف الجامع المزبور، وكان طول كل شرافة خمسة أذرع على حائط حول سقف الجامع، مقدار قامة من جميع جهات الجامع الأربع، بحيث أن الشخص إذا وقف على مسطح الجامع، لا يرى شيئاً من الدور التي حوله، فسقطت تلك الشراشيف، وهدمت بعض الأماكن المجاورة للجامع، كدار بني الغزي، وخلوة الخلوتية الطباخية بالخانقاه السميساطية، ورمت قبو إيوانها، وهذه الأماكن شمالي الجامع، وفعلت ببقية جهاته كذلك، وفعلت أفعالاً عنيفة في الأحجار، وانصدع في الجامع العمود الذي تجاه باب مشهد المحيا

(55) سجل الزلازل العربي، أحداث الزلازل وأثرها في المصادر العربية، عبد الله غنيم، 277.
(56) سجل الزلازل العربي، أحداث الزلازل وأثرها في المصادر العربية، عبد الله غنيم، 278.

الشريف النبوي، تجاه العضادة الكبرى، وبقيت الرجفات والاهتزازات تتوالى ليلاً ونهاراً إلى آخر شهر ربيع الأول، والناس يدعون الله تعالى في إذهاب تلك الشدة التي ما عهدوا مثلها . وقرؤوا صحيح البخاري مرتين/ والقرآن الكريم مراراً وتوسلوا في رفع ذلك بكلام الله تعالى، وكلام رسوله صلى الله عليه وسلم[٥٧].

وفي دمشق قتل ما لا يحصى من الرجال والنساء، والذي أصاب مسجد دمشق ما عهد مثله، وهذا الزمن الذي حصل فيه هذا البلاء فيا لبلاد في أقل من درجة. ووافت الناس من سائر الأقطار من الوجه الغربي والساحل، يقولون لأهل دمشق أحمدوا الله على ما حفكم به من اللطف، فإن الخارجين عنكم لم يسلم منهم إلا القليل. ثم استهل شهر ربيع الثاني بيوم الأربعاء، ففي ليلة الاثنين سادس الشهر المذكور بعد صلاة العشاء بالجامع الشريف بنحو ثلث ساعة رجفت الرجفة العظمى والزلزلة الكبرى التي لم ير ولم يعهد مثلها في سوالف العصور، فصارت الجبال تمور، والأرض تغور، والمياه تفور، وبقيت بعد سكونها تتوالى رجفات لطيفة إلى أن أصبح الصباح، واستمرت نحو درجتين، فانخلعت لها القلوب، وصار الناس يبتهلون بالدعاء، والتضرع لعلام الغيوب، وحارت العقول، وطاشت الرجال الفحول، وثار في ذلك الوقت الغبار والقتام، واشتد في ذلك الآن الظلام، وأدهش الناس في لك الخطب المهم، والرعب المدلهم، الذي انعقدت له الألسن وخرست، وغارت له العيون والشفاه يبست، وصارت الأرض تفور وتغلي مثل المرجل، وانكشف عم غالب منارات دمشق بالسقوط، وبالقصف والمأذنة الشرقية الأموية المتقدمة ذكرها وقعت إلى الأسفل ولم يحوج إلى فك، وسقطت قبة النسر في الجامع المرقوم مع عظمها، وسقط جميع الرواق الشمالي بأعمدته المحكمة وعضاداته، وكان مشتملاً على عضادات وأعمدة، بين كل عمودين عضادة مبنية بالرخام، وأنواع الحجارة المثمنة من أسفلها إلى أعلاها، وسقطت المنارة الشرقية على جهة الجامع، فهدمت مقدار ثلث المعازب الثلاث التي بقربها، وتشققت غالب الجدران واشرفت على السقوط، فسبحان الفعال لما يردي، الحي القيوم الذي لا يموت [٥٨].

ولم تبق قبة في دمشق إلا وأصابها عاهة أو سقطت، لم يسلم منها إلا النادر، وسقط جميع جامع يلبغا مع قبته الهائلة ومنارته، مع أن بناءه كان غاية في الرصانة والمتانة، وسقط من الخان البديع الذي بناه الوزير أسعد باشا والي الشام ونائبها ثلاث قباب هائلة، وتهدمت دور دمشق إلا القليل. وكثرت القتلى في تلك الليلة، وتهدمت القرى اليت حول دمشق، وهلك بسبب ذلك من الأنفس والمواشي ما لا يحصى كثرة.

وكان من جملتها قرية التل، قتل تحت الردم ما ينوف على خمسمائة ولم يسلم منها إل القليل، وقرى الجبل كالهامة والزبداني ووادي بردى، هلك فيها تحت الردم ما لا يعد، ووقع سور مدينة دمشق في نهر بانياس، وسدت الطرق بالتراب والأخشاب والصخور، وصارت السماء مع الأرض تمور، وتلف من الأموال والأنفس ما لا يحيط به حد، ولا يحصره عد، وذهب من الأثاث والأمتعة والأواني الصيني وغيرها الشيء العظيم الكثير، فسبحان من قضى بذلك

(57) سجل الزلازل العربي، أحداث الزلازل وأثرها في المصادر العربية، عبد الله غنيم،280.
(58) سجل الزلازل العربي، أحداث الزلازل وأثرها في المصادر العربية، عبد الله غنيم، 281.

ليعلم العباد أن كل شيء هالك إلا وجهه، فصار الناس لا يألفون الأوطان، ولا يستقرون بمكان، ونصبوا الخيام، وبقوا مقدار ثلاثة اشهر وهم في الخارج. ويتابع محمد دهمان في تلخيصه لرسالة كتبها مجهول تصف ما حدث: وقعت زلزلة دمشق الليلة السابعة من شهر ربيع الأول سنة ١١٧٣ هـ (تشرين الثاني ١٧٥٩م) بعد مضي عشر ساعات ونصف من الليل، وسمع لها دوي وهدير، وتتابعت حركها طوال الليل إلى الصباح، وبقي الزلزال ثلاثة أيام بلياليها . وقع رأس المنارة الشرقية المسامة بمنارة سيدنا عيسى، ورأس منارة العروس، ورأس المنارة الغربية، واختلت قبة النسر، واختل الحائط الشمالي من باب اليمانية إلى أودة مفتي الشافعية، وكثير من الجوامع والحمامات والخانات والأسواق والحارات وبعض القرى، ووقع رأس منارة السليمية وبعض القبب [٥٩].

ثم هدأت أهوال هذا الزلزال، ويقول بعد لك: أحببت أن أجمع ما خرب من الجوامع والمدارس والحمامات، إذ لم أقدر على جمع من مات، فنزلت إلى دمشق المحروسة، من جهة باب البريد، لأرى ما خرب من جامعها الفريد ...فلما قصدت باب البريد، ورأيت ما حل به من انهدام سقفه، ونوم أعمدته وعضائده، بكيت عليه، وأنشدت:

على باب البريد بكيت شوقاً وأغلق باب جامعه الفريد

فأرجو الله أن يأتيه عوناً وإسعافاً على خيل البريد

ثم يقول: مشيت على الحجارة والأنقاض لأشاهد ما حل بالجامع، فرأيت رواقه الشمالي من عند الباب الصغير، بالقرب من اليمانية قرب أودة المفتي، قد سقط سقفه وعضائده وأعمدته إلى الأرض، ومئذنة العروس، ومئذنة عيسى، والمئذنة الغربية سقطوا إلى الأرض، وقبة النسر خربت إلى الأرض، وخرب غالب الجامع سقفه وحيطانه وبلاطه، فأذهلني ما رأيت، وقلت:

فيبكي الجامع الأموي حزناً وكان لدي الجامع كالرئيس

وما أهوى التراب منارتيه فأتلفها سوى قصد العروس

وقبة نسره للأرض خرت تسلم بالخضوع على الدروس

ثم تقدمت إلى جهة باب جيرون (الشرقي) فرأيت قهوته تهدمت، وفوارته تخربت، وحمامه خال من الناس، فأخذتني العبرة وأنشدت:

أيا يا باب جيرون المفدا سقيت من اللواقح بالغوادي

ترى لي نظرة من بعد يأس أنال بها من الدنيا مرادي

وهل فوّارة للماء فيه تزيد وماؤها يسقي الصوادي

وهل حمامها المعمور باق يزيد الطهر منه كل بادي

(59) سجل الزلازل العربي، أحداث الزلازل وأثرها في المصادر العربية، عبد الله غنيم، 283-285.

ووقع البرج القبلي من القلعة، والسور إلى الخندق، والبرج من ادراج خانة إلى المناخلية، وسقط بها دور كثيرة. ودمر معظم القرى، فوقع أكثره على الأرض، وبقر القليل آيل للسقوط، وذهب من الناسٍ ما لا يحصى، وخرج الناس من المدن إلى البراري، فالبعض تحت الخيام والبعضٍ بنوا بيوتاً بالطبق والدف، والبعض صار بلا مأوى، وبعض الفلاحين حفروا في الأرض أوكاراً سكنوها [٦٠].

جاء في سلك الدرر للمرادي (ت ١٢٠٦هـ): "وحصل بدمشق سنة ثلاث وسبعين ومائة وألف، ليلة الثلاثاء، ثامن ربيع الأول قبيل الفجر زلزلة، واتصلت بالقدس وغزة وتلك النواحي وصيدا وصفد وجميع بلاد الساحل الشام وحمص وحماة وشيزر وحصن الأكراد وأنطاكية وحلب، واتصلت في كل أسبوع مرتين وثلاثا إلى ليلة الاثنين سادس ربيع الثاني من السنة المذكورة، فزلزلت بعد الفراغ من صلاة العشاء الأخير تلك المحال المذكورة بأسرها، واستقامت بدمشق ثلاث درج وخرب غالب دمشق وأنطاكيا وصيدا وقلعة البريج وحسية، وانهدم الرواق الشمالي من مسجد بني أمية بدمشق، وقبته العظمى والمنارة الشرقية، وانهدم سوق البريد، وغالب دور دمشق، ومساجدها، ولم تزل الزلازل متصلة إلى انتهاء السنة المذكورة، وأعقب ذلك بدمشق قبل انتهاء السنة الطاعون الشديد، وعم قراها وما والاها، وحصل لغالب مساجدها التعمير من وصايا الأموات"[٦١] .

ومن رسالة وجهها المطران باسيليوس جلقاق، أسقف صيدا، إلى القس إثناسيوي دباس وكيل الرهبنة المخلصية في روما : "نخبركم أنه في اليوم ١٩ من شهر تشرين الأول قبل الشمس بشاعتين ونصف، حدثت زلزلة عظيمة استقامت دقيقتين وهدمت بيوتاً كثيرة وقتل منها خلق كثير في بلادنا وبلاد بشراة وصفد المدينة. وأخذت تتبعها زلازل صغيرة حتى تقطعت قلوب الناس من الخوف وهرب الناس من المدن والقرى، ونصبوا لهم أكواخاً خارج القرى، وبعدها في اليوم ١٤تشرين الثاني بعد ثلاث ساعات من غياب الشمس، حدثت زلزلة أخرى كبرى، استقامت أربع دقائق، وكملت على هدم العمارات، وما كنت تسمع إلا صراخ وولولة وغبار خارج من الأرض لأجل نشوفتها، وهدمت كنايساً وجوامعاً وسرايات وبيوت، وما بقي إلا ما قل"[٦٢] .

وتأثرت المدينة بزلزال عام ١٨٣٧م، الذي دمر نحو ٢٠٠٠ منزل، وأربعة مآذن، قتل وجرح عشرة من الأهالي، تلاه ثلاث صدمات خفيفة هزت المدينة عام ١٨٥٩م، ثم زلزال تضررت جراء زلزال ١٨٧٢م، وأخرها حدث على شكل هزة طفيفة عام ١٨٩٦م [٦٣] .

ثامناً- الدراسات الحديثة:

إن حدوث زلازل كبيرة، من فئة + ٦,٥ ريختر، في منطقة لبنان وسورية، أمر نادر الحدوث، فخلال الفترة بين ١١٠٠ – ١٩٨٨م، وقعت عشرة أحداث مهمة، على ثلاثة فترات قصيرة، مع تكرارية راوحت بين ٢٠٠-٣٥٠ سنة [٦٤].

(60) سجل الزلازل العربي، أحداث الزلازل وأثرها في المصادر العربية، عبد الله غنيم، 285-290
(61) سلك الدرر في أعيان القرن الثاني عشر، محمد خليل بن علي المرادي، ج3، ص82.
(62) سجل الزلازل العربي، أحداث الزلازل وأثرها في المصادر العربية، عبد الله غنيم، 291.
(63) The historical earthquakes of Syria, an analysis of large and moderate earthquakes from 1365 B.C. to 1900 A.D, Sbeinati& Darawcheh & Mouty.399-401.
(64) The 1759 Earthquake in the Bekaa Valley: Implications for earthquake hazard assessment in the Eastern

وأكدت عمليات دمج البيانات الزلزالية التاريخية، والبيانات البنيوية الجيولوجية لسورية، والخريطة التكتونية الجوفية، بهدف إعادة تقييم الخطر الزلزالي، ورسم خرائط المخاطر الزلزالية لفترات عودة (٥٠، ١٠٠، ٢٠٠، ١٠٠٠) الأشكال (١٤) (١٥) (١٦) (١٧). أن تكرارية الزلازل في سورية، تزداد كلما اتجهنا نحو الغرب والشمال الغربي، وتظهر الخرائط أن دمشق تقع في النطاقات الآمنة نسبياً مقارنة بشمال غرب البلاد وغربها. ويمتد الخطر الزلزالي للفترة كل ١٠٠٠ سنة، على مدن غربي سورية، من حلب إلى درعا. إدلب، حلب، إنطاكية، اللاذقية، طرطوس، درعا. بالإضافة إلى بعض أجزاء حماة، مدن حمص ودمشق والسويداء [٦٥].

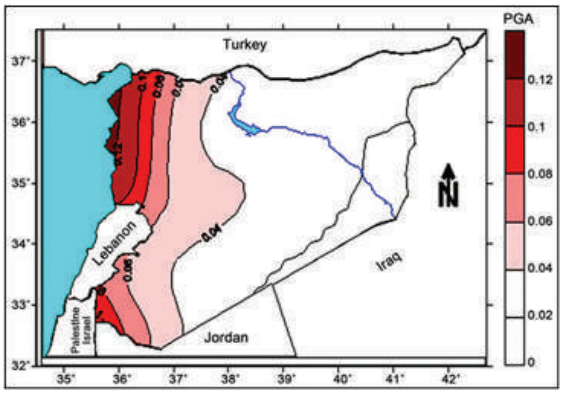

الشكل رقم (١٤) تكرارية الزلازل كل ٥٠ عام.

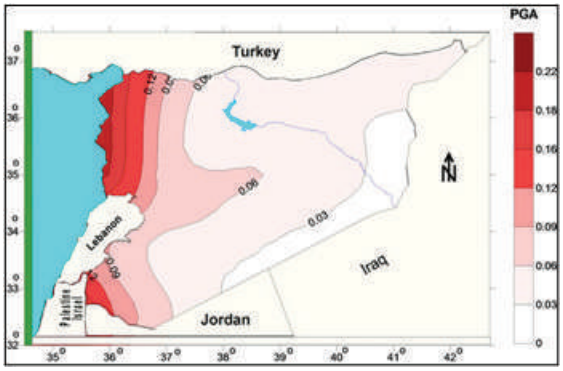

الشكل رقم (١٥) تكرارية الزلازل كل ١٠٠ عام.

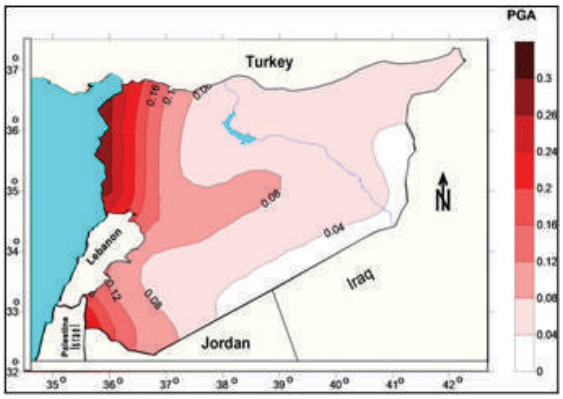

الشكل رقم (١٦) تكرارية الزلازل كل ٢٢٤ عام.

.Mediterranean Region. Ambraseys & Barazangi
.855-Re-Evaluations of Seismic Hazard of Syria. El Ssayed & Others. 852 (65)

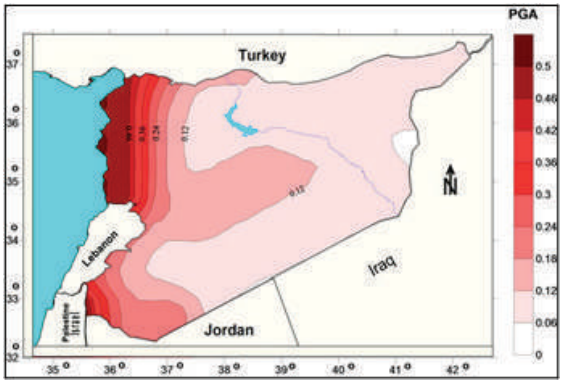

الشكل رقم (١٧) تكرارية الزلازل كل ١٠٠٠ عام.

يتباطأ معدل الانزلاق على طول نظام فالق البحر الميت من متوسط معدل ٦-٧ ملم / سنة خلال آخر ٥ ملايين، إلى ٤-٥,٥ ملم / سنة في العصر الجليدي، وقدرت فترات عودة الزلازل الكبيرة (M≥٥) في سوريا بحوالي ٢٠٠-٣٥٠ سنة. موضحاً وجود ثلاث أربع نطاقات تكتونية رئيسة في سورية، هي: (حزام الطي التدمري (PFB)، وصدوع عبد العزيز، ونظام صدع الفرات (EFS) وصدع البحر الميت DSFS). وما بينها فهي مناطق اقل نشاطاً، أو أضعف. وقد سجلت الشبكة الوطنية السورية لرصد الزلازل SNSN، والبالغ إجمالي عددها ٢٧ محطة فقط، بيانات مفيدة محلية لأول مرة خلال الفترة بين ١٩٩٥-٢٠١٢، حوالي ٥٠٠٠ حدثاً محلياً. وهي من الهزات الضعيفة. فقد بلغ متوسط حجمها (٢) درجة، ولم تتجاوز الـ(٥) درجات [٦٦]. كما يوضح الشكلان (١٨) (١٩).

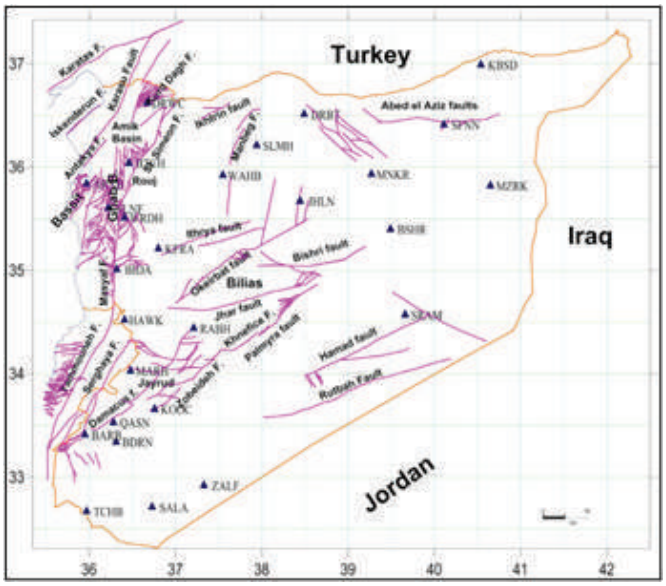

الشكل رقم (٨١) الخارطة الجيو- تكتونية لسورية، تظهر توزع محطات الرصد والصدوع الرئيسة فيها.

(66) The recent instrumental seismicity of Syria and its implications. Abdul-Wahed & Asfahani.

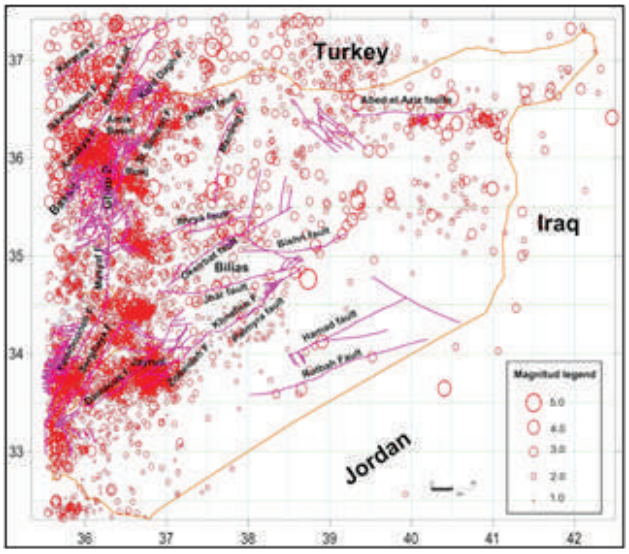

الشكل رقم (١٩) نشاط الزلزال في سوريا والبلدان المجاورة التي سجلتها الشبكة الوطنية السورية لرصد الزلازل من ١٩٩٥ إلى ٢٠١٢.

تُظهر الدراسة مجموعة من الزلازل التي ضربت سورية خلال فترة الرصد ومنها سرب[٦٧]* زلازل صدع سرغايا Serghaya fault، في ٢٢/ نوفمبر ت٢/ ١٩٩٥م غربي دمشق. وهو المتهم السابق بزلزال ١٧٥٩م المروع.

تاسعاً- صدع سرغايا SF:

يتفرّع صدع سرغايا والذي يتجه بمحور (شمال شرقي- جنوب غربي) NE-SW ، ويمتد لحوالي ١٢٥ كم عبر جبال لبنان الشرقية إلى الحافة الشرقية لسهل البقاع، من الصدع الرئيس لمنظومة صدوع البحر الميت DSFS. على طول الحدود السورية اللبنانية تقريبا. كشفت التحقيقات الميدانية المجمعة في الجيومورفولوجيا وعلم الحفريات القديمة عن صدوع صغيرة، ومسارات ضعف، وتلال ضغط، وتيارات الإزاحة على طول هذا الصدع، ما يفسر حدوث التمزقات الأخيرة. الشكل رقم (٢٠). وأظهرت نتائج حفر الخنادق، أن لهذا الصدع آثار مهمة من حيث التكتونية الإقليمية وخطر الزلازل. وكان يعتبر صدع سرغايا بشكل عام، حتى عام ١٩٩٥م، غير نشط منذ العصر البليوسيني، الذي امتد بين (٣, ٥-٦, ٢) مليون سنة. وقد أنشأ أصفهاني وعبد الواحد (٢٠١٢) فهرساً لزلازل صدع سرغايا للفترة الممتدة من ١٩٩٥ حتى ٢٠٠٩ م، من أجل توصيف وتقييم مخاطرها الزلزالية وسلوكها. وجدوا أن النشاط الزلزالي لهذا الصدع ينتج عدداً قليلاً من الأحداث ذات الحجم المنخفض- على الأقل خلال فترة الدراسة- إلا أن محطات الرصد، بينت أن سرباً من الهزات انطلق فوراً في أعقاب زلزال العقبة عام ١٩٩٥ على مسافة حوالي ٥٠٠ كم. وقع ما مجموعه ٢١ حادثة على شكل أسراب خلال الساعات الثلاث والنصف الأولى التي أعقبت الزلزال الرئيس في العقبة، بلغت شدة أقواها (٣.٧) ريختر. جدير بالذكر أن سرب سرغايا هو أول سرب فعال سجلته شبكة SNSN. بعيد تركيبها. إلا أنه سجله الخاص بالزلازل الكبيرة، يبين أن تواترها عليه منخفض. فقد أظهرت الأبحاث الجيولوجية أنه ينتج زلازل بقوة أكبر من ٧ مرة كل ٢٠٠٠ عام [٦٨].

67 * النشاط الزلزالي من نوع السرب Swarm-type seismic activity ويتم تعريفها على أنها سلسلة طويلة من الزلازل ذات الحجم الصغير إلى المتوسط دون حدوث حدث رئيسي واضح.

(68) Notes on earthquake hazard in Lebanon. Elias .A.R. 3.

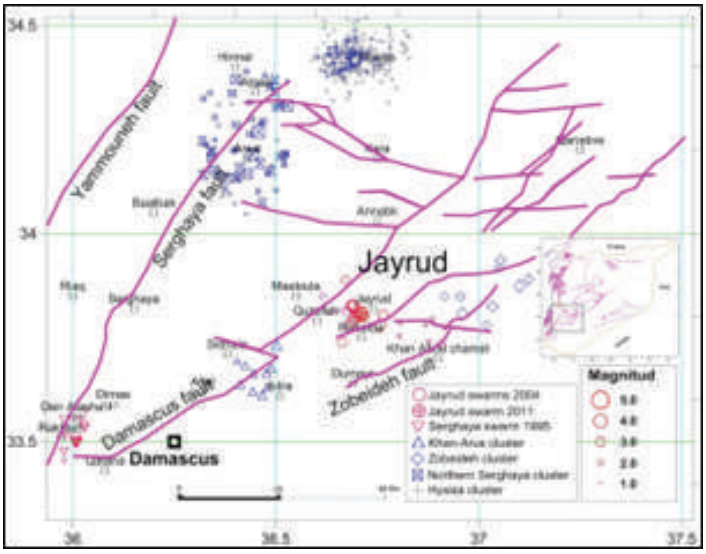

الشكل (٢٠) خريطة مفصلة لمراكز الزلازل لبعض الأنشطة الزلزالية الهامة التي لوحظت في منطقة دمشق. ومنها صدع سرغايا.

وُثقت التغيرات القديمة والجيومورفية لحركات الهولوسين على صدع سرغايا بناءً على حفريات الخنادق والتواريخ بالكربون المشع، وقد كشف علم الحفريات القديمة عن أدلة حدوث خمسة حالات تمزق سطحية، خلال ما يزيد على ٦٥٠٠ سنة الماضية، نتج عن الحدث الأخير إزاحة جانبية يسارية بمقدار (٢-٥, ٢) م، وهو ما قد يتوافق مع واحد من اثنين من الزلازل الموثقة تاريخياً خلال القرن الثامن عشر ١٧٠٥م و١٧٥٩م، كما أوضحت العلاقات الكرونولوجية بين الدلائل الصخرية والتكتونية أن متوسط الإزاحة الجانبية اليسارية تبلغ حوالي ٢ متر لكل حدث، ما يشير إلى أن مثل هذه الأحداث تتوافق مع زلازل، بقوة ٧ ريختر، بمتوسط وقت عودة يبلغ حوالي ١٣٠٠ سنة، مخالفة بذلك دراسة Elias ٢٠١٥ السابقة، كما حددت معدل إزاحة الصدع بنحو ١,٤ مم/ سنة، توضح هذه النتائج أن صدع سرغايا قد يمثل خطر زلزال تم إغفاله سابقا للسكان في المناطق المجاورة لجبال لبنان الشرقية، بما في ذلك مدينتيّ دمشق وبيروت [٦٩].

تم تحليل نتائج معالجة بيانات الزلازل، المسجلة بشكل أساسي من قبل الشبكة الوطنية السورية لرصد الزلازل the Syrian National Seismological Network (SNSN)، وإنشاء فهرس خاص بالزلازل لصدع دمشق، يغطي الفترة ١٩٩٥-٢٠١٢. الشكلان رقم (٢١) (٢٢). وقد لوحظ أن النشاط الزلزالي لهذا الصدع يتميز بأحداث منخفضة الحجم. لذلك تم استنتاج أن صدع دمشق هو في الواقع في حالة هدوء، على عكس صدوع أخرى في نظام صدوع البحر الميت، مثل صدعي اليمونة Yammoneh في لبنان، والعقبة في الأردن. ويشير هذا السكون الزلزالي على طول صدع دمشق، إلى أن زلزالاً كبيراً قد فات موعده[٧٠]. ويتكرر نشاط صدع اليمونة، وسيطاً بمعدل (١١٢٧+١٣٥) سنة. لذلك تكون الخطورة عنده أكبر، فهو يتحرك بمعدل (١,٥ + ١,٣ مم / سنة)، مقارنة بصدع سرغايا (٠,٤ + ٠,٢ مم / سنة [٧١].

(69) Holocene faulting and earthquake recurrence along the Serghaya branch of the Dead Sea fault system in Syria and Lebanon . Gomez & Others.658-663.

(70) Recent Instrumental Earthquake Activity Along the Damascus Fault (Syria).Abdul-Wahed.

(71) 12,000-Year-Long Record of 10 to 13 Paleoearthquakes on the Yammouˆneh Fault, Levant Fault System.

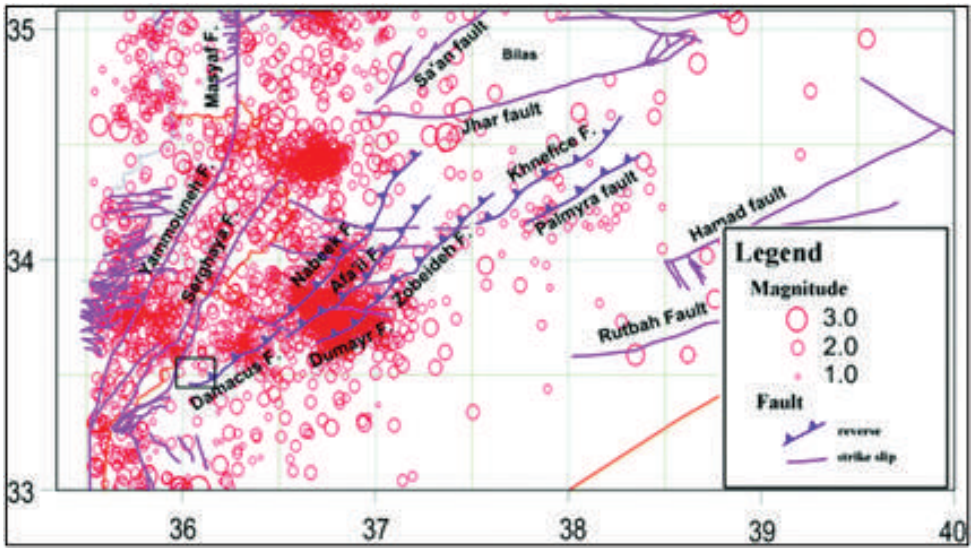

الشكل رقم (٢١) توزع الزلازل في منطقة دمشق.

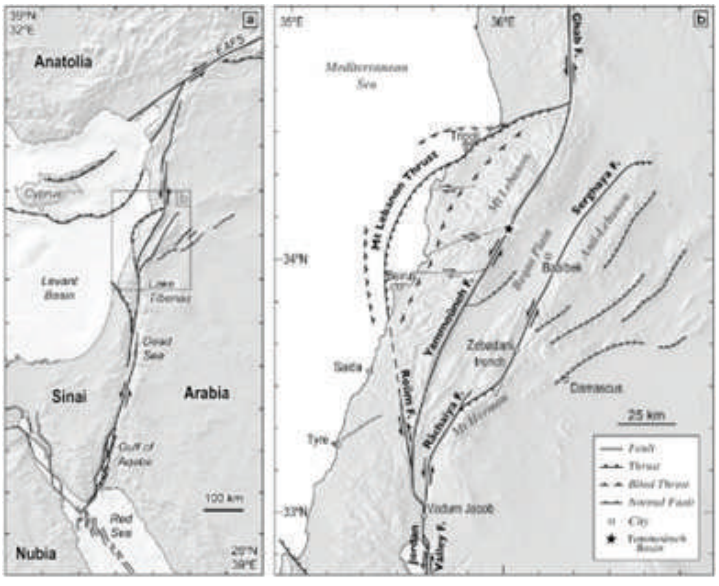

الشكل رقم (٢٢) ابتعاد مدينة دمشق، عن الصدعين الأقرب، اليمونة وسرغايا.

عاشراً- التوقعات المستقبلية

على الرغم من اجماع علماء الجيولوجيا على استحالة تحديد توقيت زمني دقيق لحدوث أي زلزال، إلا أن توقع حدوثه أمر لا خلاف عليه، وذلك من خلال الاستدلال بالتاريخ الزلزالي للمنطقة، والسلوك التكتوني لصدوعها. وعليه فإن الهدوء الزلزالي لمنظومة صدوع البحر الميت، خلال الـ ٨٣٠ عاماً الماضية، قد يمثل مستوى مرتفعاً من المخاطر الزلزالية في سوريا ولبنان. فيبدو أن السلوك الزلزالي في شمال فرب سورية، ينطوي على فترات طويلة من السكون الزلزالي، التي تخللتها زلازل كبيرة [٧٢].

.769-Dae¨ron & Others. 749
(72) Evidence for 830 years of seismic quiescence from palaeoseismology, archaeoseismology, and historical seismicity along the Dead Sea Fault in Syria, Earth Planet. Meghraoui & Others.11.

وعلى الرغم من عدم قبول هيئة المسح الجيولوجية الامريكية لنتائج أبحاث العالم الهولندي فرانك هوغربيتس، وفق تصريحات سوزان هوغ Susan Hough، عالمة الزلازل في برنامج مخاطر الزلازل في هيئة المسح الجيولوجي الأمريكية seismologist in the Earth- USGS- quake Hazards Program، فقد أخطأ ذات العالم في تقديره السابق لزلزال كاليفورنيا، حيث أدعى أنه سيحدث في ٨/ أيار مايو/ ٢٠١٥م، وحذر الناس من قوته التي ستبلغ ٨,٨ ريختر. وطبعاً لم يحدث الزلزال، كما فشلت توقعاته لاحقاً، بأن أول أسبوع من شهر آذار/ مارس ٢٠٢٣م، سيكون محرجاً، وأنه سيشهد حدوث زلزال كبير مدمر، لكنه كان أسبوعاً هادئاً ولم يشهد أي هزة محسوسة، وقل ذات الشيء عن توقعات العالم الفلكي العراقي، صالح محمد طه، الذي توقع حدوث زلزال في المنطقة يوم ٨/ آذار يكون أقل قوة من زلزال ٦/ شباط. وأكدت الوكالة بالقول: "لا نعرف كيف يحدث زلزال كبير، ولا نتوقع أن نعرف كيف، وفي أي وقت في المستقبل المنظور". كما تحفظ كثير من علماء الزلازل على تنبؤاته.

وفي ضوء نتائج الأبحاث التي سيقت سابقاً، فإن العلماء ينقسمون إلى فريقين:

الأول: يؤكد توقع حدوث زلزال عنيف في وسط سورية ولبنان وفلسطين، على اعتبار ان تردد الزلازل يكون بفاصل زمني ٢٠٠-٣٥٠ سنة، وأن آخر زلزال مدمر كان عام ١٧٥٩م.

الثاني: متفاءل بعدم حدوث زلزال مدمر يهدد دمشق، على اعتبار أن صدعي اليمونة وسرغايا، يمران بحالة هدوء الفية (مقياس ١٠٠٠ سنة) بعد زلزال ١٢٠٢م و١٧٥٩ .

_ الخاتمة:

من خلال ما سبق، نخلص إلى أن الزلازل في دمشق، وافد طارئ، وحدث غير معهود في تاريخها، مقارنة بمدن سورية أخرى، كحلب وانطاكيا واللاذقية، وذلك لجملة عوامل نوجزها بالآتي:

١- وقوعها على مسافة بعيدة نسبياً من حزمة صدوع البحر الميت.
٢- يفصلها جبل قاسيون ونهايات جبال القلمون عن صدع سرغايا الأكثر نشاطاً بين الصدوع القريبة منها، وهو صدع هادئ عموماً، فلا يكاد ينتج زلازل خطيرة إلا كل (١٣٠٠) أو (٢٠٠٠) عام.
٣- لم تشر أي من الدراسات الزلزاليّة الحديثة إلى أن صدع دمشق، الذي يمر في الثلث الأدنى من سفح جبل قاسيون الجنوبي الشرقي، إلى أنه صدع نشط، بل هو مستقر عموماً.
٤- ساعد وقوع دمشق في معظمها على أرض ذات تكوينات لحقية (نهرية) بامتصاص العديد من الهزات المتوسطة من فئة ٥ درجات.

إلا أنه وبالمقابل، فإنها ليست بمنأى – بالمطلق- عن حدوث زلازل من رتبة ٧ ريختر فما فوق، بل إن حدوث زلازل أقل من رتبة ٦,٥ ريختر، قد يلحق الضرر في أحياء دون أخرى، تلك الأحياء التي تضررت من الحرب لاحقاً، أو التاريخية القديمة، أو العشوائية التي لم تراعي أدنى شروط السلامة من الزلازل.

السجل التاريخي لزلازل دمشق

العام	الوصف	المرجع/ الصفحة
١٣٠	زلزال بعلبك شعرت به دمشق	Sbeinati & Darawcheh & Mouty
٢٣٣	صدمة في المدينة	Sbeinati & Darawcheh & Mouty
٦٨٩	مركزها طبريا تأثرت بها دمشق	عبد الله غنيم ٢٠٠٢/ ٦٨
٧١٣	زلازل انطاكيا.. بلغت دمشق	عبد الله غنيم ٢٠٠٢/٦٨
٧١٧	زلزلة عظيمة	عبد الله غنيم ٢٠٠٢/٧٠
٧٤٢		عبد الله غنيم ٢٠٠٢/ ٢٧٩
٧٤٧	سقوط سوق الدجاج، ودمر ربع الجامع الأموي، وتضررت المئذنة والجسور، وانهيار الجدران	Sbeinati & Darawcheh & Mouty
٧٤٨	رجفة عظيمة انشق منها سقف المسجد الجامع	عبد الله غنيم ٢٠٠٢/٧٣
٧٤٩	زلزلة بالشام كافة قدرت قوته ٧-٧,٥	عبد الله غنيم ٢٠٠٢/ ٧٣ Gomez & Others 2003
٧٨٠	زلزال عام في سورية وفلسطين	عبد الله غنيم ٢٠٠٢
٨٤٦	من انطاكيا إلى دمشق دمرت منازل ومات تحتها جماعة	خالد الخالدي ٢٠٠٥ ٢ عبد الله غنيم ٢٠٠٢/ ٧٤ Sbeinati & Darawcheh & Mouty
٨٤٧	انتفضت المدينة، سقوط منازل وتضرر الأموي والأسواق، وهلك معظم أهلها زلزلة مهولة بالشام	خالد الخالدي ٢٠٠٥ ..... عبد الله غنيم ٢٠٠٢/ ٧٩ Sbeinati & Darawcheh & Mouty
٨٥٦		عبد الله غنيم ٢٠٠٢/ ٢٧٩
٨٥٨	زلزلة عظمة في بلاد الشام	عبد الله غنيم ٢٠٠٢
٨٥٩	من انطاكيا إلى دمشق واضرار	Sbeinati & Darawcheh & Mouty عبد الله غنيم ٢٠٠٢/١٥٦
٨٦٠	زلازل عظيمة عامة	خالد الخالدي ٢٠٠٥
٨٨٠		عبد الله غنيم ٢٠٠٢/ ٢٧٩
٨٨٥		عبد الله غنيم ٢٠٠٢/ ٢٧٩
٩٤٢	زلازل عظيمة	خالد الخالدي ٢٠٠٥
٩٥٥		عبد الله غنيم ٢٠٠٢/ ٢٧٩
٩٦٣	زلازل شمال سورية حتى دمشق	؟؟؟؟؟؟؟؟؟؟
٩٧٢	زلزال في انطاكيا شعروا به في دمشق	Sbeinati & Darawcheh & Mouty
٩٩١	دمر ١٠٠٠ منزل، ومات العديد من الناس، استمرت الهزات الارتدادية ٦ أسابيع. حددت قوته بين ٧-٧,٥	عبد الله غنيم ٢٠٠٢/ ١٠٦ Gomez & Others 2003

١٠٠٢	زلازل بالشام ودمار	عبد الله غنيم ٢٠٠٢/ ١٠٧
١٠٢٩	زلزال عنيف، قتل العديد من الناس زلزال شديد دمر نصف دمشق وهلك خلق كثير	Sbeinati & Darawcheh & Mouty عبد الله غنيم ٢٠٠٢/ ١٠٩
١٠٣٣		عبد الله غنيم ٢٠٠٢/ ٢٧٩
١٠٦٣		عبد الله غنيم ٢٠٠٢/ ٢٧٩
١٠٨٦		عبد الله غنيم ٢٠٠٢/ ٢٧٩
١٠٩١	زلازل عامة بالشام	عبد الله غنيم ٢٠٠٢/ ٢٧٩
١٠٩٤	تدمير في دمشق ومقتل عالم كثر	Sbeinati & Darawcheh & Mouty
١١١١	هزة خفيفة	
١١١٤		عبد الله غنيم ٢٠٠٢/ ٢٧٩
١١٢١		عبد الله غنيم ٢٠٠٢/ ٢٧٩
١١٢٧		عبد الله غنيم ٢٠٠٢/ ٢٧٩
١١٣٨	زلازل هائلة لعدة أيام كانت هائلة، خلفت خسفاً كبيراً، يغطيها ماء اسود، وقتلت ٢٣٠,٠٠٠ قتيل، والأرجح أنهم ١٠٠,٠٠٠	محمد حمزة صلاح ٢٠٠٩/٥٧ سلطان سلطان ٢٠٠٦ Sbeinati & Darawcheh & Mouty عبد الله غنيم ٢٠٠٢/١٥٦
١١٣٩	زلزال شعر به الأهالي	محمد حمزة صلاح ٢٠٠٩/ ٥٧
١١٤٠		عبد الله غنيم ٢٠٠٢/ ٢٧٩
١١٤٩	زلزلة قليلة الخسائر	سلطان سلطان ٢٠٠٦/٤
١١٥١	أكثر تدميراً من سابقه أكثر من ٦٣ هزة من شعبان حتى جمادى الأولى	سلطان سلطان ٢٠٠٦/٤ ؟؟؟؟؟؟؟؟
١١٥٦	زلازل بدون أضرار نحو ١٦ زلزال خلال تشرين ١-٢ عنيف: من شعبان إلى رمضان، قتل ودمر القليل	خالد الخالدي ٢٠٠٥ محمد حمزة صلاح ٢٠٠٩/٥٨ سلطان سلطان ٢٠٠٦/٤ Sbeinati & Darawcheh & Mouty عبد الله غنيم ٢٠٠٢/
١١٥٧	زلازل دمرت منازل وتضرر المسجد الكبير زلزلة هائلة عظيمة، فزع وخوف دمر كثيراً من بلاد الشام عموماً	خالد الخالدي ٢٠٠٥ محمد حمزة صلاح ٢٠٠٩/٥٨ سلطان سلطان ٢٠٠٦/٤ Sbeinati & Darawcheh & Mouty عبد الله غنيم ٢٠٠٢/١٤٣

١١٥٨	زلازل روعت السكان زلازل بلا أضرار	محمد حمزة صلاح ٢٠٠٩/٥٨ سلطان سلطان ٢٠٠٦/٤ عيد الله غنيم ٢٠٠٢/ ١٤٨ Sbeinati & Darawcheh & Mouty
١١٥٩	روعت ولم تقتل مروع	خالد الخالدي ٢٠٠٥ محمد حمزة صلاح ٢٠٠٩/٦٥
١١٧٠	دمار بعض الدور هزات متوالة ودمار بدمشق، حتى أعمرها نور الدين. وقع معظم دمشق، وتضرر الجامع الكبير	خالد الخالدي ٢٠٠٥ Sbeinati & Darawcheh & Mouty عبد الله غنيم ٢٠٠٢/١٥٦
١٢٠٠	دمر كثيراً من البيوت	سلطان سلطان ٢٠٠٦/١٤
١٢٠١	تشققت قبة النسر وجدران الأموي ودمرت منازل كثيرة خربت كثيراً من الدور	خالد الخالدي ٢٠٠٥ عبد الله غنيم ٢٠٠٢/ ١٦١
١٢٠٢	انهيار عدة منازل حول القلعة، وسقوط المئذنة الشرقية، وانقسمت القبة الرئيسة، وانهارت بوابة جيرون، ودمر مسجد الكلاسة، استمرت الهزات ٤ أيام. حددت قوته بأكبر من ٧,٥	Sbeinati & Darawcheh & Mouty Gomez & Others 2003
١٢٠٣		عبد الله غنيم ٢٠٠٢/ ٢٧٩
١٢٠٤		عبد الله غنيم ٢٠٠٢/ ٢٧٩
١٢٦٠	افزعت الأهالي زلازل ومطر شديد	محمد حمزة صلاح ٢٠٠٩/٧٢ عبد الله غنيم ٢٠٠٢/١٨٠
١٢٦١	من مصر إلى الشام	خالد الخالدي ٢٠٠٥ محمد حمزة صلاح ٢٠٠٩/٧٢
١٢٨٤	زلزلة هائلة دمرت البيوت وانطمت الأنهار زلزلة هائلة ليلاً.. خربت البيوت وانطمت الأنهار	محمد حمزة صلاح ٢٠٠٩/٧٣ عبد الله غنيم ٢٠٠٢/ ١٨٣
١٢٩٤		عبد الله غنيم ٢٠٠٢/ ٢٧٩
١٣٠٣		Sbeinati & Darawcheh & Mouty
١٣٢٢	زلزلة بدو أضرار ---- زلزال عظيم بالشام	خالد الخالدي ٢٠٠٥ محمد حمزة صلاح ٢٠٠٩/٧٤ Sbeinati & Darawcheh & Mouty عبد الله غنيم ٢٠٠٢/١٥٦
١٣٢٧	ضعيفة، هزت المدينة من شمالها إلى جنوبها، ثم هدأت	محمد حمزة صلاح ٢٠٠٩/٧٧
١٣٤٠		عبد الله غنيم ٢٠٠٢/ ٢٧٩

١٣٤٤	رجفات بسيطة	خالد الخالدي ٢٠٠٥ Sbeinati & Darawcheh & Mouty عبد الله غنيم ١٥٦/٢٠٠٢
١٣٩٩	زلزلة لطيفة في دمشق	Sbeinati & Darawcheh & Mouty عبد الله غنيم ١٥٦/٢٠٠٢
١٤٠٣		عبد الله غنيم ٢٧٩ /٢٠٠٢
١٤٢٤		عبد الله غنيم ٢٧٩ /٢٠٠٢
١٤٠٨	هزت من دمشق إلى قبرص ودمر منازل ومدارس	محمد حمزة صلاح ٨٠/٢٠٠٩
١٤٣٤	هزة شعر بها الأهالي شعر بها الناس	محمد حمزة صلاح ٨١/٢٠٠٩ عبد الله غنيم ٢٠٠٢
١٤٥٨	عنيف، تشقق جدران وسقوط شرافة جامع دمشق	محمد حمزة صلاح ٨٢/٢٠٠٩
١٤٨١		عبد الله غنيم ٢٧٩ /٢٠٠٢
١٤٩١	أضرار متعددة في أماكن متفرقة هزتان متباعدتان	Sbeinati & Darawcheh & Mouty
١٤٩٦		عبد الله غنيم ٢٧٩ /٢٠٠٢
١٥٠٤		عبد الله غنيم ٢٧٩ /٢٠٠٢
١٥١٠		عبد الله غنيم ٢٧٩ /٢٠٠٢
١٥٣٧	صدمة خفيفة مع صوت من الأرض	Sbeinati & Darawcheh & Mouty
١٥٤٦	زلزال قوي	Sbeinati & Darawcheh & Mouty
١٥٦٣	هزة قوية مع صوت من تحت الأرض	Sbeinati & Darawcheh & Mouty
١٥٦٥	صدمة مع صوت من تحت الأرض	Sbeinati & Darawcheh & Mouty
١٥٦٩	دمر كثيراً من المباني، وأسقف المنابر، وشرافات الجامع الكبير	سلطان سلطان ١١/٢٠٠٦
١٥٧٣		Sbeinati & Darawcheh & Mouty
١٦٠٤	زلزلة قوية	Sbeinati & Darawcheh & Mouty عبد الله غنيم ١٥٦/٢٠٠٢
١٦١٨	هزة خفيفة	Sbeinati & Darawcheh & Mouty عبد الله غنيم ١٥٦/٢٠٠٢
١٦٢٦	زلزلة لطيفة	Sbeinati & Darawcheh & Mouty عبد الله غنيم ١٥٦/٢٠٠٢
١٦٢٧	اضرار طفيفة	Sbeinati & Darawcheh & Mouty عبد الله غنيم ١٥٦/٢٠٠٢
١٦٣٨	زلزلة عظيمة وقت السحر	عبد الله غنيم ٢٠٠٢
١٦٤٠	دمار وسقوط بعض المباني	Sbeinati & Darawcheh & Mouty
١٠٩٥		عبد الله غنيم ٢٧٩ /٢٠٠٢
١٠٩٩		عبد الله غنيم ٢٧٩ /٢٠٠٢

١٧٠٥	--- ٣ هزات خفيفة حددت قوته بنحو ٧ ريختر	محمد حمزة صلاح ٤٣/٢٠٠٩ Sbeinati & Darawcheh & Mouty عبد الله غنيم ١٥٦/٢٠٠٢ Gomez & Others 2003
١٧١٢	هزة بسيطة	Sbeinati & Darawcheh & Mouty عبد الله غنيم ١٥٦/٢٠٠٢
١٧٣٥	..... زلزلة عظيمة في دمشق	محمد حمزة صلاح ٤٣/٢٠٠٩ عبد الله غنيم ٢٠٠٢/ ٢٦٥
١٧٤٦	زلزال بسيط	عبد الله غنيم ٢٦٥/٢٠٠٢
١٧٥٣		عبد الله غنيم ٢٠٠٢/ ٢٧٩
١٧٥٦		عبد الله غنيم ٢٠٠٢/ ٢٧٩
١٧٥٩	انهيار منازل، ومآذن وأضرار عامة حددت قوته بنحو ٧,٤ ريختر، مركزه بعلبك	Sbeinati & Darawcheh & Mouty عبد الله غنيم ١٥٦/٢٠٠٢ Gomez & Others 2003
١٧٦٠		عبد الله غنيم ٢٠٠٢/ ٢٧٩
١٨١٩		عبد الله غنيم ٢٠٠٢/ ٢٧٩
١٨٢٢	زلزال حلب الكبير، شعرت به دمشق	Sbeinati & Darawcheh & Mouty
١٨٣٧	حددت قوته بين ٧-٧,٥، مركزه غربي لبنان	Sbeinati & Darawcheh & Mouty Gomez & Others 2003
١٨٤١	تضرر الأموي	خالد الخالدي ٢٠٠٥
١٨٥٩	٣ هزات	Sbeinati & Darawcheh & Mouty
١٨٧٢	زلازل بلاد الشام والرافدين (عام)	Sbeinati & Darawcheh & Mouty
١٨٩٦	زلزال طفيف	Sbeinati & Darawcheh & Mouty

من إعداد كاتب المقال بالعودة إلى عدة مراجع

مصادر البحث ومراجعه

_ المصادر:

_ البداية والنهاية، أبو الفداء إسماعيل بن عمر بن كثير، تحقيق: علي شيري، دار إحياء التراث العربي، ط١، ١٩٨٨م.

_ تاريخ الإسلام ووفيات المشاهير والأعلام، الذهبي محمد بن أحمد، تحقيق: عمر عبد السلام التدمري، دار الكتاب العربي، بيروت، ط٢، ١٩٩٣م.

_ تاريخ الأنطاكي المعروف بصلة تاريخ أوتيخاء: يحيى بن سعيد بن يحيى الأنطاكي، تحقيق: عمر عبد السلام تدمري، جروس برس، طرابلس، لبنان، ١٩٩٠.

_ تاريخ الطبري، وصلة تاريخ الطبري: محمد بن جرير الطبري، دار التراث، بيروت، ط٢، ١٣٨٧هـ.

_ الروضتين في أخبار الدولتين النورية والصلاحية: أبو القاسم شهاب الدين عبد الرحمن بن إسماعيل بن إبراهيم المقدسي الدمشقي المعروف بأبي شامة، تحقيق: إبراهيم الزيبق، مؤسسة الرسالة، بيروت، ط١، ١٩٩٧م.

_ سلك الدرر في أعيان القرن الثاني عشر، محمد خليل بن علي المرادي، دار البشائر الإسلامية، دار ابن حزم، ط٣، ١٩٨٨م.

_ شذرات الذهب في أخبار من ذهب، عبد الحي بن أحمد بن محمد، ابن العماد الحنبلي، تحقيق: محمود الأرناؤوط، دار ابن كثير، دمشق، بيروت، ط١، ١٩٨٦م.

_ العبر في خبر من غبر، الذهبي محمد بن أحمد، تحقيق: أبو هاجر محمد السعيد بن بسيوني زغلول، دار الكتب العلمية، بيروت.

_ الكامل في التاريخ، علي بن أبي الكرم محمد بن محمد، ابن الأثير، تحقيق: عمر عبد السلام تدمري، دار الكتاب العربي، بيروت – لبنان، ط١، ١٩٩٧م.

_ النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة، يوسف بن تغري بردي بن عبد الله الظاهري، وزارة الثقافة والإرشاد القومي، دار الكتب، مصر.

_ المراجع العربية:

_ الجيولوجيا الفيزيائية، سميرة الحصري، منشورات جامعة دمشق، ص١، دمشق، ١٩٩٨.

_ الخصائص الطبيعية لواحة دمشق، عادل عبد السلام، وآخرون، جمعية أصدقاء دمشق، ط١، دمشق. ٢٠٠٨.

_ الزلازل في بلاد الشام (من القرن الأول إلى القرن الثالث عشر الهجري = القرن السابع إلى القرن التاسع عشر الميلادي)، خالد يونس الخالدي، مجلة الجامعة الإسلامية (سلسلة الدراسات الإنسانية) المجلد الثالث عشر– العدد الأول، الجامعة الإسلامية ص.ب: ١٠٨ غزة – فلسطين. ٢٠٠٥م.

_ الـزلازل وتخفيف مخاطرهـا، جـلال الدبيـك، كليـة الهندسـة، جامعـة النجـاح، نابلس، فلسـطين. ٢٠٠٩.

_ الـزلازل، حقيقتهـا وآثارهـا، شـاهر جمـال آغـا، سلسـلة عـالم المعرفـة، المجلس الوطـني للثقافـة والفنـون والآداب، العـدد ٢٠٠، الكويـت. ١٩٩٥.

_ الزلازل، كيث لاي، ترجمة أمل الشاذلي، دار الشروق، القاهرة، ٢٠٠٢.

_ سـجل الـزلازل العربـي، أحـداث الـزلازل وأثرهـا في المصـادر العربية،عبـد اللّه يوسـف الغنيـم، ط١، الجمعيـة الجغرافيـة الكويتيـة، الكويـت. ٢٠٠٢.

_ سـيل (٢٠١٨/٤/٢٦) في منطقـة سـفيرة مـن حـي ركـن الديـن، أسـبابه ونتائجـه وسـبل مواجهتـه، غـزوان سـلوم، خنسـاء ملحـم، مجلـة جامعـة دمشـق لـلآداب والعلـوم الإنسـانية، المجلـد ٣٦، العـدد الثانـي. ٢٠٢٠.

_ سـيناريو الكـوارث الطبيعيـة والزلزاليـة وإدارتهـا في منطقـة الشـرق الأوسـط، لـوط بوناطـيرو، سلسـلة محاضـرات الإمـارات ١٨١، مركـز الامـارات للبحـوث والدراسـات الاسـتراتيجية، أبـو ظـبي. ٢٠١٤.

_ الكوارث الطبيعيـة في بـلاد الشـام ومصـر ٤٩١-٩٢٣ هـ = ١٠٩٧-١٥١٧م، محمـد حمـزة محمـد صـالح، رسـالة ماجسـتير، كليـة الآداب، قسـم الآثـار، الجامعـة الإسـلامية، غـزة. ٢٠٠٩.

_ الكوارث الطبيعيـة في بـلاد الشـام، في القـرن السـادس الهجـري الكوارث الطبيعيـة في بـلاد الشـام، الثانـي عشـر الميـلادي، وبعـض أبعادهـا الاقتصاديـة والاجتماعيـة، سـلطان جبر سـلطان، كليـة آداب الرافديـن، جامعـة الموصـل. العـدد ٤٣. ٢٠٠٦.

_ المنظـر الطبيعـي مفهـوم وتطبيـق في الدراسـات التخطيطيـة، ناتاليـا عطفـة، جلـة جامعـة دمشـق للعلـوم الهندسـية المجلـد التاسـع والعشـرون- العـدد الأول- دمشـق. ٢٠١٣.

_ المؤسسـة العامـة للنفـط والثـروة المعدنيـة، المذكـرة الإيضاحيـة لخارطـة دمشـق الجيولوجيـة، وزارة النفـط، دمشـق. ٢٠١٠.

المراجع الأجنبية:

. Evidence for 830 years of seismic quiescence from palaeoseismology, archaeoseismology, and historical seismicity along the Dead Sea Fault in Syria, Earth Planet: Meghraoui, M., Gomez, F., Sbeinati, R., Van der Woerd, J., Mounty, M., Darkal, A. N., Radwan, Y., Layyous, I., Al-Najjar, H., Darawcheh, R., Hijazi, F., Al-Ghazzi, R., and Barazangi, M., Sci. Lett., 210, 352003 .52-.

12,000-Year-Long Record of 10 to 13 Paleoearthquakes on the Yammouˆneh Fault, Levant Fault System: Daeˉron. M, Klinger. Y, Tapponnier. P, Elias. A, Jacques. E and Sursock. A , Lebanon. Bulletin of the Seismological Society of America, Vol. 97, No. 3, pp. 749–771, June 2007, doi: 10.17852007 . 0120060106/.

Damascus, the Oldest City in the World , Masterman: E. W. G , The Biblical World, Vol. 12, No. 2 (Aug., 1898), pp. 7116) 85- pages).1898.

Geophysical risk: earthquakes. Chapter 3 understanding disaster risk: Silva .V, Dolce. M, Danciu. L, Rossetto .T & Weatherill. G;HAZARD RELATED RISK ISSUES - SECTION I. file:///C:/Users/hp/Downloads/Silva_et_al-2017-Geophysicalrisk-earthquakes-EU. 2017.

Holocene faulting and earthquake recurrence along the Serghaya branch of the Dead Sea fault system in Syria and Lebanon ,Gomez. F, Meghraoui. M, Darkal. A. N, Hijazi. F, Mouty. M, Suleiman. Y, Sbeinati. R, Darawcheh. R, Al-Ghazzi. R, Barazangi. M, *Geophysical Journal International*, Volume 153, Issue 3, June, Pages 658–674, https://doi.org/10.1046/j.1365246-X.2003.01933.x.2003.

Notes on earthquake hazard in Lebanon: Elias. A.R, Geology department of the American University of Beirut. 2015.

Preliminary Seismic Micro-Zoning Study for Damascus City by Using Microtremors: Zaineh . H.E, Khalil. A, Nkshbndy. D, Daoud. M, Semman. N, Dakkak. M, Yasmeneh. R, Deeb. R, Elsafady. D & Mahmood. F. National Earthquake Center (NEC), Damascus, Syria Tokyo Institute of Technology (TITech), Tokyo, Japan.2013.

Recent Instrumental Earthquake Activity Along the Damascus Fault (Syria): Abdul-Wahed .M .Kh, Springer Nature Switzerland AG. Part of the Advances in Science, Technology & Innovation book series (ASTI). 2019.

Reconstructing the slip velocities of the 1202 and 1759 CE earthquakes based on faulted archaeological structures at Tell Ateret: Schweppe, S &Hinzen. K-G, Reamer. Sh. K & Marco. Sh, Dead Sea Fault. Journal of Seismology volume 25, pages1021–1042. 2021.

Re-Evaluations of Seismic Hazard of Syria: El Ssayed. H.M, Zaineh. H. E , Dojcinovski. D & Mihailov.V . International Journal of Geosciences, 2012, 3, 847855-. http://dx.doi.org/10.4236/ijg.2012.324085 Published Online September 2012 (http://www.SciRP.org/journal/ijg).

seismic waves and earthquake location. Geological Survey of India, Kayal. J.R, 27, J.L. Nehru Road Road, Kolkata – 700 016.email : jr_kayal@hotmail.com. 2006.

The 1759 Earthquake in the Bekaa Valley: Implications for earthquake hazard assessment in the Eastern Mediterranean Region: Ambraseys. N & Barazangi. M, Journal of Geophysical Research. DOI:10.1029/JB094IB04P04007. 1989.

The historical earthquakes of Syria: an analysis of large and moderate earthquakes from 1365 B.C. to 1900 A.D : Sbeinati. M. R , Darawcheh . R and Mouty .M. ANNALS OF GEOPHYSICS, VOL. 48, N. 3, June 2005..

The recent instrumental seismicity of Syria and its implications: Abdul-Wahed. M .Kh & Asfahani. J, Department of Geology the Atomic Energy Commission of Syria (AECS) P.O. Box 6091 Damascus-Syria. Geofísica internacional. versión impresa ISSN 00167169-. Geofís. Intl vol.57 no.2 Ciudad de México abr./jun. 2018.

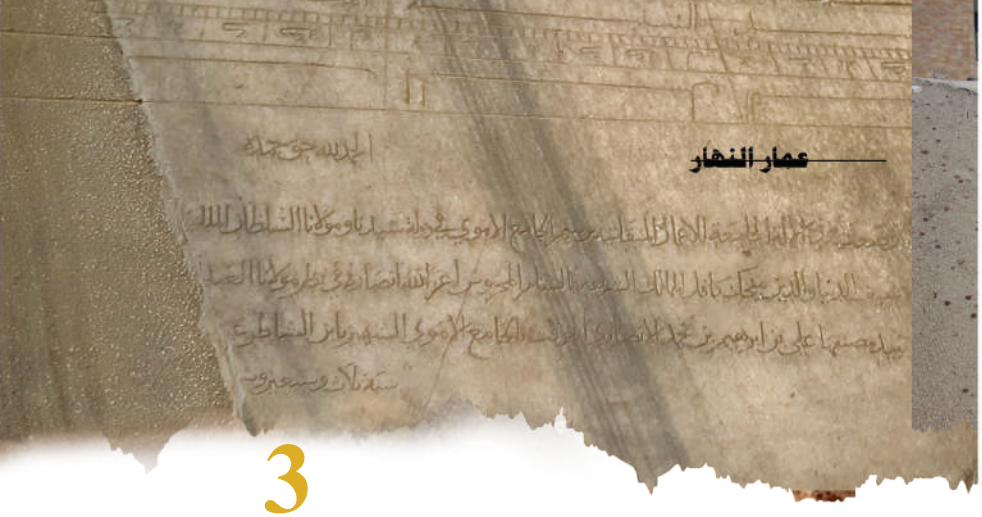

3

4

تـوثيـق

بقلم وتصوير: رئيس التَّحرير

١ــ مزولة (ساعة) ابن الشاطر الدمشقي الأصلية، بتوثيقي وتصويري.
٢ــ صورتي مع مزولة (ساعة) ابن الشاطر الدمشقي.
٣ــ النقش التوثيقي بالغ الأهمية على مزولة ابن الشاطر بتصويري.
٤ــ المزولة (الساعة) المعدلة عن مزولة ابن الشاطر، التي صنعها الشيخ المؤقت محمد الطنطاوي.
٥ــ مكان مزولة الطنطاوي المعدلة في مأذنة العروس في الجامع الأموي.

اكتشاف مزولة (ساعة) ابن الشَّاطر الدِّمشقي

جهدتُ، وعبر أشهر، محاولاً وبكلِّ تصميم، أن أصل إلى مزولة ابن الشَّاطر التي كانت في مئذنة العروس في الجامع الأموي، والمثبَّت بديلاً عنها المزولة التي قام بالتَّعديل عليها الشَّيخ محمد الطَّنطاوي، ولم أصل إلى أيِّ نتيجة، وعلى الرَّغم من أنَّ الأخبار المتواترة على الألسنة تروي أنَّ هذه المزولة قد تمَّ حفظها في المتحف الوطني السُّوري، لكنَّ عدداً من الجُهَّال أكَّدوا أنَّها ليست موجودة فيه، وبالتَّالي شاع بين الناس أنَّ هذه المزولة في حكم المفقود، وهنا أتقدَّم بالشُّكر الكبير لمدير الآثار والمتاحف في سورية الأستاذ نظير عوض، ونائبه الدكتور همام سعد، ومديرة القسم الإسلامي في المتحف الدكتورة نيفين سعد الدين، الذين سهَّلوا لي مهمة البحث في المتحف عن هذه المزولة، حتى استطعت العثور عليها، والحمد لله.

وهي آلة لضبط أوقات الصلاة، سمَّاها ابن الشَّاطر: البسيط، أو مُوقِّت الصَّلاة، وتُعرف أيضًا باسم المزولة الشَّمسيَّة، وكانت موضوعة في مئذنة العروس في الجامع الأموي الكبير حتى ١٢٩٠هـ = ١٨٧٣م، حين حاول إصلاحها الشَّيخ محمد الشَّهير بالطَّنطاوي، الإمام في الهيئة والميقات في دمشق، بعد أن اختلَّ وضعها لمرور السِّنين واختلاف الرِّياح والأمطار عليها، وبينما هو يُحرِّر وضعها انكسرت البلاطة، فشرع بإنشاء مزولة على نمطها حتى أتمَّها، غير أنَّها اختلَّ العمل بها، وهي المزولة المُثبَّتة اليوم في مئذنة العروس في الجامع الأموي.

وقد دُوِّن على أحد جانبي لوح مزولة ابن الشَّاطر النَّص الوثائقي الآتي: «الحمد لله حق حمده .. وُضعت هذه الآلة الجامعة للأعمال الميقاتيَّة برسم الجامع الأموي، في دولة سيِّدنا مولانا السُّلطان الملك (...) سيف الدُّنيا والدِّين منجك، كافل الممالك الشَّريفة بالشَّام المحروسة، أعزَّ الله أنصاره، في نظر مولانا العبد (...) بيد مصنِّفها علي إبراهيم بن محمد الأنصاري، المؤقِّت في الجامع الأموي، الشَّهير بابن الشَّاطر (...) سنة ثلاث وسبعين وسبعمئة».

5

2

1

قواعد النشر وشروطه

ـ أن يكون البحث المقدَّم للمجلة مكتوباً باللغة العربية، وخالياً من الأخطاء النحوية والإملائية والمطبعية، وأن يكون مشفوعاً بملخَّص بالعربية، وآخر بالإنكليزية أو الفرنسية.

– أن يكون موضوع البحث من ضمن اهتمامات المجلة وأغراضها.

ـ أن يكون عدد كلمات البحث بين ٦٠٠٠ و٨٠٠٠ كلمة، وأن يكون مطبوعاً على الحاسوب، ومُرفَقاً بالسيرة الذاتية للباحث.

ـ أن يلتزم الباحث بمنهجية البحث العلمي وخطواته، وبالمناهج والأدوات والوسائل العلمية المعتبرة بحسب مجال بحثه.

ـ أن يتَّسم البحث بالعلمية والأصالة والجدّة والتَّنظيم والتَّرابط، وأن يستوفي شروط التوثيق والتخريج، واستعمال المصادر والمراجع، وفق الأسس العلمية.

ـ ألا يكون البحث جزءاً من رسالة علمية، وألا يكون منشوراً سابقاً، أو مُرسَلاً إلى جهة للنشر.

ـ يتحمل الباحث المسؤولية الكاملة تجاه كل المعلومات والبيانات والحقائق الواردة في بحثه.

– ترتيب البحوث في المجلة يخضع لاعتبارات فنية.

– تُحال البحوث المرسلة إلى المجلة على التقويم، ويُوافَى الباحثُ برسالة تتضمَّن مصير بحثه.

– يتقاضى الباحث تعويضاً مالياً عن بحثه، ويستحقُّ التعويض عند إبلاغه بقبول البحث.

– تُرسل البحوث إلى رئيس التحرير على أحد البُرُد الالكترونية:

publishing@dimashq.cc
dimashq@damascus-foundation.org
ammaralnahar@gmail.com

– يمكن متابعة تفاصيل قواعد التوثيق على موقع مجلة تاريخ دمشق أو موقع مؤسسة تاريخ دمشق:

www.dimashq.cc
www.damascus-foundation.org

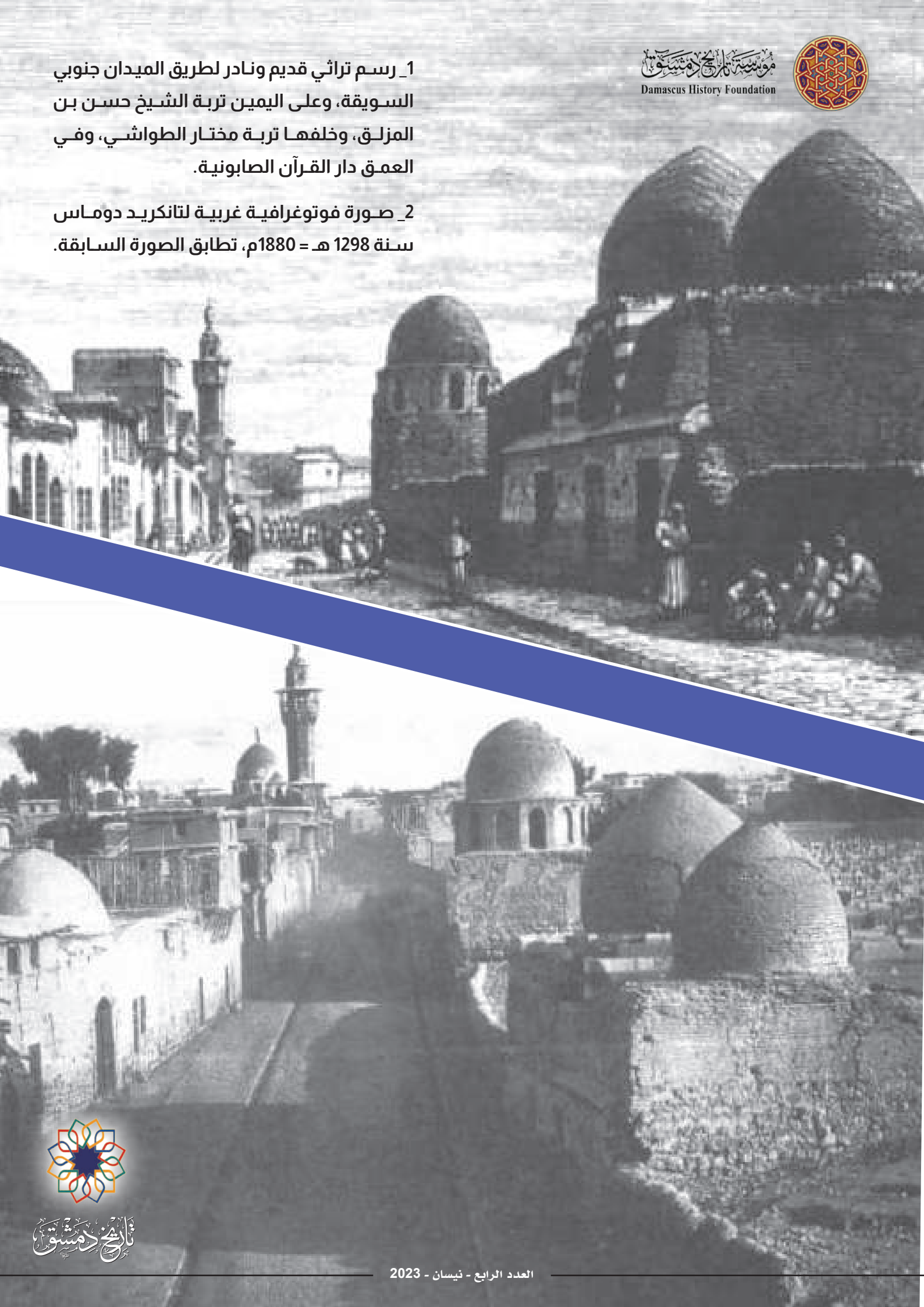

1_ رسم تراثي قديم ونادر لطريق الميدان جنوبي السويقة، وعلى اليمين تربة الشيخ حسن بن المزلق، وخلفها تربة مختار الطواشي، وفي العمق دار القرآن الصابونية.

2_ صورة فوتوغرافية غربية لتانكريد دوماس سنة 1298 هـ = 1880م، تطابق الصورة السابقة.